سكارليت بيمبرنِل

إيما أوركزي

ترجمة منى أحمد باسيف

سكارليت بيمبرنِل

تأليف
إيما أوركزي

ترجمة
منى أحمد باسيف

مراجعة
أحمد سمير درويش

هنـــداوي

سكارليت بيمبرنِل

إيما أوركزي

The Scarlet Pimpernel

Emma Orczy

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣١٣٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٥.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- باريس، سبتمبر ١٧٩٢	٧
٢- «استراحة صيَّاد السمك»	١٥
٣- اللاجئون	٢٥
٤- عصبة سكارليت بيمبرنيل	٣٣
٥- مارجريت	٤١
٦- مُتأنقٌ عام ١٧٩٢	٤٧
٧- البستان السري	٥٧
٨- الوكيل المُعتمَد	٦٣
٩- الاعتداء	٧٥
١٠- في مقصورة الأوبرا	٨٣
١١- حفلة اللورد جرينفل	٩٧
١٢- القصاصة الورقية	١٠٣
١٣- إمَّا ... أو؟	١١١
١٤- تمام السَّاعة الواحدة!	١١٥
١٥- ارتياب!	١٢٣
١٦- ريتشموند	١٢٩
١٧- وداع	١٤٣
١٨- الشعار الغامض	١٥١
١٩- سكارليت بيمبرنيل	١٥٧
٢٠- الصديق	١٦٧

٢١- ترقُّب ١٧٣
٢٢- كاليه ١٨١
٢٣- أمل ١٩١
٢٤- الفخ المميت ١٩٩
٢٥- النَّسر والثعلب ٢٠٧
٢٦- اليهودي ٢١٥
٢٧- تَعَقُّب ٢٢٥
٢٨- كوخ الأب بلانشار ٢٣٣
٢٩- الحصار ٢٤٣
٣٠- المركب الشراعي ٢٤٩
٣١- الهروب ٢٦١

الفصل الأول

باريس، سبتمبر ١٧٩٢

حشدٌ متلاطمٌ، هائجٌ، مهمهمٌ من كائنات تُعَد بشَريَّةً اسمًا فقط؛ لأنَّها لا تبدو للعين والأذن إلا مخلوقاتٍ متوحِّشةً، تتحرَّك بدافعِ عواطفَ دنيئة، وتَعطُّشٍ للانتقام والكراهية. كانت السَّاعة تسبق وقتَ غروب الشَّمس بقليل، والمكان هو الحاجز الغربي، في البقعة ذاتها التي سيقيم عليها طاغيةٌ فخورٌ، بعد عَقدٍ من الزَّمان، نُصبًا خالدًا لمجد الأمَّة، وغروره الشَّخصي.

ظلت المِقصَلة خلال أغلب النَّهار مشغولةً بعملها الشَّنيع؛ كلُّ ما كانت فرنسا تتفاخر به في القرون الماضية، من أسماء عريقة ونسبٍ نبيل، دُفِعَت به فاتورةُ رغبتها في الحرِّية والإخاء. ولم تتوقَّف المذبحة في هذه السَّاعة المتأخِّرة من النَّهار إلَّا لوجود مَناظر أخرى أكثرَ إثارةً ليشهدها النَّاس قبل وقتٍ قليلٍ من الإغلاق الأخير للحواجز بسبب حلول اللَّيل.

ولذا سارع الحشدُ مبتعدًا عن ساحة «لاجريف» واتجَه صوب الحواجز الكثيرة المختلفة ليشهَد هذا المنظر المثير والمدهش.

كان من شأن ذلك أن يُرى كلَّ يوم؛ فأولئك الأرستقراطيُّون كانوا حَمْقى للغاية! بالطبع كانوا جميعهم خائنين للشَّعب، الرجال والنساء وحتى الأطفال، الذين تصادَف أنَّهم من نسل الرِّجال العظماء الذين صنَعوا مجد فرنسا منذ الحملات الصَّليبيَّة؛ أي «نُبلائها» القدامى. لقد اضطهدَ أسلافهم الشَّعب، سحَقوه تحت الكعوب القرمزية لأحذيتهم الأنيقة ذات الأبازيم. والآن أصبح أفراد الشَّعب هم حُكَّام فرنسا، وسحَقوا سادتهم السابقين — ليس تحت كعوب أحذيتهم؛ لأنَّ أغلبهم يمشون حُفاةً هذه الأيَّام — ولكن تحت ثقلٍ أشدَّ فعالية: سِكِّين المِقصَلة.

وهكذا كانت أداة التعذيب البشعة تُودي يوميًّا، وفي كلِّ ساعة، بحياة ضحاياها الكُثُر؛ عجائز وشابَّات وأطفال صِغار، حتَّى مجيء اليوم الذي ستُطالب فيه أخيرًا برأس ملكٍ وملكةٍ شابَّةٍ جميلة.

لكنَّ هذا هو ما كان ينبغي أن يكون، أليس الشَّعب هو من يحكم فرنسا الآن؟ فكلُّ أرستقراطيٍّ كان خائنًا، كما كان أسلافه من قبله؛ إذ ظلَّ الشعب طَوال الأعوام المائتين الماضية يعرَق ويَكدَح ويتضوَّر جوعًا؛ ليُبقيَ القصر الحاكم الشَّهوانيَّ في إسرافٍ مترَف، والآن صار لِزامًا على أحفاد أولئك الأرستقراطيين الذين ساعدوا في جَعْل تلك القصور متألقةً لامعة أن يختبئوا للحفاظ على حياتهم؛ أنْ يهربوا إنْ أرادوا أن يتجنَّبوا الانتقامَ المتأخِّرَ من الشَّعبِ.

وبالفعلِ حاوَلوا الاختباء، وحاوَلوا الهرب؛ وقد كان ذلك بالتحديد هو الجزءَ المسلِّيَ في المسألة كلِّها. ففي عصرِ كلِّ يوم قبل أن تُغلَق الحواجز وتخرج عربات السُّوق في موكبٍ عبر الحواجز المتعدِّدة، سعى بعض الأرستقراطيين الحمقى جاهدين إلى التملُّص من قبضة لجنة السَّلامة العامَّة. إذ كانوا يُحاولون، متنكرين بطرق مختلفة، ومستخدمين ذرائع متنوِّعة، أن يتسلَّلوا عبر الحواجز التي كانت تحت حراسةٍ مُشددة من جنودٍ من مُواطني الجمهوريَّة. فكان الرجال يرتدون ملابسَ نسائية، وكانت النساء تتلبَّسُ ثيابًا رجاليَّة، وكان الأطفال يتنكَّرون بأسمال الشَّحَّاذين؛ هكذا كان البعض من فئاتٍ شتَّى: كونتات وماركيزات وحتَّى دوقات سابقين، يريدون الهرب من فرنسا والوصولَ إلى إنجلترا أو بلدٍ آخَر لعين مثله، وأن يُحاولوا هناك استثارةَ مشاعرَ أجنبيَّةٍ ضدَّ الثَّورة العظيمة، أو جمع جيشٍ من أجل تحرير السُّجناء البائسين في «المعبد»، الذين كانوا يومًا ما يُطلقون على أنفسهم سادةَ فرنسا.

لكنهم كانوا يقَعون في قبضة حُرَّاس الحواجز في جميع الحالات تقريبًا. وتجدر الإشارة هنا بالأخص إلى الرقيب بيبو الذي كان يحرس البوابة الغربية؛ إذ كان يمتلك أنفًا عجيبًا يُميِّز رائحة الأرستقراطيِّين حتى وإن كان تَنكُّرهم مُتقَنًا للغاية. وحينها، بالطَّبع، كان المرحُ يبدأ. فبيبو كان ينظر إلى فريسته كما ينظر قِطٌّ إلى فأر، ويتلاعب به، لمدَّة ربع ساعةٍ كاملٍ في بعض الأحيان، متظاهرًا بأنه منخدع بالتَّنكُّر وبالشَّعر المستعار وبعض مستلزمات تغيير الشكل المسرحية التي تُخفي هُويَّة النَّبيل أو الماركيز أو الكونت السَّابق.

أوه! كان لدى بيبو حسٌّ متوقِّدٌ بالفكاهة، وكانت رؤيته وهو يُمسك بأحد الأرستقراطيين متلبِّسًا بمحاولة الهروب من انتقام الشَّعب تستحقُّ التسكُّع عند البوابة الغربية.

فأحيانًا كان بيبو يترك فريسته يخرج من البوَّابات بالفعل، سامحًا له بأن يظنَّ لدقيقتين على الأقلِّ أنَّه قد هرب فعلًا من باريس، وأنه ربَّما قد يتمكَّن من الوصول إلى

ساحل إنجلترا بأمان، لكنَّ بيبو كان يترك ذلك البائس التعيسَ الحظِّ يمشي نحو عشَرة أمتارٍ باتِّجاه الرِّيف المفتوح، ثمَّ يرسل رجُلَين من خلفه ويُعيده مُجرَّدًا من تنكُّره.

أوه! كان ذلك مضحكًا جدًّا؛ لأنَّ ذلك الهارب يتَّضح في كثيرٍ من الأحيان أنه امرأة، ماركيزةٌ ما متغطرسةٌ، تبدو مضحِكةً للغاية عندما تجد نفسها في قبضة بيبو في نهاية المطاف، وتعرف أنَّها ستخضع لمحاكمةٍ صورية في اليوم التَّالي، ثم ستُرمى في حضن «السيِّدة مقصلة».

لا عجب في أنَّ في عصر يومٍ جميلٍ كهذا من أيام شهر سبتمبر، كان الحشدُ حول بوَّابة بيبو متشوِّقًا ومتحمِّسًا. فالتعطش للدماء يزداد كلما رُوي، ولا يرتوي؛ فالحشد كان قد رأى مائةَ رأسِ نبيلٍ تسقط تحت المقصلة اليوم، وأراد أن يَضمن أنه سيرى سقوطَ مائةٍ أخرى في الغد.

كان بيبو يجلس على برميلٍ فارغٍ مقلوبٍ بالقرب من بوابة الحاجز، وسَرِيَّةٌ صغيرة من المواطنين المجنَّدين تحت إمْرته. كان العملُ محتدمًا ومثيرًا مؤخَّرًا. فقد أصبح أولئك الأرستقراطيُّون الملاعينُ مذعورين، وكانوا يُحاولون بأقصى ما بوسعهم التَّسلُّل خارجَ باريس: اعتُبِر الرجال والنساء والأطفال، الذين عَكَف أسلافُهم حتى في العصور السَّحيقة على خدمة أولئك البوربونيِّين الخوَنة، هُم أنفسُهم خوَنةً جميعًا وغِذاءً شرعيًّا للمقصلة. كان بيبو يتلذَّذ كلَّ يومٍ بكشفِ تنكُّر الهاربين المناصرين للنظام الملكي، وإعادتهم لِيَمثُلوا للمحاكمة أمام لجنة السَّلامة العامَّة، التي يترأَّسُها ذاك الوطنيُّ المخلص، المواطن فوكييه-تِنفيل.

وقد أشاد كلٌّ من روبسبيير ودانتون بهمَّةِ بيبو، وكان بيبو فخورًا بأنَّه قد أرسلَ بمبادرة شخصية منه خَمسين أرستقراطيًّا على الأقلِّ إلى المقصلة.

لكن اليوم، حصل جميع الرُّقباء المعيَّنين على الحواجز المتعدِّدة على أوامرَ خاصَّة. فمؤخَّرًا نجح عددٌ كبيرٌ جدًّا من الأرستقراطيين في الهروب من فرنسا والوصولِ إلى إنجلترا بأمان. انتشرَت شائعاتٌ غريبة حول عمليَّات الهروب هذه؛ فقد أصبحَت تتكرَّر كثيرًا وبجُرأةٍ استثنائية، وكانت عقول النَّاس مهتاجة هياجًا غريبًا بشأن هذا الوضع برُمَّته. وكان الرَّقيب جروسبيير قد أُعدِمَ بالمقصلة؛ لأنَّه سمَح لعائلةٍ كاملةٍ من الأرستقراطيين بالانسلال عبر البوَّابة الشَّماليَّة أمام عينَيه.

وقيل إنَّ المسئول عن عمليَّات الهرب هذه عصبةٌ من الإنجليز، بدا أنَّ جُرأتهم بلا نظير، وأقدموا، لمجرد رغبةٍ في التدخُّل فيما لا يَعنيهم، على قضاءِ أوقات فراغهم في انتشال الضَّحايا الشَّرعيِّين المقدر لهم أن يلقوا حتفهم تحت «السيِّدة مقصلة». سرعان ما تزايدَت هذه الشَّائعات إلى حدٍّ هائل؛ فلم يكن يوجد شكٌّ في وجود هذه العصبة المتطفِّلة من الإنجليز، وعلاوة على ذلك، بدا أنَّ قائدهم رجلٌ يمتلك جَسارة وجُرأة تُضاهيان ما يُحكى في الروايات الخرافية. وذاعت قصصٌ غريبة عن الكيفية التي يختفي بها فجأةً هو وأولئك الأرستقراطيُّون الذين يُنقذهم عند وصولهم إلى الحواجز، وهروبهم من البوَّابات بقوَّةٍ خارقةٍ للطبيعة تمامًا.

لم يرَ أحدٌ أولئكَ الإنجليزَ الغامضين، أمَّا قائدهم، فلم يكن يُذكَر، إلا بقُشَعْريرة تطيُّر تَنُم عن إيمان بالخرافات. كان من شأن المواطن فوكييه-تنفيل أن يتلقَّى قُصاصة ورقية من مصدرٍ مجهولٍ خلال اليوم؛ تارةً يجدها في جيب معطفه، وتارةً أخرى يُسلِّمُها إليه شخصٌ ما في الحشد وهو في طريقه لحضور جلسةٍ للجنة السَّلامة العامَّة. ودائمًا ما كانت الورقة تحوي رسالةً مختصرةً عن أنَّ عُصبة الإنجليز المتطفِّلين يُمارسون نشاطهم، ودائمًا ما كانت موقَّعةً بشعارٍ مرسومٍ بالأحمر؛ زهرة قِرْمِزيَّة صغيرة نَجمِية الشكل، نُسمِّيها في إنجلترا سكارليت بيمبرنيل. وفي غضون بضع ساعاتٍ من استلام هذا الإشعار الوقح، كان من شأن مُواطني لجنة السَّلامة العامَّة أن يسمعوا أنَّ أعدادًا كثيرة جدًّا من الملَكيِّين والأرستقراطيِّين قد نجحوا في الوصول إلى الشَّاطئ، وأنَّهم في طريقهم إلى إنجلترا والأمان.

كان قد ضُوعِف عدد الحُرَّاس على البوَّابات، وهُدِّد الرُّقباءُ المسئولون عن القيادة بالموت، بينما عُرِضَت مكافآتٌ سخيَّةٌ لمن يقبض على هؤلاء الإنجليز الجريئين الوقحين. وسرى تعهد بأن الرجل الذي سيقبض على صاحب شعار سكارليت بيمبرنيل الغامضِ المراوغ سيحصل على خمسة آلاف فرنك.

شعر الجميع بأنَّ بيبو سيكون ذاك الرَّجل، وترك بيبو هذا الاعتقادَ يتعمَّقُ في عقول الجميع؛ ولذا كان الناس يأتون يومًا بعد يوم لرؤيتِه على البوَّابة الغربيَّة، ليكونوا حاضرينَ عندما يضعُ يدَيه على أيِّ أرستقراطي هارب؛ لعلَّه يكونُ برفقة ذاك الإنجليزي الغامض.

قال لعَرِيفِه المَوثوق: «أف! كان المواطن جروسبيير أحمق! ليتني كنتُ أنا مَن يحرس تلك البوَّابة الشَّمالية الأسبوعَ الماضيَ ...»

بصق المواطن بيبو على الأرض تعبيرًا عن ازدرائه لغباءِ رفيقه.

سأله العَريف: «كيف حدث ذلك أيُّها المواطن؟»

بدأ بيبو يقول بتفاخرٍ بينما اقترب الحشدُ من حولِه مستمعًا بصبرٍ نافدٍ لِروايته: «كان جروسبيير عند البوَّابة يحرسها بعناية. جميعنا سمعَ عن هذا الإنجليزي المتطفِّل، هذا اللعين الذي يُسمَّى سكارليت بيمبرنيل. أقسم أنه لن يخرج من بوَّابتي! لن يخرج إلا لو كان الشَّيطان نفسه. لكنَّ جروسبيير كان أحمق. كانت عربات السُّوق تخرج من البوَّابة، وإحداها كانت مُحمَّلةً بالبراميل، وكان يقودها رجلٌ عجوزٌ بجانبه صبي. كان جروسبيير ثملًا قليلًا، لكنَّه ظنَّ نفسه ذكيًّا جدًّا؛ إذ نظر داخل البراميل — على الأقل أغلبها — ورأى أنَّها فارغة وترك العربة تمرُّ.»

انتشرَت همهمةٌ حانقةٌ مزدريةٌ بين الصعاليك البؤساء ذَوي الأسمال الذين كانوا محتشدين حول المواطن بيبو.

أكمل الرَّقيب: «بعدها بنصف الساعة، جاء أحد قادة الحرس ومعه فرقةٌ من نحوِ اثنَي عشَر جنديًّا. وسأل جروسبيير لاهثًا: «هل مرَّت عربةٌ من هنا؟» فأجاب جروسبيير: «نعم، منذ أقلَّ من نصف الساعة.» فصاح الكابتن بغضب: «وتركتَهم يهربون. ستُعدَم بالمقصلة عقابًا على هذا أيُّها المواطن الرَّقيب! فتلك العربة كان يختبئ فيها الدُّوق السَّابق تشاليس وكل عائلته!»

دوى صوت الرَّقيب جروسبيير في رعب: «ماذا!» فقال قائد الحرس: «نعم! ولم يكن السَّائق سوى ذاك الإنجليزيِّ الملعون، سكارليت بيمبرنيل».»

قُوبِلَت الحكايةُ بسيلٍ من اللعنات. لقد دفع المواطن جروسبيير ثمنَ خطئه الفادح تحت سكِّين المقصلة، ولكن يا له من أحمق! أوه يا له من أحمق!

كان بيبو مستغرقًا في الضَّحِك على حكايته، لدرجة أنَّه لم يستطع مُواصَلةَ السَّرد إلا بعد مُضيِّ بعض الوقت.

ثمَّ قال بعد وهلة: «صاح القائد: «لِنلحَقْ بهم يا رجالي، تذكَّروا الجائزة، لنلحقْ بهم، لا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا!» ثم اندفع عبر البوَّابة متبُوعًا بدُزَينتِه من الجنود.»

صاح الحشد متحمِّسًا: «ولكن كان الأوان قد فات!»

«لم يُمسكوا بهم قط!»

«اللَّعنة على حماقة جروسبيير!»

«استحقَّ مصيره!»

«أظن أنه لم يُفتش تلك البراميلَ كما ينبغي!»

ولكن بدا أنَّ المواطن بيبو كان مستمتعًا للغاية بهذه التعليقات المنفعلة الطريفة؛ فقد ضحك حتى آلمه جانباه وسالت الدُّموع على خدَّيه.

قال أخيرًا: «لا، لا! أولئك الأرستقراطيُّون لم يكونوا في العربة، والسَّائق لم يكن سكارليت بيمبرنيل!»

«ماذا؟»

«لا! كان قائد الحرس هو ذاك الإنجليزيَّ اللَّعين متنكرًا، وكان جميع جنوده من الأرستقراطيين!»

لم يقُل الحشد شيئًا هذه المرَّة؛ فمن المؤكد أن القصة صار لها طابَع قوةٍ خارقة للطبيعة، ومع أنَّ الجمهوريَّة كانت قد ألغت فكرة الإيمان بوجود إله، لم تنجح في نزعِ الخوفِ من القُوى الخارقة للطبيعة من قلوب النَّاس. بدا من المؤكَّد حقًّا أنَّ ذاك الإنجليزيَّ هو الشَّيطان ذاتُه.

كانت الشَّمس تهبط جهة الغرب، وجهَّز بيبو نفسَه لإغلاق البوَّابات.

قال: «فلتتقدَّم العربات.»

واصطفَّ ما يُقارب الدُّزينة من العربات المغطَّاة في طابورٍ استعدادًا لمغادرة البلدة؛ بغرض إحضار المنتجات من الرِّيف القريب من أجلِ بيعها في السُّوق في الصَّباح التَّالي. كان أغلب العربات مألوفًا جدًّا لبيبو؛ لأنها كانت تمرُّ عبر بوَّابته مرَّتَين كلَّ يومٍ ذَهابًا من البلدة وإيابًا إليها. تحدَّثَ مع واحدٍ أو اثنين من سائقي تلك العربات — الذين كان أغلبُهم من النِّساء — وكان يبذل قصارى جهده في تفتيش العربات من الدَّاخل.

كان يقول: «لا يُمكن أن يكون المرء متيقنًا أبدًا، ولن أنخدعَ مثل ذاك الأحمق جروسبيير.»

كانت النِّساء اللاتي يَقُدن العربات يُمْضين النَّهار عادةً في ساحة «لاجريف» أسفلَ منصَّة المقصلة، يُمارسن الحِياكة ويُثرثرن بالشائعات، بينما يُشاهدن وصول صفوف عربات الإعدام بالضَّحايا الذين كان «عهد الإرهاب» يحصدهم كلَّ يوم. كان من الممتع جدًّا رؤيةُ وصولِ الأرستقراطيين إلى حضرة السيِّدة مقصلة، وكان الناس يتزاحَمون بشدة على الأماكن القريبة من المنصة لإيجاد مكانٍ لهم هناك. كان بيبو منهمكًا في أداء عمله في السَّاحة خلال النَّهار. وتعرَّف على أغلب العجائز الشَّمْطاوات، أو «الحائكات»، كما كان يُطلق عليهن؛ لأنهن كُنَّ يقعدن هناك ويُمارسن الحياكة، بينما كانت الرُّءوس تتساقط واحدًا تلو الآخر أسفل السِّكين، وكُنَّ هن أنفسُهن ملطَّخاتٍ تمامًا بدماء أولئك الأرستقراطيِّين الملاعين.

قال بيبو لأحد أولئك الشَّمطاوات الفظيعات: «هاي! يا أمي! ماذا لديكِ هناك؟»

كان قد رآها في وقتٍ سابق من هذا النَّهار، بينما كانت تُمارس الحياكة واضعةً سَوط عربتها بالقرب منها. وكانت في تلك اللحظة قد ربَطَت بمقبض السوط صفًّا من خصلات شعرٍ مجعَّدة من كلِّ الألوان، من الذَّهبي إلى الفِضِّي، ومن الفاتح إلى الدَّاكن، وكانت تُداعبها بأصابعها الهزيلة الطويلة وهي تضحك لبيبو.

قالت بضحكةٍ حادَّة: «لقد صادقتُ حبيب «السيِّدة مقصلة»، وقطع هذه لأجلي من الرُّءوس وهي تتدحرج للأسفل. وعَدني بالمزيد في الغد، لكنَّني لا أعلم إن كنت سأحضر في مكاني المعتاد.»

«آه! ولماذا يا أمِّي؟» هكذا سألها بيبو، الذي، مع أنَّه كان جنديًّا صُلبًا جامدَ القلب، لم يستطع منْعَ نفسِه من الارتجاف بسبب مظهر هذه المرأة المُقرف البغيض وغنيمتها التذكارية البشعة على مقبض السَّوط.

قالت وهي تُشير إشارةً مفاجئة حادَّة بإبهامها إلى داخل العربة: «أُصيب حفيدي بالجدري، البعض يقول إنَّه الوباء! إن كان كذلك، فلن يُسمح لي بدخول باريس غدًا.» حالما ذكرَت المرأة كلمةَ الجدري، تراجع بيبو خطوةً بسرعة، وعندما تحدَّثَت الشمطاء عن الوباء، تراجع بعيدًا عنها بأسرعِ ما أمكنه.

تمتم قائلًا: «اللعنة عليكِ!»، بينما تجنَّب الحشدُ كلُّه العربة، مبتعدًا بسرعة، تاركًا إياها تقف وحيدةً وسط الساحة.

ضحكَت الشَّمطاء العجوز.

وقالت: «اللَّعنة عليك أيُّها المواطن الجبان. أف! يا لك من رجلٍ تخاف المرض.»

«سحقًا! الوباء!»

كان الجميع مذهولين وصامتين، وامتلأت نُفوسهم بالرُّعب من الوباء البغيض، الشَّيء الوحيد الذي كان لا يزال قادرًا على بثِّ الرُّعب والقرف في هذه الكائنات المتوحِّشة القاسية.

صاح بيبو بصوتٍ أجش: «اخْرُجي من هُنا أنتِ وفرخكِ الموبوء بالطَّاعون!»

وبضحكةٍ حادَّة أخرى ودعابةٍ بذيئة، جلَدَت العجوز الشَّمطاء فرَسَها العجفاء، وقادت عربتَها خارجةً بها من البوَّابة.

أفسدَت الحادثةُ فترة ما بعد الظهر. كان النَّاس خائفين من هاتَين اللَّعنتَين الفظيعتَين، المرضَين اللذين لا يُداويهما شيء، واللذَين يُنبئان المرءَ بأنه سيلقى ميتةً فظيعة وحيدًا. تجوَّلوا حول البوَّابات صامتين متجهِّمين بعضَ الوقت، يُحدِّق بعضُهم إلى بعضٍ بريبة، مُتجنِّبًا بعضُهم بعضًا كما لو كانوا يفعلون ذلك بالغريزة؛ خشيةَ أن يكون الطَّاعون

قد تسرَّب بينهم بالفعل. وسرعان ما ظهر أحدُ قادة الحرس فجأةً، كما حدَث في حالة جروسبيير. لكنَّه كان معروفًا لبيبو ولم يكن ثمة خوف من أن يتَّضح لاحقًا أنَّه رجلٌ إنجليزيٌّ ماكرٌ متنكِّر.

صاح لاهثًا، حتى قبل أن يصل إلى البوَّابات: «عربة ...»

سأل بيبو بحدَّة: «أيُّ عرَبة؟»

«تقودها عجوزٌ شمطاء ... عربة مغطَّاة ...»

«كان يوجد دُزَينة منها ...»

«عجوزٌ شمطاء قالت إنَّ حفيدها مصابٌ بالطاعون؟»

«أجل ...»

«تركتَهم يذهبون؟»

قال بيبو وقد شحبَت وجنتاه الأرجوانيتان فجأةً من الخوف: «اللعنة!»

«كانت العربة تحوي كونتيسة تورناي السَّابقة وابنها وابنتها، جميعهم خوَنة ومحكوم عليهم بالإعدام.»

تمتم بيبو بينما سرَتْ في عموده الفقريِّ قُشَعريرةٌ متطيرة: «والسائقة؟»

قال الكابتن: «يا للسَّماء، يُخشى من أنَّها كانت ذاك الإنجليزيَّ الملعون ذاته؛ سكارليت بيمبرنيل.»

الفصل الثاني

«استراحة صيَّاد السمك»

كانت سالي مشغولةً جدًّا في المطبخ؛ فالقُدور والمقالي كانت متراصَّةً في صفوفٍ على الموقد الضَّخم، وكان قِدْر الحساء الضَّخمُ موضوعًا عند إحدى الزوايا، فيما كان سيخ اللَّحم يدور بتأنٍّ بطيئًا، مقدِّمًا كلَّ جانبٍ من لحم الخاصرة البقريِّ الممتاز لوهج النَّار بالتَّناوب. وكانت خادِمتا المطبخ الصغيرتان تُهرَعان في الأرجاء متلهِّفتَين للمساعدة، وهما تلهثان من الحر، وكانت أكمامُهما القُطنيَّة مطويَّةً جيدًا فوق المرافق، فيما كانتا تضحكان على نِكاتٍ سرِّية من تأليفهما كلَّما أدارت الآنسة سالي ظهرَها لحظة. وظلَّت جمايما العجوز، التي كانت متبلدة الحس وصُلبة الجسد، منهمِكةً في تذمُّرٍ طويلٍ خافتٍ وهي تُقلِّب قِدْر الحساء بتروٍّ منهجيٍّ فوق النَّار.

«يا سالي!» جاء هذا النداءُ مبتهجًا، وإنْ لم يكن بنبرةٍ رقيقةٍ، من غرفة القهوة المجاورة.

فصاحت سالي متعجبةً بضحكةٍ وَدودة: «بارِكْ روحي يا رب! تُرَى ما الذي يريدونه الآن!»

قالت جمايما متذمِّرة: «جِعَة بالطَّبع، لا تتوقَّعين أنَّ جيمي بيتكين سيكتفي بقدحٍ واحد، أليس كذلك؟»

وقالت مارثا، إحدى خادمتَي المطبخ الصَّغيرتَين مبتسمةً: «كذلك السيِّد آري، بدا عطشانَ جدًّا على غير العادة». ولمَعت عيناها السوداوان الخَرَزيَّتان حالما الْتقَتا بعينَي رفيقتها، وانخرَطَت كِلتاهما في موجةِ قهقهةٍ قصيرة مكبوتة.

بدَت سالي غاضبةً ومنزعجة لحظة، وحَكَّت يدَيها بوَركَيها الرَّشيقتَين مُمعِنةً في التفكير؛ إذ كان واضحًا أن كفَّيها تتشوَّقان لصفع وجنتَي مارثا الورديَّتَين، لكنَّ سماحتها

الودودة المتأصِّلة سادَت في النهاية، فاكتفت بضمِّ شفتَيها وهزِّ كتفيها ووجَّهَت انتباهها إلى البطاطس المقليَّة.

«أيا سالي! هيه يا سالي!»

كانت تلك الصيحات المناديةُ على ابنة المضيف، ذاتِ القوام الممشوق المستدير والنهدَين المكتنزَين، مصحوبةً بجوقةٍ من أصوات الأقداح القصديريَّة التي كانت تُضرَب بنفادِ صبرٍ على طاولات خشب البلُّوط في غرفة القهوة.

صاح صوتٌ أكثرُ إصرارًا: «سالي! هل ستُمضين اللَّيلة كلَّها في تحضير تلك الجِعة؟»

تمتمَت سالي قائلة: «أظن حقًّا أنَّ أبي ربما سيأخذ الجِعَة إليهم؛ فهو يعرف أننا مشغولات جدًّا هنا.» بينما أخذت جمايما إبريقَين مُكلَّلَين بالرغوة من الرفِّ، ببرودٍ ودون تعليق، وبدأت تملأ عددًا من الأقداح القصديرية بالجعَة المُخمَّرة منزليًّا التي كانت «استراحةُ صيَّاد السمك» تشتهر بها منذ عهد الملك تشارلز.

تذمَّرَت جمايما، قائلةً همسًا في نفسها: «والدكِ مشغولٌ جدًّا بمناقشة الشئون السياسية مع السيِّد هيمبسيد، لدرجة أنه لن يَشغل بالَه بك وبالمطبخ.»

كانت سالي قد ذهبَت إلى المرآة الصَّغيرة التي كانت معلَّقةً في أحد أركان المطبخ، وكانت تُسَوِّي شعرها متعجِّلة، وتضبط قبَّعتَها المزركشة بأنسبِ وضعيةٍ على خُصل شعرها الدَّاكن المجعَّد، ثم تناولَت أقداح الجِعَة من مَقابضها، حاملةً ثلاثةً في كلِّ يدٍ من يدَيها البُنِّيتَين القويَّتين، وأخذتها إلى غرفة القهوة وهي تضحك وتتذمَّر وتحمرُّ خجلًا.

وبالطبع لم يظهر هناك، في غرفة القهوة، أيُّ علامةٍ للاستعجال والنشاط اللذَين كانا يُبقِيان أربعَ نساءٍ مشغولاتٍ في المطبخ المتوهِّج في الخلف.

أصبحَت غرفةُ قهوة «استراحة صيَّاد السمك» مَعْلَمًا الآن في بداية القرن العشرين. وصحيحٌ أنها في نهاية القرن الثامنَ عشر، وبالتحديد في سنة ١٧٩٢ الميلادية، لم تكن قد اكتسَبَت السُّمعة السيئة والأهمِّية اللتين أضْفَتهما عليها مائة عامٍ أخرى وصرعة العصر منذ ذلك الحين. لكنها كانت مكانًا قديمًا، حتى في ذاك الوقت؛ لأنَّ دعامات السَّقف المائلةَ والعوارض المصنوعة من خشب البلوط كانت مسودَّةً بالفعل من شدةِ القِدَم، مثلها مثل المقاعد المكسوَّة بالألواح الخشبية ذاتِ الظُّهور المرتفعة، والطَّاولات الطويلة المصقولة بينها، التي كان سطحها يحمل أنماطًا رائعةً من حلقاتٍ ذات أحجام عديدة مختلفة ترَكَتها فوقها أقداحٌ قصديرية لا تُعَدُّ ولا تُحصى. وكان عند النافذة العالية ذات القضبان

الرصاصية صفٌّ من أوعية زهور الجيرانيوم القرمزية وزهور العائق الزَّرقاء أعطى بارقةً من اللون وسط الخلفية المعتمة المتجسدة في خشب البلُّوط.

كان واضحًا بالطبع لأيِّ شخصٍ يرى السيِّد جيليباند، مالك «استراحة صيَّاد السمك» في دوفر، أنه رجل موسِر. فالقصدير الموجود على الخزائن العتيقة الممتازة، والنُّحاسُ الذي يعلو المدفأة الضَّخمة كانا يلمعان كالذَّهب والفِضَّة، والأرضية المُبلَّطة بالبلاط الأحمر كانت ساطعةً كزهور الجيرانيوم الموضوعة على رفِّ النَّافذة؛ مما يعني أنَّ خُدَّامه كانوا أكْفَاء وكثيرين، وأنَّ الزبائن يتوافدون باستمرار، وأنهم من مَرتبةٍ معيَّنة استلزمَت الحفاظ على مستوًى عالٍ من الأناقة والتَّنظيم في غرفة القهوة.

بينما دخلَت سالي، مُبديةً ضحكةً خلال قَسَماتها العابسة، وصفًّا من الأسنان البيضاء المتلألئة، استُقبِلَت بصيحاتٍ وتصفيقٍ جَماعي.

«عجبًا، ها هي سالي!» «أيا سالي!» «مَرْحى للجميلة سالي!»

تمتم جيمي بيتكين قائلًا وهو يمسح شفتَيه شديدتَي الجفاف بظهرِ يده: «ظننتُ بأنَّكِ أُصبتِ بالصَّمَم في مطبخكِ ذاك.»

قالت سالي ضاحكةً وهي تضع الأقداح المملوءةَ حديثًا على الطَّاولات: «حسنًا! حسنًا! عجبًا! يا له من استعجالٍ شديد! هل جَدَّتُك تحتضر وتريد الذَّهاب لرؤية المسكينة قبل رحيلها! لم أرَ استعجالًا شديدًا كهذا من قبل.»

استُقبِل هذا التعليق الساخر الطريف بضَحِك مرح جَماعي، وظلَّت رفقة الحاضرين تستخرج منه نكاتٍ عديدةً وقتًا طويلًا بعضَ الشيء. بدَت سالي الآن أقلَّ تعجُّلًا للعودة إلى قُدورها ومقاليها. إذ استحوذ شابٌّ ذو شعرٍ أشقر مجعَّدٍ وعينَين زرقاوين متحمستَين على جُلِّ انتباهها وكلِّ وقتها بينما كانت النِّكاتُ الكثيرة عن جَدَّة جيمي بيتكين الخياليَّة تنتقلُ من فمٍ إلى فمٍ، مصحوبةً بنفخاتٍ مُحمَّلة بدُخَان التَّبغ اللَّاذع الخانق.

كان المضيف نفسه، السيد جيليباند الفاضل، واقفًا، مواجهًا للمِدْفأة، مُباعدًا بين ساقَيه وواضعًا غليونًا فخَّاريًّا طويلًا في فمه، وكان يملك «استراحة صيَّاد السمك» إرثًا عن أبيه من قبله، وعن جدِّه أيضًا وعن والد جده كذلك. ولأنَّ السيد جيليباند كان بدينَ البِنْية، ومرِحَ المحيا، وأصلعَ الرأس قليلًا؛ كان نموذجًا لشخصية «جون بُل» الريفيَّة في تلك الأيام، الأيام التي بلغ فيها انطواؤنا المتحيِّزُ ذروته، والتي كان فيها الرجل الإنجليزيُّ،

سواءٌ أكان لوردًا أم خادمًا أم فلاحًا، يرى قارة أوروبا وكرًا للفساد الأخلاقيِّ، وبقيَّة العالم أرضًا غير مستغَلَّةٍ يسكنها المتوحِّشون وأكَلَةُ لحوم البشر.

كان المضيف الفاضل واقفًا هناك، ببُنيانه الثابت الصُّلب، مدخِّنًا غليونه الطَّويل، وغيرَ مُبالٍ بأيِّ أحد في البيت، ومحتقرًا كلَّ من هم خارجه. كان يرتدي الثيابَ النموذجية التي كان يتميز بها كلُّ مالكِ نُزُلٍ محترم آنذاك؛ إذ كان يرتدي الصِّدارَ القرمزيَّ، ذا الأزرار النحاسية اللامعة، وبنطالًا قصيرًا ذا نسيجٍ مضلَّع، وجواربَ صوفيةً رماديَّة، وحذاءً أنيقًا ذا أبازيم؛ وبينما كانت سالي الجميلةُ اليتيمة الأم تحتاج إلى أربعةِ أزواجٍ من الأيدي البنِّية لأداء كل العمل الواقع على كتفَيها المتناسقتَين، كان جيلييباند الفاضلُ يُناقش شئون الأمم مع ضيوفه المتميزين للغاية.

في الواقع، كانت غرفة القهوة، المضاءةُ بمِصباحَين ملمَّعَين جيدًا ومتدلِّيَين من السقف ذي الدعامات المائلة، تبدو مبهجةً ومريحة للغاية. ومن خلال سُحب التَّبغ الكثيفة التي كانت تطفو في أرجاء كلِّ ركن، بدَتْ وجوهُ زبائن السيِّد جيلييباند محمرَّةً ومبهجة، وبدا أنهم متصالحون مع بعضهم ومضيفهم والعالم أجمع؛ إذ تصاعَدَت قهقهاتٌ عالية من كلِّ ركن مُصاحبة لمحادثةٍ مُمتعة، إن لم تكن فكرية جدًّا؛ بينما كانت قهقهاتُ سالي المتكرِّرة شاهدًا على حُسن استغلال السَّيد هاري ويت للوقت القصير الذي بدا أنَّها كانت تميل إلى تخصيصه له.

كان أغلبُ مَن يتردَّدون على غرفة قهوة السيِّد جيلييباند صيَّادي سمك، لكنَّ صيَّادي السمك معروفون بأنَّهم أشخاصٌ شديدو الظمَأ؛ فالملح الذي يستنشقونه وهُم في البحر، يُسبب جفافَ حناجرهم وهُم على البر. لكنَّ «استراحة صيَّاد السمك» كانت أكثرَ من مجرد مُلتقًى لهؤلاء القوم المتواضعين. فالعربات المتجهةُ إلى لندن ودوفر كانت تنطلق من النُّزل يوميًّا، والمسافرون الذين جاءوا عبر القنال، وأولئك الذين بدَءوا «الرِّحلة الكُبرى»، جميعهم أصبَحوا يعرفون السيِّد جيلييباند ونبيذَه الفرنسيَّ وجِعَته المخمَّرة منزليًّا.

كان الوقت آنَذاك قريبًا من نهاية سبتمبر ١٧٩٢، وكان الطقس الذي ظل مشرقًا وحارًّا طوال الشهر قد تبدد فجأة؛ فعلى مرِّ اليومَين المنصرمين، غمَرَت سُيولٌ من الأمطار جنوبَ إنجلترا، باذلةً كلَّ ما بوُسعها لتدمير آخِر فرص التُّفاح والكُمَّثرى والبرقوق المتأخِّرة في أن تُصبح فاكهةً ناضجة مُعتَبرة. وحتَّى في تلك اللحظة، كانت لا تزال تضربُ النَّوافذ ذات القضبان الرَّصاصية، وتتساقط عبر المدخنة، جاعلةً نيرانَ الحطب المبهجة تُهسهس في المدفأة.

سأل السيِّد هيمبسيد: «يا ربِّي! هل مرَّ عليك سبتمبر مطيرٌ كهذا من قبل يا سيِّد جيليباند؟»

كان هيمبسيد جالسًا في مواجهة المدفأة؛ لأنه كان صاحبَ نفوذٍ وشخصيةٍ بارزة، ليس فقط في «استراحة صيَّاد السمك»، حيث كان السيد جيليباند يختارُه دائمًا بالأخصِّ لدحضِ الحُجج السياسية، بل في الحيِّ كذلك، حيث كانت معرفتُه، ولا سيما إلمامه بنصوص الإنجيل المقدَّسة، محاطة بهالةٍ من الرهبة والاحترام العميقَين. كان جالسًا هناك وقد دَسَّ إحدى يدَيه في الجيب الواسع لبنطاله المضلَّع القصير أسفلَ سُترته المصنوعة بإتقانٍ التي تَظهر عليها علاماتُ كثرة الاستخدام، وممسكًا غليونه الفخَّاريَّ الطويل بيده الأخرى، ناظرًا باكتئابٍ عبر الغرفة إلى نُهير قطرات البَلل الذي كان يَسيل على النَّافذة.

أجاب السيد جيليباند باقتضاب: «لا، لا أعرف ما إن كنتُ قد شهدتُ هذا من قبلُ يا سيد هيمبسيد. وأنا أعيش في هذه المنطقة منذ نحوِ ستِّين عامًا.»

فقاطعه السيد هيمبسيد بهدوء، قائلًا: «نعم! لن تتذكرَ أول ثلاث سنواتٍ من الستِّين يا سيد جيليباند. لا أدري إن كنتُ قد رأيتُ على الإطلاق طفلًا ينتبهُ كثيرًا إلى حال الطقس، على الأقل ليس في هذه المنطقة، وأنا أعيش هنا منذ نحوِ خَمسةٍ وسبعين عامًا يا سيد جيليباند.»

كان تَفوُّقُ هذه الحكمة لا جدال فيه، لدرجة أن السيد جيليباند لم يكن جاهزًا في تلك اللحظة بسيل حُججِه المعتاد.

تابع السيد هيمبسيد بحُزنٍ، فيما انهمرَ وابلٌ من قطرات المطر على النَّار مُحدِثًا طَشِيشًا: «يبدو هذا أشبهَ بطقسِ أبريل من طقس سبتمبر، أليس كذلك؟»

وافق المُضيف الفاضل قائلًا: «بلى! إنه يبدو كذلك، ولكن على كل حال، ماذا يمكن أن تنتظر يا سيد هيمبسيد، أقصد في ظل وجود حكومةٍ كالَّتي لدينا؟»

هزَّ السيد هيمبسيد رأسه بحِكمةٍ لا متناهيةٍ، يُلَطِّفها شعور متجذر بانعدام الثقة في الطقس والحكومة البريطانية.

قال: «لا أنتظر أيَّ شيءٍ يا سيد جيليباند. المساكينُ أمثالُنا ليس لهم قيمةٌ هناك في لندن، أعرف هذا، ولستُ أتشكَّى كثيرًا. ولكن عندما تتعلَّق المسألة بجوٍّ رطبٍ كهذا في سبتمبر، وكل فاكهتي تتعفَّن أو تموت كضربة موت كل بكر في أرض مصر في زمن موسى، وتصير مثل هؤلاء المساكين بلا نفع، إلا للكثير من اليهود والباعة الجائلين ومن

على شاكلتهم، ببرتقالهم ومثله من هذه الفواكه الأجنبية الشريرة، التي لن يشتريَها أحدٌ لو كان التفاح والكمَّثْرى البريطانية قد استويا كما ينبغي. ومثلما يقول الكتاب المقدَّس ...»

وافقه السيد جيليباند قائلًا: «هذا صحيحٌ تمامًا يا سيد هيمبسيد، وكما أقول، ماذا يمكن أن تنتظر؟ كلُّ أولئك الشياطين الفرنسيين هناك على الجانب الآخر من القنال، يقتلون ملكَهم ونبلاءهم، والسيد بِيت والسيد فوكس والسيد بيرك يتشاجرون ويتخاصمون فيما بينهم بخصوص ما إذا كان ينبغي لنا نحن الإنجليزَ أن نسمح لهم بمواصلة السَّير في طريقهم الشرير. يقول السيد بيت: «دَعْهم يَقتُلون!» ويقول السيد بيرك: «لِنوقِفْهم!».»

قال السيد هيمبسيد بنبرةٍ قاطعة: «وأنا أقول دَعْهم يَقتُلون، ولْتحُلَّ عليهم اللَّعنة»؛ وذلك لأنه لم يكن مُعجبًا جدًّا بحُجج صديقه جيليباند السياسية، التي دائمًا ما كان يتجاوز فيها حدودَ معرفته، ولأنَّه لم يكن يحظى إلَّا بفرصةٍ ضئيلةٍ لعرض تلك الدُّرر من الحكمة التي أكسبَتْه سُمعةً مرموقةً جدًّا في الحي، وكثيرًا من أقداح الجِعَة المجَّانية في «استراحة صيَّاد السمك».

كرَّر مجددًا: «دعهم يَقتُلون، لكن لا تدَعْ أمطارًا كهذه تهطل في سبتمبر؛ لأن هذا يُخالف القانون والكتاب المقدَّس الذي يقول ...»

«يا إلهي! كم أفزعتَني يا سيد هاري!»

كان من سوء حظِّ سالي ومُغازلتها العابرة أن تعليقها هذا قِيلَ في هذه اللحظة بالذَّات، عندما كان السيد هيمبسيد يستجمعُ أنفاسَه ليُلقِيَ بواحدةً من مقولات الكتاب المقدَّس تلك التي جعَلَت منه مشهورًا؛ لأنَّ هذا التعليقَ صبَّ جام غضبِ والدها على رأسها الجميل.

قال وهو يُحاول إجبار وجهه المرح على العُبوس: «كفاكِ يا فتاتي سالي، كفاكِ! كُفِّي عن العبث مع هؤلاء الشبَّان الوقحين وتابعي العمل.»

«العمل يسير على أحسنِ وجهٍ يا أبي.»

لكن السيد جيليباند كان آمِرًا متحكِّمًا. كان يحمل رؤًى أخرى لمستقبلِ ابنته الناهدة، طفلته الوحيدة التي ستُصبح في الوقت المناسب بمشيئة الربِّ مالكةً لـ «استراحة صيَّاد السمك»، بدلًا من رؤيتها متزوجةً أحدَ هؤلاء الشبَّان، الذين لا يكسبون سِوى رزقٍ غير ثابت بشِبَاك صيدهم.

قال بتلك النبرة الهادئة التي لم يكن أحدٌ داخلَ النزل يجرؤ على معارضتها: «هل سمعتِ ما قلتُه يا فتاتي؟ واصِلي تحضيرَ عشاء اللورد توني، وإذا لم يكن أفضل ما يمكننا تحضيره، ولم يكن راضيًا عنه، فستَرَين ما سينالكِ، انتهى كلامي.»

أطاعته سالي على مضض.

سأله جيمي بيتكين محاولًا بإخلاصٍ أن يصرف انتباهَ مضيفه عن الملابسات المرتبطة بخروج سالي من الغرفة: «هل تنتظر ضيفًا مميزًا الليلةَ يا سيد جيليباند؟»

فأجاب السيد جيليباند: «أجل! هذا صحيح، أصدقاء للورد توني نفسه. دوقاتٌ من النساءِ والرجال من الجانب الآخَر من القنال ساعدَهم السيدُ الشَّاب وصديقه السير أندرو فولكس ونبلاءُ شبَّان آخرون في الإفلات من قبضات أولئك الشياطين القتَلة.»

لكن هذا كان كثيرًا على فلسفة السيد هيمبسيد النكدة الشكَّاءة.

قال: «يا إلهي! لماذا يفعلون ذلك يا تُرى؟ لستُ مؤيدًا للتدخل في شئون الآخَرين. فكما يقول الكتاب المقدس ...»

قاطعه السيد جيليباند بسخريةٍ لاذعة: «ربما يا سيد هيمبسيد، لأنك صديقٌ شخصي للسيد بيت، ولأنك تتَّفق مع ما قاله السيد فوكس؛ إذ تقول: «دَعْهم يَقتُلون!».»

اعترض السيد هيمبسيد بنبرةٍ واهنة قائلًا: «معذرةً يا سيد جيليباند، لستُ متيقنًا من أنني قلتُ ذلك إطلاقًا.»

لكن السيد جيليباند كان قد نجح أخيرًا في ركوب حِصان هوايته المفضَّلة، ولم يكن ينوي النزولَ عنه سريعًا.

فأضاف: «أو ربما صادقتَ بعضَ الشباب الفرنسيين الذين يقولون إنهم جاءوا إلى هنا؛ ليجعَلونا نحن الإنجليزَ نُوافق على انتهاجهم سُبُلَ القتل.»

قال السيد هيمبسيد: «لا أدري ماذا تقصد يا سيد جيليباند، كل ما أعرفه أنَّ ...»

فقال المضيف بنبرةٍ قاطعة عالية: «كلُّ ما أعرفه أنا أنَّ صديقي بيبركورن الذي يملك حانةَ «الخنزير ذو الوجه الأزرق»، وهو رجلٌ إنجليزي حقيقي ومخلص كأيِّ رجلٍ آخَر في البلاد، كان طبيعيًّا تمامًا. وانظر إلى حاله الآن؛ لقد صادَقَ بعضَ أولئك الفرنسيين الحقيرين، عاشَرهم كما لو كانوا إنجليز، وليسوا مجردَ مجموعةٍ من الجواسيس الأجانب الملاعين العديمي الأخلاق. حسنًا! وماذا حدث؟ يروج بيبركورن الآن للثورات والحرية والتخلُّص من الأرستقراطيِّين، تمامًا كالسيد هيمبسيد هنا!»

اعترض السيد هيمبسيد بنبرةٍ واهنة مجددًا: «معذرةً يا سيد جيليباند، لستُ متيقنًا من أنني قلتُ ذلك إطلاقًا ...»

كان السيد جيليباند قد حاز انتباهَ أغلب الحاضرين، الذين كانوا يستمعون برهبةٍ وأفواهٍ فاغرةٍ لقصة السيد بيبركورن. وكان زَبونان على إحدى الطاولات — يبدو من ملابسهما أنهما سيدان فاضلان — قد توقَّفا عن لعب الدومينو في منتصف الدورِ، وكانا يستمعان منذ بعض الوقت لآراء السيد جيليباند الدولية بقدرٍ كبيرٍ من الاستمتاع الواضح عليهما. تحرَّك أحدُهما الآن بابتسامةٍ هادئة وساخرة لا تزال مستترةً في ثنايا فمِه نحو وسط الغرفة، حيث كان السيد جيليباند واقفًا.

وقال بهدوء: «يبدو أنك يا صديقي الفاضل ترى أن هؤلاء الفَرنسيِّين — الذين أظن أنك وصفتَهم بالجواسيس — رجالٌ أذكياء جدًّا لأنهم «فرَموا» آراء صديقك السيد بيبركورن، إنْ جاز القول. تُرى كيف نجَحوا في ذلك، برأيك؟»

«يا إلهي! أظن أنهم أقنَعوه يا سيدي؛ فلقد سمعتُ أنَّ هؤلاء الفرنسيِّين قد وُهِبُوا البلاغة، والسيد هيمبسيد هنا سيُخبركم كيف أنهم يستطيعون أن يجعلوا بعضَ النَّاس كخواتِمَ حول أصابعهم الصغيرة.»

رد الغريب بأدبٍ: «عجبًا، وهل هذا صحيح يا سيد هيمبسيد؟»

أجاب السيد هيمبسيد بانزعاجٍ شديد: «لا يا سيدي! لستُ متيقنًا من أنني أعرف المعلومة التي تستفسرُ عنها.»

قال الغريب: «ربَّاه، إذنْ، لنأمُلْ يا مضيفي الفاضل ألا يتمكَّن هؤلاء الجواسيسُ البارعون من تغيير آرائك المخلصة للغاية.»

لكن هذا كان كثيرًا على ما يتحلَّى به السيد جيليباند من اتزانٍ دَمث، فانفجر في نَوبةٍ صاخبةٍ من الضحك سرعان ما كرَّرها أولئك الذين تصادَف أنهم مَدِينُون له.

«هاهاها! هيهيهي! هوهوهو!» هكذا ضحك المضيف الفاضل بكلِّ النبرات، وظل يضحك حتى آلمه جانباه وسالت دموعُه. «أنا! أَصْغُوا إلى هذا! هل سمعتموه يقول إنهم سيُغيرون آرائي؟ هه؟ لِيُحبِبْك الربُّ يا سيدي، لكنك تقول أشياء غريبة.»

قال السيد هيمبسيد واعظًا: «حسنًا يا سيد جيليباند، أنت تعرف ماذا يقول الكتاب المقدَّس: «مَن يظن أنه قائم، فلْينظُر ألَّا يَسْقط».»

ردَّ عليه جيليباند بحُجةٍ مُعاكسةٍ وهو ما زال يُمسك بجانبَيه من شدة الضحك: «على كل حالٍ أصغِ إليَّ يا سيد هيمبسيد، الكتاب المقدَّس لم يَعرفني. عجبًا، إنني حتى لن أشربَ كأسَ جِعَةٍ مع أحدِ أولئك القتَلة الفرنسيين، ولا شيء سيجعلُني أغيِّر رأيي. عجبًا! سمعت بأن آكِلي الضفادع أولئك لا يُمكنهم التحدثُ بإنجليزيةِ الملك حتى؛ لذا فبالتأكيد

لو حاول أحدُهم التحدثَ إليَّ بلُغتِهم الملعونة، فسأميزهم فورًا، أتفهمُني! وقد أعذَرَ مَن أنذَر؛ كما يقول المثل.»

وافقه الغريبُ مبتهجًا: «أجل! يا صديقي الفاضل، أرى أنك ذكيٌّ جدًّا وأذكى من أيِّ عشرين فرنسيًّا، وها هو نخب صحتك الجيدة جدًّا يا مضيفي الفاضل، إذا كنتَ ستُشرفني بإنهاء زجاجتي هذه معي.»

قال السيد جيليباند وهو يمسح عينيه اللتَين كانتا لا تزالان تدمعان من شدة الضحك: «أنا متأكد من أنك مهذبٌ جدًّا يا سيدي، ولا أمانع ذلك.»

ملأ الغريبُ قدحَين بالنبيذ ثم قدَّم أحدَهما إلى المضيف وأخذ الآخَر لنفسه.

وقال بينما كانت تلك الابتسامةُ السَّاخرة نفسُها توشك أن تظهَر على فمِه: «مع أننا كلنا رجالٌ إنجليز مخلصون؛ مع أننا مخلصون، فعلينا أنْ نعترفَ بأن هذا على الأقل شيءٌ واحدٌ جيدٌ يأتي إلينا من فرنسا.»

وافق المضيف: «أجل! لنْ يُنكر أحدٌ منَّا هذا يا سيدي.»

قال الغريب بنبرةِ صوتٍ عالية: «وهذا نخبُ صحةِ أفضل مضيفٍ في إنجلترا، مضيفنا الفاضل السيد جيليباند.»

ردَّ الحاضرون كلُّهم: «مرحى، تحيَّاتنا!» ثم علا صوتُ تصفيقٍ وأحدَثَت الأكوابُ والأقداحُ قعقعةً شبهَ موسيقيةٍ على الطَّاولات مُصاحبةً لقهقهاتٍ عاليةٍ ليس لها سببٌ محدد، ولهتاف السيد جيليباند الذي تمتمَ به قائلًا:

«تخيَّلوا فقط أن يتحدَّث إليَّ أحدُ أولئك الأجانب الملاعين! — ماذا؟ — ليُحبِبْك الرب يا سيدي، لكنك تقول أشياءَ غريبة.»

وافق الغريبُ بحرارةٍ على هذه الحقيقة الجليَّة. إذ كان من غير المعقول بالتأكيد أن أيَّ أحدٍ يستطيع على الإطلاق أن يُغير آراء السيد جيليباند الرَّاسخة عن أنَّ سكَّان قارة أوروبا كلِّها ليس لهم أيُّ قيمة.

الفصل الثالث

اللاجئون

بالتأكيد كان الشعور السائد في كل أنحاء إنجلترا آنَذاك مفعمًا بالكراهية الشديدة تجاهَ الفرنسيِّين وأفعالهم. فالمهرِّبون والتجَّار الشرعيون بين الشَّاطئَين الفرنسي والإنجليزي كانوا يُحضرون مقتطفاتٍ من أخبار الجانب الآخَر من القنال، وهذه الأخبار جعَلَت دماءَ كلِّ إنجليزيٍّ مخلصٍ تغلي، وجعَلَته متشوقًا لأن «يفتك» بأولئك القتلة، الذين سجنوا مَلِيكَهم وكلَّ عائلته، وأخضَعوا الملكةَ والأطفال الملَكيِّين لكلِّ صنوف الذُّل، وما زالوا حتى الآن يرفعون أصواتَهم مُطالبين بدماءِ جميع آل بوربون، وكلِّ واحدٍ من أتباعهم.

وكان إعدام أميرة لومبال، الشَّابة الفاتنة صديقة «ماري أنطوانيت»، قد ملأ جميعَ مَن في إنجلترا برُعبٍ لا يوصَف، فالإعدامات اليومية لعشَراتِ الأفراد الملكيِّين ذَوي النَّسَب النبيل، الذين كان ذنبُهم الوحيد هو اسمهم الأرستقراطي، بَدت لأوروبا المتحضِّرة كلِّها دعوة للثأر.

ولكن بالرغم من كل ذلك، لم يجرؤ أحدٌ على التدخُّل. استنفد بيرك كلَّ بلاغته في حثِّ الحكومة البريطانية على مُحاربة الحكومة الثورية في فرنسا، لكن السيد بيت بحصافته المميزة لم يشعر بأن البلاد جاهزةٌ بعدُ لتبدأ حربًا مرهِقة ومكلِّفة أخرى. كان على النمسا أن تأخذ زِمام المبادرة؛ النمسا التي كانت أجملُ بناتها، في ذلك الوقت بالتحديد، ملكةً مخلوعةً مسجونةً ومُهانةً بأيدي جموع غَوغاء؛ وبالتأكيد لم يكُن على إنجلترا — كما قال السيد فوكس — أن تتقلَّد كلُّها الأسلحةَ وتدخل حربًا؛ لأن مجموعةً من الفرنسيين قرَّرَت قتل مجموعةٍ أخرى.

أمَّا السيد جيليباند ورفاقه من أشباهِ شخصية «جون بُل»، ومع أنهم كانوا ينظرون إلى كل الأجانب بازدراءٍ شديد، فإنهم كانوا ملَكيِّين مناهِضَين للثورة بالإجماع، وكانوا

في اللحظة الحاليَّة حانِقين على بِيت بسبب حَذرِه واعتداله، مع أنهم بطبيعة حالهم لم يفهموا شيئًا من الأسباب الدبلوماسية التي وجَّهَت سياسةَ ذاك الرجل العظيم.

على كل حال، كانت سالي في تلك اللحظة تركض عائدةً بلهفةٍ بالغة وحماسٍ شديد. لم تكن الرفقة المبتهجة في غرفة القهوة قد سمعَت شيئًا من الضوضاء التي في الخارج، لكن سالي كانت قد اخْتلسَت النظر إلى الخارج لترى حِصانًا وراكبًا يقطران ماءً متوقِّفَين عند باب «استراحة صيَّاد السمك»، وبينما ركض صبي حظيرة الخيل ليأخذ زِمام الحصان، ذهَبَت الآنسة الجميلة سالي إلى الباب الأمامي لتُحيِّيَ الزَّائرَ المُرحَّبَ به.

قالت وهي تركض عبر غرفة القهوة: «أظنُّني رأيتُ حِصان اللورد أنتوني في الفِناء يا أبي.»

لكن الباب كان قد فُتِح من الخارج بالفعل، وفي اللحظة التَّالية، أحاطت بخَصْر سالي الجميلة ذراعٌ مُغطَّاة بقماشٍ رمادي باهتٍ يقطر بماء المطر الغزير، بينما تردَّد صَدى صوتٍ عَذْب بطول العوارض الخشبية المصقولة في سقف غرفة القهوة.

قال الرجل الذي دخل للتو: «أجل، وبورِكَت عيناكِ البنيَّتان على نظرهما الثاقب يا جميلتي سالي»، بينما تقدَّم السيد الفاضل جيليباند باستعجالٍ، متحمسًا ومنتبهًا ومنفعلًا، كما يتناسب مع وصول واحدٍ من أبرز ضيوف نزله المفضَّلين.

أضاف السيد أنتوني وهو يطبع قُبلةً على كل خدٍّ من خدَّي الآنسة سالي المتورِّدين: «يا إلهي، أجزم يا سالي أنكِ تزدادين جمالًا في كل مرةٍ أراكِ فيها، ومن المؤكَّد أنَّ صديقي المخلص جيليباند هذا يبذل مجهودًا شاقًّا في إبقاء الرجال بعيدين عن خصرك النحيل ذاك، ما رأيك يا سيد ويت؟»

لم يُجِب السيد ويت — محتارًا بين احترامه للسيد، وبُغضه لهذا النوع من المزاح بالتحديد — إلا بإصدارِ نخيرٍ متردِّد.

كان اللورد أنتوني دوهرست، أحدُ أبناء دوق إكستر، آنذاك نموذجًا مثاليًّا للسيد الإنجليزي الشَّاب؛ إذ كان طويلَ القامة وحسَن البُنيان وعريضَ المنكبين ومرح الوجه، وكانت ضحكتُه ترنُّ مدويةً بصوتٍ عالٍ أينما حل. ولأنه كان ذا روح مرحة طيبة ورفيقًا مفعمًا بالحيوية، ومهذبًا، وحَميد التربية والطباع وواسعَ الخبرات الحياتية، ولم يكن ذا ذكاءٍ حادٍّ يُعكِّر صفْوَ مزاجه، كان ضيفًا مُفضَّلًا لدى الجميع في غرف الاستقبال ببيوت لندن أو غُرَف القهوة في أنزال الأرياف. كان كلُّ مَن في «استراحة صيَّاد السمك» يعرفه؛

لأنه كان مُولَعًا بالعُبور إلى فرنسا، ودائمًا ما كان يقضي ليلةً تحت سقف السيد الفاضل جيليباند في طريقِ ذَهابه أو إيابه.

أومأ برأسه لويت وبيتكين والآخَرين، بينما ترك خصر سالي أخيرًا، وسار عبر الغرفة باتجاه المدفأة ليُدفئ نفسه ويُجففها، وبينما كان يفعل ذلك، ألقى نظرةً سريعة مرتابة بعضَ الشيء على الغريبَين اللذين كانا قد استأنفا لعب الدومينو في هدوء، وللحظةٍ اكتسى وجهُه الشابُّ المرح بجدِّية عميقة، بل وببعض القلق.

لكن ذلك استمرَّ لوهلةٍ فقط؛ ففي اللحظة التَّالية، استدار ناحية السيد هيمبسيد الذي كان يتحسَّس جبينَه بوقار.

«حسنًا يا سيد هيمبسيد، وكيف حالُ الفاكهة؟»

أجاب هيمبسيد بكآبةٍ شديدة: «سيئة يا سيدي، سيئة، لكن ماذا يمكن أن تنتظر من حكومةٍ كهذه تُفضِّلُ أولئك الأوغادَ في فرنسا الذين سيقتلون ملكهم ونبلاءهم.»

رد اللورد أنتوني: «سحقًا! ذلك ما سيفعلونه أيها المخلص هيمبسيد؛ على الأقل بأولئك الذين يستطيعون الإمساكَ بهم، يا للحظ السيِّئ! ولكن بعض أصدقائنا سيأتون إلى هنا الليلة، ممن أفلَتوا بطريقة ما من بَراثنهم.»

بدا وكأن الشَّاب، عندما ألقى بتلك الكلمات، كان يُلقي نظرةً متحدية نحوَ الغريبَين الصامتين في الرُّكن.

قال السيد جيليباند: «هذا بفضلك أنت يا سيدي وبفضل أصدقائك، حسبما سمعت.»

ولكن سرعان ما سقَطَت يدُ اللورد أنتوني على ذراع المضيف محذِّرًا إيَّاه فورًا.

قال بنبرةٍ آمِرة: «صه!» ونظر بغريزةٍ تلقائية نحو الغريبَين مجددًا.

أجاب السيد جيليباند: «أوه! ليُحبِبك الرب، لا ضرر منهما يا سيدي، لا تخف، فما كنتُ لأتحدث، لولا أنني أعرف أننا بين أصدقاء. ذاك السيد هناك تابعٌ حقيقي ومخلص للملك جورج مثلُك يا سيدي، مع خالص احترامي لك. لم يصل إلى دوفر إلَّا مؤخرًا، ويستقرُّ في المنطقة من أجل العمل.»

«من أجل العمل؟ رباه، لا بد أنه حانوتي؛ لأني أُقسم أنني لم أرَ ملامحَ أشدَّ حزنًا قط.»

«لا يا سيدي، أعتقد أن السيد أرمل، ومن المؤكد أنَّ هذا يُفسِّر الحزن البادي عليه؛ لكنه صديقٌ بأي حال، سأضمن ذلك، وستعترف يا سيدي بأن لا أحد أفضل من مالك نُزلٍ شهير في الحكم على الوجوه ...»

قال اللورد أنتوني الذي بدا بوضوحٍ أنه لم يكن مُهتمًّا بمناقشة الموضوع مع مضيفه: «لا بأس إذن ما دُمنا بين أصدقاء، لكن أخبرني، ليس لديك أحدٌ آخَرُ يمكث هنا، أليس كذلك؟»

«لا أحدَ يا سيدي، ولا أحد آتٍ، على الأقل ...»

«على الأقل؟»

«على الأقل لا أحد ستُمانع سيادتك وجودَه، على حدِّ علمي.»

«مَن سيأتي؟»

«حسنًا يا سيدي، السير بيرسي بليكني وزوجته سيحضران إلى هنا، لكنهما لن يمكثا ...»

سأل اللورد أنتوني ببعض الاندهاش: «الليدي بليكني؟»

«أجل يا سيدي، كان رُبَّان مركب السير بيرسي هنا قبلَ قليل. قال إنَّ أخا الليدي سيعبر إلى فرنسا اليوم على متن مركب «حُلم اليقظة» الشِّراعي الذي يملكه السير بيرسي، وسيرافقه السير بيرسي وزوجته إلى هنا لتوديعه. أيُزعجك هذا يا سيدي؟»

«لا، لا يزعجني هذا يا صديقي، لا شيء سيُزعجني إلَّا إذا لم يكن العشاءُ ألَذَّ ما تستطيع الآنسةُ سالي طبْخَه، وألذَّ ما يُقدَّم دائمًا في «استراحة صيَّاد السمك».»

قالت سالي التي كانت مشغولةً طَوال هذا الوقت بإعداد طاولة العشاء: «لا داعي إلى الخوف من ذلك يا سيدي.» بدَت الطاولة مبهِجةً وجذَّابة بباقةٍ كبيرة من زهور الأضاليا ذاتِ الألوان المتألقة في وسطها، وأقداحٍ قَصْديريَّة لامعة، وأطباقٍ وأكواب خَزَفية زرقاءَ منتشرةٍ عليها.

«كم فردًا سيأكل يا سيدي، لأضعَ لهم الطعام؟»

«خمسة أفراد يا جميلتي سالي، لكن ليكن العَشاءُ كافيًا لعشَرةٍ على الأقل؛ فأصدقاؤنا سيكونون متعَبين، وجائعين كما آمُل. أنا شخصيًّا، أتعهد بأنني أستطيع الْتِهامَ رطلٍ كامل من اللحم الليلة.»

قالت سالي بحماس، عندما سُمِعَت قعقعة أحصنةٍ وعجلاتٍ من بعيدٍ تقترب سريعًا: «ها هم، حسبما أعتقد.»

عجَّت غرفةُ القهوة بهياجٍ عام؛ فالكل كان متلهفًا لرؤية أصدقاءِ اللورد أنتوني الأنيقين الوافدين من الجانبِ الآخَر من القنال. ألْقَت الآنسة سالي نظرةً خاطفةً أو اثنتين على المرآة الصغيرة المعلَّقة على الجدار، وهُرِع السيد الفاضل جيليباند ليُقدِّم بنفسه

الترحيبَ الأول إلى ضيوفه المتميزين. أمَّا الغريبَان الجالسان في الرُّكن، فكانا هما الوحيدَين اللذَين لم يشتركا في ذلك الهياج العام. إذ كانا يُنهِيان دَورَ الدومينو بهدوءٍ ولم يُلقيا ولو نظرةً واحدةً باتجاه الباب.

قال صوتٌ دمث بالخارج: «أمامَكِ مباشرةً يا كونتيسة، الباب إلى يمينك.»

قال اللورد أنتوني بسعادة: «أجل! ها هم قد وصَلوا بلا شك، انطلقي يا جميلتي سالي، وحاوِلي تقديم الحساء بأسرع ما يُمكنك.»

فتح الباب على مصراعيه، وتقدَّم إليه السيد جيليباند، الذي أجزل في الانحناءات وعبارات الترحيب، ودخَلَت مجموعةٌ من أربعة أشخاص — سيدتَين وسيدَين — غرفةَ القهوة.

قال السيد أنتوني بعاطفةٍ جيَّاشةٍ، بينما تَقدَّم متلهفًا وذراعاه مفتوحتان باتجاه القادمين الجُدد: «مرحبًا! أهلًا بكم في إنجلترا العتيقة!»

قالت إحدى السيدتَين بلهجةٍ أجنبية قوية: «آه، أنت اللورد أنتوني دوهرست، على ما أظن.»

ردَّ قائلًا وهو يُقبِّل يدَي السيدتين برسميَّة: «في خدمتك سيدتي»، ثم التفتَ إلى الشَّابَّين وصافحَهما بحرارة.

كانت سالي تُساعد السيدتين في خلع معطفَي سفرهما بالفعْل، واتجهَت كِلتاهما مرتعشةً نحو المدفأة المتوهجة.

كانت الغرفة تعجُّ بحراكٍ عام وسط مجموعة الحاضرين. كانت سالي قد هُرِعَت نحو المطبخ، بينما جهَّز السيد جيليباند بضعةَ كراسيَّ حول نيران المدفأة وهو ما زال يُغدِق بتحيَّاته المحترمة. وكان السيد هيمبسيد يُخلي المقعد الموضوع في حضن المدفأة بهدوءٍ متحسسًا جبينَه. كان الجميع يُحدق إلى الأجانب بفضولٍ، ولكن باحترام.

قالت كُبرى السيدتَين: «آهٍ يا سادة! ماذا يمكن أنْ أقول؟» بينما مدَّت يدَين أرستقراطيتَين رقيقتَين نحو دفءِ اللهب، ونظرَت بامتنانٍ لا يوصف إلى اللورد أنتوني أولًا، ثم إلى أحدِ الشابَّين اللذَين رافقا مجموعتها، والذي كان مشغولًا بالتجرُّد من معطفه الفضفاض الثقيل الواقي من المطر.

ردَّ اللورد أنتوني: «فقط إنَّكم سعداءُ بوجودكم في إنجلترا يا كونتيسة، وإنكم لم تتكبَّدوا معاناةً هائلةً من رحلتكم الشَّاقة.»

قالت وعيناها مُغرَورِقتان بالدموع: «حقًّا، حقًّا نحن سُعداءُ بوجودنا في إنجلترا، ولقد نسينا بالفعل كلَّ ما عانيناه.»

كان صوتها منغَّمًا ومنخفضًا، وبدا الكثيرُ من علامات الوقار الهادئ وأمارات المشاقِّ التي تحمَّلَتها بنُبلٍ على وجهها الأرستقراطي الجميل، الذي كان يحمل شعرًا ثلجيًّا غزيرًا مصفَّفًا عاليًا فوق جبينها، على غرار الموضة الرائجة آنذاك.

«آمل أن يكون صديقي السير أندرو فولكس قد برهن على أنه رفيقُ سفرٍ مسلٍّ، يا سيدتي؟»

«أوه بالتأكيد، السير أندرو كان اللُّطفَ بذاته. كيف لي ولأبنائي أن نُظهِرَ امتنانًا كافيًا لكم جميعًا يا سادة؟»

لم تكن رفيقتُها، التي كانت ذاتَ هيئةٍ رقيقةٍ بَنَاتيَّة وبَدَت طُفوليةً مثيرةً للحزن بمظهرها المرهَق المُغتم، قد قالت شيئًا بعد، لكنَّ عينَيها البنِّيتَين الواسعتَين والمغرورقتَين بالدموع ارتفعتا عن النَّار باحثتَين عن عينَي السير أندرو فولكس، الذي كان قد اقترب من المدفأة ومنها؛ ثم عندما التقَتا بعينَيه، اللتَين كانتا مُحدقتين بإعجابٍ ظاهرٍ إلى الوجه الحُلو أمامه، خطرت لها خاطرةٌ مبهجةٌ فتورد لها خدَّاها الشَّاحبَان.

قالت: «إذنْ هذه هي إنجلترا»، بينما جالت بعينَيها بفضولٍ طفولي مُحدِّقة إلى المدفأة المفتوحة الكبيرة وعوارض خشب البلوط المائلة، والريفيين بستراتهم ذات التفاصيل المعقَّدة المطرَّزة بإتقان، ووجوههم الإنجليزية المتوردة المرحة.

أجاب السير أندرو مبتسمًا: «جزءٌ صغير منها آنستي، لكنها كلها في خدمتكِ.»

تورَّدَت وجْنَتا الشابَّة مجددًا، لكن وجهها البهي أشرق هذه المرة بابتسامةٍ ساطعة حُلوة سريعة. لم تقُل شيئًا، وكان السير أندرو صامتًا كذلك، لكنَّ كِلَيهما كان يفهم الآخَر، كدأبِ الشباب في كل أنحاء العالم منذ بدء العالم.

وهنا تدخَّل صوت اللورد أنتوني المرح قائلًا: «لكن، حدثونا عن العشاء! العشاء يا سيد جيليباند الفاضل، أين فتاتُك الجميلة وطبق الحساء؟ سحقًا يا رجل، بينما تقف محدقًا إلى السيدتَين فاغرًا فمَك، ستسقطان مغشيًّا عليهما من الجوع.»

قال جيليباند: «لحظة واحدة! لحظة واحدة يا سيدي»، وفتح الباب المؤدِّي إلى المطبخ بقوة، وصاح بأعلى صوته: «سالي! أيا سالي، هل أنتِ مستعدةٌ يا فتاتي؟»

كانت سالي مستعدَّة، وفي اللحظة التَّالية ظهرَت على عتبة الباب، حاملةً وعاءً ضخمًا تتصاعد منه غيمةٌ من البخار ورائحةٌ طيبة فيَّاضة.

صاح اللورد أنتوني بمرحٍ وهو يُقدِّم ذراعه للكونتيسة بمُلاطفةٍ فاتنة: «يا إلهي، العشاء أخيرًا!»

وأضاف بنبرةٍ رسمية وهو يقودها نحو مائدة العشاء: «هل تسمحين لي بهذا الشرف؟»

سادت غرفةَ القهوة حالةٌ من النشاط الصاخب؛ إذ كان السيد هيمبسيد ومعظمُ الريفيِّين والصيَّادين قد غادَروا لإفساح المجال لأفراد «الطبقة الراقية الأرستقراطية» ولاستئناف تدخين غلاييهم في مكانٍ آخَر. ولم يبقَ سوى الغريبَين اللذَين واصَلا لعب الدومينو بهدوءٍ وبلا اكتراث، وهما يرشفان نبيذهما؛ فيما كان هاري ويت، الذي كان يفقد هدوء أعصابه بسرعة، جالسًا عند طاولة أخرى وهو يُراقب سالي الجميلة تتحرَّك بعجَلةٍ حول الطَّاولة.

بدَت سالي كصورةٍ جميلةٍ جدًّا من حياة الريف الإنجليزية، ولا عجب أنَّ الشاب الفرنسي المرهف العواطف لم يستطع رَفْع عينيه عن وجهها الجميل. كان فيكونت تورناي الذي يُقارب عمرُه التَّاسعة عشرة، فتًى أمردَ لم تترك عليه المآسي الفظيعةُ التي تحدث في بلاده سوى أثرٍ طفيف. كان أنيقًا، بل مبالغًا في التأنُّق، وحالما وصَل بسلام إلى إنجلترا كان واضحًا أنه مستعدٌّ لنسيان فظائع الثورة بالانغماس في ملذَّات الحياة الإنجليزية.

قال وهو يواصل النظر مُتغزِّلًا إلى سالي برِضًا ملحوظ: «بالطبع إن كانت «هزه» هي إنجلترا، فأنا مسرور بها.»

سيكون من المستحيل هنا تدوينُ اللفظ الذي أفْلَت من بينِ أسنان السيد هاري ويت المطبَقة بالضبط. ولم يكبَح استنكارَه الواضح للشابِّ الأجنبي إلا احترامًا لـ «الطبقة الراقية الأرستقراطية»، وبالأخصِّ اللورد أنتوني.

تدخَّل اللورد أنتوني ضاحكًا، وقال: «لا، بل «هذه» هي إنجلترا أيها الداعر الفاسق الصغير، وأرجو ألَّا تجلب عاداتِكم الفاسقةَ إلى هذا البلد العفيف.»

كان اللورد أنتوني قد جلس بالفعل إلى رأس الطَّاولة والكونتيسة على يمينه. وكان جيليباند يُسرِع بهِمَّةٍ حولهما، مالئًا الكئوس وواضعًا الكراسيَّ في مواضعها المناسبة. وانتظرت سالي، مستعدَّة لتُقدِّم الحساء. كان أصدقاء السيد ويت قد نجَحوا أخيرًا في إخراجه من الغرفة؛ لأن انفلات أعصابه كان يزداد عنفًا في ظل إعجاب الفيكونت الواضح بسالي.

قالت الكونتيسة الصارمة بنبرةٍ آمرةٍ حازمة: «سوزان!»

فتورَّدَت وجنتا سوزان مجددًا؛ إذ كانت قد فقَدَت الإحساس بالزمان والمكان بينما كانت واقفة بجانب النَّار، سامحةً لعينَي الشَّابِّ الإنجليزي الوسيم بالتحديق إلى وجهِها الحُلو، وتاركةً يَده تستقر على يدها كما لو كان ذلك بدون وعيٍ منها. أيقظها صوتُ أمها وأعادها إلى الواقع مرةً أخرى، فردَّت بإذعان: «نعم يا أمي»، وجلست في مكانها إلى مائدة العشاء.

الفصل الرابع

عصبة سكارليت بيمبرنيل

بدَوْا كلُّهم مجموعةً مَرِحةً وسعيدةً وهُم جالسون إلى المائدة: السير أندرو فولكس واللورد أنتوني دوهرست، إنجليزيان وَسِيمَان ذَوا أصلٍ نبيل وتربية حسَنة يَبدُوان بالمظهر النموذجي الذي كان سائدًا بين أمثالهما في تلك السنة الميلادية ١٧٩٢، والكونتيسة الأرستقراطية الفرنسية وابنها وابنتها، الذين نجَوْا للتوِّ من تلك المخاطر الرهيبة، ووجَدوا مَلاذًا آمنًا أخيرًا على برِّ إنجلترا التي منَحَتهم الحماية.

وفي رُكن الغرفة، كان يبدو أن الغريبَين أنهَيا لعب الدومينو؛ إذ نهض أحدُهما ووقف يضبط معطفه الكبير، المكسوَّ عند الكتفَين بثلاث طبقات، بكثيرٍ من التأني، مُعطيًا ظهرَه للمجموعة المرِحة القاعدة عند المائدة. وبينما كان يفعل ذلك، ألقى نظرةً سريعةً على كلِّ مَن حوله. كان الجميعُ منشغلين بالضحك والثرثرة، فتمتم قائلًا: «الوضع آمن!»؛ وعندئذٍ جثا رفيقه على ركبتيه سريعًا في لحظةٍ، بيقظة مكتسَبة بكثرة التدريب، وفي اللحظة التَّالية، كان قد زحَف بهدوءٍ إلى أسفل المقعد المصنوع من خشب البلوط. حينها قال الغريبُ بصوتٍ عالٍ: «طابَت ليلتُكم»، وخرج بهدوءٍ من غرفة القهوة.

لم يُلاحظ أحدٌ ممَّن كانوا على مائدة العشاء هذه المناوَرة الصَّامتة الغريبة، ولكن عندما أغلق الغريبُ باب غرفة القهوة من خلفه أخيرًا، أطلقوا كلُّهم تنهيدةَ ارتياح.

قال اللورد أنتوني بمرح: «أخيرًا صِرنا وحدنا!»

ثم نهض فيكونت تورناي الشَّاب حاملًا كأسَه في يده، وبالتصنُّع اللبِق المهذَّب المُمَيِّز لهذا العصر، رفَعها عاليًا وقال بإنجليزيةٍ ركيكة:

«في صحة جلالته جورج الثَّالث ملك إنجلترا. لِيُبارِكْه الربُّ لأنه استضافنا جميعًا نحن المنفيِّين المساكينَ من فرنسا.»

فكرَّر اللورد أنتوني والسير أندرو، وهما يرفعان النخب بإخلاص: «في صحة جلالة الملك!»

وأضاف السير أندرو بجدِّية: «في صحة جلالة الملك لويس ملك فرنسا. لِيَحمِه الربُّ وينصُرْه على أعدائه.»

نهض الجميع ورفعوا هذا النخب بصمت. بدا أن مصير ملك فرنسا التعيس، الذي كان سجينًا لدى شعبِه آنذاك، قد خيَّم بظلالٍ من الكآبة حتى على مُحيَّا السيد جيليباند.

قال اللورد أنتوني ببهجة: «وفي صحة السيد كونت تورناي دي باسيريف، أرجو أنْ نُرحِّب به في إنجلترا عمَّا قريب.»

قالت الكونتيسة وهي ترفع كأسها إلى شفتيها بيدٍ مرتعشة قليلًا: «آه يا سيدي. لا أجرؤ على أن أُمنِّيَ نفسي بهذا الأمل.»

لكن اللورد أنتوني كان قد وزَّع الحساء بالفعل، وطوال اللحظات القليلة التالية توقف الحديث تمامًا، بينما قدَّم جيليباند وسالي الأطباقَ وبدأ الجميعُ يأكلون.

قال اللورد أنتوني بعد بُرهة: «ربَّاه، يا سيدتي! لم يكن ما قلتُه قبل شُرب النخب هُراء؛ فبعدما صرتِ أنتِ والآنسة سوزان وصديقي الفيكونت آمِنين في إنجلترا الآن، لا بد بالتأكيد أن تَطمئنِّي على مصير السيد الكونت.»

ردَّت الكونتيسة بتنهيدةٍ ثقيلة: «آهٍ يا سيدي. أنا أثِقُ بالرب، لا يمكنني إلا الدعاءُ ... والأمل ...»

تدخَّل السير أندرو فولكس قائلًا: «أجل يا سيدتي! ثِقي بالرب طبعًا، ولكن أيضًا ثقي قليلًا بأصدقائكِ الإنجليز، الذين أقسَموا أن يجلبوا الكونت سالمًا عبر القنال، تمامًا كما أحضَروكم اليوم.»

أجابت: «بالفعل، بالفعل يا سيدي، لديَّ ثقةٌ تامة بك وبأصدقائك. أؤكِّد لك أن شُهرتكم قد انتشَرَت عبر فرنسا كلِّها. فالطريقة التي هُرِّب بها بعضُ أصدقائي من قبضة المحكمة الثورية الفظيعة تلك كانت بمنزلة معجِزة، وكلُّها تحقَّقَت على أيديكم أنت وأصدقائك ...»

«لم نكن سوى الأيادي التي نفَّذَت يا سيدتي الكونتيسة ...»

قالت الكونتيسة بينما بدا أنَّ دموعها التي تملأ عينَيها دون أن تنهمر تكبحُ صَوتَها: «لكنَّ زوجي يا سيدي، إنه في خطرٍ مميت؛ ما كنت لأتركه أبدًا، لولا ... ابني وابنتي ... وكنتُ ممزقةً بين واجبي تجاهه وتجاههما. لقد رفَضا الذَّهاب بدوني ... وأنت وأصدقاؤك

أكَّدتم لي بصدقٍ تام أن زوجي سيكون سالمًا. ولكن أوه! بعدما أصبحتُ هنا، بينكم جميعًا، في إنجلترا الحرة الجميلة هذه، أتخيَّلُه طَريدًا كحيوانٍ مسكين يُحاول الفرار بحياته ... في خطرٍ كهذا ... آه! كان ينبغي ألَّا أتركَه ... كان ينبغي ألَّا أتركه! ...»

كانت المرأة المسكينة قد انهارت تمامًا؛ إذ كانت أحاسيس الإرهاق والحزن والانفعال العاطفيِّ قد تغلَّبَت على صَلابتها وجَلَدِها الأرستقراطي. كانت تبكي بينها وبين نفسها برِقَّة، بينما هرعت إليها سوزان وحاولت أن تُقَبِّلها لتجعلَها تتوقف عن البكاء.

لم يقل اللورد أنتوني أو السير أندرو شيئًا يُقاطع به الكونتيسة أثناء كلامها. من المؤكد أنهما كانا يشعران بتعاطفٍ عميق معها؛ فصمتُهما ذاتُه كان شاهدًا على ذلك؛ لكن على مَرِّ الزمان، منذ قيام إنجلترا، دائمًا ما كان الرجل الإنجليزي يشعر ببعض الخجل مِن إظهار انفعاله العاطفيِّ وشفقته؛ لذا لم يَقُل الشَّابَّان شيئًا، وانشغلا بمحاولة إخفاء مشاعرهما، ولم ينجَحا إلا في الظهور بمظهرٍ مُحرج للغاية.

قالت سوزان فجأةً وهي تنظر إلى السير أندرو عبر تموُّجاتِ شعرها البُنِّية الغزيرة: «أنا شخصيًّا يا سيدي أثقُ بكم تمام الثقة، وأعرف أنكم ستُحضِرون أبي العزيز سالمًا إلى إنجلترا تمامًا كما أحضرتمونا اليوم.»

قِيلَ هذا بثقةٍ كبيرة، وقدرٍ جَمٍّ غير منطوق من الأمل والإيمان، لدرجة أنه بدا وكأنه عصًا سحرية جفَّفَت دموع الأم ورسَمَت الابتسامةَ على شفاه الجميع.

أجاب السير أندرو: «لا! أنت تُحرجينني يا آنستي؛ صحيحٌ أن حياتي في خدمتكِ، لكني مجردُ أداة متواضعة بين يدَي قائدنا العظيم الذي خطَّط لهروبكم ونفَّذه.»

تحدَّث بقدرٍ هائل من الحماسة والحَمِيَّة، لدرجة أن عينَي سوزان حدَّقتا إليه في تعجُّبٍ واضح.

قالت الكونتيسة بلهفة: «قائدك يا سيدي؟ آه! بالطبع لا بد أنَّ لديك قائدًا. ولم يخطر ذلك ببالي من قبل! لكن أخبِرْني أين هو؟ لا بد أن أذهب إليه حالًا، ويجب أن نرميَ أنا وأبنائي بأنفسنا عند قدَمَيه، ونشكره على كل ما فعله لأجلنا.»

قال اللورد أنتوني: «مع الأسف يا سيدتي! هذا مستحيل.»

«مستحيل؟ ... لماذا؟»

«لأن سكارليت بيمبرنيل يعمل مُستترًا، ولا يعرف هُويَّته إلا أتباعه المباشرون بعدما يحلفون يمينًا مُغلَّظة على الحفاظ على سرِّيتها.»

قالت سوزان بضحكةٍ مرحة: «سكارليت بيمبرنيل؟ عجبًا! يا له من اسمٍ مضحِك! ما سكارليت بيمبرنيل يا سيدي؟»

نظرَت إلى السير أندرو بفضولٍ متلهِّف. كانت ملامح وجه الشَّاب قد تبدَّلت تقريبًا. إذ اتَّقدَت عيناه بالحماسة، وبدا وجهُه متوهجًا حرفيًّا بتمجيده وتقديسه لقائده ومَحبَّته له وإعجابه به.

قال أخيرًا: «سكارليت بيمبرنيل يا آنستي، هو اسم زهرةٍ إنجليزيةٍ متواضعة تنمو على أجناب الطرُق، لكنه أيضًا الاسم الذي اختير لإخفاء هُوية أفضلِ وأشجع رجلٍ في العالم أجمع، لعلَّه يُحقق نجاحًا أفضلَ في إنجاز المهمة النبيلة التي قرَّر حمْلَها على عاتقه.»

تدخَّل الفيكونت الشَّاب هنا، قائلًا: «آه، أجل، لقد سمعتُ حديثًا عن سكارليت بيمبرنيل هذه. زهرةٌ صغيرة ... حمراء؟ أجل! يقولون في باريس إنه كلَّما هرب أحد الأفراد الملَكيِّين إلى إنجلترا، تلقَّى ذاك الشيطان فوكييه-تنفيل النَّائب العام ورقةً مرسومًا عليها تلك الزهرةُ الصغيرة باللون الأحمر ... صحيح؟»

صدَّق اللورد أنتوني على كلامه قائلًا: «أجل، هذا صحيح.»

«إذن سيتلقَّى ورقةً كهذه اليوم؟»

«بلا شك.»

قالت سوزان بمرح: «أوه! تُرى ماذا سيقول! سمعتُ أنَّ رسم تلك الزهرة الحمراء الصغيرة هو الشيء الوحيد الذي يرعبه.»

قال السير أندرو: «ربَّاه، إذن ستسنح له فرصٌ أخرى أكثرُ بكثير ليتفحَّصَ شكل الزهرة القرمزية الصغيرة.»

تنهَّدَت الكونتيسة قائلةً: «آه يا سيدي، كلُّ هذا يبدو كقصةٍ رومانسية، لكنني لا أستطيع أن أفهمه تمامًا.»

«لِمَ ينبغي أن تُحاولي يا سيدتي؟»

«لكن، أخبرني ما الذي يجعل قائدك — عجبًا، وأنتم جميعًا — تُنفقون أموالكم وتُخاطرون بحياتكم — لأنَّ حياتكم هي ما تُخاطرون به عندما تضَعون أقدامكم في فرنسا يا سادة — وكل هذا من أجلنا نحن الفرنسيِّين والفرنسيَّات الذين لا يَعْنون لكم شيئًا؟»

أجاب اللورد أنتوني بصوته العالي الدَّمث والمرح: «التسلية يا سيدتي الكونتيسة، التسلية. نحن أمةٌ مِن هُواة التسلية كما تعرفين، والتسلية الرائجة الآن هي انتزاع الأرنب من بين أسنان كلب الصيد.»

«آه، لا، ليست التسلية فقط يا ... يا سيدي ... أنا متيقنةٌ من أنَّ لديكم دافعًا أنبلَ وراء العمل الخيِّر الذي تعملونه.»

«ربَّاه سيدتي، أتمنى أن تكتشفيه إذنْ ... أما أنا، فأُقسم أنني أحبُّ تلك اللعبة؛ لأنها أمتعُ تسليةٍ صادفتُها حتى الآن؛ إفلات من الموت بأعجوبة ... مَخاطر صعبة على الشيطان ذاته! — هيا بنا! — وليبدأ المرح!»

لكن الكونتيسة هزَّت رأسها وهي لا تزال غيرَ مُصدِّقة. إذ بدا من غير المعقول لها أن هؤلاء الشبَّان وقائدَهم العظيم، الذين يتَّسمون جميعًا بأنهم أغنياء وذَوو أصلٍ نبيل على الأرجح ويافعون، يخوضون تلك المخاطر الفظيعة، التي تعرف أنهم يخوضونها باستمرار، دون أي دافعٍ سوى التسلية. فحالَما يضَعون أقدامهم في فرنسا لا تَحميهم جنسيتهم. فأي شخصٍ يُكتشَف أنه يُؤوي أفرادًا ملَكيِّين مشتبَهًا بهم أو يُساعدهم سيُدان بلا رحمة ويُعدَم فورًا، أيًّا كانت جنسيته. وعلى حدِّ علمها، فهذه العُصبة من الشبَّان الإنجليز قد تحدَّت المحكمةَ الثورية الحاقدة والمتعطشة للدماء، داخلَ أسوار باريس نفسِها، وانتشلت ضحايا مُدانين من على شَفا نصْل المقصلة. تذكَّرَت الكونتيسة أحداثَ اليومَين الماضيَين بقُشَعريرة في جسدها: هروبها من باريس مع ابنها وابنتها، مُخبَّئِين تحت غِطاء عربةٍ متهالكةٍ، ومُمدَّدين وسط كومةٍ من اللفت والكرنب، لا يَجرءون على التنفُّس بينما كان الغوغاء يَصيحون «ليُشنَق الأرستقراطيُّون كلهم!» عند ذلك الحاجز الغربي الفظيع.

كان كل شيءٍ قد حدَث بطريقةٍ إعجازية؛ إذ عرَفَت هي وزوجُها أنهما قد أُدرِجا على قائمة «الأشخاص المشتبَهِ بهم»؛ مما يَعني أن محاكمتهما وموتهما كانا مسألةَ أيَّام ... وربما ساعات.

ثم جاء الأملُ في الخلاص؛ الخطاب الغامض المختوم بشعارٍ قرمزي مبهَم؛ التوجيهات الواضحة الإلزامية؛ انفصالهم عن كونت تورناي، الأمر الذي شطر قلب الزوجة المسكينة إلى نصفَين؛ الأمل في لمِّ الشمل؛ الهروب مع ابنها وابنتها؛ العرَبة المغطَّاة؛ تلك الشمطاء الفظيعة التي كانت تقودها والتي بدَت شيطانة شرِّيرة رهيبة، وغنيمتها التَّذكارية البشعة على مقبض سوطها!

تأمَّلَت الكونتيسة النُّزل الإنجليزي الجذَّاب والعتيق، وسلام هذه الأرض التي تنعم بالحرية الدينية والمدنية، وأغلقَت عينَيها لتتخلصَ من مُطاردة مشهد الحاجز الغربي، ومشهد تراجع الغوغاء مذعورين عندما تحدثَت العجوز الشمطاء عن الطَّاعون.

كانت، في كلِّ لحظةٍ تحت غطاءِ تلك العربة، تتوقَّع اكتشافَ هُويتها هي وابنها وابنتها، واعتقالهم ومحاكمتهم وإدانتهم، وهؤلاء الإنجليز الشبَّان خاطَروا بحياتهم، تحت توجيهات قائدِهم الشجاع المجهول، لإنقاذهم جميعًا كما أنقَذوا عشَرات الأبرياء الآخرين من قبل.

وكلُّ هذا لأجل التسلية فقط؟ مستحيل! بينما كانت عينا سوزان تلتمسان عينَي السير أندرو، قالتا له بوضوحٍ إنها تظن أنه مَهْما يَكُنْ فقد أنقَذ إخوته في البشرية من موتٍ فظيعٍ لا يستحقُّونه، بدافعٍ أعظمَ وأنبل من ذاك الذي يُحاول صديقُه إقناعَها به.

سألتْ بخجَل: «كم عددُ أفراد عُصبتِكم الشجاعة يا سيدي؟»

أجاب: «عِشرون يا آنستي؛ واحدٌ للقيادة، وتسعة عشر يأتمرون بأمره. جميعنا إنجليز، وجميعنا تعهَّدْنا بالالتزام بالقضيةِ ذاتِها؛ أن نُطيع قائدَنا وننقذَ الأبرياء.»

قالت الكونتيسة بحرارة: «لِيَحفظكم الله جميعًا يا سادة.»

«لقد حفظَنا بالفعل حتى الآن يا سيدتي.»

«هذا مذهلٌ لي، مذهل! إنَّكم جميعًا بَواسلُ جدًّا، وأوفياءُ جدًّا لإخوتكم في البشرية؛ مع أنكم إنجليز! وفي فرنسا ينتشر الغدر؛ وكل ذلك يجري باسم الحرية والإخاء.»

قال الفيكونت متنهدًا: «حتى النساء في فرنسا أصبحنَ أشدَّ كُرهًا لنا، نحن الأرستقراطيين، من الرجال.»

أضافت الكونتيسة، بينما ظهر ازدراءٌ متعالٍ ومَرارة شديدة في عينَيها الحزينتين: «آه، أجل. كتلك المرأة، مارجريت سان جوست مثلًا. لقد أبلغَت عن ماركيز سان قرياقوس وكلِّ عائلته، وسلَّمَتهم إلى محكمة الإرهاب الفظيعة.»

قال اللورد أنتوني وهو يُلقي نظرةً خاطفة متخوِّفة نحوَ السير أندرو: «مارجريت سان جوست؟ مارجريت سان جوست؟ بالتأكيد ...»

ردَّت الكونتيسة: «أجل! لا بد أنك تعرفُها. كانت ممثلةً بارزة في مسرح الكوميدي فرانسيز، وتزوَّجَت رجلًا إنجليزيًّا مؤخرًا. لا بد أنك تعرفها ...»

قال اللورد أنتوني: «أعرفها؟ أعرف الليدي بليكني؛ أكثرَ النساء أناقةً في لندن، زوجةَ أغنى رجلٍ في إنجلترا؟ بالطبع، جميعنا يعرف الليدي بليكني.»

تدخَّلَت سوزان قائلةً: «كانت رفيقةَ دراسةٍ لي في الدير في باريس، وجئنا معًا إلى إنجلترا لنتعلمَ لُغتَكم. كنتُ أُحب مارجريت جدًّا، ولا أستطيع أن أصدق أنها فعلَت شيئًا شريرًا جدًّا كهذا.»

قال السير أندرو: «بالتأكيد يبدو هذا غيرَ قابلٍ للتصديق. تقولين إنها أبلغَت عن ماركيز سان قرياقوس؟ لِمَ فعلت شيئًا كهذا؟ لا بد من وجود خطأٍ ما بالتأكيد ...»

ردَّت الكونتيسة ببرود: «لا يُمكن أن يوجد خطأٌ يا سيدي. فأخو مارجريت سان جوست جمهوريٌّ معروف. انتشرَت أحاديثُ عن وجود عداءٍ عائليٍّ بينه وبين ابن عمي ماركيز سان قرياقوس. آل «سان جوست» أفرادٌ عاديُّون جدًّا من عامة الناس، والحكومة الجمهورية توظف الكثير من الجواسيس. أؤكد لك أنه لا يوجد أيُّ خطأ ... ألم تسمع بهذه القصة؟»

«ربَّاه سيدتي، لقد سمعتُ بعض الشَّائعات المبهَمة عنها، ولكن لم يؤكدها أحدٌ في إنجلترا ... فالسير بيرسي بليكني، زوجها، رجلٌ ثريٌّ جدًّا، ذو منزلةٍ اجتماعيةٍ رفيعة، والصديقُ المُقرَّب لأمير ويلز ... والليدي بليكني رائدة مجالَي الأزياء والمجتمع في لندن.»

«ربما يكون الأمر كذلك يا سيدي، وبالطبع سنعيش حياةً هادئة في إنجلترا، لكني أدعو الربَّ ألا ألتقيَ بمارجريت سان جوست ما دمت أمكثُ في هذا البلد الجميل.»

بدا كأنَّ غيمة من الكآبة قد خيمَّت على المجموعة الصغيرة المبتهجة المجتمعة حول المائدة. فسوزان بَدَت حزينةً وصامتة، فيما كان السير أندرو يتململُ مُحرِّكًا شوكتَه بقلق، أمَّا الكونتيسة، التي كانت مُغلَّفةً بدرعٍ من تحيُّزاتها الأرستقراطية، فكانت جالسةً في كرسيِّها المستقيم الظهر صُلبةً جامدة. وأمَّا اللورد أنتوني، فقد بدا غيرَ مرتاحٍ البتَّة، وألقى نظرةً خاطفة أو اثنتَين على جيليباند، الذي بدا غيرَ مرتاح بالقَدْر ذاتِه.

استطاع أن يهمس للمُضيف متحايلًا دون أن يلمحَه أحد: «متى تنتظرُ وصول السير بيرسي بليكني والليدي بليكني؟»

فأجاب جيليباند هامسًا: «في أي لحظةٍ يا سيدي.»

وفي اللحظة نفسِها التي كان يتكلم فيها، سُمِع صوتُ صلصلة عربةٍ قادمةٍ من بعيد، وعلا صوتُها شيئًا فشيئًا، وصار بالإمكان تمييزُ بِضع صيحات، ثم قعقعة حوافر خيل على حَصى الرصُف غير المستوية، وفي اللحظة التَّالية، كان أحدُ صبيان حظيرة الخيل قد فتح بابَ غرفة القهوة، ودخَلها مندفعًا بحماس.

صاح بأعلى صوته: «السير بيرسي بليكني والليدي وصَلا للتو.»

وبمزيدٍ من الصيحات، وصلصلةِ السُّرُج، والحوافر الحديدية على الحصى، توقفَت عربةٌ مَهيبة تقودها أربعةُ جِيادٍ ممتازة كستنائيَّة اللون، خارج رِواق مدخل «استراحة صيَّاد السمك».

الفصل الخامس

مارجريت

سرعان ما أصبحَت غرفة قهوة النزُل المبهجة ذات العوارض المائلة المصنوعة من خشب البلوط مسرحًا لارتباكٍ وانزعاجٍ يائسَين. فحالما أعلنَ صبيٌّ حظيرة الخيول الخبر، قفَز اللورد أنتوني من كرسيِّه متفوهًا بسباب دارج، وكان في هذه اللحظة يُلقي الكثيرَ من التوجيهات المبهَمة المختلطة على المسكين المرتبك جيليباند، الذي بدا متحيرًا بشأن ما يجب أن يفعله.

حثَّ سيادته قائلًا: «لأجل الربِّ يا رجل، حاول إبقاءَ الليدي بليكني تتحدث خارجًا للحظةٍ ريثما تنسحب السيدتان.» وأضاف متفوهًا بسباب آخر أشدَّ: «سحقًا! هذ مؤسفٌ جدًّا.»

صاح جيليباند: «بسرعةٍ يا سالي! الشموع!» بينما كان يتحرَّك في أرجاء الغرفة بسرعة وعصبية، ويركض هنا وهناك مؤجِّجًا الانزعاجَ العامَّ الذي شعر به الجميع.

كانت الكونتيسة، هي الأخرى، قد نهضت على قدَمَيها جامدةً ومنتصبةً، محاولةً إخفاء انفعالها تحت رِباطة جأشٍ أنسَبَ لهذا الموقف، وظلَّت تُكرِّر بطريقةٍ آلية:

«لن أراها! ... لن أراها!»

أمَّا في الخارج، فسرعان ما تأججت الحماسة المصاحبة لوصول الضيوف المهمين.

سُمع سيلٌ متصلٌ جماعي طويل من عبارات «طاب يومك يا سير بيرسي! طاب يومُكِ سيدتي! في خدمتك يا سير بيرسي!» وكان ذلك بالتناوب مع نبرات أكثرَ خفوتًا قيل بها: «تذكَّرا الرجلَ الأعمى المسكين! بصدقةٍ من فضلِ إحسانِكما أيتها السيدة والسيد!»

ثم سُمع صوتٌ ذو حلاوةٍ فريدة خلال كلِّ هذا الضجيج فجأة.

«دَع الرجلَ المسكين وشأنَه؛ وقدِّمْ له بعضَ العشاء على نفقتي.»

كان الصوت منخفضًا ومُنغَّمًا وبه نبرةٌ رخيمة طفيفة، وأثرٌ خفيفٌ جدًّا من تنغيمٍ أجنبي في نُطق الحروف السَّاكنة.

سمعه كلُّ مَن في غرفة القهوة وسكَتوا، مُنصِتين له غريزيًّا للحظة. كانت سالي تحمل الشموعَ بجوار الباب المقابل الذي يقود إلى غرف النوم في الطَّابَق العلوي، وكانت الكونتيسة منهمِكةً في محاولة الانسحاب بسرعة قبل وصول تلك العدوَّة صاحبة هذا الصوت الحُلو الرخيم؛ وكانت سوزان تستعدُّ للَّحاق بأمِّها على مضض، بينما كانت تُلقي نظراتٍ نادمةً على الباب، حيث كانت لا تزال ترجو رؤيةَ زميلة الدراسة السَّابقة التي كانت تُحبها بشدة.

ثم فتح جيليباند الباب، وهو ما زال يرجو دون فهمٍ أو تفكيرٍ تجنُّبَ الكارثة التي شعر بأنها وشيكة، بينما قال الصوت المنخفض الرخيم نفسُه بضحكةٍ مرحة، وضيقٍ ساخر:

«بررررر! إني مُبلَّلةٌ كسمَكةٍ رنجة! يا إلهي! هل رأى أحدُكم جوًّا بغيضًا كهذا من قبل؟»

قالت الكونتيسة بنبرةٍ آمِرة: «سوزان تعالَي معي حالًا؛ هذه رغبتي.»

فتوسَّلَت سوزان: «أوه! ماما!»

قال جيليباند بنبرةٍ واهنة وهو يقف بشكلٍ أخرَق محاولًا قطْعَ الطريق: «سيدتي ... أآآآه ... إحم! ... سيدتي!»

قالت الليدي بليكني بشيءٍ من نَفاد الصبر: «بحقِّ الرب، أيها الرجل الطيب، لماذا تقفُ في طريقي، متراقصًا كديكٍ رومي تؤلمه قدمُه؟ دعني أصِلْ إلى المدفأة، أكاد أموت من البرد.»

وفي اللحظة التالية دفَعَت الليدي بليكني المضيفَ جانبًا برفق، ودخَلَت غرفة القهوة بسرعة.

يوجد الكثيرُ من اللوحات والمنمنمات الباقية التي تُصَوِّر مارجريت سان جوست — أي الليدي بليكني كما كانت تُسمَّى آنذاك — لكن من المشكوك فيه أنَّ أيًّا منها قد أعطى جمالها الفريدَ حقَّ قدره. ولأنَّ الليدي كانت هيفاء، أطولَ من المتوسط، وذاتَ حضورٍ مَهيب وهيئةٍ مَلَكيَّة، فلا عجب أن حتى الكونتيسة توقَّفَت للحظةٍ وهي تشعر بإعجابٍ تلقائي، قبل أن تُدير ظهرها للإطلالة الرَّائعة.

كانت مارجريت بليكني آنذاك لم تكَد تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها، وكان جَمالها في أوج إبهاره. فالقبعة الواسعة بريشها المرفرف المتماوج قد ألْقَت بظلٍّ خافت رقيق على الحاجب النموذجي المكسوِّ بهالةٍ من شعر كستنائي؛ كان خاليًا في تلك اللحظة من أيِّ مساحيق، والفم الحلو شبه الطفولي، والأنف المستقيم المنحوت، والذقن المستدير والعنق الرقيق، كل ذلك بدا أشدَّ جاذبيةً بفضلِ ثوبها الفاتن الذي كان متماشيًا مع أحدث صيحات الأزياء في تلك الآونة. كان الرِّداء الأزرق المخملي الأنيق بكلِّ ثنياتِه يُحيط بقوامها الرشيق وكأنَّه قالبٌ مصبوبٌ حولها، بينما كانت إحدى يدَيها الصغيرتين تحمل، بجلالٍ فريد، العصا الطويلةَ المزيَّنة بمجموعةٍ كبيرةٍ من الشرائط، التي راج حملُها بين السيدات الأنيقات في تلك الآونة.

وبنظرةٍ سريعةٍ في أرجاء الغرفة، كانت مارجريت قد تفحَّصَت كلَّ من في الغرفة. وأومأتْ بلُطفٍ للسيد أندرو فولكس بينما مدَّت يدها للورد أنتوني.

قالت بمرح: «مرحبًا! يا سيدي اللورد توني، عجبًا ... ما الذي تفعله هنا في دوفر؟»

ثم، بدون انتظار جواب، استدارت وواجهَت الكونتيسة وسوزان. ازداد مُحيَّاها كلُّه إشراقًا وهي تمدُّ ذِراعَيها الاثنتين نحو الفتاة الصغيرة.

«عجبًا! أهذه هي صغيرتي سوزان الواقفة هناك. يا إلهي، كيف أتيتِ إلى إنجلترا أيتها المواطِنةُ الصغيرة؟ والسيدة أيضًا!»

واندفَعَت نحوهما بحماسةٍ عاطفية جيَّاشة دون أدنى حَرَج في سُلوكها أو ابتسامتها. راقبَ اللورد توني والسير أندرو المشهدَ القصير بتخوُّفٍ وترقُّب. فمع أنهما كانا إنجليزيَّين، فقد ذهبا إلى فرنسا مِرارًا، واختلطا بالفرنسيِّين بما يكفي ليُدرِكا الغطرسةَ الصارمة والكراهية الشديدة اللتَين كان «نُبلاء» فرنسا السَّابقون ينظرون بهما إلى كلِّ من ساعد في ما أسهم في إسقاطهم. فأرماند سان جوست، أخو الليدي بليكني الجميلةِ — مع أنه معروفٌ بآرائه المعتدلة والتوافقية — كان جُمهوريًّا متعصبًا؛ وكان خلافه مع عائلة سان قرياقوس العريقة — لم يكن أيُّ شخصٍ غريب عنهما يعرفُ مَن الطرَفُ المُحِقُّ ومَن الطرفُ المُخطئ فيه — قد آل في النهاية إلى سقوط تلك العائلة واندثارِها شبه التام. وهكذا ففي فرنسا، كان سان جوست وجماعته قد انتصرا، وهنا في إنجلترا، كانت تقفُ أمام هؤلاء اللاجئين الثلاثة — الذين دُفعوا إلى الخروج من ديارهم هربًا بحياتهم، محرومين من كلِّ ما منَحَتهم إيَّاه قرونٌ من التَّرف — سليلةٌ جميلة من نسلِ العائلات الجمهورية

نفسِها التي أسقطَت عرشًا، واستأصلَت طبقةً أرستقراطية ضاع أصلُها في الأفق المعتِم البعيد للقرون الماضية.

كانت تقف هناك أمامهم، بكل وقاحةِ جمالها غيرِ المُدرَكة، ومدَّت يدَها الرقيقة إليهم، كما لو كانت بتلك الحركة الوحيدة ستتجاوزُ كلَّ ما شهده العَقْدُ الماضي من نزاعٍ ودماء مُراقة.

قالت الكونتيسة بصرامةٍ وهي تضع يدًا رادعةً على ذراع ابنتها: «سوزان، أنا أمنعُكِ من الحديث مع تلك المرأة.»

تحدَّثَت بالإنجليزية، حتى يسمعَ الجميع ويفهم؛ السيدان الشَّابَّان الإنجليزيان، وكذلك مالك النُّزل العامي وابنته. شهق الأخيرُ حرفيًّا برهبةٍ من تلك الوقاحة الأجنبية، تلك الصفاقة أمام سيادتها، التي كانت تُعَد إنجليزيةً الآن لأنها صارت زوجةَ السير بيرسي، بالإضافة إلى أنها صديقة أميرة ويلز.

أمَّا اللورد أنتوني والسير أندرو فولكس، فبدا أنَّ قلبَيْهما توقَّفا عن النبض من الرهبةِ إزاء هذه الإهانة غيرِ المبرَّرة. صاح أحدهما مناشدًا والآخر محذرًا، ونظر كِلاهما غَريزيًّا بسرعةٍ نحو الباب، الذي كان قد أتى منه قبل تلك اللحظة صوتٌ بطيءٌ متلكِّئ غيرُ مزعج.

كانت مارجريت بليكني وكونتيسة تورناي هما الوحيدتَين بين كلِّ الموجودين اللتين ظلَّتا بلا حَراكٍ ظاهريًّا. فتلك الثانية، التي وقفَت جامدةً منتصبةً مُتحديةً وهي ما زالت تضعُ يدًا على ذراع ابنتها، بَدَت تجسيدًا لكبرياء راسخة لا تتزعزع. أمَّا وجه مارجريت الحلو، فكان في تلك اللحظة قد صار أبيضَ من شدة الشحوب كالمنديل النَّاعم الذي كان يكتنفُ عنقها، وربما كان بإمكان أيِّ مُراقبٍ قويِّ الملاحظة أن يُلاحظ أن اليدَ التي كانت تُمسك بالعصا الطويلة المزينة بالشرائط كانت مُطبِقةً على العصا ومرتجفةً بعض الشيء.

لكن هذا كان لحظيًّا فحسب؛ ففي اللحظة التَّالية، ارتفع الحاجبان الجميلان الرقيقان قليلًا، وانثَنَت الشفَتان للأعلى بسخرية، ونظرَت العينان الزرقاوان الصَّافيتان مباشرةً إلى الكونتيسة الجامدة، وبهزَّةٍ طفيفةٍ للكتفَين، قالت الليدي بنبرةٍ مَرِحة:

«يا لكِ من مُتعاليةٍ أيتها المواطنة، ما خَطبُكِ، أخبريني؟»

ردَّت الكونتيسة ببرود: «نحن في إنجلترا الآن يا سيدة، ولديَّ الحرية لأمنعَ ابنتي من لمس يدِك بصداقة. تعالَي يا سوزان.»

أشارت إلى ابنتها بدون أن تُلقيَ نظرةً أخرى على مارجريت بليكني، لكنها حيَّت الشابَّين بانحناءةِ احترامٍ عميقةٍ وقديمةِ الطراز، ثم غادرت الغرفة بجلال.

عمَّ صمتٌ لحظيٌّ في غرفة النُّزل العتيق، بينما تلاشى حفيفُ تنانير الكونتيسة في غياهب الرَّدهة. وظلَّت مارجريت، التي كان متصلبةً كتمثالٍ، تُتابع هيئة الكونتيسة المنتصِبة بعينين ثابتتين جامدتين وهي تختفي عن الأنظار عبر المدخل؛ ولكن بينما كانت سوزان الصغيرة على وشك اللَّحاق بأمها، متواضعةً ومُطيعة، اختفَت النظرة الجامدة الثابتة فجأةً وتسلَّلَت إلى عينَي الليدي بليكني نظرةٌ حزينة طفولية ممتزجةٌ بحنينٍ إلى الماضي، وتكاد تكون مثيرة للشفقة.

لمحت سوزان الصغيرةُ تلك النظرة؛ فتعاطفت الطبيعة الحلوة لدى الطفلة مع المرأة الجميلة، التي كانت تَكبُرها بفارقٍ طفيف جدًّا، وتلاشت طاعتُها لأمها أمام تعاطفها البناتي، فاستدارت عند الباب وركَضَت عائدةً إلى مارجريت، ولفَّت ذراعيها حولها وقبَّلتْها بعاطفةٍ جيَّاشة، وبعدئذٍ فقط لحقت بأمها، ولحقت بهما سالي بابتسامةٍ مسرورة على وجهها ذي الغمازتين، وبانحناءةٍ أخيرةٍ للسيدة.

خفَّف اندفاعُ سوزان الحُلوُ الرقيق وطْأةَ التوتُّر المزعِج. وتابعت عينا السير أندرو جسدها الجميل الصغير حتى غاب عن ناظِرَيه تمامًا، وبعدها التقتا بعينَي الليدي بليكني بسرورٍ صادق.

كانت مارجريت قد أرسَلتْ قُبلةً في الهواء إلى السيدة وبنتها وهما تغيبان عن الأنظار عَبر الباب بتكلُّفٍ رقيق، وبعدها بدأَت ابتسامةٌ مرحة تحوم حول ثنايا ثَغرِها.

قالت بمرح: «إذنْ هذا هو الأمر، أليس كذلك؟ عجبًا! هل رأيتَ شخصًا مزعجًا هكذا من قبل يا سير أندرو؟ أتمنى ألَّا أبدوَ هكذا عندما أصبح عجوزًا.»

لملَمَت تنانيرها ومشَت بخطواتٍ متعاليةٍ وجلالٍ مصطنَع نحو المِدفَأة.

ثم قالت مقلدةً صوتَ الكونتيسة بسخرية: «سوزان، أنا أمنعك من الكلام مع تلك المرأة!»

ربما بَدَت الضحكة التي صاحَبَت هذه النكتةَ مريرةً ومصطنَعة بعضَ الشيء، ولكن لم يكن أيٌّ من السير أندرو أو اللورد توني قويَّ الملاحظة لينتبهَ إلى ذلك. كان التقليد مُتقنًا جدًّا، وكانت نبرةُ الصوت مُستنسَخةً بدقةٍ تامَّةٍ لدرجة أن كِلا الشَّابَّين هتفا معًا بحماسة: «أحسنتِ!»

أضاف اللورد توني: «آه! يا ليدي بليكني! لا بد أنهم يفتقدونكِ في مسرح الكوميدي فرانسيز، ولا بد أن الباريسيِّين يكرهون السيد بيرسي لأنه جعَلكِ تتركينهم.»

ردَّت مارجريت بهزةٍ من كتفَيها الجميلتَين: «ربَّاه يا رجل، من المستحيل أن يكرَه أحدٌ السير بيرسي لأيِّ سببٍ مهما كان؛ فنِكاته الطريفة يمكنها أن تكسرَ عَداء السيدة الكونتيسة نفسِها وتنال استحسانَها.»

كان الفيكونت الشَّابُّ، الذي لم تأمُرْه أمُّه باللَّحاق بها في خروجها الجليل، ما زال في الغرفة؛ فتقدم خطوةً الآن متأهِّبًا للدفاع عن الكونتيسة إذا وجَّهَت الليدي بليكني أيَّ سخرية أخرى إليها. لكن، وقبل أن يتمكنَ من التفوُّه بأي كلمة احتجاجيَّة، سُمِعَت من الخارج ضحكةٌ لطيفة وإن كانت بَلْهاء بوضوح، وفي اللحظة التَّالية ظهَر عند عتبة الباب شخصٌ طويلٌ طولًا غير معتاد ويرتدي ثيابًا غالية جدًّا.

الفصل السادس

مُتأنقٌ عام ١٧٩٢

كان السير بيرسي بليكني، كما تُخبرنا سجلَّات ذاك الوقت، لا يزال أصغرَ من الثلاثين بسنةٍ أو اثنتَين في ذلك العام الميلادي ١٧٩٢. كان طويل القامة، أطولَ من المتوسط، حتى مقارنةً بالرجال الإنجليز، وكان عريضَ المنكبين ضخمَ البِنْية؛ ولذا كان من المفترض أن يوصَف بأنه حسَنُ المظهر للغاية، لولا نَظرةٌ بليدة معيَّنة في عينَيه الزرقاوَين العميقتين، وتلك الضحكة البلهاء الدَّائمة التي بدا كأنها شوهَت فمه القوي المحدد المعالم.

كان السير بيرسي بليكني، البارونيت، أحدَ أثرى أثرياء إنجلترا، ورائدًا لكل صيحات الأزياء الحديثة وصديقًا مقرَّبًا لأمير ويلز؛ وكان في ذلك الوقت قد مرَّ نحوُ عام على إبهاره المجتمع العصري في «لندن» و«باث»، بإحضار زوجةٍ فَرنسية حسناء ذكية رائعة إلى إنجلترا من إحدى رحلاته إلى الخارج. إذ كان، وهو البريطاني الأكثرُ بريطانيةً وخمولًا وبلادةً الذي دائمًا ما كان يجعل أيَّ امرأةً جميلة تتثاءب، قد فاز بزوجةٍ رائعة كانت مَطمعًا للكثير من المتنافسين عليها، كما يؤكِّد كلُّ المؤرخين.

كان الظهور الأول لمارجريت سان جوست في الأوساط الفنية الباريسية متزامنًا مع أشدِّ اضطرابٍ اجتماعي عرَفه العالم داخل أسوار باريس. كان عمرُها آنذاك يشارف على الثَّامنة عشرة، وكانت موهوبةً بقدرٍ جَمٍّ من الجمال والنبوغ، ولم يكن معها سوى أخٍ شابٍّ مخلص، وبذلك سرعان ما جذبت حولها في شقتِها السَّاحرة بشارع ريشيليو زُمرةً رائعة بقدرِ ما كانت حصرية؛ حصرية بمعنى أنها كانت تضمُّ أشخاصًا لهم وجهة نظرٍ واحدة فقط؛ فمارجريت سان جوست كانت ضمن مبادئها مؤمنةً بالمذهب الجمهوري إيمانًا راسخًا وعن اقتناع — كان شِعارها أنَّ الناس وُلِدوا سواسية — وكانت ترى تَفاوُتَ الثَّروات مجردَ صُدفة مؤسِفة، لكنَّ التفاوُت الحقيقي الذي كانت تعترف به، كان تفاوُتَ

المواهب. فكانت تقول: «المال والألقاب قد تورَث، لكنَّ القدرات الفكرية لا»؛ ولذا كانت صالةُ بيتها الأخَّاذة مُخصَّصةً للإبداع والفِكر، للذكاء والفطنة، للرجال الأذكياء والنساء الموهوبات، وسرعان ما أصبح دخولُ تلك الصالة يُعتَبر في عالم المثقفين — الذي وجَد مرتكزًا له في باريس حتى في تلك الأيَّام والأوقات العصيبة — ضمانةً لمسيرةٍ مهنية فنِّية ناجحة.

وهكذا فإنَّ رجالًا أذكياءَ ورجالًا متميِّزين وحتى رجالًا ذَوي مكانة مرموقة قد أصبَحوا بمنزلة حاشيةٍ دائمة ولامعة حول ممثِّلة مسرح الكوميدي فرانسيز الشَّابة الرائعة، وحلَّقَت هي في باريس الجمهورية الثورية المتعطشة للدماء كمُذَنَّبٍ لامعٍ، ساحبةً وراءها ذيلًا من كل ما هو متميزٌ ومثيرٌ للاهتمام في أوروبا المثقَّفة.

ثم حلت ذروة الأحداث. ابتسم البعضُ متساهلًا وسمَّاها «انحرافًا فنيًّا»، واعتبرها البعض بصيرةً حكيمة في ضوء الأحداث العديدة التي كانت تتزاحم بكثافةٍ وسرعة في باريس آنذاك، ولكن ظلَّ الدَّافع الحقيقي وراء تلك الذروة أُحْجيةً ولُغزًا غامضًا للجميع. على أي حال، تزوَّجَت مارجريت سان جوست السير بيرسي بليكني في يومٍ من الأيَّام، هكذا فقط، دون أن تُخطِر أيًّا من أصدقائها سلفًا، وبدون إقامةِ ليلةٍ لِعَقد القران أو عَشاء خِطْبة أو أيٍّ من ملحقات زفافٍ فرنسي عصري.

لم يجرؤ أحدٌ على تخمين الكيفية التي قُبل بها ذاك الإنجليزي الغبي البليد ضِمن دائرة المثقفين التي كانت تدور حول «أذكى امرأةٍ في أوروبا» كما أطلق عليها أصدقاؤها بالإجماع، وادَّعى ذَوو الميول الحقودة أنَّه يُقال إن المال يفتح كلَّ الأبواب.

حسنًا، هذا يكفي. تزوَّجَته، وربطتْ «أذكى امرأةٍ في أوروبا» مصيرَها بذاك «الأحمق اللعين» بليكني، وحتى أقرب أصدقائها لم يستطيعوا تحديدَ أيِّ دافعٍ وراء هذه الخطوة الغريبة سوى الانحرافِ التام عن الصواب. أمَّا أولئك الأصدقاء الذين كانوا أدرى، فضحكوا استهزاءً بفكرة أن مارجريت سان جوست قد تزوَّجَت أحمقَ لأجل المزايا الدنيوية التي قد يمنحُها إيَّاها. بل كانوا يعرفون أن مارجريت سان جوست لم تكن تهتمُّ بالمال، بل وأنها أقلُّ اهتمامًا بالألقاب؛ وفوق هذا، كان على الأقل ستة رجالٍ آخَرين من مختلِف أنحاء العالم ذَوي أصولٍ نبيلة كالسير بليكني، وإن لم يكونوا أثرياءَ بقدره، مستعدِّين تمامًا لإعطاء مارجريت سان جوست أيَّ مكانةٍ قد تختار أن تطمع فيها.

أمَّا السير بيرسي نفسُه، فقد اتفق الجميعُ على أنه غيرُ مؤهَّلٍ إطلاقًا للمسئولية الشَّاقَّة التي قرَّر أخْذَها على عاتقه. إذ بدا أنَّ مؤهلاته الأساسية لها تقتصر على هُيامه الأعمى

بها، وثروته الطائلة والتقدير العالي الذي يحظى به في القصر الحاكم الإنجليزي، لكن مجتمع لندن ارتأى أنه، بأخذِ حدود قدراته الفكرية في الحُسبان، كان ينبغي له أن يجعل تلك المزايا الدنيويةَ من نصيبِ زوجةٍ أقلَّ جمالًا وذكاءً.

مع أنه كان شخصيةً بارزةً جدًّا في المجتمع الإنجليزي العصري في الآونة الأخيرة، فإنه أمضى أغلبَ حياتِه المبكِّرة في الخارج. كان والده الراحل السير ألجرنون بليكني قد ابتُلِي بمصيبةٍ فظيعةٍ بأن رأى زوجته المحبوبة الشَّابة تُصاب بجنونٍ ميئوسٍ من علاجِه بعد سنتَين من حياةٍ زوجيةٍ سعيدة. كان بيرسي قد وُلد للتوِّ عندما وقَعَت الليدي بليكني الراحلةُ ضحيةً للمرض الفظيع الذي كان يُعدُّ آنذاك ميئوسًا من علاجه، وكان يُعدُّ بمنزلة لعنةٍ من الرب على العائلة كلِّها. أخذ السير بليكني زوجته الشَّابة المبتلاة إلى الخارج، ومن المرجَّح أن بيرسي تعلَّم وكبر هناك بين أمٍّ مخبولة وأبٍ مشتَّتٍ مهموم حتى بلَغ أشُدَّه. ثم مات والداه واحدًا تِلوَ الآخَر مباشرةً وتركاه رجلًا حُرًّا، ولأنَّ السير ألجرنون عاش حياةً بسيطةً ومنعزلة مُكرهًا؛ تضاعَفَت ثروة بليكني الطائلةُ عشر مرَّات.

كان السير بيرسي بليكني قد سافر إلى الخارج كثيرًا قبل أن يجلب زوجته الفرنسية الجميلة الشَّابة إلى بلده إنجلترا. وكانت الأوساط المواكِبة لأحدث صيحات العصر آنذاك مستعِدَّةً لاستقبال كِلَيهما بأذرعٍ مفتوحة. كان السير بيرسي غنيًّا وكانت زوجته جميلةً ومهذبة ومثقفة، وقد أُعجِب أمير ويلز بكِلَيهما كثيرًا. وخلال ستة أشهر أصبحا هما الرائدَين المُعترَف بهما في عالم الموضة والأناقة وحتى طريقة التصرُّف. فمعاطف السير بيرسي كانت حديثَ البلدة، وكان يُستشهَد بتصرفاته التافهة البلهاء، وكان الشباب المُترَفُ الثريُّ في نادي «ألماكس» الاجتماعي أو شارع «بال مول» يُقلدون ضحكته الحمقاء. كان الجميع يعرف أنه غبيٌّ غباءً لا دواء له، ولكن لا أحد تقريبًا كان يستغرب هذا، نظرًا إلى أن آل بليكني كانوا جميعًا مشهورين بالبلادة على مَرِّ أجيال، ولأن والدته ماتت مخبولة.

وهكذا قبِلهُ المجتمع ودلَّلــه ورفع شأنه؛ لأن خيوله كانت الأفضلَ في البلاد، ولأنَّ نوعيات نبيذه وحفلاته كانت مُفضَّلة جدًّا. أمَّا زواجه بـ «أذكى امرأةٍ في أوروبا»، حسنًا! جاء المحتومُ بخطًى واثقةٍ سريعة. لم يُشفق عليه أحد؛ لأنه هو مَن اختار قَدَره. إذ كانت توجد في إنجلترا آنساتٌ كثيرات ذَوات أصولٍ رفيعة وجمالٍ كُنَّ على استعدادٍ تامٍّ لمساعدته في إنفاق ثروة بليكني وهُنَّ يبتسمنَ متساهلاتٍ أمام تصرُّفاته البلهاء وحماقته المرحة. وفوق ذلك، لم ينَل السير بيرسي أي شفقةٍ لأنه لم يَبدُ محتاجًا إلى ذلك؛ إذ بدا فخورًا جدًّا بزوجتِه الذكية، ولم يكن يهتمُّ كثيرًا بأنها لم تبذل جهدًا لإخفاء الازدراء الوديِّ الذي

من الواضح أنها كانت تشعر به تجاهه، وبأنها حتى كانت تُسلي نفسها بصَقلِ بديهتِها السريعة الحاضرة على حسابه.

ولكن على أي حال، كان بليكني في الحقيقة أغبى من أن يُلاحظ السخرية التي كانت زوجتُه الذكية تنهال عليه بها، ولم يستطع المجتمعُ قَط إلَّا أن يُطلِقَ تكهُّنات غيرَ مؤكدة بشأنِ ما إذا كانت علاقته الزوجية بالباريسيةِ الفاتنة قد حقَّقَت كلَّ ما تصوَّرَته آمالُه وإخلاصه لها الذي كان يماثل إخلاص الكلاب.

كان في بيته الجميل في ريتشموند يؤدِّي دورَ الطرَف الأقلِّ شأنًا في علاقته بزوجته الذكية بمودةٍ هادئة؛ فكان يُغدِق عليها الحُليَّ ومظاهر الرفاهية بكل أنواعها، وكانت تأخذها بقدرٍ لا يُضاهى من التأدُّب والدماثة، مُوزِّعةً كرَمَ قصره الرَّائع بالتأدُّب نفسِه الذي كانت تستقبل به زُمرةَ المثقفين في باريس.

كان السير بليكني من الناحية الجَسَدية وسيمًا بلا شك؛ ودائمًا ما كان هكذا باستثناء النظرة الكَسولة المَلولة التي كانت ثابتةً لديه بحُكم العادة. دائمًا ما كان يلبس ثيابًا لا عيب فيها، وكان يرتدي أحدثَ صيحات أزياء «المتأنقين الفرنسيين» المُبالَغ فيها التي كانت قد تسلَّلَت للتوِّ من باريس إلى إنجلترا، جاعلًا إياها تبدو مناسبةً للذوق الحَسَن المثالي المتأصِّل بالفطرة لدى السادة الإنجليز. وفي هذه الأمسية الخاصَّة من سبتمبر، وبالرغم من الرحلة الطويلة التي خاضها بالعرَبة، وبالرغم من المطر والوحل، كان معطفُه مضبوطًا بلا أيِّ عيب على كتفَيه البديعتين، وبدَتْ يداه بيضاوَين إلى حدٍّ يكاد يكون أنْثَويًّا وهما تظهران من خلال الكشكشات المُتماوجة لأكمامه المصنوعة من أجودِ أنواع دانتيل «ميكلين»، أمَّا معطفه الساتاني القصير الباهظ للغاية، والصِّدار العريض الياقة، والبنطال الضيق المخطَّط المربوط أسفل الركبتَين، فكانت تُبرز هيئته العملاقة جاعلةً إياها تبدو مثالية، وبذلك كان من الممكن أن يُعجَب المرءُ إعجابًا شديدًا بالسير بليكني عندما يراه ساكنًا؛ لأنه عندئذٍ يكون بمنزلة نموذجٍ بديعٍ للرجولة الإنجليزية، إلى أن يزولَ هذا الإعجاب فجأةً بسبب التغَندُر والحركات المصطنَعة والضحكة البلهاء الدائمة.

كان قد دخل صالة استقبال النُّزل العتيقة الطراز متلكِّئًا، وهو ينفِض البللَ عن معطفه الفاخر الأنيق، ثم رفَع عدسةً بإطارٍ ذهبيٍ إلى عينه الزرقاء الكسولة وتفَقَّد رفقة الحاضرين، التي كان قد خيَّم عليها صمتٌ محرجٌ فجأةً.

قال، بعدما عرَف الشَّابَّين وصافحَهما: «كيف الحال يا توني؟ كيف الحال يا فولكس؟» وتابع مضيفًا وهو يكبح تثاؤبًا طفيفًا: «سحقًا يا رفيقَي العزيزين، هل رأيتما يومًا بغيضًا كهذا من قبل؟ اللعنة على هذا الطقس.»

بضحكةٍ قصيرةٍ غريبة تمزج بين الحَرَج والسخرية، كانت مارجريت قد التفَتَت نحو زوجها تتأمَّلُه من رأسه حتى أخمص قدميه بوميضٍ مبتهج في عينيها الزرقاوَين المرِحتَين.

قال السير بيرسي بعد برهةٍ أو اثنتين من الصمت لم ينبس فيهما أيُّ أحد ببنتِ شَفة: «عجبًا! تبدون مرتبِكين جميعًا. ما الأمر؟»

أجابت مارجريت: «أوه، لا شيء يا سير بيرسي، لا شيء يُزعج رِباطةَ جأشك؛ مجرد إهانةٍ لزوجتك فحسب»، ومع أنَّ إجابتها كانت ممزوجةً بقدرٍ معيَّن من المرح، فإنَّه بدا مصطنَعًا إلى حدٍّ ما.

كان واضحًا أن الضحكة التي صاحَبَت هذا التعليق تهدف إلى تأكيد جَسامة الحَدَث للسير بيرسي. ويبدو أنها نجحَت في ذلك؛ لأنه بعدما ردَّد الضحك، رَدَّ بهدوء قائلًا:

«عجبًا يا عزيزتي! مستحيل. بحقِّ الرب! مَن هو الرجل الوقح الذي تجرَّأ على مُهاجمتكِ؛ هه؟»

حاول اللورد توني التدخُّلَ لكن الوقت لم يُسعِفْه لأن الفيكونت الشَّاب كان بالفعل قد سبقه بسرعة.

قال مُستهِلًّا خُطبته القصيرة بانحناءةٍ متقَنةٍ وبإنجليزيةٍ ركيكة: «يا سيدي، أمي، كونتيسة تورناي دو باسيريف، أساءت إلى السيدة، التي هي زوجتُك، حسبما أفهم. لا أستطيع أن أطلب عفوَك عن أمي؛ لأنها لم تُخطئ، في رأيي. لكني على استعدادٍ لأقدِّم لك التعويضَ المعتاد بين الرجال الشرفاء.»

شَدَّ الشَّاب قامتَه النحيلة إلى أقصى ارتفاعها، وبدا متحمسًا جدًّا، وفَخورًا جدًّا ومنفعلًا جدًّا وهو يُحدِّق إلى مترين عجيبَين من البهاء متجسدًا في السير بيرسي بليكني، البارونيت.

قالت مارجريت بإحدى ضحكاتها المرحة المُعدِية: «يا إلهي، سير أندرو، انظر إلى تلك الصورة الجميلة؛ الديك الرومي الإنجليزي والدجاجة القزمة الفرنسية.»

كان التشبيه مِثاليًّا تمامًا، ونظر الديك الرومي الإنجليزي نحو الأسفل بحيرةٍ شديدة إلى تلك الدجاجة القزمة الفرنسية الصغيرة الجميلة الرقيقة التي كانت تحوم حوله بطريقةٍ متوعِّدة.

قال بيرسي أخيرًا وهو يضع عدستَه على عينه ويتفحَّص الفرنسي الشَّابَّ بتعجُّبٍ واضح: «عجبًا يا سيد! أين تعلمتَ التحدثَ بالإنجليزية بحقِّ الوقواق؟»

اعترَض الفيكونت قائلًا: «أيها السيد!» وهو يبدو مستاءً بعض الشيء من الطريقة التي تعامل بها الإنجليزيُّ ذو المظهر المتكاسل الملول مع سلوكه المتحمِّس للقتال.

تابع السير بيرسي بثبات: «أؤكِّد أنَّ هذا مذهل! مذهلٌ جدًّا! ألا تظن ذلك يا توني؛ هه؟ أقسم أنني لا أستطيع التحدثَ باللغة الفرنسية هكذا. أليس كذلك؟»

ردَّت مارجريت قائلة: «بلى، سأؤكِّد ذلك على ضمانتي! فالسير بيرسي لديه لكنةٌ إنجليزية غليظة جدًّا.»

تدخَّل الفيكونت قائلًا بجِدِّية وبلكنة إنجليزية أشدَّ ركاكةً من ذي قبل: «أيها السيد، يؤسفني القول إنك لم تفهم قصدي. أنا أعرض عليك التعويض الوحيد الممكن بين السَّادة النبلاء.»

سأل بيرسي برقَّة: «ما هو ذاك بحقِّ الشيطان؟»

أجاب الفيكونت الذي بدأ يفقد أعصابَه مع أنه ما زال حائرًا: «سيفي يا سيد.»

قالت مارجريت بمرَح: «يا لورد توني، أنت رجلٌ مُحبٌّ للتسلية؛ رِهانٌ بعشَرة مقابل واحدٍ على فوز الدجاجة القزمة.»

لكن السير بيرسي كان يُحدِّق ناعسًا نحو الفيكونت لحظةً أو اثنتَين عبر جَفْنَيه شِبه المُقفلَين، ثم كبح تثاؤبًا آخَر، ومَدَّ أطرافه الطويلة ثم أدار ظهره له على مهَل.

تمتَم قائلًا بنبرةٍ مَرِحة ودِّية: «لِيُحبِبك الربُّ يا سيد. سُحقًا أيها الشَّاب، ما نفع سيفك لي؟»

كان ما خَطَر ببال الفيكونت وشَعر به في تلك اللحظة، عندما عامله ذاك الإنجليزيُّ ذو الأطراف الطويلة بهذه الوقاحة الجليَّة، يمكن أن يملأ مجلداتٍ من الخواطر العقلانية ... لكنَّ ما قاله تلخَّص في كلمةٍ وحيدةٍ واضحة؛ لأنَّ البقية علقَت في حنجرته بسبب غضبه العارم:

قال متلعثمًا: «مبارزة أيُّها السيد.»

التفتَ بليكني مرةً أخرى، ونظر نحو الأسفل من قامته العالية إلى الشَّابِّ السريع الغضب الواقفِ أمامه، لكنه لم يفقد سماحته الرابطة الجأش ولو ثانيةً واحدة. ضحك ضحكتَه البهيجة البلهاء، ودفن يدَيه الرشيقتين الطويلتين في جيبَي معطفه الواسعَين قائلًا بتأنٍّ:

«مبارزة؟ عجبًا! أهذا ما قصَده؟ سحقًا! إنك همجيٌّ صغيرٌ متعطشٌ للدماء. هل تريد أن تُحدِث جُرحًا غائرًا في جسد رجلٍ يحترم القانون؟ ...» وأضاف وهو يقعد بهدوءٍ باسطًا ساقَيه الطويلتَين الكسولتَين أمامه: «أنا شخصيًّا لا أخوض المبارزات أبدًا يا سيد. المبارزات شيءٌ مزعج لعين، أليس كذلك توني؟»

لا شكَّ في أنَّ الفيكونت كان قد سمع بشكلٍ غيرِ واضح أن القانون في إنجلترا قد فَرَض رادعًا صارمًا جدًّا على عادة المبارزة بين السَّادة النبلاء؛ ولكن لأنه رجلٌ فرنسي تستند مفاهيمه عن الشجاعة والشرف إلى قاعدةٍ مدعومةٍ بقرونٍ طويلة من التقاليد، ظل يرى أنَّ مشهدَ رجلٍ نبيلٍ يرفض بالفعل أن يخوضَ مبارزةً يعدُّ بمثابة تصرُّف شائن فادح. تساءل في قرارة نفسِه متحيرًا عمَّا إن كان ينبغي أن يصفع الإنجليزيَّ الطويلَ السَّاقَين على وجهه ويدعُوَه بالجبان، أم أن سلوكًا كهذا قد يكون غيرَ لائقٍ في وجود سيدة، وعندئذٍ تدخَّلَت مارجريت بابتهاج.

قالت بصوتِها الرقيق العذب الرخيم ذاك: «أترجَّاك يا لورد توني، أترجَّاك أن تُحِلَّ الوئام بينهما. فالفتى يتفجَّر غضبًا.» وأضافت بقليلٍ من السخرية الواقعية: «وقد يُحدث إصابةً في جسد السير بيرسي.» ضحكَت ضحكةً قصيرةً ساخرة، لكن هذه الضحكة لم تُزحزح رباطةَ جأش زوجها الهادئةَ إطلاقًا. قالت: «لقد ولَّى زمان الديك الرومي الإنجليزي. بوسع السير بيرسي استفزازَ كلِّ القدِّيسين المعروفين وهو محتفظٌ بهدوئه.»

لكن بليكني المَرِح الوَدود كدأبه دائمًا كان قد انضمَّ بالفعل إلى الضحك على نفسِه.

قال وهو يلتفتُ إلى الفيكونت بدماثة: «كان ذلك بارعًا جدًّا، أليس كذلك؟ زوجتي امرأةٌ ذكية، يا سيد ... ستكتشف ذلك إن عشتَ مدةً كافية في إنجلترا.»

هنا تدخَّل اللورد أنتوني ووضع يدَه على كتف الفيكونت بوُدٍّ، قائلًا: «السير بيرسي مُحقٌّ يا فيكونت، سيكون من غير المناسب أن تبدأ مسيرتَك في إنجلترا باستفزازه إلى مبارزة.»

تردَّد الفيكونت لحظةً أطول، ثم هزَّ كتفَيه هزةً طفيفة تنمُّ عن استيائه من ميثاق الشرف الغريب المُتَّبَع في هذه الجزيرة المغطَّاة بالضباب، وقال باحترامٍ لائق:

«آه، حسنًا! إذا كان السيدُ راضيًا، فلستُ متضايقًا. أنت حامينا يا سيدي. إن كنتُ قد ارتكبتُ خطأً، فأنا أتراجع.»

ردَّ بليكني بتنهيدةِ ارتياح طويلة: «أجل، افعل!» وأضاف متمتمًا في قرارة نفسه: «تراجع إلى هناك. جروٌ لعينٌ متحمِّس. بربِّك يا فولكس، إن كان هذا هو نوعَ البضائع التي

تجلبها أنت وأصدقاؤك من فرنسا، فنصيحتي لكم أن تُلقوها وسط القنال يا صديقي، وإلَّا فسأتناقش مع بِيت العجوز بخصوص ذلك، وأجعله يفرض ضريبةً مانعة بسرعة، ويضعكم في المخازن مع ما هَرَّبتم.»

قالت مارجريت بدلالٍ وغُنخ: «عجبًا يا سير بيرسي، فروسيتك تُضلِّلك، نسيتَ أنَّك أنت نفسك قد استوردتَ حُزمةَ بضائع من فرنسا.»

نهض بليكني ببطء، ثم انحنى انحناءةً عميقة متقَنة أمام زوجته، وقال بكياسة بالغة:

«لقد حصَلتُ على أفضلِ ما في السوق سيدتي، وذَوقي حسَنٌ دائمًا.»

ردَّت بسخرية: «أحسنُ من فروسيتك مع الأسف.»

«يا إلهي يا عزيزتي! كُوني منطقية! هل تظنِّين أنني سأسمح بأن يكون جسدي وسادة دبابيس لكلِّ فرنسي حقير صغيرٍ لا يُعجبه شكلُ أنفكِ؟»

ضحكَت الليدي بليكني وهي تنحني له انحناءةً لطيفة حلوة: «ربَّاه يا سير بيرسي! لا داعيَ إلى أن تخاف! فليس الرجالُ هُم مَن لا يُعجبهم شكلُ أنفي.»

«اللعنة على الخوف! هل تطعَنين في شجاعتي يا سيدة؟ لا أرتاد الحَلْبة دون سببٍ وجيه، أليس كذلك، يا توني؟ لقد صارعتُ ريد سام من قبل، و... ولم ينَل مُبتغاه أيضًا ...»

قالت مارجريت بضحكةٍ طويلة ومبتهجة تَردَّد صَداها بطولِ عوارض البلُّوط المائلة القديمة في الغرفة: «يا إلهي يا سير بيرسي، ليتني رأيتُك حينَئذٍ ... ها! ها! ها! ها! لا بد أن منظرك كان جميلًا ... و... وأن تخاف من فتًى فرَنسيٍّ صغير ... ها! ها! ... ها! ها!»

كرَّر السير بيرسي الضحك بروحٍ وَدودة: «ها! ها! ها! ها! ها! ها! عجبًا يا سيدتي، إنك تُشرفينني! سحقًا! سَجِّل ذلك يا فولكس! لقد جعلتُ زوجتي تضحك! أذكى امرأةٍ في أوروبا! ... يا إلهي! لا بد أن نشرب كأسًا احتفالًا بهذا!» وطرَق على الطَّاولة القريبة منه بقوةٍ وحيوية قائلًا: «هاي! يا جيلي! بسرعة يا رجل! هنا يا جيلي!»

عاد الانسجام مجدَّدًا. وعاد السيد جيليباند إلى حالته الطبيعية بمشقةٍ بالغة بعد كلِّ المشاعر التي مر بها خلال آخرِ نصف ساعة.

قال السير بيرسي: «صَحن من شراب البنش يا جيلي، ساخنٌ ومُركَّز، هاه؟ لا بد من شَحْذ الظرف الذي للتو جعل امرأةً ذكيةً تضحك. ها! ها! ها! أسرِع يا جيلي الطيب!»

تدخَّلَت مارجريت قائلةً: «لا، لا يوجد وقتٌ يا سير بيرسي. سيكون الربَّان هنا قريبًا، ويجب أن يصعد أخي على متن مركب «داي دريم (حلم اليقظة)»، وإلَّا فسيُفوِّت المَدَّ المواتي.»

«وقت، يا عزيزتي؟ يوجد متسع من الوقت لأي سيدٍ نبيل كي يَثْمل ويصعد على متن المركب قبل تحوُّل المد.»

قال جيليباند باحترام: «أظن يا سيدتي أن السيد الشَّاب قادمٌ الآن مع رُبَّان مركب السير بيرسي.»

فقال بليكني: «هذا صحيح، وعندئذٍ يمكن لأرماند الانضمامُ إلينا في شُرب هذا الصحن البهيج.» وأضاف ملتفتًا نحو الفيكونت: «هل تظنُّ يا توني أنَّ طفلك المؤذيَ الوقح ذاك سينضمُّ إلينا في شُرب كأس؟ أخبره بأننا نشرب عربون صُلح.»

قالت مارجريت: «في الحقيقة، أنتم جميعًا رفقةٌ مَرِحة وبهيجة جدًّا لدرجة أنني واثقةٌ بأنكم ستُسامحونني إن ذهبتُ لأودعَ أخي في غرفةٍ أخرى.»

كان الاحتجاج على ذلك سيبدو تصرُّفًا وقحًا. فكلٌّ من اللورد أنتوني والسير أندرو شعَر بأن الليدي بليكني لا تستطيع إطلاقًا أن تكون منسجمةً معهما في هذه اللحظة. كانت مَحبتُها لأخيها أرماند سان جوست عميقةً ومؤثرةً إلى أقصى حدٍّ. كان قد أمضى عدةَ أسابيعَ معها في منزلها الإنجليزي، وكان سيعود ليخدم بلاده في وقتٍ كان فيه الموت هو المكافأةَ المعتادة للتفاني الدَّائم.

ولم يُحاول السير بيرسي أيضًا استبقاءَ زوجته. وبالملاطفة المتكلَّفة التي ميَّزَت كلَّ تصرفاته، فتَح لها بابَ غرفة القهوة، وقدَّم لها أفضلَ وأكمَل انحناءةٍ وَفْق عُرف الآداب العامة السائدِ آنذاك، بينما خرَجَت مُسرعةً من الغرفة بدون أن تمنحَه سوى نظرةٍ عابرةٍ ممزوجة بقليلٍ من الازدراء. وكان السير أندرو، الذي بدا تفكيره أشدَّ تركيزًا وألطفَ وأكثرَ تعاطفًا بالفطرة منذ أن التقى بسوزان تورناي، هو الوحيدَ الذي لاحظ النظرةَ الغريبة الممزوجة باشتياقٍ شديد وعشقٍ عميق يائس، التي تابع بها السير بيرسي الأبلهُ التافهُ زوجتَه الذكية وهي تغادر.

الفصل السابع

البستان السري

حالما غادرَت مارجريت بليكني غرفةَ القهوة الصَّاخبة وصارت وحدها في الممرِّ الخافت الإضاءة، بدا أنها تتنفَّسُ بحريةٍ أكبر. وأطلقَت تنهيدةً عميقة كشخصٍ كان مكبوحًا منذ وقتٍ طويل تحت ثِقَل رباطة الجأش المستمرَّة، وسمحت لِبضع دمعات بأن تسقط على وجْنتَيها دون غضاضة.

كان المطر قد توقَّف في الخارج، وتسلَّلَت أشعَّة الشمس الباهتةُ بعد العاصفة عبر الغيوم العابرة بسرعةٍ لتسطع على ساحلِ كِنْت الأبيض الجميل، وكانت مجموعةٌ عشوائية من المنازل الغريبة الخلَّابة القديمة الطراز محتشدةً كالعناقيد حول رصيف إدارة الشئون البحرية. خرجَت مارجريت بليكني إلى الشرفة وتأمَّلَت البحر. وأمام خلفية السماء المتغيرة باستمرار، كان مركبٌ شراعي رشيقٌ بأشرعةٍ بيضاء ممدودةٍ — بدا مرسومًا كصورةٍ ظِلِّية — يتراقص برقةٍ مع النسيم. كان ذلك المركبُ هو مركب «داي دريم»، يخت السير بليكني الذي كان مُستعدًّا لإعادة أرماند سان جوست إلى فرنسا وسط رَحى تلك الثورةِ الدموية المشتعِلة، التي أسقَطَت نظامًا مَلَكيًّا وهاجمَت دينًا ودمَّرَت مُجتمعًا، في محاولةٍ لإعادة بناء عالمٍ مثاليٍّ جديدٍ على رماد الأعراف، عالمٍ حلَمَ به قلةٌ من الرجال ولكن لم يكُن أيٌّ منهم لديه القدرة على إقامته.

كان شخصان يقتربان من «استراحة صيَّاد السمك» من بعيد: أحدُهما رجلٌ مُسنٌّ بعض الشيء لديه لحية عجيبة ذات حافةٍ من الشعر الرمادي حول ذقنه المستدير الممتلئ والعريض، وكان يمشي بتلك الخطوات المترنِّحة المميزة التي دائمًا ما تفضح البحَّارة؛ أمَّا الآخر، فكان شابًّا نحيلًا يرتدي معطفًا أسودَ متعددَ الأردية بأناقة وجاذبية، وكان حليقَ الذقن، فيما كان شعره الدَّاكن ممشطًا بعناية إلى الخلف فوق جبهةٍ صافية نبيلة.

قالت مارجريت بليكني حالما رأتْه قادمًا من بعيد: «أرماند!» وأشرقَت أساريرُ وجهها الحلو بابتسامةٍ سعيدة من بين دموعها.

وبعد دقيقةٍ أو اثنتين، كان الأخ والأخت متعانقَين، بينما وقف الربَّان العجوزُ جانبًا باحترامٍ.

سأَلت الليدي بليكني: «كم لدينا من الوقت يا بريجز؟ قبل أن يصعد السيد سان جوست على متن القارب؟»

أجاب العجوز وهو يشدُّ ذُؤابته الرمادية: «يجب أن نرفع المرساة قبل مرور نصف ساعة يا سيدتي.»

فعقدَت مارجريت ذراعها بذراع أخيها واصطحَبَته نحو الجُرف.

قالت وهي تتأمَّل البحر بحزن: «نصف ساعة، نصف ساعةٍ أخرى وستكون بعيدًا عني يا أرماند! أوه! لا أستطيع أن أُصدِّق أنك ذاهبٌ يا عزيزي! هذه الأيام القليلة الأخيرة، التي كان فيها بيرسي غائبًا وكُنتَ لي وحدي، مرَّت سريعًا كالحلم.»

قال الشَّابُّ بلطف: «لستُ ذاهبًا إلى مكانٍ بعيد يا حلوتي؛ مجرد قناةٍ ضيقة سأعبرها؛ بضعة أميالٍ من الطريق سأقطعها، يمكنني العودة قريبًا.»

«لا، المشكلة ليست المسافةَ يا أرماند، بل إنها باريس الفظيعة ... الآن بالذات ...»

كانا قد وصلا إلى حافة الجرف. كان نسيم البحر اللطيف يجعل شعر مارجريت يتطايرُ حول وجهها، ويجعل أطرافَ شالها النَّاعم المنسوج من الدنتيل تُرفرف متماوجةً حولها كأفعى بيضاءَ مَرِنة. حاولَت أن تخترق بعينيها المسافةَ الطويلة وصولًا إلى ما وراء شواطئ فرنسا، فرنسا القاسية المُنعدمة الشفقة التي تُصرُّ على نَيل حقها بكلِ وحشية بأخذ ضريبةٍ من دماءِ أنبل أبنائها.

قال أرماند، الذي بدا أنه قد تنبَّأ بأفكارها: «بلدُنا الجميل يا مارجريت.»

قالت بحميَّةٍ عنيفة: «إنهم يتمادَوْن للغاية يا أرماند. أنت جمهوريٌّ وأنا كذلك ... لدينا الأفكار ذاتُها، الحماسة ذاتُها تجاه الحرية والمساواة ... لكن من المؤكد أنك أنت أيضًا ترى أنهم يتمادَون للغاية ...»

قال أرماند بعفوية، وهو يُلقي نظرة سريعة متخوفة حوله: «صَه!»

«آه! رأيت؛ أنت نفسك ترى أنه ليس من الآمِن حتى أن تتحدثَ عن أشياءَ كهذه؛ هنا في إنجلترا!» تشبَّثَت بذراعه فجأةً بعاطفةٍ قوية تكاد تكون أموميَّة؛ وتوسَّلَت إليه قائلة: «لا تذهب يا أرماند! لا ترجِع! ماذا سأفعل إن ... إن ... إن ...»

اختنق صوتُها بالبكاء وحدقَت بنظرةِ استعطافٍ بعينيها الحنونَتين الزرقاوين المحِبَّتين إلى الشَّاب الذي حدَّق في عينيها بدوره.

قال بلُطف: «في كل الأحوال ستَظلِّين أختي الشجاعةَ التي ستتذكر أن أبناء فرنسا لا يحقُّ لهم أن يتخلَّوا عن وطنهم عندما يكون في محنة.»

وفي اللحظة التي كان يتكلم فيها، عادت تلك الابتسامةُ الحلوة الطفولية إلى وجهها رويدًا، وكانت مثيرةً جدًّا للشفقة؛ لأنها بَدَت غارقةً في الدموع.

قالت بغرابة: «أوه أرماند! أحيانًا أقول يا ليتك كنتَ بغيرِ هذا الكمِّ الهائل من الفضائل الرفيعة ... أؤكد لك أن الآثامَ الصغيرة أقلُّ خطورةً وإزعاجًا بكثير.» وأضافت بجِدِّية: «لكنك ستكون حذرًا؟»

«قدر الإمكان ... أعِدُكِ.»

«تذكر يا عزيزي، ليس لي سواك ... يـ... يعتني بي.»

«لا يا حُلوتي، لديك اهتماماتٌ أخرى الآن. بيرسي يعتني بك ...»

تسلَّلَت إلى عينيها نظرةٌ غريبة ممزوجة بالأسى والاشتياق إلى الماضي، بينما تمتمَت قائلة: «كان يفعل ... فيما مضى ...»

«لكن من المؤكد ...»

«اطمئنَّ يا عزيزي، لا تَشغَل بالك بي. بيرسي طيبٌ جدًّا ...»

قاطعَها بحماسة: «لا! بل سأَشغَل بالي بكِ، يا مارجو يا حلوتي. اسمعي يا عزيزتي، لم أتكلَّم معكِ بخصوص هذه المسألة من قبل؛ فدائمًا ما بدا أنَّ ثمةَ حاجزًا ما يوقِفُني عندما أريد سؤالكِ. لكني لسببٍ ما أشعر بأنني لن أستطيع الذَّهاب وترْكَكِ الآن بدون أن أسألكِ سؤالًا ...» وأضاف عندما لاحظ نظرةً جامدةً مفاجئة متوجسةً بعضَ الشيء تنبثقُ من عينَيها فجأة: «ليس عليكِ الإجابة إن لم ترغَبي في ذلك.»

فسألتْ ببساطة: «ما هو؟»

«هل يعرف السير بليكني بشأنِ ما حدث ... أعني هل يعرف الدَّور الذي شاركتِ به في اعتقال ماركيز سان قرياقوس؟»

ضحكَت ضحكةً كئيبة مريرة مزدرية، كنغمةٍ ناشزة في صوتها الرخيم.

«تقصد بشأن أنني وشيتُ بماركيز سان قرياقوس وسلَّمتُه إلى اللجنة التي حكمَت عليه وعلى كل عائلته بالإعدام بالمقصلة؟ أجل، إنه يعلم ... أخبرتُه بعدما تزوَّجتُه ...»

«هل أخبرتِه بكل الظروف ... التي تعفيكِ تمامًا من أيِّ لوم؟»

«كان أوان الحديث عن «الظروف» قد فات؛ فقد سمع بالقصة من مصادرَ أخرى، ويبدو أنَّ اعترافي جاء متأخرًا. لم يَعُد باستطاعتي عندئذٍ التذرُّع بالظروف، لم أستطع إهانةَ نفسي بمحاولة التوضيح ...»

«و؟»

«والآن يُسعدني يا أرماند، أن أعرف أنَّ أشد رجلٍ حمقًا في إنجلترا يحمل أشدَّ ازدراءٍ لزوجته.»

تحدَّثَت بمرارةٍ شديدة هذه المرة، وشعر أرماند سان جوست بأنه وضع إصبعًا على جُرحٍ مؤلم بطريقةٍ خرقاء بعض الشيء.

كرَّر بلُطف: «لكن السير بيرسي أحبَّكِ يا مارجو.»

«أحبَّني؟ في الواقع، يا أرماند، كنتُ أظن آنذاك أنه أحبَّني وإلا فما تزوَّجتُه.» أضافت وهي تنطق الكلمات بسرعةٍ كما لو كانت مبتهجة أخيرًا بالتخلُّص من حملٍ ثقيلٍ يخنقها منذ شهور: «وأكاد أكون متيقنة من أنه حتى أنت ظننتَ — كما ظن الجميع — أنني تزوجتُ السير بيرسي لأجل ثروته ... لكنني أؤكد لك يا عزيزي أنَّ الأمر لم يكن كذلك. لقد بدا أنه يعشقني بجنونٍ غريب وعاطفةٍ متأجِّجة وصلتْ مباشرةً إلى قلبي. لم أُحبَّ أحدًا من قبل كما تعرف، وقد كنتُ في الرَّابعة والعشرين وقتها؛ لذا ظننتُ بالطبع أن الحب ليس من طبيعتي. لكني دائمًا ما رأيتُ أنَّ المرء سيَسعد للغاية بالتأكيد إذا كان محبوبًا بعاطفة عمياء جياشة تامة ... إذا كان محبوبًا لدرجة العشق في الحقيقة، وقد جَذَبني أن بيرسي كان بليدًا وغبيًّا؛ لأنني ظننت أن ذلك سيجعلُه أشدَّ حبًّا لي. فالرجل الذكي ستكون له بطبيعة الحال اهتماماتٌ أخرى، والرجل الطَّموح ستكون له آمالٌ أخرى ... ظننت أن الغبيَّ سيكون عاشقًا، ولن يُفكر في أي شيء آخر. وكنتُ على استعدادٍ للتجاوب يا أرماند، كنتُ سأسمح لنفسي بأن أكون امرأةً معشوقة، وكنتُ سأعطي حنانًا بلا حدودٍ في المقابل ...»

تنهَّدَت، وكانت تلك التنهيدةُ مُحمَّلةً بقدرٍ كبير من خيبة الأمل. كان أرماند سان جوست طَوال هذا الوقت قد سمح لها بالكلام بلا مُقاطعة؛ كان يُصغي إليها تاركًا أفكارَه تجول في رأسه بهياجٍ جامح. كان من الفظيع أن يرى امرأةً شابَّة وجميلة — تُعَد فتاةً صغيرة في كل شيءٍ ما عدا الاسم — ما زالت في مقتبل عمرها، لكنها مجرَّدة من الأمل، مجردةٌ من التصورات الوردية، مجردة من كل تلك الأحلام الذهبية الخيالية التي كان من المفترض أن تجعل شبابَها عيدًا أبَديًّا طويلًا.

لكنه ربما — مع أنه يحبُّ أخته كثيرًا — ربما فهم؛ إذ كان قد درَس طبيعة الرجال في كثيرٍ من البلدان، رجالٍ من كل الأعمار، ورجالٍ من كل الطبقات الاجتماعية والمكانات الثقافية، وفَهِم في قرارة نفسه ما لم تقُله مارجريت. صحيحٌ أن بيرسي بليكني كان بليدًا، لكن عقله البليد ما يزال يحوي متَّسَعًا لهذا الفخر المتأصِّل لدى سليلِ سُلالةٍ طويلةٍ من السَّادة النبلاء الإنجليز. كان أحد أفراد آل بليكني قد مات في ساحة معركة بوسوورث، وكان آخَرُ قد ضحَّى بحياته وثروته من أجل فردٍ خائن من آل ستيوارت، ولا بد أن هذا الفخر نفسه — الأحمق المتعصِّب كما يصفه أرماند الجمهوري — قد جُرح جرحًا عميقًا عندما سمع بالخطيئةِ التي تُلام عليها الليدي بليكني. من المرجَّح أنها كانت صغيرةً ومُضللة وطائشة آنذاك. كان أرماند يعرف ذلك، وكان أولئك الذين استَغلُّوا صِغَر سنِّ مارجريت وانفعالاتها وتهوُّرَها أدرى منه بذلك، لكن بليكني كان متبلدَ التفكير، ولم يكن ليُصغِيَ إلى «الظروف»؛ بل تشبَّث فقط بالحقائق، وهذه الحقائق بيَّنَت له أنَّ الليدي بليكني قد وَشَت بإنسانٍ وسلَّمَته إلى لجنةٍ لا تعرف الصَّفح؛ والاحتقار الذي من المرجَّح أنه شعر به تجاه تلك الفعلة التي فعَلَتها، مهما كانت غيرَ متعمَّدة، من شأنه أن يقتل ذلك الحبَّ ذاته في قلبه، الذي لم يكن ممكنًا أبدًا أنه وُجِد فيه أيُّ متَّسَع للتعاطف أو التفكير.

ولكن حتى الآن، ما تزال أخته تُحيره. فالحبُّ والحياة لهما تقلباتٌ غريبة. أيُمكن أن يكون الحب قد استيقظ في قلب مارجريت، مع تضاؤُلِ حبِّ زوجها لها؟ تتلاقى تناقضات غريبة في طريق الحب؛ فهذه المرأة، التي كان نصفُ مثقَّفي أوروبا يرتمون عند أقدامها، ربما تكون قد منحت حُبَّها لأحمق. كانت مارجريت تُحدِّق صوب الشمس الغاربة. ولم يستطع أرماند رؤيةَ وجهها، ولكن سرعان ما بدا له أنَّ شيئًا كان يتلألأُ للحظةٍ في ضوء المساء الذهبي قد سقط من عينيها على شالها الدانتيل الأنيق.

لكنه لم يستطع فتْحَ هذا الموضوع معها. كان يعرف طبيعتها العاطفية الغريبة جيدًا، ويعرف ذاك التكتُّم الذي كانت تُخفيه بسلوكها العلنيِّ الصريح.

كانا معًا طوال حياتهما؛ لأن والدَيهما كانا قد تُوفِّيا حين كان أرماند لا يزال فتًى شابًّا وكانت مارجريت مجرد طفلة. وظل أرماند، الذي يكبرها بنحو ثماني سنواتٍ، يعتني بها ويحميها حتى تزوَّجَت، وكان مُرافقًا لها ووليَّ أمرها في تلك الأيَّام الرَّائعة في شقة شارع ريشيليو، وشاهدها تخطو نحو حياتها الجديدة هذه هنا في إنجلترا بكثيرٍ من الحزن وبعض التوجُّس.

كانت هذه هي زيارته الأولى إلى إنجلترا منذ زواجها، ويبدو أن الأشهر القليلة من الفراق قد أقامت بالفعل جدارًا رفيعًا ورقيقًا بين الأخ والأخت؛ صحيحٌ أنَّ كِلَيهما كان لا يزال يُكِنُّ الحبَّ العميق والشديد نفسَه للآخَر، ولكن بدا أنَّ كُلًّا منهما قد صار لديه الآن بستانٌ سريٌّ لم يجرؤ الآخَرُ على دخوله.

كانت توجد أمورٌ كثيرةٌ لا يستطيع أرماند سان جوست إخبارَ أخته بها؛ فالوجه السياسيُّ للثورة في فرنسا كان يتغيَّر كلَّ يوم تقريبًا، وقد لا تفهم مارجريت كيف يمكن أن تتغيَّر آراؤه وتعاطُفاته، حتى في ظلِّ تزايُد إرهاب التجاوزات التي يرتكبها أولئك الذين كانوا أصدقاءه، وشدَّتها. ولم تستطع مارجريت أن تتكلَّم مع أخيها عن أسرار قلبها، التي تكاد لا تفهمها هي أصلًا؛ فكلُّ ما كانت تعرفه أنها وسط كلِّ هذه الرفاهية تشعر بأنها وحيدةٌ وغير سعيدة.

والآن كان أرماند راحلًا؛ كانت تخشى على سلامته، وكانت مشتاقةً إلى وجوده. لذا ما كانت لِتُفسد هذه اللحظاتِ الأخيرةَ الجميلة والحزينة بالحديث عن نفسِها. قادَتْه بلُطفٍ بمحاذاةِ حافة الجرف، ثم نحو الأسفل إلى الشَّاطئ، وكانت ذراعها معقودةً بذراعه، وكان لا يزال لديهما الكثير ليقولاه، ممَّا يقع خارج البستان السري الخاص بكلٍّ منهما.

الفصل الثامن

الوكيل المُعتمَد

كان وقتُ ما بعد الظهيرة يقترب من نهايته سريعًا، وألقَت أمسيةٌ طويلة باردة من أمسيات الصيف الإنجليزي بسِتارٍ ضبابيٍّ داكنٍ على ريف كِنت الأخضر.

كان مَرْكب «داي دريم» قد انطلق مبحرًا، ووقفَت مارجريت بليكني وحدها على شفا الجرف أكثرَ من ساعة، تُراقب تلك الأشرعة البيضاء التي كانت تبتعد سريعًا آخذةً معها الشخص الوحيد الذي كان مهتمًّا بها حقًّا، والوحيد الذي تجرَّأتْ على محبته، والوحيد الذي كانت تعرف أنها يمكنها الوثوق به.

وعلى بُعد مسافةٍ قريبةٍ بعضَ الشيء إلى يسارها، كانت أضواءُ غرفة القهوة تتلألأُ بلونٍ أصفر في الضباب المتجمِّع، وبدا من وقتٍ إلى آخرَ لأعصابها المتألمة أنها تستطيع التقاط صوتِ لهوٍ صاخبٍ وأحاديثَ مَرِحة من هناك، أو حتى ضحكة زوجها البلهاء الدائمة التي كانت تسحقُ أذنَيها الحسَّاستين باستمرار.

كان السير بيرسي يتحلَّى باللباقة ورهافةِ الإحساس اللتين جعلتاه يتركها وحيدةً تمامًا إلى حدٍّ يكاد يكون قاسيًا. افترضَت أنه ربما فهم بطبيعته الوُدِّية الغبية أنها تريد البقاءَ وحدها، بينما اختفَت تلك الأشرعةُ البيضاء وسط الأفق الضبابي على بُعد الكثير من الأميال. ولأنه كان مفرِطَ الحساسية في مَفاهيمه عن اللباقة والذوق، لم يقترح حتى أن يبقى أحدُ الخَدَم المرافقين بالقرب منها؛ تَحسُّبًا لأن تحتاج إليه. كانت مارجريت ممتنَّةً لزوجها على كل هذا؛ فهي دائمًا ما كانت تحاول أن تشعر بالامتنان له على مراعاته، التي كانت دائمة، لمشاعرها، وعلى كرمه، الذي كان بلا حدودٍ حقًّا. حتى إنها حاولَت في بعض الأوقات أن تكبح أفكارها السَّاخرةَ اللاذعة عنه، التي كانت تجعلها — رغمًا عنها — تقول أشياءَ قاسيةً ومهينة، كان لديها أملٌ طفيف في أن تجرحه بها.

أجل! كثيرًا ما كانت تتمنَّى أن تجرحه، أن تجعله يشعر بأنها أيضًا تزدريه، بأنَّها أيضًا قد نسِيَت أنها كادَت تُحبه. كادت تُحب ذاك المتأنِّقَ التافه! الذي بدت أفكارُه عاجزةً عن تَجاوز الاهتمام بربطِ ربطة العنق أو الطراز الجديد لأحد المعاطف. عجبًا! ومع ذلك! ... هبَّ طيفٌ غامضٌ من ذكرياتٍ جميلةٍ ومتوقدة ومنسجمة مع هذه الأمسية الصيفية الهادئة، وأتى إلى ذاكرتها على الأجنحة غيرِ المرئيَّة لنسيم البحر العليل، فتذكَّرَت الوقتَ الذي بدأ فيه يهيمُ بها أول مرة؛ بدا مخلصًا جدًّا آنذاك — عبدًا خاضعًا تمامًا — وكان في حبه لوعةٌ كامنة معيَّنة فَتَنتها.

ثم فجأةً، بدا أنَّ ذاك الحب، وذاك الإخلاص الذي كانت تنظر إليه طوالَ مدةِ تودُّدِه إليها على أنه إخلاصُ كلبٍ خانع، قد تلاشَيا تمامًا. فبعد أربعٍ وعشرين ساعةً من مَراسم زفافهما البسيطة في شارع سان روتش القديم، كانت قد أخبرته بالقصة، وسَرَدَت له أنها، بدون قصد، قد تحدَّثَت في مسائلَ معيَّنةٍ تخصُّ الماركيز سان قرياقوس أمام بعض الرجال — من أصدقائها — فاستخدموا هذه المعلومات ضد الماركيز التعيس، وأرسلوه هو وعائلته إلى المقصلة.

كانت تكرهُ الماركيز. فقبل ذلك بسنواتٍ، كان أرماند، أخوها الغالي، يُحبُّ أنجيلا سان قرياقوس، لكن سان جوست كان من الطبقة العامية، وكان الماركيز مُفعمًا بتحيُّزاتٍ متغطرسةٍ متعجرفة لطبَقته. وفي أحد الأيَّام، غامَر أرماند العاشقُ المحترم بإرسال قصيدة قصيرة متَّقدة وملتهبة وعاطفية إلى محبوبةِ أحلامه. وفي الليلة التَّالية قبض عليه خَدَمُ الماركيز سان قرياقوس خارج باريس، وجلَدوه بطريقةٍ مخزية — أوسَعوه جَلدًا ككلبٍ حتى كاد يموت — لأنه تجرَّأ على رفع عينيه إلى ابنةِ أرستقراطي. كانت مثلُ هذه الحوادث في تلك الأيَّام، التي تسبق الثورة بنحو عامَين، تكاد تكون يوميةً في فرنسا؛ وقد أدَّى هذا النوع من الحوادث في الواقع إلى أعمال الانتقام الدامية، التي أرسلت أغلب تلك الرءوس المتغطرسة إلى المقصلة بعد ذلك ببضع سنوات.

تذكَّرَت مارجريت كلَّ ذلك؛ لا بد أن ما عاناه أخوها من جُرحٍ غائر في رُجولته وكبريائه كان مروِّعًا، ولم تُحاول قَط حتى أن تُحلِّل ما عانَتْه هي بسببه ومعه.

ثم جاء يوم الجزاء. وجد سان قرياقوس وأمثاله أسيادًا لهم مجسدين في نفس أولئك العامَّة الذين كانوا يحتقرونهم. تبنَّى أرماند ومارجريت، اللذان كانا مثقَّفَين وعقلانيَّين، بحماسةِ شبابهما عقائد الثورة الساعية إلى المثالية، بينما ظلَّ ماركيز سان قرياقوس وعائلته يُقاتلون شبرًا بشبرٍ للحفاظ على تلك الامتيازات التي وضَعَتهم في منزلةٍ اجتماعية

أعلى من بقية البشر. وفي يومٍ ما، كانت مارجريت مع زُمرتِها، وكانت في ذلك الوقت متسرعةً وطائشة ولا تحسب عواقبَ كلامها، وكانت ما تزال تشعرُ بألم الإهانة الفظيعة التي عاناها أخوها على يد الماركيز، فتصادَف أنها سَمِعَت — وهي بينهم — أنَّ آل سان قرياقوس يتبادَلون مراسَلاتٍ خائنةً مع النمسا على أمَل الحصول على دعم الإمبراطور لقمع الثورة المتنامية في بلدهم.

في تلك الأيَّام كان اتهامٌ واحدٌ كافيًا؛ إذ أتَت كلماتُ مارجريت القليلة الطَّائشة عن ماركيز سان قرياقوس بثِمارها في غضون أربعٍ وعشرين ساعة. إذ اعتُقل جَرَّاءها. وفُتِّشَت أوراقه؛ فعُثِر في مكتبه على رسائل من الإمبراطور النمساوي يتعهَّد فيها بإرسالِ كتائبَ ضد سكَّان باريس. وحُوكِمَ بتهمةِ خيانة الأمة وأعدَموه بالمقصلة، بينما شاركته عائلتُه، زوجته وأبناؤه، هذا المصير البشع.

كانت مارجريت، التي كانت مذعورةً من عواقبِ طيشها الفظيعة، عاجزةً عن إنقاذ الماركيز، وأعلن جميع أفراد زمرتها، قادة الحركة الثورية، أنها بطلة، وعندما تزوَّجَت السير بيرسي بليكني، ربما لم تكن تُدرك إطلاقًا مدى صرامةِ رأيه في هذه الخطيئة التي ارتكبَتها بلا قصد، والتي لا تزال قابعةً بثقلها على روحها. اعترفَت لزوجها بكلِّ ما حدث واثقةً من أنَّ حبه الأعمى لها وتأثيرها اللامحدود عليه سيَجعلانه ينسى سريعًا ما قد يبدو مزعجًا لرجلٍ إنجليزي.

بالتأكيد بدا في تلك اللحظة أنه قد تلقَّى الاعترافَ بهدوءٍ شديد، بل وبدا أنه لم يكَدْ يفهمُ معنى ما قالته، لكن الشيء المؤكَّد برسوخٍ أشدَّ أنَّها لم تستطع بعد ذلك على الإطلاق أن ترى أدنى أثرٍ لذلك الحبِّ الذي كانت تعتقد يومًا ما أنه لها وحدها. صارا متباعِدَين تمامًا، وبدا أن السير بيرسي قد ترك حُبَّه لها على الرَّفِّ، كأنه قفازٌ لا يُلائمه. حاولَت استفزازه بصَقلِ ذكائها وبديهتها الحاضرة على حساب عقله البليد، ساعيةً لاستثارة غَيرته ما دامت لا تستطيع إذكاءَ حُبِّه، حاولَت تحفيزه على التعبير عمَّا بداخله، لكن بلا جَدْوى. ظل كما هو: سلبيًّا ومتشدقًا وناعسًا ومهذبًا على الدوام، رجلًا نبيلًا متأدبًا دون تغيير؛ كانت تملك كلَّ ما يمكن أن يُقدِّمه العالمُ وزوجٌ ثريٌّ لامرأةٍ جميلة، لكنها في هذه الأمسية الصيفية الجميلة، ومع اختفاء أشرعة «داي دريم» البيضاء في ظلال الغروب أخيرًا، شعرَت بوحدةٍ أشدَّ من تلك التي يشعر بها ذاك المتشردُ المسكين الذي كان يشقُّ طريقه بخُطًى منهَكةٍ متثاقلة بطول الجُرف.

أدارت مارجريت بليكني ظهرها للبحر والجرف بتنهيدةٍ ثقيلة أخرى، ومشَت ببطءٍ عائدةً نحو «استراحة صيَّاد السمك»، وبينما كانت تقترب، كانت أصواتُ ضحكات اللهو والمرح تزداد ارتفاعًا ووضوحًا. استطاعَت تمييز صوتِ السير أندرو اللطيف، وقهقهات اللورد توني الصَّاخبة وتعليقات زوجِها العابرة المتلكئة النَّاعسة، ثم أدركَت وَحْشة الطريقِ والظلام الذي كان يُحاصرها سريعًا؛ فسرَّعَت خطواتها ... أحسَّت في اللحظة التَّالية بشخصٍ غريبٍ يتقدَّم نحوَها مسرعًا. لم ترفع مارجريت ناظِرَيها؛ فلم تكن متوترةً إطلاقًا، لأنَّ «استراحة صيَّاد السمك» صارت حينئذٍ قريبة جدًّا منها.

توقَّفَ الغريب عندما رأى مارجريت قادمةً باتجاهه بسرعة، وبينما كانت على وشك تجاوُزِه قال بصوتٍ منخفض جدًّا:

«المواطِنة سان جوست.»

أطلقَت مارجريت صيحةَ ذهولٍ صغيرةً، عندما سمعَت اسمها المألوف قبل الزواج يُلفظ بالقرب منها. رفَعَت عينَيها إلى الغريب، وبصيحةٍ مسرورة صادقة هذه المرةَ، مدَّت يدَيها نحوه بمشاعرَ فيَّاضة.

هتفَت: «شوفلان!»

قال الغريب وهو يُقبِّل أطراف أصابعها بملاطفة: «بشحمه ولحمه أيتها المواطنة، في خدمتكِ.»

لم تَقُل مارجريت شيئًا للحظةٍ أو اثنتين، بينما كانت تُعاين تلك الهيئةَ الضئيلة غير الجذَّابة أمامها بابتهاجٍ واضح. كان شوفلان آنَذاك أقربَ إلى الأربعينيَّات منه إلى الثلاثينيَّات، وكان شخصيةً ذاتَ مظهرٍ ذكي وفطن ونظرة فضولية كنظرة الثعلب في عينَيه العميقتين الغائرتين. كان هو الرجلَ الغريب نفسَه الذي شرب كأسًا وُدِّيةً من النبيذ مع السيد جيليباند قبل ذلك بساعة أو اثنتين.

قالت مارجريت بتنهيدة ارتياح طفيفة: «شوفلان ... صديقي ... أنا سعيدةٌ جدًّا برؤيتك.»

لا شك في أنَّ مارجريت سان جوست المسكينة، التي تشعر بالوحدة وسطَ أبَّهتِها وأصدقائها المُتكلفين، كانت سعيدةً برؤية وجهٍ مألوفٍ أعاد إليها ذِكريات تلك الأوقات السعيدة في باريس، عندما كانت كالملكةِ على رأس شلَّة المثقَّفين في شارع ريشيليو. لكنها لم تُلاحظ الابتسامةَ السَّاخرة الصغيرة التي كانت تحوم حول شفَتَي شوفلان الرفيعتين.

أضافَت مبتهجة: «ولكن أخبرني، بحقِّ السماء ما الذي، أو مَن الذي، جعلك تأتي هنا إلى إنجلترا؟»

كانت قد استأنفت سيرها نحو النزُل، واستدار شوفلان وسار بجوارها.

قال: «ربما أعيد إليكِ مُجاملتَكِ اللطيفةَ يا سيدتي الجميلة، وأسألك السؤالَ نفسَه. ماذا عنكِ؟»

قالت وهي تهزُّ كتفَيها: «أوه، أنا؟ أشعر بالملل يا صديقي، هذا كلُّ شيء.»

كانا قد وصَلا إلى رِواق «استراحة صيَّاد السمك» لكنَّ مارجريت بدَت كارهةً للدخول. فهواء المساء كان رائعًا بعد العاصفة، وقد وجدَت صديقًا يَزفِرُ هواءَ باريس، ويعرف أرماند جيدًا ويمكنه أن يتحدَّث عن كل الأصدقاء المَرِحين الأذكياء الذين تركَتْهم خلفها. لذا أطالت البقاءَ تحت السقيفة الجميلة، بينما كانت تأتي من نافذةِ غرفة القهوة الناتئة ذاتِ الإضاءة الساطعة أصواتُ ضحكاتٍ وصيحاتٍ مُنادية على سالي وعلى الجِعَة، وضربٍ للأكواب على الطَّاولات، وصلصلةِ أحجار النَّرْد مختلطةً بصوت ضحكة السير بيرسي البلهاء الخاليةِ من البهجة الحقيقية. وقف شوفلان بجوارها وهو يُحدِّق بعينيه الصفراوين الباهتتين الماكرتين إلى وجهها الجميل الذي بدا لطيفًا جدًّا وطفوليًّا في الشفَق الإنجليزي الصيفي اللطيف.

قال بهدوء وهو يأخذ بعضًا من السَّعُوط بين سبَّابته وإبهامه: «لقد فاجأتِني أيتها المواطنة.»

قالت بمرح: «حقًّا؟ يا إلهي يا صغيري شوفلان، كنتُ أظن أنك قد خمَّنتَ بفِطنتك أنَّ مناخًا مؤلَّفًا من الفضائل والضباب لن يُناسب مطلقًا مارجريت سان جوست.»

سأل بذعرٍ ساخر: «يا إلهي! هل الحال بهذا السوء؟»

أجابت: «تمامًا، بل وأسوأ.»

«هذا غريب! ظننتُ أن امرأةً جميلةً كانت ستجد حياةَ الريف الإنجليزيِّ جذَّابةً جدًّا.»

قالت وهي تتنهَّد: «أجل! أنا أيضًا كنت أظن ذلك.» وأضافت متأمِّلة: «النساء الجميلات لا بد أن يقضينَ وقتًا طيبًا في إنجلترا، في حين أن كلَّ الأشياء الممتعة محرَّمةٌ عليهن؛ إنهن يفعلن الأشياء نفسَها كلَّ يوم.»

«حقًّا!»

قالت بجِدِّية: «لن تُصدق هذا يا صغيري شوفلان، ولكن غالبًا ما يمرُّ عليَّ يومٌ كامل — يومٌ كامل — بدون أن أُصادف شيئًا مُغريًا واحدًا.»

ردَّ شوفلان بمُلاطَفة: «لا عجبَ أنَّ أذكى امرأةٍ في أوروبا متضايقةٌ من الملل.»

أطلقَت إحدى ضحكاتها الرخيمة المتماوجة الطفولية.

سألتْ بمكر: «لا بد أن الأمر سيئٌ للغاية، أليس كذلك؟ وإلا فما كنتُ سأسعَد برؤيتك.»

«وهذا خلال سنةٍ من زواجٍ قائم على حُبٍّ رومانسي! ...»

«أجل! ... سنة من زواج قائم على حبٍّ رومانسي ... هذه هي المشكلة بالتحديد ...»

قال شوفلان بسخريةٍ نوعًا ما: «آه! ... إذن فتلك الحماقة الشَّاعرية لم تصمد لمدة ... أسابيع؟»

«الحماقات الشَّاعرية لا تدوم أبدًا يا صغيري شوفلان ... تصيبنا كالحَصْبة ... وتُشفى بالسهولةِ ذاتِها.»

تناول شوفلان بعضًا من السَّعُوط مرةً أخرى؛ بدا مدمنًا جدًّا لتلك العادة الضَّارة التي كانت منتشرةً آنذاك، وربما وجد أيضًا أن أخذ السَّعوط ستارٌ مُلائمٌ لإخفاء نظَراته السريعة الداهية التي كان يُحاول بها أن يقرأ ما في صدور أولئك الذين كان يتعامل معهم.

كرَّر قائلًا بالطريقة المُلاطِفة نفسِها: «لا عجب أنَّ أنشطَ عقل في أوروبا متضايقٌ من الملل.»

«كنت آمُل أن تكون لديك وصفةٌ لعلاج هذا الدَّاء يا صغيري شوفلان.»

«كيف لي أن أتطلَّع إلى النجاح فيما فَشِل السير بيرسي بليكني في تحقيقه؟»

قالت بجفاف: «هلَّا تركنا السير بيرسي خارجَ موضوع حديثنا الآن يا صديقي العزيز؟»

قال شوفلان بينما عادت عيناه الثاقبتان كعينَي ثعلبٍ متأهِّب ترمقان مارجريت بنظرةٍ خاطفة: «آه! يا سيدتي العزيزة، اعذريني، ولكن ليس من الصواب أن نفعل ذلك. لديَّ وصفةٌ مثالية جدًّا لعلاج أسوأِ أنواع الملَل، وكنتُ سأسعَد بعرضها عليك، لولا ...»

«لولا ماذا؟»

«لولا السير بيرسي.»

«ما علاقته بهذا؟»

«علاقةٌ قوية، مع الأسف. الوصفة التي سأعرضها عليك يا سيدتي الجميلة لها اسمٌ عاميٌّ جدًّا: العمل!»

«عمل؟»

نظر شوفلان نحو مارجريت نظرةً طويلة متفحِّصة. بدا أن عينَيه الباهتتين الثَّاقبتين كانتا تقرَآن كلَّ فكرةٍ من أفكارها. كانا معًا وحدهما، وكان هواء المساء ساكنًا تمامًا، فيما كانت همساتُهما الخافتة تغرق وسط الصخَبِ القادم من غرفة القهوة. ومع ذلك، تحرَّك شوفلان خطوةً أو خطوتَين مبتعدًا عن السقيفة، وتلفَّتَ حوله بنظراتٍ سريعة مُدقِّقة، وبعدما اطمأنَّ إلى عدم وجود أحدٍ في نطاق سماع أصواتهما بالفعل، اقترب من مارجريت مرةً أخرى.

سألها وقد تغيَّر سلوكُه فجأةً واكتسى وجهُه النحيل الشبيهُ بوجه الثعلب بجدِّيةٍ فريدة: «هل تُسْدين إلى فرنسا خدمةً صغيرةً أيتها المواطنة؟»

أجابت بتهكُّم: «عجبًا يا رجل! ما أسرع ما تبدو جادًّا ... حقيقةً لا أعلم ما إذا كنت أستطيع إسداء خدمة صغيرة إلى فرنسا؛ بالتأكيد هذا يعتمد على نوع تلك الخدمة التي تريدها هي، أو أنت.»

سأل شوفلان بغتةً: «هل سمعتِ من قبلُ بسكارليت بيمبرنيل أيتها المواطنة سان جوست؟»

ردَّت بضحكةٍ طويلةٍ مرحة: «سمعتُ بسكارليت بيمبرنيل؟ ربَّاه يا رجل! نحن لا نتحدث عن شيءٍ آخَر ... لدينا قبَّعاتٌ مُصمَّمة على طريقة «سكارليت بيمبرنيل»، وخيولنا تُسمَّى «سكارليت بيمبرنيل»، وفي حفل عشاء أمير ويلز منذ بضعة أيام، كان يوجد سوفليه مَطهوٌّ على طريقة «سكارليت بيمبرنيل» ...» وأضافت بمرح: «يا إلهي! طلبتُ من صانعة قبعاتي فستانًا أزرقَ مزركشًا بالأخضر منذ بضعة أيام، ولتحُلَّ عليَّ اللعنة إذا لم تَصِفه تلك المرأة بأنه «على طريقة سكارليت بيمبرنيل».»

لم يتحرَّك شوفلان بينما واصلَت ثرثرتها المرحة؛ بل ولم يُحاول حتى أن يوقِفَها حين دوَّت أصداءُ صوتها المنغَّم وضحكتها الطفولية عبر هواء المساء الساكن. لكنه ظلَّ جادًّا رَزينًا بينما كانت تضحك، وكان صوتُه الواضح القاطع الحادُّ خفيضًا جدًّا وهو يقول لها:

«إذنْ، لَمَّا قد سمعت عن تلك الشخصية الغامضة أيتها المواطنة، لا بد أنك خمَّنتِ، وعرَفتِ، أن الرجل الذي يُخفي هُويتَه تحت ذلك الاسم المستعار الغريب هو ألدُّ أعداء جمهوريتنا الفرنسية ... ألدُّ أعداء رجالٍ مثل أرماند سان جوست.»

قالت بتنهيدةٍ طفيفة جذَّابة: «عجبًا! أجرُؤ أنْ أُقسم إنه لكذلك ... ففرنسا لها الكثيرُ من الأعداء الألدَّاء هذه الأيَّام.»

«لكنك أنتِ، أيتُها المواطِنة، ابنةُ فرنسا، ويجب أن تكوني على استعدادٍ لمساعدتها في وقتٍ تتعرَّض فيه لخطرٍ مميت.»

أجابت بفخرٍ: «وهبَ أخي أرماند حياتَه لفرنسا، أمَّا أنا، فلا أستطيع فِعْل شيء ... هنا في إنجلترا ...»

ألحَّ بجدِّية أكبر، بينما بدا فجأةً أنَّ وجهه النحيل الشبيهَ بالثعلب صار مثيرًا للرهبة ومُفعمًا بالهيبة: «كلا، بل أنتِ ... هنا في إنجلترا أيتها المواطنة ... أنتِ الوحيدة التي يمكنها مساعدتنا ... اسمعي! لقد أرسلَتني الحكومة الجمهورية إلى هنا مُمثِّلًا لها، وسأُقدم أوراق اعتمادي للسيد بِيت في لندن غدًا. إحدى مهامِّي هنا أن أعرف كلَّ شيءٍ عن عُصبة سكارليت بيمبرنيل هذه، التي أصبحَت تهديدًا مُستمرًّا لفرنسا منذ أن أَخَذَت على عاتقها مساعدة أرستقراطيِّينا الملاعين — خوَنة بلادهم وأعداء الشعب — للهرب من العقاب العادل الذي يستحقُّونه. تعرفين جيدًا، كما أعرف أيتها المواطنة، أنهم حالما يصلون إلى هنا، أي أولئك المهاجرون الفرنسيُّون، يحاولون إثارةَ شعورٍ عامٍّ مُعادٍ للجمهورية. فهم مستعدُّون للانضمام إلى أي عدوٍّ لديه الجُرأة الكافية لمهاجمة فرنسا. الآن، خلال الشهر الماضي، نجح عشَراتٌ من هؤلاء المهاجرين، الذين كان بعضُهم متَّهَمًا بالخيانة فحسب، والبعض الآخر أدانته لجنةُ السلامة العامة بالفعل، في عبور القنال. وكل حالات هروبهم تمَّت بتخطيطٍ وتنظيم وتنفيذ من جماعة الشباب الإنجليز الوقحين هذه، التي يتزعَّمُها رجلٌ يملك عقلًا يبدو واسعَ الحيلة بقدرِ غموض هُويته. لم تُفلِح كلُّ الجهود المضنية التي بذَلَها جواسيسي لاكتشاف هُويَّته؛ ففي حين أنَّ بقية أفراد الجماعة هم الأيادي، يُعَد هو الرأسَ الذي يعمل بهدوءٍ تحت هذا الاسم المستعار الغريب على تدمير فرنسا. أنوي ضرب ذلك الرأس؛ ولهذا أريد مساعدتكِ، وأستطيع من خلاله لاحقًا أن أصلَ إلى باقي العصابة؛ إنه شابٌّ وقحٌ من المجتمع الإنجليزي، وأنا متيقِّن من ذلك.» وألحَّ عليها مُناشدًا: «اعثري على ذاك الرجل من أجلي أيتها المواطنة! اعثري عليه من أجل فرنسا.»

استمعَت مارجريت إلى خطابِ شوفلان المتَّقِد بدون أن تتفوَّهَ بكلمة، أو تأتيَ بأي حركة تقريبًا، أو حتى تجرؤ على التنفُّس. كانت قد أخبرته من قبل بأن هذا البطل الرومانسيَّ الغامض كان حديثَ المجتمع الرَّاقي الذي تنتمي إليه؛ كانت الإثارة قد داعَبَت خيالها وقلبها من قبلُ بالفعل حين راودَها التفكير في ذلك الرجل الشجاع الذي استطاع، دون أن يَشتَهِر شخصيًّا، أن يُنقذ مئات الأرواح من مصيرٍ رهيبٍ، ووحشي في كثيرٍ من الأحيان. صحيحٌ أنها لم تكن تحمل سوى القليل من الشفقة الحقيقية تجاه أولئك

الأرستقراطيِّين الفرنسيين المتغطرسين، الوقِحين في فخرِهم الطبَقي، الذي كانت كونتيسة تورناي دو باسيريف مثالًا نموذجيًّا له، لكنها، مع أنَّها جمهوريةٌ وذات عقليةٍ ليبرالية مترسِّخةٍ ضمن مبادئها، كانت تكرهُ الطرق التي اختارتها الجمهوريةُ الحديثة لترسيخ نفسها، وتحتقرُها. لم تكن قد ذهبَت إلى باريس منذ شهور؛ ولم يصل إلى مسامعها شيءٌ سوى أصداءٍ خافتةٍ عبر القنال عن أهوال عهد الإرهاب، وشلَّالات الدماء المراقة فيه، التي بلَغَت ذروتها في مَذابح سبتمبر. لم تكن تعرف روبسبيير ودانتون ومارات في ثوبهم الجديد بعدما أصبحوا قضاةً دَمويِّين يستخدمون المقصلةَ بكل وحشية. انتفضَت روحها رُعبًا من هذه التجاوزات، وخشيَت أن يصبح أخوها أرماند — مع أنه جمهوري معتدل — قُربانًا لها يومًا ما.

ثم عندما سمعت أول مرةٍ بعُصبة الشباب الإنجليز المتحمِّسين، الذين أقدَموا، بدافع المحبة الخالصة لإخوتهم في الإنسانية ليس إلَّا، على انتشال نساءٍ وأطفال وشيوخ وشبَّان من موتٍ مروِّع، كان قلبُها قد توهَّج فخرًا بهم، والآن، بينما كان شوفلان يتكلَّم، تعاطفَت روحُها هي شخصيًّا مع القائد الغامض الذي يتزعَّم تلك العُصبةَ الصغيرة المتهوِّرة، والذي كان يُخاطر بحياته يوميًّا، مُقدِّمًا إياها بلا ثمن وبلا تَباهٍ، من أجل الإنسانية.

كانت عيناها رطْبتَين عندما انتهى شوفلان من الكلام، وكان الدَّانتيل الذي يُغطي صدرها يعلو ويهبط بفعل تنفُّسِها المنفعِل والسريع؛ لم تَعُدْ تسمعُ ضجيج الشرب القادمَ من النُّزُل، ولم تنتبه إلى صوت زوجها أو ضحكتِه البلهاء، بل شرَدَت أفكارُها باحثةً عن البطل الغامض! آه! ها هو رجلٌ ربما كانت ستُحبُّه لو أنها صادَفَته؛ فكلُّ شيءٍ فيه بدا أنه يجذب خيالها الرومانسي: شخصيته، قوته، شجاعته، ولاء أولئك الذين يعملون تحت إمرته في خدمةِ الهدف النبيل ذاتِه، وفوق كل ذلك غموضُ هُويَّته الذي كان يُتوِّجه كأنه هالةٌ من العظَمَة الرومانسية.

«اعثُري عليه من أجل فرنسا أيتها المواطنة!»

أيقظها صوتُ شوفلان القريبُ من أذنها من أحلامها. اختفى البطل المجهول، وعلى بُعد أقلَّ من عشرين ياردةً منها، كان منهمكًا في الشراب والضحك رجلٌ أقسَمَت على الوفاء والولاء له.

قالت وقد عادَت لا مُبالاتها الساخرة المصطنعة: «عجبًا يا رجل! أنت مذهل. أين سأبحث عنه بحقِّ السماء؟»

همس شوفلان ملمِّحًا بخُبث: «أنتِ تذهبين إلى كل مكانٍ أيتها المواطنة، الليدي بليكني هي مِحورُ مجتمع لندن، هذا ما أخبروني به ... أنتِ ترَين كل شيء، وتسمعين كل شيء.»

ردَّت مارجريت وهي تُقيم ظهرها لتقف منتصبةً بطولها الكامل وتنظر إلى الأسفل بشعورِ ازدراءٍ طفيفٍ نحو الهيئة الضئيلة الهزيلة أمامها: «تمهَّلْ يا صديقي. تمهَّل! يبدو أنك نسيتَ وجودَ مترين من قامة السير بيرسي بليكني، وصفٍّ طويل من الأسلاف، حائلًا بين الليدي بليكني والشيء الذي تقترحه.»

ألحَّ شوفلان بجدِّية: «لأجل فرنسا أيتها المواطنة!»

«اصمُت يا رجل، أنت تتحدَّث هراءً بأيِّ حال؛ لأنك حتى لو عرَفتَ هُوية سكارليت بيمبرنيل هذا، فلن تتمكَّن من فعل شيءٍ له؛ فهو إنجليزي!»

قال شوفلان بضحكةٍ قصيرةٍ جافَّة مزعجة: «سأُجرِّب حظي في ذلك. بأي حال يُمكننا أن نُرسله إلى المقصلة أولًا لنُهدئ حماسه، وبعدئذٍ، عندما تحدث ضجةٌ دبلوماسية بخصوص الموضوع، يمكننا أن نعتذر — بتواضعٍ — للحكومة البريطانية، وإن لزم الأمرُ فسندفع تعويضاتٍ للعائلة المفجوعة.»

قالت وهي تبتعد عنه كأنه حشرةٌ مزعجة: «ما تقترحُه مروعٌ يا شوفلان. أيًّا ما تَكُن هُوية الرجل، فهو شجاعٌ ونبيل، ولن أشارك أبدًا — هل تسمعني؟ — أبدًا في فعلةٍ خسيسةٍ كهذه.»

«تُفضِّلين أن تتعرَّضي للإهانة من كل أرستقراطي فرنسي يصلُ إلى هذا البلد؟»

كان شوفلان قد سدَّد بدقَّةٍ عندما أطلق هذا السهمَ الصغير. إذ صارت وَجْنتا مارجريت الناضرتان أشدَّ شحوبًا بقليلٍ وعضَّت شفَتَها السُّفلى؛ لأنها أرادت ألَّا يرى أن السهم قد أصاب هدفه.

قالت أخيرًا بلا مبالاة: «لا صلة لهذا بالمسألة. يمكنني أن أدافع عن نفسي، لكنني أرفضُ أن أؤدِّيَ أي عملٍ قذرٍ لك ... أو لفرنسا. لديك وسائلُ أخرى تحت تصرُّفِك، عليك استخدامها يا صديقي.»

ودون إلقاءِ نظرةٍ أخرى على شوفلان، استدارت مارجريت بليكني، وسارت مباشرةً نحو النُّزل.

قال شوفلان بينما أضاءَ سيلٌ من الضوء الآتي من الممرِّ هيْئتَها الأنيقة المكتسيَةَ بثيابٍ غالية: «هذه ليست كلمتَكِ الأخيرةَ أيتها المواطنة، سنلتقي في لندن، آمُل ذلك!»

قالت متحدثةً إليه وهي تدير عنقها لتنظر إليه: «سنلتقي في لندن، لكن هذه هي كلمتي الأخيرة.»

فتحَت بابَ غرفة القهوة واختفت عن ناظِرَيه، لكنه بقي في مكانه أسفلَ الرِّواق للحظة أو اثنتين، وأخذ بعضًا من السَّعُوط. وصحيحٌ أنه تلقى توبيخًا واستهزاءً، لكنَّ وجْهَه الداهية الشبيهَ بوجه الثعلب لم يبدُ خَجِلًا ولا محبطًا؛ بل على العكس، اكتسَت ثنايا شفَتَيه النحيفتَين بابتسامةٍ غريبة شِبْه ساخرةٍ وراضية تمامًا.

الفصل التاسع

الاعتداء

كان النهار المليءُ بالأمطار المتواصلة قد تلته ليلة جميلة مُضاءة بأنوار النجوم؛ ليلة باردة لطيفة من ليالي أواخر الصيف، وإنجليزية جدًّا بما تبقَّى فيها من آثار الرُّطوبة ورائحة الأرض المبلَّلة وأوراق الأشجار التي تَقْطر ماءً.

انطلقَت العربة الضخمة يجرها أربعٌ من أجود خيولِ إنجلترا الأصيلةِ على طريق لندن، وكان السير بيرسي بليكني جالسًا في مقصورة العربة ممسكًا العِنانَ بيدَيه النحيلتين الناعمتين الأُنثَويتين، وبجانبه الليدي بليكني ملتحفةً بفراء غالية الثمن. نزهة بالعربة لمسافة خمسين ميلًا في ليلةٍ صيفية مضاءةٍ بالنجوم! كانت مارجريت قد رحَّبَت بهذه الفكرة بابتهاج … فالسير بيرسي كان سائقًا متحمسًا؛ بينما كانت أحصِنتُه الأربعة الأصيلة، التي أُرسِلت قبل يومين إلى دوفر وعادت من هناك، مُنتعشةً وجامحة بما يكفي لتُضفِيَ حيويةً على الرحلة، وكانت مارجريت تشعر بالتلذُّذ مُترقبةً بِضْع ساعاتٍ من الانعزال بينما كان نسيمُ المساء اللطيف يُنعش خدَّيها، شاردةً بفِكْرها بعيدًا، إلى أين يا تُرى؟ كانت تعرف من واقع تَجارِبها السابقة أن السير بيرسي لا يتكلَّم إلا قليلًا، إنْ تكلَّم أصلًا؛ إذ كان يقود عربتَه الجميلة أحيانًا كثيرة مصطحِبًا إيَّاها لساعاتٍ في الليل من مكانٍ إلى آخر، بدون أن يُدْليَ بأكثرَ من تعليقٍ أو اثنين عن الطقس أو حالة الطريق. كان مولَعًا بالقيادة في الليل، وسرعان ما تقبَّلَت هوايتَه وسايرَتْها؛ وبينما كانت تقعد بجواره ساعةً تِلْو الأخرى معجبةً بالطريقة البارعة الواثقة التي يُمسك بها العِنان، كانت كثيرًا ما تتساءل عمَّا يجول في رأسه البليدِ ذاك. لم يُخبرها قَطُّ، ولم تهتمَّ مطلقًا بأن تسأله.

في تلك الأثناء، كان السيد جيليباند يطوف أرجاءَ «استراحة صيَّاد السمك»، مُطفِئًا الأنوار. فقد رحل جميعُ زبائن حانته، ولكن كان لديه في غرف النوم الصغيرة المريحة في

الطَّابق العلوي بضعةُ ضيوفٍ مهمِّين: كونتيسة تورناي ومعها سوزان والفيكونت، فيما كانت توجد غرفتان أُخرَيان جاهزتان للسير أندرو فولكس واللورد أنتوني دوهرست، إذا اختار الشَّابَّان تشريف النُّزل القديم بقضاء الليلة فيه.

كان الشابَّان المتأنقان في ذلك الوقت مُستقرَّين بكل ارتياحٍ في غرفة القهوة أمام نيران الحطب الهائلة، التي تُرِكَت متَّقدةً مع أنَّ أجواء المساء كانت معتدلة.

سأل اللورد أنتوني بينما كان صاحبُ المكان الفاضلُ مشغولًا بجمع الكئوس والأكواب من على الطاولات: «يا جيلي، هل غادر الجميع؟»

«الجميع يا سيدي، كما ترى.»

«وجميعُ خدَمِك أَخْلَدوا إلى النوم؟»

«الجميع ما عدا الصبيَّ المناوب على نَضَدِ السَّاقي» وأضاف السيد جيلييباند ضاحكًا: «وأتوقَّع أنه سينام قريبًا، ذاك الوغد.»

«إذن يمكننا أن نتحدثَ هنا بلا إزعاجٍ لنصف الساعة؟»

«في خدمتك يا سيدي ... سأترك شموعكما على الخِزانة ... وغرفتَيكما جاهزتَينِ تمامًا ... أنا أنام في الطَّابَق العُلوي من النزل، ولكن إن ناديتَ سيادتك عليَّ بصوتٍ عالٍ بما يكفي، يُمكنني القول إنني سأسمعك.»

«حسنًا يا جيلي ... و... أصغِ إليَّ، أطفِئ المصباح؛ فالنَّار ستمنحُنا كلَّ الضوء الذي نحتاج إليه؛ ولا نريد أن نُثير انتباه المارة.»

«حسنًا يا سيدي.»

فعَل جيلييباند ما طُلب منه؛ وأطفأ المصباح العتيق الجذَّاب المدلَّى من السقف، ونفخ في جميع الشموع فأخمدها.

اقترح السير أندرو قائلًا: «أحضِرْ لنا زجاجةَ نبيذٍ يا جيلي.»

«حسنًا يا سيدي.»

ذهب جيلييباند لإحضار النبيذ. كانت الغرفة في تلك اللحظة مظلمةً تمامًا عدا دائرةً من الضوء المحمرِّ المتوهِّج، المنبعثِ من الحطب المشتعل بسطوعٍ في المدفأة.

عندما عاد جيلييباند بزجاجة النبيذ ومعها كأسان ووضعَهما على الطَّاولة، سأل: «هل تريدان شيئًا آخر أيها السيدان؟»

فقال اللورد أنتوني: «هذا مناسب، شكرًا لك يا جيلي!»

«طابت ليلتك سيدي اللورد! طابت ليلتك سيدي السير!»

«طابت ليلتك يا جيلي!»

أرهف الشابَّان آذانَهما بينما سُمِعَت أصداءُ وَقْع خطوات السيد جيليباند الثقيلة على طول الممرِّ والدرَج. وسرعان ما اختفى حتى ذاك الصوت أيضًا، وبدا أن «استراحة صيَّاد السمك» قد تدثَّرَت ونامت باستثناء الشابَّين اللذين كانا يشربان في صمتٍ بجوار المدفأة.

لم يُسمع أيُّ صوتٍ في غرفة القهوة مدةً، ما عدا تكتكة ساعة الجدِّ القديمة وطقطقة الحطب المحترق.

وأخيرًا قال اللورد أنتوني سائلًا: «أسار كلُّ شيء على ما يُرام مجددًا هذه المرةَ يا فولكس؟»

كان من الواضح أن السير أندرو كان مستغرقًا في أحلام اليقظة، وهو يُحدق في النَّار، التي من المؤكد أنه كان يرى فيها وجهًا فاتنًا وجميلًا بعينين بُنِّيتَين واسعتين وتموُّجاتٍ كثيفة من الشعر الداكن حول جبينٍ طفولي.

قال وهو لا يزال مستغرقًا في تأمُّلاته: «أجل! على ما يرام!»

«لا عقَبات؟»

«إطلاقًا.»

ضحك اللورد أنتوني بلُطفٍ بينما سكب لنفسه كأسًا أخرى من النبيذ.

«على ما أظن، فلا داعي إلى أن أسأل عمَّا إذا كانت الرحلة ممتعةً هذه المرةَ أم لا؟»

أجاب السير أندرو بمرح: «كلا يا صديقي لا داعيَ إلى أن تسأل. لقد كانت جيدة.»

قال اللورد أنتوني المبتهج: «إذن، لنشرب نَخْب صحتها الطيبة. إنها فتاةٌ حسناء مع أنها فرنسية. ونخب تودُّدِك؛ عسى أن ينموَ ويُثمر على أكمل وجه.»

شرب كأسَه إلى آخِر قطرة ثم انضمَّ إلى صديقه بجوار المدفأة.

قال السير أندرو مستيقظًا من تأمُّلاته: «حسنًا! أنت مَن سيخوض الرحلة في المرة القادمة يا توني، حسبما أتوقع، أنت وهاستينجز بالتأكيد؛ وأتمنى أن تحظى بمهمةٍ ممتعة كالتي حظيتُ بها، ورفيقةِ سفر فاتنةٍ كالتي حظيتُ بها. ليس لديك فكرة يا توني ...»

قاطَعَه صديقه بدماثة: «لا! ليست لدي فكرة، لكني سأصدِّق ما تقوله.» ثم أضاف بينما اكتسى وجهُه الشابُّ المرح بجديةٍ مفاجئة تدريجيًّا: «والآن، ماذا بشأن العمل؟»

قرَّب كِلا الشابَّين مقعدَه إلى الآخَر، وخفَضا صوتهما غريزيًّا إلى حدِّ الهمس، مع أنهما كانا وحدهما.

قال السير أندرو: «رأيتُ سكارليت بيمبرنيل وحده، لبضع لحظاتٍ في كاليه، قبل يومٍ أو اثنين. كان قد عبر إلى إنجلترا قبلنا بيومَين. ورافق المجموعةَ طوال الطريق من باريس متنكرًا — لن تُصدق هذا إطلاقًا! — في هيئةِ امرأةٍ عجوزٍ من السوق، وقاد العربةَ المغطَّاة التي كانت كونتيسة تورناي والآنسة سوزان والفيكونت ممدَّدين تحت غطائها بين اللِّفت والكرنب، حتى خرَجوا من المدينة بسلام. وبالطبع لم يشُكُّوا هُم أنفسُهم في هُوية السَّائقة قَط. قادهم مباشرةً عبر صفٍّ من العسكر والغوغاء الذين كانوا يَصيحون: «لِيَسقُط الأرستقراطيون!» لكن عربة السوق مرَّت عبر البوابة مع بضع عرَبات أخرى، وكان سكارليت بيمبرنيل، مكتسيًا بالشال والتنُّورة السفلية والقلنسوة، يهتف قائلًا: «ليسقط الأرستقراطيُّون!» بصوتٍ أعلى من أي أحد.» أضاف الشَّاب وعيناه تلمعان بالحماس تجاه قائده المحبوب: «ربَّاه! ذاك الرجل أعجوبة! أُقسم إن جُرأته غيرُ معقولة! وهذا ما يُمكِّنه من النجاح رغم الصعاب.»

أمَّا اللورد أنتوني الذي كانت حصيلةُ مفرداته أضيقَ من حصيلة صديقه، فلم يستطع إلا أن يتفوَّه بلفظٍ بذيء أو اثنين ليُعبِّر بهما عن إعجابه بقائده.

قال السير أندرو بصوتٍ أشد انخفاضًا: «يريدك أن تُقابله أنت وهاستينجز في كاليه، في الثَّاني من الشهر القادم. دعني أرَ! سيكون ذلك الأربعاء القادم.»

«أجل.»

«إنها مسألة كونت تورناي هذه المرة بالطبع، وهي مهمة خطرة؛ لأن الكونت، الذي كان هروبه من قصره تحفةً رائعة من روائع سكارليت بيمبرنيل، بعدما أعلَنَت لجنة السلامة العامة أنه «مُتَّهم»، صار محكومًا عليه بالإعدام الآن. سيكون إخراجُه من فرنسا تسليةً نادرة، وستُفلتون من الخطر بأعجوبة؛ إذا أفْلتُّم أصلًا. لقد ذهب سان جوست بالفعل ليلتقيَ به — بالطبع لا أحد يشكُّ في سان جوست حتى الآن، ولكن بعدئذٍ ... لن يكون إخراج كليهما من البلاد أمرًا هيِّنًا! بالتأكيد ستكون مهمةً شاقة، وعِبئًا ثقيلًا حتى على إبداع قائدنا. لكني مع ذلك أتمنى أن أُكلَّف بالانضمام إلى المجموعة.»

«هل لديك أي تعليمات خاصة لي؟»

«أجل! وهي نوعًا ما أدقُّ من التعليمات المعتادة. يبدو أن الحكومة الجمهورية قد بعَثَت إلى إنجلترا بوكيل معتمد، رجلٌ يُدعى شوفلان، ويقال إنه يكره عُصبتنا بشدةٍ ومُصرٌّ على اكتشاف هوية قائدنا حتى يختطفَه في المرة التَّالية التي يحاول فيها وضع قدمه في فرنسا. لقد جلب شوفلان هذا معه جيشًا كاملًا من الجواسيس، وإلى أن يُعاين

القائدُ الأوضاع، يرى أننا ينبغي ألَّا نلتقيَ بشأن عمل العصبة إلا نادرًا بقدر الإمكان، وينبغي ألَّا نتحادثَ أمام النَّاس وقتًا طويلًا تحت أيِّ ظرف. وعندما يريد هو التحدُّثَ إلينا، فسيجدُ وسيلةً لإعلامنا.»

كان الشابَّان مُنحنِيَين على النَّار؛ لأن اللهب قد خمَد ولم يبقَ إلا وَهَجٌ أحمرُ من الجمر المحتضِر يُلقي ضوءًا خافتًا على نصفِ دائرةٍ ضيقة أمام المِدْفأة. كانت بقيةُ الغرفة مدفونةً في ظلامٍ دامس؛ وكان السير أندرو قد أخرَج محفظةً من جيبه وسحَب منها ورقةً مطويَّة بَسَطها وحاوَلا معًا قراءتها على ضوء الجمر الأحمر الخافت. كانا منكبَّين جدًّا على ذلك، وكانا منهمِكَين جدًّا في قضية عُصبتهما، وكانا مُعتزَّين جدًّا بعملها، وكانت تلك الورقة المُرسَلة من يد قائدهما المحبوبِ نفسِه ثمينةً جدًّا، لدرجة أنَّ كل تركيز عيونهما وآذانهما كان مسلَّطًا عليها فقط. وهكذا فقدا الإحساس بالأصوات من حولهما؛ بصوتِ تساقُط الرماد الهشِّ من شبكة حطب المدفأة، وصوتِ تكَّات السَّاعة الرتيب، وصوت الحفيف الخافت الذي يكاد يكون غيرَ مسموع والذي كان صادرًا من احتكاك شيءٍ ما بالأرض بجوارهما. كانت هيئةُ شخصٍ قد برزَت من أسفل أحد المقاعد، وبحركاتٍ صامتةٍ كالأفعى، اقترب رُويدًا رويدًا من الشابَّين، دون تنفُّس، مكتفيًا بالزحف متسللًا على الأرض في ظلمة الغرفة الحالكة.

قال السير أندرو لصديقه: «عليك بقراءة هذه التعليمات وحفظِها عن ظهر قلب، ثم أتلِفْها.»

وبينما كان على وشك إعادة المحفظة إلى جيبه، تطايرَت منها قصاصةٌ ورقية صغيرة وسقطَت على الأرض. انحنى اللورد أنتوني والتقطَها.

سأل: «ما هذا؟»

فأجاب السير أندرو: «لا أدري.»

«لقد سقطَت من جيبك الآن. وبالتأكيد يبدو أنها لم تكن مع الورقة الأخرى.»

«غريب! متى وصلَت إلى هناك يا تُرى؟» وأضاف وهو يُلقي نظرة سريعة عليها: «إنها من القائد.»

طأطأ كِلاهما رأسه محاوِلَين فكَّ طلاسم القصاصة الصغيرة الأخيرة التي كانت تحمل بضع كلمات خُربِشَت عليها في عجالة، وعندئذٍ وقع ضجيجٌ خفيف شد انتباهَهما فجأة، وبدا أنه قادمٌ من الممر الواقع خارج الغرفة.

قال كِلاهما غريزيًّا: «ما ذلك؟» عبَر اللورد أنتوني الغرفة نحو الباب وفتَحَه فجأةً بسرعة، وفي اللحظةِ ذاتِها، تلقَّى لكمةً قوية بين عينَيه أعادته بعنفٍ إلى داخل الغرفة. وبالتزامُن مع ذلك، هَبَّ الشخص الذي كان جاثمًا كالأفعى في الظلام، ورمى بنفسه على السير أندرو المطمئنِّ الغافل من الخلف مُلقيًا به على الأرض.

حدَث كل هذا في غضون ثانيتَين أو ثلاثِ ثوانٍ، وقبل أن يتسنَّى للورد أنتوني أو السير أندرو وقتٌ أو فرصةٌ لإصدار صوتٍ أو إبداءِ أدنى مقاومة. صار كلٌّ واحدٍ منهما ممسوكًا بقبضات رجُلين، وسرعان ما عُقِدَت كمامةٌ حول فم كلٍّ منهما، ورُبِط أحدهما بالآخر ظهرًا إلى ظهر، وأوثِقَت أذرعُهما وأياديهما وأرجُلُهما بإحكام.

في تلك الأثناء كان رجلٌ خامسٌ قد أغلق الباب بهدوء؛ كان ملثَّمًا، وكان في هذه اللحظة واقفًا بلا حَراك بينما كان الأربعة الآخرون يُكملون عملهم.

قال أحد الرجال بينما كان يُلقي نظرةً أخيرةً متفحصةً على الأربطة التي أوثَقَت الشَّابَّين بإحكام: «الوضع آمنٌ تمامًا أيها المواطن!»

ردَّ الرجل الواقف على الباب قائلًا: «جيد! الآن فتِّشوا جيوبهما وأعطوني كلَّ الأوراق التي تجدونها.»

حدث ذلك على الفور وبهدوء. وبعدما أخذ الرجلُ الملثَّم الأوراق كلَّها، أرهف السمعَ لحظةً أو اثنتين ليسمع ما إن كان يوجد أيُّ صوتٍ في «استراحة صيَّاد السمك». وبعدما اطمأنَّ إلى أنَّ هذا الاعتداء الخسيس لم يصل إلى مسامع أحد، بدا واضحًا أنه ابتهج بذلك، وفَتح الباب مرةً أخرى وأشار آمرًا نحو آخِر الطُّرقة. رفع الرجال الأربعة السير أندرو واللورد أنتوني عن الأرض، وبالهدوءِ والصمتِ ذاتِهما اللذَينِ جاءوا بهما، حمَلوا الشَّابَّين المتأنقين الطويلين المقيَّدين خارج النزُل وساروا بهما في طريق دوفر، إلى غياهب الظلام البعيد.

وفي غرفة القهوة، كان الرجل الملثم الذي قاد هذا الاعتداءَ الجريء يُلقي نظرةً سريعةً على الأوراق المسروقة.

تمتم قائلًا وهو يخلع لِثامَه بهدوء بينما كانت عيناه الباهتتان الشبيهتان بعينَي الثعلب تلمعانِ في الوهج الأحمر للنار: «في المجمل، ليست غنيمةً يومية سيئة. ليست غنيمةً يومية سيئة.»

فتح رسالةً أو اثنتين من محفظة السير أندرو فولكس، ولاحظ قُصاصةَ الورَق التي لم يكن الشابَّان قد وجَدا وقتًا كافيًا لقراءتها؛ لكنَّ رسالةً واحدة معيَّنة، موقَّعةً باسم أرماند سان جوست، هي التي بدا أنها بالتحديد قد أشعَرَته برِضًا غريب.

تمتم قائلًا: «أرماند سان جوست خائنٌ في نهاية المطاف.» وأضاف بشراسةٍ من بين أسنانه المطْبَقة: «والآن يا مارجريت بليكني الجميلة، أظنُّ أنك ستُساعدينني لإيجاد سكارليت بيمبرنيل.»

الفصل العاشر

في مقصورة الأوبرا

كانت تلك إحدى ليالي الاحتفالات في مسرح كوفنت جاردن، وكانت باكورةَ ليالي الاحتفالات في موسم الخريف من عام ١٧٩٢ الذي لا يُنسى.

كان المسرح مكتظًّا، سواءٌ في مقصورات الأوركسترا الراقية والطابق المنخفض الرئيسي، أو في الشُّرفات والمنصَّات الأكثر عاميَّة في الأعلى. لاقى أداءُ المُلحِّن جلوك لعرض «أورفيوس» الأوبرالي استحسانًا شديدًا لدى الحاضرين في الأجزاء الأعلى ثقافةً في المسرح، أمَّا أولئك الذين لم يكونوا مهتمِّين كثيرًا بهذا «الاستيراد الأحدثِ الوارد من ألمانيا»، فكانوا مُعجَبين بالنساء الأنيقات والحشد المتألِّق ذي الثياب المبهرَجة.

كانت سيلينا ستوريس قد نالت تصفيقًا حارًّا مستحَقًّا من معجَبيها الكثيرين بعد اللحن المنفرد الرائع الذي غنَّته، أمَّا بنجامين إنكلدون، محبوب السيدات الشهير، فقد تلقَّى تقديرًا لطيفًا خاصًّا من المقصورة الملَكيَّة؛ والآن أُسدِلَ السِّتار بعد الخاتمة العظيمة للفصل الثَّاني، وبدا أن الجمهور، الذي كان ساكنًا تمامًا طوال العرض من شدةِ انجذابه المفتون إلى عزف العازف الرَّائع، أطلق تنهيدةً طويلة جماعية تُعبِّر عن رضاه، قبل أن يُطلِق العِنانَ للمئات من ألسنته المازحة العابثة.

كان بالإمكان رؤيةُ الكثير من الوجوه المعروفة في مقصورات الأوركسترا الراقية. كان السيد بِيت، المثقَل بهموم الدولة، يحظى باسترخاء قصيرٍ في تلك التسلية الموسيقية الليلة، أمَّا أمير ويلز، المرِحُ البدينُ ذو المظهر العامي الذي يخلو من الرُّقي إلى حدٍّ ما، فكان يتنقَّل من مقصورة إلى أخرى، مُمضيًا دقائقَ وجيزةً مع أولئك الذين كانوا من أقرب أصدقائه.

وفي مقصورة اللورد جرينفل أيضًا، لفَتَت شخصيةٌ مثيرةٌ للفضول والاهتمام انتباهَ الجميع؛ كان صاحبُ هذه الشخصية رجلًا ذا هيئة ضئيلة نحيلة ووجهٍ ماكر ساخر بعينَين عميقتين، وكان يُصغي إلى الموسيقى باهتمامٍ وينتقد الجمهور بشدَّة، وكان يرتدي

ثيابًا سوداءَ ناصعة وذا شعر أسود خالٍ من أي مسحوق. كان اللورد جرينفل — وزير الخارجية — يقدِّم له احترامًا ملحوظًا وإن كان فاترًا.

كانت توجد بضعةُ أوجُهٍ أجنبية متناثرة هنا وهناك بين أصناف الجَمال الإنجليزي المميز، وبَرَزَت هذه الأوجُه في تناقضٍ ملحوظ مع بقية الحاضرين؛ إذ كانت تحمل ملامحَ الطبقة الأرستقراطية المتغطرسة، وكان أصحابها هُم المهاجرين الملَكيِّين الفَرنسيِّين الكثيرين الذين وجَدوا مَلاذًا آمنًا لهم في إنجلترا بعدما اضطهَدهم الفصيلُ الثوري الوحشي في بلادهم. كان الحزن والهمُّ محفورَين بعمقٍ على تلك الوجوه؛ ولم تكن النساءُ بالأخصِّ مُباليات كثيرًا بالموسيقى أو الجمهورِ المتألِّق المبهرج؛ فمن المؤكَّد أنَّ بالهن كان شاردًا ومشغولًا بزوجٍ أو أخٍ، أو ربما ابن، ما زال في خطرٍ أو لاقى مؤخرًا مصيرًا وحشيًّا.

كانت من بينهن كونتيسة تورناي دو باسيريف التي لم تصل من فرنسا إلَّا مؤخرًا، والتي كانت هيئتها بارزةً جدًّا؛ إذ كانت ترتدي ثوبًا حريريًّا أسودَ داكنًا كئيبًا، ولم يكن معه سوى منديلٍ أبيضَ من الدانتيل للتخفيف من مظهر الحداد الذي كان باديًا عليها، وكانت جالسةً بجوار الليدي بورتارلس التي كانت تحاول بلا جدوى أن ترسُمَ ابتسامة على ثَغْر الكونتيسة الحزين بإطلاقِ تعليقات طريفة ونِكاتٍ بذيئة بعض الشيء. وكانت سوزان الصغيرة والفيكونت جالسين خلفها، حيث كانا صامتَين وخَجولين بعضَ الشيء وسط هذا الكمِّ الهائل من الغرباء. كانت عينا سوزان تبدُوان مفعمتين بالحزن والاشتياق؛ فعند وصولها إلى الدَّار المزدحمة، كانت تنظر حولها بلهفةٍ وتفقَّدَت كلَّ وجه وتفحَّصَت كلَّ مقصورة. كان من الواضح أن الوجه الذي تتمنَّى رؤيته غيرُ موجود؛ لأنها استقرَّت بهدوءٍ خلف والدتها واستمعت إلى الموسيقى بلا مُبالاة، ولم تُبدِ مزيدًا من الاهتمام بالجمهور ذاته.

قالت الليدي بورتارلس عند ظهور رأس وزير الخارجية الذكيِّ المثير للاهتمام عند مدخل المقصورة بعدما طَرَق طرقةً حصيفةً على استحياء: «آه، لورد جرينفل. هذا أنسبُ وقتٍ يُمكن أن تصل فيه. هنا السيدة كونتيسة تورناي، ومن المؤكد أنها تتحرَّق شوقًا إلى سماع آخِر الأخبار من فرنسا.»

كان الدبلوماسي البارز قد تقدَّم وكان في تلك اللحظة يُصافح السيداتِ.

قال بحزن: «مع الأسف! إنها سيِّئة للغاية. فالمذابح مستمرَّة، وباريس غارقةٌ حرفيًّا في الدماء، والمقصلة تحصد مئات الضحايا كلَّ يوم.»

كانت الكونتيسة تُسنِد ظهرها إلى الوراء في كرسيِّها شاحبةً ودامعة، وكانت تستمع مصدومةً إلى هذا الوصف الموجز المصوِّر لِما يحدث في بلدها المضلَّل.

قالت بإنجليزيةٍ ركيكة: «آهٍ يا سيدي! من المروِّع سَماعُ كلِّ هذا؛ وزوجي المسكينُ ما زال في ذاك البلد الشنيع. من الفظيع لي أن أكون جالسةً هنا، في مسرح، آمنةً وسالمة تمامًا، بينما يقبع هو في خطرٍ كهذا.»

قالت الليدي بورتارلس الصَّادقة الصريحة: «ربَّاه يا سيدة! إنَّ وجودك في دير لن يجعل زوجَكِ آمنًا، ولديك ابنٌ وابنة ينبغي أن تُفكري فيهما، إنهما أصغرُ من أن يتجرَّعا الهمَّ والحِداد قبل الأوان.»

ابتسمَت الكونتيسة، وسط دموعها، على حميَّة صديقتها. كانت الليدي بورتارلس، التي كان صوتُها وسلوكها يُناسبان أحدَ فرسان سباقات الخيل، طيِّبة القلب، وكانت تُخفي أصدقَ مشاعر التعاطف وألطفَ الأحاسيس الطيبة تحت السلوكيات الفظَّة بعض الشيء التي كانت بعضُ السيدات تصطنِعُها آنذاك.

أضاف اللورد جرينفل: «إلى جانب ذلك يا سيدتي، ألم تُخبريني يوم أمسِ بأن عُصبة سكارليت بيمبرنيل قد أقسَمت بشرفها أن تُحضِر سيادة الكونت عبر القنال سالمًا؟»

أجابت الكونتيسة: «آه، أجل! وهذا أملي الوحيد. قابلتُ اللورد هاستنيجز البارحة ... وطمأنَني مجددًا.»

«إذن فأنا متيقِّنٌ من أنَّه لا داعيَ إلى أن تخافي. فما أقسمَت عليه العُصبة، ستنفذه بالتأكيد.» وأضاف الدبلوماسي العجوز وهو يتنهَّد: «آه، لو أنني كنتُ أصغرَ ببضع سنوات فقط ...»

قاطعَته الليدي بورتارلس الصريحة قائلة: «عجبًا يا رجل! ما زلتَ صغيرًا بما يكفي لتتجاهلَ تلك الفزَّاعة الفرنسية التي تجلس متوَّجةً في مقصورتِك الليلة.»

«ليتني أستطيع ... لكن على سيادتكِ أن تتذكَّري أننا يجب أن نُنحِّي التحيزاتِ جانبًا في خدمة مصلحة بلدنا. السيد شوفلان هو الممثل المعتمَد لحكومته ...»

«عجبًا لك يا رجل! أتُسمي أولئك الوحشيِّين المتعطشين للدماء حكومة، حقًّا؟»

قال الوزير بتعقُّل: «لم يُرَ إلى الآن أنه من المستحسَن لإنجلترا أن تقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا؛ ولهذا لا نستطيع أن نرفض أن نستقبل بكل تأدُّب واحترام الموفَدَ الذي تريد إرساله إلينا.»

«اللعنة على العلاقات الدبلوماسية يا سيدي! ذاك الثعلب الصغير الخبيث هناك ليس إلا جاسوسًا، سأضمنُ لك هذا وستجد — وسأكون مُخطئة تمامًا إذا كان الوضع غيرَ ذلك — أنَّه لا يَشغَل بالَه أصلًا بهذه الدبلوماسية، وأنَّ اهتمامه بها لا يتجاوز مُحاولةَ

إلحاقِ الأذى بالمهاجرين الملَكيِّين وببطلنا سكارليت بيمبرنيل وبأعضاء تلك العصبة الصغيرة الشجعان.»

قالت الكونتيسة وهي تضمُّ شفتيها الرفيعتَين: «أنا متيقنةٌ من أن شوفلان ذاك، إن رغب بإلحاقِ الأذى بنا، فسيجد الليدي بليكني حليفًا مخلصًا.»

صاحت الليدي بورتارلس: «لِيُبارك الربُّ المرأة! هل رأى أحدٌ ضلالًا كهذا قط؟ سيدي اللورد جرينفل، أنت تملك موهبةَ الثرثرة، فهلَّا شرحتَ من فضلك للسيدة الكونتيسة أنها تتصرَّف بحماقة.» وأضافت وهي تُوجِّه وجهًا غاضبًا وحازمًا نحو الكونتيسة: «بالنظر إلى وضعكِ هنا في إنجلترا يا سيدتي؛ فمن مصلحتكِ ألَّا تتصرَّفي بهذا التعالي الذي تعشقونه أيها الأرستقراطيُّون الفرنسيون. ربما تكون الليدي بليكني متعاطفةً مع أولئك الهَمَج الوحشيِّين في فرنسا أو لا، وربما تكون لها علاقةٌ باعتقال سان قرياقوس أو أيًّا ما كان اسمه وإدانته، أو لا، لكنها رائدةُ أحدث صيحات الأزياء في هذه البلاد، والسير بيرسي بليكني أكثرُ أموالًا من أيِّ ستةِ رجالٍ مجتمعين، وهو مُقرَّب جدًّا من العائلة الملَكية، ومحاولتكِ ازدراءَ الليدي بليكني لن تضرَّها، بل ستجعلكِ تَبْدين حمقاء. أليس كذلك سيدي اللورد؟»

لكن اللورد جرينفل لم يستطع التعبيرَ عن رأيه في هذه المسألة، وكذلك لم تستطع كونتيسة تورناي الإفصاحَ عن الخواطر التي جالت في رأسها؛ بسبب هذا التوبيخ المطوَّل الفظِّ من الليدي بورتارلس؛ لأنَّ سِتار المسرح كان قد رُفع للتو إيذانًا ببدءِ الفصل الثَّالث من عرض «أورفيوس»، وجاءت من جميع أنحاء دار الأوبرا نصائحُ حازمة بالتزام الصمت.

ودَّع اللورد جرينفل السيدات متعجلًا وانسلَّ عائدًا إلى داخل مقصورته، حيث كان السيد شوفلان جالسًا طَوال مدة هذه الاستراحة، ممسكًا بصندوق سَعُوطه الذي لا ينتهي، ومُحدِّقًا بعينيه الباهتتَين الثَّاقبتَين إلى المقصورة المقابلة له، التي كانت مارجريت بليكني قد دخَلَتها للتو مع زوجها، وسطَ قدرٍ كبير من حفيف التنانير الحريرية والكثير من الضحكات وضجَّةٍ فضولية عامة بين الجمهور، وهي تبدو إلهيةَ الجمال تحت تموُّجات شعرها الذهبي المحمرِّ الكثيفة، التي كانت تحمل قليلًا من المسحوق المنثور عليها، وكانت مُجمَّعةً خلف عنقها الجميل بربطةٍ فَراشية سوداء ضخمة. ولأنَّ مارجريت دائمًا ما كانت ترتدي أحدثَ صيحات الأزياء؛ كانت هي السيدةَ الوحيدة التي تخلَّت في تلك الليلة عن الشَّال المتقاطع والفستان الفوقيِّ ذي طيَّةِ الصدر العريضة، اللذين كانا رائجَين في آخر

سنتين أو ثلاثة. إذ ارتَدَت الفستانَ التقليديَّ الشكلِ والمرتفعَ الخَصْر، الذي سرعان ما سيُصبح الطِّراز المعتمَد في كل بلاد أوروبا. كان يُلائم هيئتها المَلَكية الرشيقة ملاءمةً مثالية؛ لأنه كان مؤلَّفًا من موادَّ متلألئةٍ بدَت كأنها كتلةٌ من تطريزٍ ذهبي غالي الثمن.

وبينما كانت تدخل المقصورة، أمالت رأسَها خارجها لحظةً وتفحَّصت كلَّ الحضور الذين كانت تعرفهم. وبينما كان تفعل ذلك، انحنى الكثيرون لها باحترامٍ، وكذلك جاءتها من المقصورة الملكية تحيةٌ مهذَّبة سريعة.

كان شوفلان يُراقبها باهتمامٍ طَوال بداية الفصل الثَّالث بينما كانت جالسةً مفتونةً بالموسيقى، وكانت يدُها الصغيرة الفاتنة تلعب بمِروحةٍ صغيرةٍ مرصَّعةٍ بالحُلي، وكان رأسها المَلَكيُّ وحنجرتها وذراعاها ورقبتها مُغطَّياتٍ بألماساتٍ ضخمة وأحجارٍ كريمةٍ نادرة مُهداةٍ إليها من الزوج العاشق الذي كان مُمدَّدَ الأطراف مسترخيًا بجانبها.

كانت مارجريت تعشق الموسيقى بشغف. وقد سحرها عرض «أورفيوس» في تلك الليلة. إذ كانت بهجة الحياة محفورة بوضوحٍ على قسمات الوجه الشَّابِّ الحلو، وجعَلَت العينَين الزرقاوين المرحتين تلمعان وأنارت الابتسامةُ التي كانت كامنةً في ثنايا الشفتين. فرغم كلِّ شيء، كانت مارجريت في الخامسة والعشرين من عمرها فقط، أي في رَيْعان الشباب، وكانت محبوبةً لدى حشدٍ متألق، ومعشوقةً ومكرَّمة ومدلَّلة ومُقدَّرة. كان يخت «داي دريم» قد عاد من كاليه قبل يومين، وجلب إليها أخبارَ وصول أخيها المحبوب سالمًا وأنه يُفكر بها وسيُحاول أن يكون حذرًا من أجلها.

العجيب في تلك اللحظة أنها، أثناء استماعها إلى ألحان جلوك المتَّقِدة، نسيَت خيباتها ونسيَت أحلام حبِّها المتلاشية، ونسيت حتى التَّافه المبتهج الكَسول الذي كان يُعوض افتقاره إلى المَلَكات الروحانية بإغراقها بمنافع دنيوية.

كان قد بقي بجانبها في المقصورة طَوال المدة التي يقتضيها العُرف فقط، مُفسِحًا المجال لصاحب السموِّ الملكي، ولحشد المعجَبين الذين أتَوا في موكبٍ مُستمرٍّ لِيُعبِّروا عن احترامهم لملكة صيحات الأزياء. كان السير بيرسي قد رحل متباطئًا ليتحدَّث إلى أصدقاء أكثرَ تَجانُسًا معه على الأرجح. ولم تتساءل مارجريت حتى إلى أين ذهب؛ فلم تكن مهتمَّة، وبعدما كانت محاطةً بحاشيةٍ صغيرةٍ من أغنى شباب لندن وأكثرِهم أناقة، صرَفَتهم كلهم للتو؛ لأنَّها تريد أن تبقى وحدها مع موسيقى جلوك وقتًا قصيرًا.

أيقظَتها طَرْقةٌ متحفظةٌ على الباب مِن استمتاعها.

قالت بنفادِ صبرٍ دون أن تلتفتَ لرؤية ذاك المتطفِّل: «ادخل.»

لاحظ شوفلان، الذي كان يتحيَّن فرصتَه، أنها كانت وحدها، وكان في تلك اللحظة قد انسلَّ بهدوءٍ إلى داخل المقصورة دون أن ينتظر حتى ذلك الإذنَ الذي أعطتْه بنفاد صبر، وفي اللحظة التَّالية كان يقف خلف كرسيِّ مارجريت.

قال هامسًا: «اسمَحي لي بكلمةٍ معك أيتها المواطنة.»

التفتَت مارجريت سريعًا بذعرٍ صادق تمامًا.

قالت بابتسامةٍ صغيرةٍ مصطنَعة: «ربَّاه يا رجل! لقد أفزعتَني، جئتَ في وقتٍ غيرِ مناسبٍ بالمرة. فأنا أريد الاستماعَ إلى موسيقى جلوك، وليس لديَّ رغبة في الكلام.»

قال هامسًا: «لكن هذه فرصتي الوحيدة»، ودون أن ينتظر إذنَها، سحَب كُرسيًّا قريبًا خلفها، قريبًا جدًّا لدرجة أنه يستطيع أن يهمسَ في أذنها، دون أن يُزعج الجمهور، ودون أن يراه أحدٌ وسط خلفيَّة المقصورة الداكنة. كرَّر مجددًا بينما لم تمنَحْه أيَّ رد: «هذه فرصتي الوحيدة. فالليدي بليكني دائمًا ما تكون مُحاطة بعددٍ هائل من الناس، ومُحتفًى بها من حاشيتها احتفاءً شديدًا، لدرجة أنَّه حتى مجرد صديقٍ قديم لا يجد إلا فرصةً ضئيلة جدًّا.»

قالت بنفادِ صبر: «يا إلهي يا رجل! لا بد أن تبحث عن فرصةٍ أخرى إذن. سأذهب إلى حفل اللورد جرينفل الرَّاقص الليلةَ بعد الأوبرا. وأنت ستكون هناك، على الأرجح. سأُعطيك خمسَ دقائق حينها ...»

ردَّ قائلًا ببرودٍ: «ثلاثُ دقائق في خصوصية هذه المقصورة كافيةٌ جدًّا لي، وأظن أنَّ من مصلحتكِ أن تُصغي إليَّ أيتُها المواطنة سان جوست.»

ارتجفَت مارجريت ارتجافةً غريزية. صحيح أنَّ شوفلان لم يرفع صوته عن الهمس، وكان الآن يأخذ بعضًا من السَّعوط بين إبهامه وسبابته، ولكن كان ثمةَ شيءٌ في سلوكه، شيءٌ في تلك العينَين الثعلبيَّتَين الباهتتين، بدا أنه يُجمِّد الدمَ في عروقها، وكأنها تُلاحظ خطرًا مميتًا لم تُخمِّن ماهيَّتَه حتى الآن.

سألته أخيرًا: «أهذا تهديدٌ أيها المواطن؟»

قال بملاطَفة: «لا يا سيدتي الجميلة، بل مجردُ سهمٍ طائش جاوز هدفه.»

سكت لحظةً كقطٍّ يُراقب فأرًا يركض بالقرب منه دون انتباهٍ إلى الخطر المُحدِق به، مُستعِدًّا للانقضاض عليه، لكنه ينتظر مُفعَمًا بذاك التلذُّذ السنوري بالأذى الوشيك. ثم قال بهدوء:

«أخوكِ سان جوست في خطر.»

لم تتحرَّك أيُّ عضلة في الوجه الجميل أمامه. كان يمكنه أن يرى وجهَها من الجانب فقط؛ لأن مارجريت بدَت منهمكةً في مشاهدة المسرح باهتمامٍ شديد، لكن شوفلان كان قويَّ الملاحظة؛ إذ لاحظ ثباتَ عينَيها المفاجئ، وتصلُّبَ فمها، والتوتر الحاد الذي أصاب جسدَها الجميل الرشيق وجعله شِبهَ مشلول.

قالت بمرح مُصطنَع: «يا إلهي، إذن بما أن هذه إحدى حبكاتك الخياليَّة، فمن الأفضل أن تعود إلى مقعدك وتدَعَني أستمتع بالموسيقى.»

وبدأت تدقُّ بيدها على مسند المقصورة المُبطَّن مُسايِرةً إيقاعَ الموسيقى بعصَبية. كانت سيلينا ستوريس تُغني «تشي فارو (ماذا سأفعل)» للجمهور الذي كان مشدودًا بانجذابٍ مسحور إلى شِفاه تلك المغنِّية الرئيسية. لم يتزحزح شوفلان من مقعده، وكان عاكفًا في صمتٍ على مراقبة حركة تلك اليد الصغيرة العصبيَّة، التي كانت الدليلَ الوحيد على أن سهمه قد أصاب الهدف.

قالت فجأةً خارج الموضوع وباللامبالاة المُصطنَعة ذاتِها: «إذن؟»

أجاب ببرود: «إذن ماذا أيتها المواطنة؟»

«بشأن أخي؟»

«لديَّ أخبارٌ عنه أظنُّها ستُهمكِ، ولكن دعيني أشرح أولًا ... هل تسمحين؟»

لم يكن السؤال ضروريًّا. فشوفلان كان يشعر، مع أن مارجريت ما زالت تتجنَّب النظر إليه بكلِّ ثبات، بأنَّ كل عصبٍ من أعصابها مشدودٌ من فرط اللهفة لسماع ما سيقوله.

قال: «في ذاك اليوم أيتها المواطنة، طلبتُ مساعدتَكِ ... فرنسا كانت تحتاج إليها، وظننتُ أنني أستطيع الاعتمادَ عليكِ، لكنك أعطيتِني جوابكِ ... ومنذ ذلك الوقت، ظَلِلنا متباعدَين بسبب مقتضيات شئوني الخاصة وواجباتكِ الاجتماعية ... مع أن أشياءَ كثيرةً قد حدَثَت ...»

قالت بلا مبالاة: «أرجوك أن تدخل في صُلب الموضوع أيها المواطن، فالموسيقى رائعةٌ والجمهور سيفقد صبره من كلامك.»

«لحظة واحدة أيتها المواطنة. في اليوم الذي تشرَّفت فيه بمقابلتكِ في دوفر، وبعد أقلَّ من ساعةٍ من الوقت الذي أعطيتني فيه جوابكِ النهائي، حصَلتُ على بعض الأوراق، التي كشفَت عن مخططٍ آخر من تلك المخططات الخفية الماكرة لتهريب مجموعةٍ من الأرستقراطيين الفرنسيين — بينهم خائنُ تورناي ذاك وأشخاصٌ آخَرون — كلها من

تخطيط ذاك المتطفِّل الخبيث، سكارليت بيمبرنيل. وكذلك وقعَت في يدي بعضُ خيوط هذه المنظمة الغامضة، لكن ليس كلها، وأنا أريد منكِ ... كلا! بل «يجب» أن تُساعديني لأجمعها كلها.»

بدا أن مارجريت كانت تستمع إليه بنفادِ صبر واضح، والآن هزَّت كتفَيها وقالت بمرح:

«أف يا رجل! ألم أخبرك سلفًا بأنني لا أهتمُّ بمخططاتك أو بسكارليت بيمبرنيل. ولولا أنك ذكرتَ أخي ...»

تابع برباطة جأش: «أناشدُكِ قليلًا من الصبر أيتها المواطنة. كان يوجد سيدان في «استراحة صيَّاد السمك» في دوفر في الليلةِ نفسِها: أحدهما هو اللورد أنتوني دوهرست، والثَّاني هو السير أندرو فولكس.»

«أعلم. رأيتهما هناك.»

«كان جواسيسي يعرفون بالفعل أنهما عضوان في تلك العصبة الملعونة. السير أندرو فولكس هو مَن اصطحب كونتيسة تورناي وابنها وابنتها عبر القنال. عندما كان الشابَّان وحدهما، اقتحم جواسيسي غرفة القهوة في النزل، وكمَّموا الشابين المتأنقين وأوثقوهما، وأخذوا أوراقهما وأحضروها إليَّ.»

وهنا سرعان ما خمَّنَت مارجريت ماهيَّةَ الخطر. أوراق؟ ... هل كان أرماند أرعن إلى هذا الحد؟ صعَقَتها الفكرةُ ذاتُها برعبٍ لا يوصَف. لكنها لم تُرِد أن تجعل هذا الرجلَ يرى خوفها، فضحكت بمرح ولا مبالاة.

قالت بمرح: «ربَّاه! ووقاحتك تتجاوز التصديق. سرقة وعنف! ... في إنجلترا! ... وفي نُزلٍ مزدحم! كان من الممكن أن يُقبَض على رجالك مُتلبِّسين بهذا الجرم!»

«وماذا في ذلك؟ إنهم أبناءُ فرنسا، وقد تدرَّبوا على يدِ خادمكِ المتواضع. لو قُبِض عليهم، كانوا سيذهبون إلى السجن أو حتى إلى المشانق بلا أيِّ اعتراض أو حماقة؛ على أي حال، كان الأمر يستحقُّ المخاطرة. النزل المزدحِم آمَنُ لهذه العمليات الصغيرة ممَّا تظنِّين، ورجالي لديهم الخبرة.»

سألت بلا مبالاة: «إذن؟ وماذا عن تلك الأوراق؟»

«مع الأسف، مع أنها أخبرَتني بأسماءٍ معيَّنة ... تحركاتٍ معيَّنة ... كافية في رأيي لإحباط ضربتِهم المتوقَّعة حاليًّا، لكن هذا سيكون مؤقَّتًا فقط، وسأظل جاهلًا بهُويَّة سكارليت بيمبرنيل.»

قالت بالأسلوب اللامبالي المصطنَع ذاتِه: «عجبًا يا صديقي! إذن ما زلتَ حيثما كنتَ من قبل، أليس كذلك؟ وستدَعُني أستمتع بآخِر مقطعٍ من الأغنية.» وأضافت وهي تتظاهرُ بكبحِ تثاؤبٍ مصطنَع: «ربَّاه! ألم تقُل شيئًا حول أخي ...»

«سآتي على ذكره الآن أيتها المواطنة. بين تلك الأوراق، كانت توجد رسالةٌ موجَّهةٌ إلى السير أندرو فولكس من أخيكِ سان جوست.»

«حسنًا؟ وماذا بعد؟»

«تُظهِر تلك الرسالةُ أنه متعاطفٌ مع أعداء فرنسا، بل ومُعاونٌ لعصبة سكارليت بيمبرنيل بالفعل، إن لم يكن عضوًا فيها.»

ضُرِبَت الضربة أخيرًا. كانت مارجريت تتوقَّعُها طوالَ هذا الوقت، لكنها لم تكن تُريد أن تُظهِر الخوف، كانت مُصرَّةً على أن تبدوَ غيرَ مباليةٍ بل حتى مُسفِّهة لكلامه. كانت تتمنَّى، عند مجيء الصدمة، أن تكون مستعدَّةً لها، أن تكون كلُّ بديهتها السريعةِ حاضرةً معها، تلك البديهة التي وُصِفت بالأذكى في أوروبا. حتى في تلك اللحظة لم تجفل. كانت تعرف أنَّ شوفلان قد قال الحقيقة؛ فالرجل كان أشدَّ جدِّيةً، وأشدَّ تفانيًا أعمى للهدف الضَّالِّ الذي يحمله في قلبه، وأشدَّ فخرًا برجالِ بلاده، أولئك الذين صنَعوا الثورة، من أن ينحدر إلى أكاذيبَ دنيئةٍ فارغة.

كانت تلك الرسالةُ المبعوثة من أرماند — أرماند الأحمق الأرعن — في حوزة شوفلان. وكانت مارجريت متيقِّنةً من ذلك كما لو أنها رأت تلك الرسالة بأم عينَيها، وكان من المؤكَّد أنَّ شوفلان سيحتفظ بتلك الرسالة من أجل أغراضه الخاصة حتى يُناسِبَه التخلصُ منها أو استخدامُها ضدَّ أرماند. كانت تعرف كلَّ ذلك، لكنها استمرَّت في الضحك بمرحٍ أكبرَ وصوتٍ أعلى من ذي قبل.

قالت وهي تتحدَّث إليه من فوق كتفها وتنظر مباشرةً نحو وجهه: «عجبًا يا رجل! ألم أقُل إنها حبكةٌ خيالية. أرماند عضوٌ في عُصبة ذاك المجهول سكارليت بيمبرنيل! أرماند مشغولٌ بمساعدة أولئك الأرستقراطيِّين الفرنسيين الذين يحتقرهم! ... يا إلهي، الحكاية كلها من وحي خيالِك!»

قال شوفلان بالهدوءِ الثَّابت ذاتِه: «دعيني أوضِّح قصدي أيتها المواطنة، يجب أن أؤكِّد لكِ أن سان جوست قد فُضِح إلى حدٍّ يتجاوز أدنى أملٍ في نَيل العفو.»

خيَّم صمتٌ مُطبق في داخل مقصورة الأوركسترا كلِّها للحظة أو اثنتين. كانت مارجريت جالسةً، منتصبةَ الظهر جامدةً ساكنة، تُحاول التفكير، تحاول مواجهةَ الموقف لتتوصَّل إلى أفضل تصرُّفٍ ممكِن.

كانت ستوريس قد أنهَت الأغنيةَ على المسرح، وكانت الآن تنحني، في ثوبها الذي كان تقليديًّا، لكن طرازه كان مُستحسَنًا في القرن الثَّامنَ عشر، للجمهور المتحمِّس الذي ظل يُصفق ويهتف لها بأعلى صوته وقتًا طويلًا.

قالت مارجريت بليكني أخيرًا بهدوء، وبدون ذلك التبجُّح الطفيف الذي كان مُرافقًا لسلوكها طَوال الوقت: «شوفلان، شوفلان يا صديقي، هلا حاوَلْنا فَهْم بعضِنا البعض. يبدو أن بديهتي الحاضرة قد أصابها الصدأُ بسبب تعرُّضي لهذا الطقس الرَّطْب. الآن أخبرني، أنت متلهفٌ جدًّا لمعرفة هُوية سكارليت بيمبرنيل، أليس كذلك؟»

«عدوُّ فرنسا الألدُّ أيتها المواطنة ... بل والأخطر؛ لأنه يعمل في الخفاء.»

«تقصد الأنبل ... حسنًا! والآن أنت ستجبرني على مُمارسة بعض التجسُّس لصالحك مقابلَ سلامة أخي أرماند؟ أهذا كل ما في الأمر؟»

اعترض شوفلان بتأدُّب قائلًا: «سحقًا! كلمتان قبيحتان للغاية يا سيدتي الجميلة. لا وجود للإجبار إطلاقًا، والخدمة التي سأطلبها منكِ، باسم فرنسا، لا يمكن أبدًا أن يُطلَق عليها اسمٌ صادمٌ كالتجسس.»

قالت بواقعيةٍ جامدة: «على أي حال، هذا هو الاسم الذي يُطلَق عليها هنا. هذا هو مقصدك، أليس كذلك؟»

«مقصدي أن تربَحي أنتِ بنفسكِ عفوًا مجَّانيًّا عن أرماند سان جوست بتقديم خدمة صغيرة لي.»

«ما هي؟»

قال بلهفة: «فقط أبقِي عينيكِ مفتوحتَين من أجلي الليلةَ أيتها المواطنة سان جوست. اسمعي، من بين الأوراق التي وُجِدَت مع المدعو سير أندرو فولكس كانت توجد رسالة قصيرة.» أضاف وهو يُخرج قصاصةً ورقيةً صغيرةً جدًّا من محفظة جيبه ويُسلمها إليها: «انظري!»

كانت تلك القصاصة الورقية ذاتَها التي كان الشابَّان يقرَآنِها قبل أربعة أيَّام، في اللحظة ذاتها التي تعرَّضا فيها للهجوم من أتباع شوفلان. أخذتها مارجريت تلقائيًّا

وطأطأتْ لتقرأَها. كان فيها سطران فقط، وكانا مكتوبَين بخطٍّ يدٍ مُشوَّه ومُحرَّف بوضوحٍ لإخفاء هُوية صاحبه؛ قرأتْهما بصوتٍ خافت:

«تذكَّروا أننا يجب ألا نلتقيَ إلا للضرورة القصوى. لديكم كل التعليمات بخصوص الثَّاني. إن أردتم التحدث إليَّ مرةً أخرى، فسأكون في حفلة جي.»

سألت: «ماذا يعني هذا؟»

«انظري مجددًا أيتها المواطنة وستفهمين.»

«يوجد شعارٌ هنا في الزَّاوية، زهرةٌ حمراءُ صغيرة ...»

«أجل.»

قالت بلهفة: «سكارليت بيمبرنيل، وحفلة جي تعني حفلة جرينفل ... سيكون في حفلة سيدي اللورد جرينفل الليلة.»

استنتج شوفلان برقَّة: «ذلك تفسيري للرسالة، أيتها المواطِنة. بأمرٍ مني حُمِلَ اللورد أنتوني دوهرست والسير أندرو فولكس، بعد أن أوثقَهما جواسيسي وفتشوهما، إلى منزلٍ مهجورٍ على طريق دوفر، كنتُ قد استأجرتُه من أجل هذا الغرض، وبقِيَا هناك سجينَين في حبسٍ موصَدٍ حتى صباح اليوم. ولكن بعد أن وجدتُ هذه القصاصة الصغيرة، أردتُ أن يكونا في لندن عندما يحين موعد حفلة السيد اللورد جرينفل. تفهمين، أليس كذلك؟ فلا بد أنَّ لديهما الكثيرَ ليقولاه لقائدهما ... وهكذا ستكون لديهما فرصةُ التحدث إليه الليلةَ، تمامًا كما أوصاهما. لهذا، في صباح اليوم، وجد هذان الشابَّان المتأنقان كلَّ الترابيس والأقفال في ذاك البيت المهجور على طريق دوفر مفتوحةً، وقد اختفى سجَّانوهما، وفي انتظارهما حِصانان جيدان مُسْرَجان مستعدَّان مربوطان في الفِناء. لم أرَهما بعد، لكن أظنُّ أننا يُمكن أن نستنتج بكلِّ ثقة أنهما لم يَشُدَّا اللِّجام حتى وصلا إلى لندن. الآن ترين كم هو الأمر بسيط أيتها المواطنة!»

قالت، بمحاولةٍ مريرة أخيرة لاصطناع بعض الوقاحة: «يبدو بسيطًا، أليس كذلك؟ عندما ترغب في قتل دجاجة ... فأنت تُمسك بها أولًا ... ثم تعتصر رقبتها ... الدجاجة وحدها هي التي لا ترى الأمر بسيطًا جدًّا. الآن أنت تُسلِّط سِكِّينًا على رقبتي، ولديك رهينةٌ تضمن به طاعتي. ترى الأمر بسيطًا. لكني لا أراه كذلك.»

«لا أيتها المواطنة، أنا أعرض عليكِ فرصةً لإنقاذ أخيكِ الذي تُحبِّينه من عواقب حماقته التي اقترفها بنفسه.»

ارتخى وجهُ مارجريت، واغرورقَت عيناها أخيرًا، وهي تتمتم مخاطبةً نفسَها:

«الشخص الوحيد الذي أحبَّني حقًّا وما زال يُحبني.» ثم قالت بقدرٍ هائل من اليأس في صوتها المختنق بالدموع: «لكن ما الذي تريدني أن أفعلَه يا شوفلان؟ في وضعي الحالي، هذا شبه مستحيل!»

قال بجمودٍ وبلا هوادة دون أن يكترث بذلك الاستعطافِ اليائس الطفولي الذي ربما كان سيُذيب قلبًا قُدَّ من صخر: «لا أيتها المواطنة، فبصفتك الليدي بليكني، لا أحد يشكُّ فيكِ، وبمساعدتكِ لي الليلة ربما — من يعلم؟ — أنجح في اكتشاف هُوية سكارليت بيمبرنيل أخيرًا. أنت ستذهبين إلى الحفلة قريبًا. أبقي عينَيك مفتوحتين هناك من أجلي أيتها المواطنة، راقبي وأنصتي ... يمكنك أن تخبريني إذا سمعتِ كلمةً أو همسةً بالصدفة. يمكنك أن تُلاحظي جميع الأشخاص الذين سيتحدَّث معهم السير أندرو فولكس واللورد أنتوني دوهرست. أنتِ بعيدةٌ عن الشبهات الآن بالتأكيد. سكارليت بيمبرنيل سيكون في حفلة اللورد جرينفل الليلة. اعرِفي هُويته، وأتعهَّد لكِ بشرف فرنسا أن أخاكِ سيكون آمنًا.»

كان شوفلان يضع السكين على حنجرتها. شعَرَت مارجريت بأنها واقعةٌ في شَرَكِ إحدى تلك الشباك التي لا أمَل لها في الهروب منها. كانت مُهدَّدة برهينةٍ غالٍ مُحتجَزٍ لضمان طاعتها؛ لأنها كانت تعلم أنَّ شوفلان لن يُطلِق تهديدًا فارغًا أبدًا. فمن المؤكد أنَّ لجنة السلامة العامة قد تلقَّت بالفعل إشارةً بأنَّ أرماند «مُشتبَهٌ به»؛ وبذلك لن يُسمح له بمغادرة فرنسا مجددًا، وسيُقتل بلا رحمة إذا رفضت إطاعة شوفلان. للحظةٍ — كأبِ النساء — كانت ما تزال تتمنى أن تُماطل وتكسب بعضَ الوقت. فمدَّت يدها إلى هذا الرجل الذي صارت تخافُه وتكرهه الآن.

وقالت بلُطف: «إن قطعتُ وعدًا بمساعدتك في هذه المسألة يا شوفلان، فهل ستُعطيني رسالةَ سان جوست تلك؟»

أجاب بابتسامةٍ ساخرة: «إن قدَّمتِ لي خدمةً مفيدة هذه الليلة أيتها المواطنة، فسأعطيكِ تلك الرسالة ... غدًا.»

«ألا تثقُ بي؟»

«أثق بكِ بالتأكيد يا سيدتي العزيزة، لكنَّ حياة سان جوست صارت رهنًا لدى بلاده ... وفي يدَيكِ أن تُخلِّصيها.»

استعطفَته قائلة: «ربما أعجِزُ عن مساعدتك رغم رغبتي الشديدة في ذلك.»

قال بهدوء: «هذا سيكون فظيعًا بالتأكيد ... لكِ ولأرماند سان جوست.»

ارتجفَت مارجريت. شعرت بأنها لا يمكن أن تنتظر أيَّ رحمةٍ من هذا الرجل. كان يُطبِق بكلِّ قوة وجبروتٍ على حياة أخيها الغالية في قبضة يده. كانت تعرفه جيدًا جدًّا لدرجة أنها كانت متيقنةً من أنه إنْ فشل في الحصول على مُبتَغاه، فسيصبح عديم الرحمة.

شعرت بالبرد رغم الجو الخانق في دار الأوبرا. بدا كأنَّ ألحان الموسيقى المُبهجة للقلب تصلُ إليها من أرضٍ بعيدة جدًّا. لفَّتْ شالها الحريري الثمين حول كتفَيها وجلست صامتةً تُراقب المشهد الباهر كما لو كان حلمًا.

وللحظةٍ شَرَدَت بأفكارها بعيدًا عن محبوبها الواقع في الخطر إلى ذاك الرجل الآخر الذي كان هو أيضًا له حقٌّ في نَيل ثقتها وحُبِّها. كانت تشعر بالوَحدة والخوف على أرماند؛ لذا تاقَت للبحث عن الطَّمْأنة والنصيحة من شخصٍ يعرف كيف يُساعدها ويُواسيها. كان السير بيرسي بليكني يُحبها يومًا ما؛ كان زوجَها، فلِمَ تقف وحيدةً في هذه المحنة الفظيعة؟ صحيحٌ أنَّ قدراته الفكرية ضئيلةٌ جدًّا، لكنه مفتولُ العضلات، ومن المؤكد أنهما، إذا تكفَّلَت بالذكاء وتكفَّل هو بالمقدرة الرجولية والشَّجاعة، يستطيعان معًا التغلُّبَ على الدبلوماسي الذكي، وإنقاذَ الرهينة من يده التوَّاقةِ للانتقام، دون تعريض حياة القائد النبيل الذي يرأس تلك العصبةَ الصغيرة الجسورة من الأبطال الشجعان للخطر. كان السير بيرسي يعرف سان جوست جيدًا — بدا أنه يُحبه بشدة — لذا كانت متيقنةً من أنه سيستطيع المساعدة.

لم يَعُد شوفلان مهتمًّا بها. فقد ألقى تهديدَه القاسي مُخيِّرًا إياها بين خيارَين أحلاهما مُرٌّ، وترَكها لتُقرر. كان بدوره الآن يبدو منغمسًا في ألحان «أورفيوس» المثيرة للروح، وكان يُساير إيقاع الموسيقى برأسه الحادِّ الشبيه برأس النمس.

أيقظتْ طرقةٌ متحفِّظة على الباب مارجريت من أفكارها. كان الطارق هو السير بيرسي بليكني، الذي وقف بقامته الطويلة ناعسًا ومبتهجًا، وحاملًا تلك الابتسامةَ البلهاء الخجولة، التي بدا في تلك اللحظة أنها تُزعج كلَّ عصبٍ من أعصاب مارجريت.

قال بنبرته المتباطئة المستفزَّة جدًّا: «آ... عربتكِ في الخارج ... يا عزيزتي، أظن أنكِ تريدين الذَّهاب إلى تلك الحفلة المقيتة ... اعذرني؛ آآ؛ يا سيد شوفلان ... لم أنتبه إلى وجودك. ...»

مدَّ إصبَعَين أبيضين نحيلَين نحو شوفلان الذي كان قد وقف عندما دخل السير بليكني المقصورة.

«هل ستأتين يا عزيزتي؟»

«هششش! شش! شش!»؛ هكذا جاءت اعتراضاتٌ غاضبة من أماكنَ متفرقة من الدَّار.

علَّق السير بيرسي قائلًا بابتسامةٍ مرحة: «يا للوقاحة اللعينة!»

تنهَّدَت مارجريت بنفادِ صبر. بدا فجأةً أن آخِرَ آمالها قد تلاشى. لفَّت عباءتها حولها وبدون أن تنظر نحو زوجها، قالت:

«أنا مستعدةٌ للذَّهاب»، وتأبطت ذراعه. وعند باب المقصورة، استدارَت ونظرت مباشرةً نحو شوفلان، الذي كان متأبِّطًا قبعته المطويَّة ذاتَ القرنين ومستعدًّا، بابتسامةٍ غريبة تحوم حول شفَتَيه، للَّحاق بالزوجين غير المتجانسين بغرابة.

قالت بسرور: «هذا مجردُ فراق مؤقَّت، يا شوفلان. سنلتقي في حفلة سيدي اللورد جرينفل، قريبًا.»

من المؤكَّد أنَّ الفرنسي الماكر قرأ في عينيها شيئًا جعله يشعر بالرضا العميق؛ لأنه تناول كمية ضئيلة من السَّعوط بابتسامةٍ ساخرة، ثم نفض منديلَ عنقه الأنيقَ المصنوعَ من الدَّانتيل، وفرك يدَيه العظميتين النحيلتين برِضًا.

الفصل الحادي عشر

حفلة اللورد جرينفل

كانت الحفلة التَّاريخية التي أقامها وزيرُ الخارجية آنذاك — اللورد جرينفل — أعظمَ المناسبات الاحتفالية وأكثرَها تألقًا في ذلك العام. ومع أن فصل الخريف كان قد بدأ للتو، تمكَّن جميعُ المشاهيرِ وذَوي النفوذ من أن يكونوا موجودين في لندن في الوقت المناسب، ليحضروا الحفل، وليتألَّقوا فيه بأقصى استطاعتهم، سواءٌ الرجال أو النساء.

كان صاحب السمو الملكي أمير ويلز قد وعَد بالحضور. وكان الآن في طريقه من دار الأوبرا إلى الحفل. وكان اللورد جرينفل نفسُه قد استمع إلى الفصلَين الأوَّلين من «أورفيوس» قبل أن يستعدَّ لاستقبال ضيوفه. وفي تمام الساعة العاشرة — التي كانت وقتًا متأخرًا جدًّا آنذاك — كانت الغرف الفخمة الفسيحة في مقرِّ وزارة الخارجية، التي زُيِّنت تزيينًا جميلًا ببعض شُجيرات النخيل والأزهار المجلوبة من الخارج، مكتظَّةً بشدَّة. كانت إحدى الغُرف قد خُصِّصَت للرقص، وكانت أنغام موسيقى المينويت الراقصة الجميلة بمثابة خلفية عذبة مُصاحبة للثرثرة المرحة والضحكات المبتهجة الصادرة من الحاضرين الذين كانوا كثيرين ومتألِّقين.

وفي غرفةٍ أصغر، مقابِلةٍ للجزء العُلوي من الدَّرَج الرَّائع، وقف المضيف المتميز مُستعدًّا لاستقبال ضيوفه. مرَّ به صفٌّ طويل من رجالٍ بارزين ونساءٍ جميلات ووجهاء من جميع الدول الأوروبية، وتبادَلوا معه الانحناءات الرجالية والنسائية المُتقَنة، التي كان يقتضيها العُرف المُبالَغ فيه المُتَّبَع آنذاك، ثم تجاوَزوه وانتشروا في الحفل وصالةِ الاستقبال وغرفِ ألعاب الورق، منخرطين في الضحك والحديث.

وعلى مقربة من اللورد جرينفل، كان شوفلان متَّكِئًا على إحدى الطاولات المثبَّتة بالجدران في ثوبه الأسودِ الخالي من أي عيب، يُراقب الحشد المتألِّق بهدوء. لاحظَ أن السير

بيرسي والليدي بليكني لم يصلا بعد، وكانت عيناه الثَّاقبتان الباهتتان تَطْرفان نحو الباب كلما ظَهَر وافدٌ جديد.

كان يقف منعزلًا نوعًا ما؛ إذ كان من المستبعَد أن يكون مبعوثُ حكومة فرنسا الثورية محبوبًا في إنجلترا في الوقت الذي كانت فيه أخبارُ مذبحةِ سبتمبر الفظيعة، وعهد الإرهاب والأناركية، قد بدأتْ تتسرَّب للتوِّ عبر القنال.

كان نُظراؤه الإنجليز قد استقبَلوه استقبالًا محترمًا دمثًا بصفته الرسمية؛ إذ صافَحه السيد بيت، وسلَّاه اللورد جرينفل أكثرَ من مرة، لكن الأوساط الأكثر خصوصيةً في مجتمع لندن كانت قد تجاهَلَته تمامًا؛ فالنساء كُنَّ يُدِرْن ظهورهنَّ له صراحةً، فيما رفض الرجال الذين لا يَشغَلون مناصبَ رسمية أن يُصافحوه.

غير أنَّ شوفلان لم يكن من النوع الذي يَشغل بالَه بهذه المجاملات المجتمعية، التي كان يصفُها بأنها مجردُ حوادثَ عارضةٍ في وظيفته الدِّبلوماسية. كان متحمسًا حماسةً عمياءَ للقضية الثورية، وكان يحتقرُ جميع أشكال اللامساواة المجتمعية، وكان مفعمًا بحُبٍّ ملتهب لبلاده، وهذه المشاعر الثلاثة جعلَتْه غيرَ مُبالٍ تمامًا بالازدراءات التي تعرَّض لها في إنجلترا الرجعية المليئة بالضباب والموالية للحكومة الفرنسية البائدة.

لكنَّ الأهم من ذلك كلِّه أنَّ شوفلان كان يحمل في قلبه غايةً محددة. كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الأرستقراطيِّين الفرنسيين هم ألدُّ أعداء فرنسا، وكان يتمنَّى رؤيةَ هلاكهم جميعًا؛ إذ كان أحد أوائل أولئك الذين أفصَحوا، في عهد الإرهاب الفظيع هذا، عن الرغبة التاريخية الوحشية التي قيل فيها: «يا ليت الأرستقراطيين كان لهم رأسٌ واحد مشترك فيما بينهم، ليُقطَع بضربةٍ واحدةٍ من المقصلة.» ولذا كان ينظر إلى كل أرستقراطي فرنسيٍّ استطاع الهربَ من فرنسا على أنه فريسةٌ حُرِمَت منها المقصلة بلا مبرِّر. وكان من المؤكد أن أولئك الملَكيِّين المهاجرين، حالما تَمكَّنوا من عبور الحدود، فعلوا كلَّ ما يقدرون عليه لإثارة النقمة الأجنبية ضد فرنسا. إذ دُبِّرت مؤامراتٌ لا حصر لها في إنجلترا وفي بلجيكا وفي هولندا سعيًا إلى حثِّ إحدى القُوى العُظمى على إرسال جيوشٍ إلى باريس الثورية، لتحرير الملك لويس، وشنقِ قادة تلك الجمهورية المتوحشة المتعطشين للدماء فورًا.

ومن ثَمَّ، لا عَجَب في أنَّ شوفلان كان يحمل كراهيةً شديدة لذلك الشخص الغامض الرومانسي المُلقَّب بسكارليت بيمبرنيل. فقد نجح مع حَفْنةٍ من الشبَّان الوقحين تحت قيادته، مزوَّدين بمالٍ وفير ومسلَّحين بجُرأةٍ لا حدود لها ودهاءٍ شديد، في إنقاذ مئاتِ الأرستقراطيين من فرنسا. فتسعةُ أعشار هؤلاء المهاجرين، المُحتفى بهم في القصر المَلَكي الإنجليزي، كانوا يَدينون بسلامتهم لذلك الرجل وعصبته.

كان شوفلان قد أقسَم لزملائه في باريس أنه سيكتشف هُوية ذاك المتطفل الإنجليزي، وسيستدرجُه إلى فرنسا وعندها ... . التقط شوفلان نفسًا عميقًا مفعمًا بالرِّضا لمجرد تخيُّل رؤية ذاك الرأس الغامض يسقط تحت سكِّين المقصلة بالسهولة ذاتِها التي يسقط بها رأسُ أي رجل.

فجأةً، سُمع ضجيجٌ عالٍ على الدَّرَج الفخم الباهر، توقفَت كلُّ المحادثات للحظة بينما جاء صوتُ كبير الخَدم والمُشرِف على الحفل من الخارج قائلًا:

«صاحب السمو الملكي أمير ويلز ورفقته، السير بيرسي بليكني والليدي بليكني.»

أسرع اللورد جرينفل نحوَ الباب لاستقبال ضيفه السامي.

كان أمير ويلز يرتدي حُلَّة ملَكية رسميةً رائعةً من المخمل باللون السلموني، مطرزةً بالذهب بإتقان، ودخل متأبِّطًا ذراع مارجريت بليكني، وعلى يساره السير بيرسي بحُلَّة من الساتان الأبيض المصْفَرِّ المتلألئ الرائع، مصمَّمة على طراز المتأنقين الفرنسيِّين الذي يتَّسم بالبذَخ والمبالغة، وبشعره الأشقر الذي كان خاليًا من المساحيق، وشرائط حريرية لا تُقدَّر بثمنٍ عند رقبته ومعصمَيه، والقبعة المطويَّة المسطحة أسفل ذراعه.

بعدما حيَّا اللورد جرينفل ضيفَه الملكيَّ تحيةً تبجيلية ببضع كلمات تقليدية، قال له:

«هل تسمح لي سُموَّك بتقديم السيد شوفلان، الوكيل المعتمد للحكومة الفرنسية؟»

كان شوفلان، فور دخول الأمير، قد تقدم خطوةً إلى الأمام متوقعًا هذا التقديم. وأدَّى انحناءةً منخفضة جدًّا، بينما رد الأمير تحيته بإيماءةٍ مقتضَبة من رأسه.

قال صاحب السمو الملكي ببرود: «أيها السيد، سنحاول أن نتناسى الحكومةَ التي أرسلَتْك، وسنعتبرك مجردَ ضيف عندنا ... مجرد رجل مهذب من فرنسا. وهكذا فأنت مُرحَّبٌ بك يا سيد.»

ردَّ شوفلان وهو ينحني مجددًا: «مولاي.» وأضاف وهو ينحني برسميةٍ أمام مارجريت: «سيدتي.»

قالت ببهجةٍ غير مبالية وهي تمدُّ يدها الصغيرة جدًّا نحوه: «آه! صغيري شوفلان!» وأضافت قائلةً للأمير: «أنا والسيد صديقان قديمان يا صاحبَ السمو.»

قال الأميرُ بلطفٍ هذه المرة: «آه، إذن فأنت مُرحَّبٌ بك مرتين يا سيد.»

وهنا تدخَّل اللورد جرينفل قائلًا: «يوجد شخصٌ آخَر أودُّ أن تسمح لي بأن أقدمه لجلالتك.»

سأل الأمير: «آه! من هو؟»

«السيدة كونتيسة تورناي دو باسيريف وعائلتها، التي وصلَت مؤخرًا من فرنسا.»

«بالتأكيد! ... إنهم مِن سُعداء الحظ إذن!»

استدار اللورد جرينفل باحثًا عن الكونتيسة، التي كانت تجلس في الطرَف الأقصى من الغرفة.

همس صاحبُ السمو الملكيِّ لمارجريت حالما وقعَت عيناه على الهيئة المتجهمة للسيدة العجوز: «ليحفَظْني الرب! ليحفظني الرب! إنها تبدو عفيفةً جدًّا وكئيبةً جدًّا.»

ردَّت بابتسامة: «ربَّاه جلالتك، العفة مثل روائح ثمينة، تُصبح رائحتها نفَّاذة جدًّا عندما تُسحَق.»

تنهَّد الأمير قائلًا: «مع الأسف! العفة لا تليق إطلاقًا بجِنسك الفاتن يا سيدتي.»

قال اللورد جرينفل وهو يُقدِّم السيدة: «السيدة كونتيسة تورناي دو باسيريف.»

«سُررتُ بلقائك يا سيدتي؛ فسموُّ أبي، كما تعرفين، يسعد دائمًا بالترحيب بأبناء بلادك الذين أبعدتهم فرنسا عن شواطئها.»

ردَّت الكونتيسة بوقارٍ لائق: «جلالتك بالغ الكرم.» ثم أضافت وهي تشير نحو ابنتها التي كانت واقفةً جانبها على استحياء: «ابنتي، سوزان يا مولاي.»

قال الأمير: «آه! فاتنة! فاتنة! والآن اسمحي لي أيتها الكونتيسة بأن أقدِّم لكِ، الليدي بليكني، التي تَشرَّفْنا بصداقتها. أؤكِّد أنَّ كلًّا منكما لديها الكثيرُ لتقوله للأخرى. كل أبناء بلد الليدي بليكني مرحَّبٌ بهم مرتين من أجلها ... أصدقاؤها أصدقاؤنا ... وأعداؤها أعداءُ إنجلترا.»

لمعَت عينا مارجريت الزرقاوان ابتهاجًا بتلك الكلمات اللطيفة من صديقها الجليل. فكونتيسة تورناي، التي قد أهانتها إهانةً صارخة مؤخرًا، كانت هنا تتلقَّى درسًا على مَرْأًى من الجميع، ولم تستطع مارجريت أن تَكْبح فرحتها بذلك. لكن الكونتيسة التي كان احترامها للملكيين يكاد يُضاهي احترامها للدين، كانت على درايةٍ تامة بآداب السلوك في حضرة الأمراء والملوك؛ لذا لم تُبدِ أيَّ علامةٍ على الحرج بينما تبادلت السيدتان الانحناءاتِ الرسمية.

قالت مارجريت بينما كانت عيناها الزرقاوان اللامعتان ممتلئتَين بمرحٍ ساخر: «جلالته لطيفٌ دائمًا سيدتي، لكن لا داعيَ هنا إلى وساطته اللطيفة ... فاستقبالُكِ الوَدود لي في آخر لقاءٍ لنا ما زال مستقرًّا بذاكرتي بكل سرور.»

ردَّت الكونتيسة ببرود: «نحن، المنفيِّين المساكينَ، نُظهر امتنانَنا لإنجلترا بإخلاصنا لرغبات مولاي.»

قالت مارجريت وهي تُقدِّم انحناءةً نسائية رسميةً أخرى: «سيدتي!»

ردَّت الكونتيسة بوقارٍ مُماثل: «سيدتي!»

كان الأمير في ذلك الحين يُحادث الفيكونت الشابَّ ببِضع كلمات لبقة لطيفة.

قال الأمير: «سعيدٌ بمعرفتك أيها السيد الفيكونت. كنتُ أعرف والدك جيدًا عندما كان سفيرًا في لندن.»

أجاب الفيكونت: «آه، يا مولاي! كنتُ ولدًا صغيرًا آنذاك ... والآن أَدينُ بشرفِ هذا اللقاء لحامينا، سكارليت بيمبرنيل.»

قال الأمير بجِدِّية وسرعة: «صه!» وهو يشير نحو شوفلان، الذي كان قد وقف جانبًا بعضَ الشيء طَوال هذا المشهد الصغير، يُراقب مارجريت والكونتيسة بابتسامةٍ بسيطة مستمتعة وساخرة تحوم حول شفتَيه النحيلتين.

وعندئذٍ قال، كما لو كان يردُّ مباشرة على تحدِّي الأمير: «لا يا مولاي، أرجو ألَّا تكبحَ تعبير هذا الشَّابِّ المحترم عن امتنانه، فاسم تلك الزهرة الحمراء المثيرة للاهتمام معروفٌ جيدًا لي، ولفرنسا.»

رمَقه الأميرُ بنظرةٍ ثاقبةٍ بضعَ ثوانٍ.

وقال: «يا إلهي، إذن يا سيد، ربما تعرف عن بطلنا القومي أكثرَ مما نعرفه نحن أنفسنا ... بل يُحتمل أنك تعرف هُويَّته.» وأضاف وهو يستدير نحو المجموعات المنتشِرة في أنحاء الغرفة: «انظر! السيدات يُراقبن شفتَيك باهتمامٍ بالغ ... ستُصبح ذا شعبية وسط الجنس الجميل إن أشبعتَ فضولهن.»

قال شوفلان بنبرة ذاتِ مغزًى: «آهٍ يا مولاي، الشائعات في فرنسا تقول إنَّ جلالتك تستطيع — إن شئتَ — أن تُعطي أدقَّ معلومةٍ عن تلك الزهرة الغامضة التي تنمو على أجناب الطرُق.»

ألقى نظرةً ثاقبةً خاطفةً نحو مارجريت وهو يتكلم، لكنها لم تُظهِر أيَّ انفعال، والتقَت عيناها بعينيه بلا خوف.

ردَّ الأمير قائلًا: «لا يا رجل، سأكتم السر! وأعضاء العُصبة يحمون سرَّ قائدهم بكل حرص ... لذا فإنَّ محبيه الكثيرين عليهم أن يكتفوا بتقديسِ شبحٍ.» وأضاف بجاذبيةٍ رائعةٍ ووقار باهر: «هنا في إنجلترا أيها السيد، يكفي أنْ ننطقَ اسم سكارليت بيمبرنيل،

ليُخضب كل خدٍّ أبيضَ بحُمرة الحماس. لم يرَه أحدٌ سوى مساعديه المخلصين. لا نعلم ما إذا كان طويلًا أم قصيرًا، فاتح البشرة أم داكن البشرة، وسيمًا أم قبيحًا، لكننا نعرف أنه أشجعُ الرجال المحترمين في العالم كله، وجميعنا نشعر ببعض الفخر يا سيد عندما نتذكر أنه إنجليزي.»

أضافَت مارجريت وهي تكاد تنظر بتَحدٍّ إلى وجه الفرنسيِّ البارد الشبيه بوجه أبي الهَول: «آه يا سيد شوفلان، جلالته ينبغي أن يُضيف أننا نحن السيداتِ نعتبره بطلًا من أبطال الأساطير القُدامى ... نحبُّه لدرجة العبادة ... نرتَدي شارته ... نخاف عليه عندما يكون في خطر، ونُهلل معه في ساعة نصره.»

اكتفى شوفلان بالانحناء للأمير ولمارجريت بهدوءٍ بارد؛ شعر بأن الغرض من كلامِ كلٍّ منهما كان إيصالَ الازدراء أو التحدِّي، كلٌّ بطريقته. كان يحتقر الأميرَ العاطل المُحِبَّ للملذَّات، أمَّا المرأة الجميلة التي كانت ترتدي في شعرها الذهبي حِلْيةً من زهورٍ حمراءَ صغيرة، مصنوعةً من الياقوت والألماس، فكان يُمسك بها في قبضة يده؛ لذا ظلَّ صامتًا وفضَّل انتظارَ ما سيحدث.

كسَرَت ضحكةٌ طويلة مرحة بلهاء الصمتَ المفاجئ الذي قد خيَّم على الجميع.

قال السير بيرسي الأنيقُ بنبرةٍ بطيئة مصطنَعة: «ونحن الأزواج المساكين ... علينا أن نقف كالمشاهِدين ... بينما يَعبُدن شبحًا لعينًا.»

ضحك الجميع؛ وكان صوتُ ضحكة الأمير أعلى من أيِّ أحد. زال توتُّر الانفعال المكبوت، وفي اللحظة التَّالية كان الجميع يضحك ويُثرثر بابتهاجٍ بينما تَفرَّق الحشد المرح وانتشر في الغرف المجاورة.

الفصل الثاني عشر

القصاصة الورقية

كانت مارجريت تتعذَّب بشدة. صحيحٌ أنها كانت تضحك وتتبادل الأحاديث، وصحيحٌ أنها حَظِيَت بإعجابٍ وإقبال واحتفاء أكثرَ من أي امرأةٍ هناك، لكنها شعرَت بأنها محكومٌ عليها بالموت، وأنها تعيش يومها الأخير على هذه الأرض.

كانت أعصابها مشدودةً إلى حدٍّ مؤلم، وكان هذا الألم قد تضاعف مائة مرة خلال السَّاعة القصيرة التي أمضتها برفقة زوجها بين دار الأوبرا والحفل. فالبصيص الضعيف من الأمل — في أنها قد تجد في هذا الشخص الطيب البليد صديقًا وناصحًا قيِّمًا — كان قد تلاشى بالسرعةِ نفسِها التي أتى بها حالما أصبحَت وحدها معه. والازدراءُ الطيب نفسُه الذي يشعر به المرءُ تجاه حيوانٍ، أو خادمٍ مخلص، جعَلها تنفر مُتبسِّمةً من الرجل الذي كان يُفترض به أن يكون داعمَها المعنوي في هذه المحنة الممزِّقة لنياط القلب التي كانت تمر بها، الرجل الذي كان يُفترض به أن يكون مرشِدَها الرابطَ الجأش، عندما يتقاذفُها تعاطفُها وإحساسها الأنثويُّ هنا وهناك؛ بين حبِّها لأخيها الذي كان بعيدًا وواقعًا في خطرٍ مميت، وشعورِها بالرعب من الخدمة الفظيعة التي طلبَها شوفلان منها مقابل سلامة أرماند.

وها هو الدَّاعم المعنوي، المُرشدُ الرابطُ الجأش، واقفٌ هناك محاط بجمعٍ من الشبَّان الحمقى المتأنقين الفارغي العقول الذين كانوا، في تلك اللحظة تحديدًا، يتناوَبون على تَكرار رباعية شِعرية مبتذَلة قد ألقاها للتو، وهُم مفعَمون بكل علامات الاستمتاع الشديد.

طاردَتها تلك الكلماتُ السخيفة الحمقاء في كل مكان؛ إذ بدا أن النَّاس لم يكن لديهم شيءٌ آخر ليتحدثوا عنه، حتى الأمير سألها ضاحكًا ما إن كانت مُعجَبة بجهود زوجها الشعرية الأخيرة.

كان السير بيرسي قد ألقى الرباعية قائلًا لزمرة مُعجَبيه: «ألَّفتها كلها وأنا أعقد ربطةَ عنق.»

«نبحث عنه هنا، نبحث عنه هناك،
وأولئك الفرنسيون يبحثون عنه في كل مكان
هل هو في الجنة؟ هل هو في جحيم الهلاك؟
بيمبرنيل المراوغ الخارق ذاك؟»

كانت أبيات السير بيرسي الطريفةُ قد طافت غُرفَ الاستقبال الباهرة. كان الأمير مفتونًا. وأقسَم أن الحياة كانت ستكون صحراءَ كئيبةً لولا بليكني. ثم أخذه من ذراعه، وقاده إلى غرفة ألعاب الورق، وأشركه في لعبة نردٍ طويلة.

عادةً ما كان السير بيرسي، الذي بدا أن شُغله الشاغل في أغلب المناسبات الاجتماعية يتمحور حول طاولة اللعب، يسمح لزوجته بالمغازلة والرقص وأن تُسلِّيَ نفسها أو تُضجِرَها بقدرِ ما تشاء. وفي هذه الليلة، بعدما ألقى أبياتَه الطريفة بنفسه، ترك مارجريت محاطةً بحشدٍ من المعجَبين من كل الأعمار، وكانوا جميعًا متحمسين ومستعدين لمساعدتها على أن تنسى أنَّه يوجد، في مكانٍ ما من غرف الاستقبال الفسيحة، كائنٌ طويل وبليد أحمق بما يكفي ليفترض أنَّ أذكى امرأةٍ في أوروبا ستتأقلم مع روابط الزواج الإنجليزي العادية الرتيبة وترضى بها.

كانت أعصاب مارجريت بليكني، التي كانت ما تزال مشدودة، ومشاعر انفعالها واهتياجها، قد أضْفَت عليها الكثيرَ من الجاذبية الإضافية؛ فكان يُرافقُها سِربٌ حقيقيٌّ من رجالٍ من كلِّ الأعمار ومن معظم الجنسيَّات؛ وبذلك انتزعت الكثير من صيحات الإعجاب مِن كل مَن كانت تمر به.

ما كانت لتسمح لنفسها بأي وقتٍ آخَر للتفكير. فالتنشئة البوهيمية بعضَ الشيء التي تلقَّتْها في مرحلةٍ مبكرة من حياتها جعلتها مؤمنةً إلى حدٍّ ما بمذهب القَدَرية. شعرت بأن الأحداث ستُشكل ذاتها، وأن توجيه الأحداث ليس في يديها. كانت تعرف أنها لا يُمكن أن تنتظر أي رحمة من شوفلان. كان قد وضع ثمنًا لرأس أرماند، وترك لها أن تدفع أو لا تدفع، حسبما تختار.

وفي وقتٍ لاحقٍ من تلك الأمسية، رأت السير أندرو فولكس واللورد أنتوني دوهرست، اللذين بدا أنهما كانا قد وصَلا للتو. لاحظت فورًا أن السير أندرو قد توجَّه إلى سوزان

تورناي الصغيرة في الحال، وأنَّ الشاب والشابة سرعان ما استطاعا أن ينعزِلا في كوةٍ عميقةٍ لإحدى النوافذ العديدة، لينخَرِطا هناك في محادثةٍ طويلةٍ بدت جادَّة جدًّا وممتعة جدًّا لكليهما.

بدا على كِلا الشَّابين قليلٌ من القلق والإجهاد، لكنهما باستثناء ذلك كانا يرتديان ثيابًا لا عيب فيها، ولم تظهر في سلوكهما المهذَّب اللبق أدنى علامةٍ على الكارثة الرهيبة التي من المؤكد أنهما كانا يشعران بأنها تحوم حولهما وحول قائدهما.

كانت قد استنتجَت أنَّ أفراد عُصبة سكارليت بيمبرنيل لا يعتزمون التخلِّيَ عن قضيتهم، وذلك من كلام سوزان الصغيرة نفسها، التي تحدَّثَت علانيةً بكل أريحية عن التطمينات التي تلقَّتها هي وكونتيسة تورناي بأنَّ العُصبة ستنقذ كونت تورناي من فرنسا خلال الأيَّام القليلة القادمة. بدأت تتساءل متحيِّرة، وهي تنظر إلى حشد المتألِّقين المتأنقين في غرفة الحفل ذات الإضاءة الساطعة، أيٌّ من هؤلاء الرجال الدُّنيويين هو سكارليت بيمبرنيل الغامض الذي يُمسك بخيوط هذه الخطط الجريئة ومصائر الأرواح الغالية بين يديه.

تملَّكَها فضولٌ محتدم لمعرفة هُويته، صحيحٌ أنها كانت قد سمعت عنه طوال أشهُرٍ عديدة وتقبَّلَت غموضه طوال تلك المدة، ككلِّ الآخرين في المجتمع، لكنها الآن صارت متلهفةً لتعرفه — بحيادية تامة، بعيدًا تمامًا عن أرماند، وأوه! بعيدًا تمامًا عن شوفلان — لأجلها فقط، لأجل إعجابها المتحمس الذي لطالما شعرت به تجاه شجاعته ودهائه.

كان من المؤكد أنَّه موجودٌ في الحفل، في مكانٍ ما؛ لأن السير أندرو فولكس واللورد أنتوني دوهرست كانا موجودَين، وبدا من الواضح أنهما ينتظران لقاءَ قائدهما، أو ربما الحصول على تعليماتٍ جديدةٍ منه.

تفحَّصَت مارجريت الجميعَ من حولها؛ وجوهَ النورمانديِّين الأرستقراطيين الطويلة التقليدية، والسَّاكسونيِّين ذَوي البِنْية العريضة القوية والشعر الفاتح، وطائفة السلتيِّين الألطف والأفكَه، متسائلةً أيٌّ من هؤلاء تبدو عليه القوة والمقدرة والدهاء، أيٌّ منهم قد فرَض إرادته وقيادته على عددٍ من السَّادة النبلاء الإنجليز، من بينهم صاحب السموِّ الملكي نفسه حسبما كانت الشائعات تؤكِّد.

السير أندرو فولكس؟ بالتأكيد لا، بعينيه الزرقاوين اللطيفتين اللتين كانتا تُلاحقان سوزان الصغيرة برقَّةٍ وشوق، بعدما أبعدَتها أمُّها عن اللقاء الثنائي الممتع الذي كان قد جمعهما. راقبَته مارجريت عبر الغرفة، بينما استدار أخيرًا وهو يتنهَّد بحسرة، وبدا

أنه يقف وحيدًا هائمًا الآن بعد أن غابَت هيئة سوزان الصغيرة الجميلة عن ناظرَيه بين الحشد.

راقبته مارجريت بينما كان يمشي متمهلًا نحو مدخلٍ يؤدي إلى مخدعٍ صغيرٍ في الخلف، ثم توقف واتَّكأ على إطار المدخل وهو ما زال يتلفَّت حوله قلقًا.

اختلقَت مارجريت الآن حُجةً لتتهرَّب من مُراقِصها الحاليِّ المُلاطِف، وتجنَّبَت الحشد المتأنِّق مُقتربةً من المدخل الذي كان السير أندرو يتكئ عليه. لم تستطع معرفةَ السبب الذي جعلها ترغب في الاقتراب منه؛ ربما كانت مدفوعةً بقُوَى القدَرِ التي يبدو أنها تحكم مصائرَ البشر في أحيانٍ كثيرة جدًّا.

فجأةً توقَّفَت، بدا أن قلبها نفسه قد توقف، ألقت عيناها الواسعتان المنفعلتان نظرةً خاطفةً على ذاك المدخل للحظةٍ ثم ارتدَّتا عنه بالسرعة ذاتِها مجددًا. كان السير أندرو فولكس ما زال جامدًا بلا حَراكٍ في موضعه نفسِه بالقرب من الباب، لكن مارجريت رأتْ بوضوحٍ أن اللورد هاستنيجز — الذي كان شابًّا مفعَمًا بالحيوية وصديقًا لزوجها وأحد مرافقي الأمير — قد دسَّ شيئًا في يده بينما مرَّ بجانبه سريعًا.

توقفت مارجريت للحظةٍ أطول — أوه! كان ذلك بسرعة البرق — وفي اللحظة التالية، استأنفَت مشيها عبر الغرفة بلا مبالاة مُصطنَعة بأداء مثير للإعجاب، لكنها هذه المرة كانت تمشي بخُطًى أسرع نحو مدخل الباب الذي كان السير أندرو قد اختفى من عنده في هذه اللحظة.

كان كل هذا، من اللحظة التي لمحت فيها مارجريت السير أندرو متكئًا على المدخل وحتى تَبِعَته إلى داخل المخدع الصغير في الخلف، قد حدث في أقلَّ من دقيقة. فالقدر عادةً ما يكون سريعًا عندما يُوجِّه ضرباته.

كانت الليدي بليكني الآن قد تلاشت فجأةً من الوجود. وكانت الموجودة هي مارجريت سان جوست فقط، مارجريت سان جوست التي قضَت طفولتها وشبابها المبكر في حماية أخيها أرماند. نسيت كلَّ شيءٍ آخر — مكانتها ووقارها وحماستها السرية — كل شيءٍ ما عدا أنَّ حياة أرماند كانت في خطر، وأن هناك، على بُعد أقلَّ من عشرين قَدمًا منها، في المخدع الصغير الذي كان مهجورًا تمامًا، في يد السير أندرو فولكس، قد توجد التعويذة التي ستنقذ حياة أخيها.

انقضى أقلُّ بقليلٍ من نصف دقيقة أخرى بين اللحظة التي دسَّ فيها اللورد هاستينجز ذاك «الشيء» الغامض في يد السير أندرو، واللحظة التي وصلَت فيها بدَورها

إلى المخدع المهجور. كان السير أندرو يقف وظهرُه لها بالقرب من طاولةٍ عليها شمعدانٌ ضخمٌ من الفِضَّة. كانت في يده قصاصةٌ ورقية، وكان الآن منهمكًا بالفعل في قراءة محتواها بتمعُّن.

تسلَّلَت مارجريت مقتربةً من خلفه، ولم يشعر بها؛ لأنَّ ثوبها النَّاعم الضيق لم يكن يُصدِر أيَّ صوتٍ على السجادة الكثيفة، ولأنها لم تجرؤ على التنفُّس حتى تنال مُبتغاها ... وحالما نظر حوله ورآها، تأوَّهَت ورفعت يدها إلى جبهتها وتمتمت بوهن:

«الحرارة فظيعةٌ في الغرفة ... شعرتُ بوهن شديد ... آه! ...»

ترنَّحَت كما لو كانت على وشْك السقوط، واستطاع السير أندرو، الذي سرعان ما استفاق من انهماكه في القراءة وسحق الرسالة الصغيرة التي كان يقرؤها في قبضةِ يده، أن يسندَها في اللحظة الأخيرة حسبما بدا.

سألها بقلقٍ بالغ: «أأنتِ مريضة يا ليدي بليكني؟ دعيني ...»

فقاطعته بسرعة: «لا، لا، لا بأس. كرسي ... بسرعة.»

غاصت داخل كرسيٍّ بالقرب من الطَّاولة، ورمت رأسها للخلف مغلقةً عينيها.

تمتمت بنبرةٍ لا تزال واهنة: «اطمئن! الدوار يتلاشى ... لا تَشغل بالك بي يا سير أندرو، أؤكد لك أن حالتي تحسَّنَت بالفعل.»

لا شك أنَّ المرء في مِثل هذه اللحظات — وعلماء النفس يؤكدون هذا بالفعل — تكون لديه حاسةٌ ليس لها أيُّ صلةٍ بالحواس الخمس الأخرى؛ إنها ليست ما نرى، ولا ما نسمع ولا ما نلمس، ومع ذلك يبدو أننا نؤدِّي هذه العمليات الثلاثَ كلَّها في آنٍ واحد. جلست مارجريت هناك متظاهرةً بإغماض عينَيها. كان السير أندرو خلفها مباشرة، وكانت على يمينها الطَّاولة وعليها الشمعدان ذو الأذرع الخمسة. لم تكن ترى في مخيلتها سوى صورةِ وجه أرماند. أرماند الذي كانت حياتُه في خطرٍ وشيك، والذي بدا كأنه ينظر إليها من خلفيةٍ تحمل رسمةً باهتة لحشد باريس الهائج، والجدران العارية للجنة السلامة العامة، وفوكييه تنفيل، النَّائب العام، مطالبًا بحياة أرماند باسم شعب فرنسا، والمقصلة البشعة بنصلها الملطَّخ تنتظر ضحيةً أخرى ... أرماند! ...

خيَّم صمتٌ مطبقٌ للحظة في المخدع الصغير. وجاءت، من غرفة الحفل على الجانب الآخر، أنغامُ رقصة الجيفوت العذبة، وصوت حفيف الفساتين الغالية، وأحاديث حشدٍ ضخمٍ مبتهج وضحكاته، لتكون بمثابةِ خلفية صوتية غريبة وعجيبة للتمثيلية التي كانت تؤدَّى هنا.

لم ينبس السير أندرو بكلمةٍ أخرى. ثم أصبحَت تلك الحاسة السادسة قويةً لدى مارجريت بليكني. لم تكن ترى لأن عينَيها مغلقتان، ولم تكن تسمع لأنَّ الضجيج القادم من قاعة الحفل كان يطغى على صوتِ حفيف القصاصة الورقية المهمة الخافت؛ لكنها كانت متيقنةً — كما لو كانت ترى وتسمع — من أنَّ السير أندرو كان في تلك اللحظة يُقرِّب الورقة إلى لهب إحدى الشموع.

وفي اللحظة ذاتِها التي بدأت الورقة تشتعل فيها، فتحت عينيها ورفعت يدها، والتقطت القصاصة الورقية المشتعلة من يد الشَّاب بإصبعَين جميلتَين. ثم نفخَت مُطفِئةً النَّار، وقرَّبت الورقة إلى فتحة أنفها بلا أي اكتراث.

قالت بسرور: «كم أنت مُراعٍ للآخرين يا سير أندرو، لا شك في أن جَدَّتك هي مَن علَّمَتك أنَّ رائحة الورق المحترق علاجٌ ممتازٌ للدوار.»

تنهَّدَت برِضًا وهي تُمسك بتلك الورقة بإحكامٍ بين أصابعها المرصعة بالحُلي؛ تلك التعويذة التي ربما تُنقذ حياة أخيها أرماند. كان السير أندرو يُحدِّق إليها وسط ذهولٍ شديد أعجزه للحظةٍ عن إدراك ما كان قد حدث فعلًا؛ لقد أُخذَ على حينِ غِرَّةٍ بمباغتة تامة لدرجة أنه بدا عاجزًا تمامًا عن استيعاب حقيقة أن القصاصة، التي كانت تحملها في يدها الجميلة، ربما تعتمد عليها حياةُ رفيقه.

انخرطتْ مارجريت في ضحكة طويلة مرحة مجلجلة.

قالت بنبرةٍ مازحةٍ لَعوب: «لِمَ تُحدق إليَّ هكذا؟ أؤكد لك أن حالتي تحسَّنَت، لقد ثبَت أن علاجك فعَّال جدًّا.» وأضافت بالهدوء التام نفسِه: «هذه الغرفة باردةٌ برودةً مبهجة. وصوت رقصة الجيفوت القادم من قاعة الحفل رائعٌ ومريح.»

كانت تُثرثر بأكثرِ النبرات لا مبالاةً ولُطفًا، بينما كان السير أندرو يُعاني عذابًا ذِهنيًّا وهو يعتصر عقله بحثًا عن أسرع طريقة ليستعيدَ القصاصة الورقية من يد تلك المرأة الجميلة. تسارعت أفكارٌ غامضةٌ ومضطربةٌ في رأسه غريزيًّا؛ إذ تذكر فجأةً جنسيتها، والأسوأ من ذلك أنَّه تذكر تلك القصة الرهيبة بخصوص ماركيز سان قرياقوس التي لم يُصدِّقها أحدٌ في إنجلترا، لأجل السير بيرسي، ولأجلها كذلك.

قالت بضحكةٍ مرحة: «ماذا؟ ما زلتَ شاردًا ومحدِّقًا؟ أنت لستَ لطيفًا إطلاقًا يا سير أندرو، خطر ببالي الآن للتو عندما تذكَّرتُ ما حدث قبل قليل أنَّك لم تبدُ سعيدًا برؤيتي بقدرِ ما بدَوتَ مذهولًا. أعتقد، في نهاية المطاف، أنَّك لم تحرق تلك القصاصة الورقية بدافعِ قلقك على صحتي، ولا لأنها علاجٌ قد علَّمَته لك جَدَّتك. أقسم أن تلك التي تحاول

إتلافها هي حتمًا رسالةٌ قاسيةٌ أخيرةٌ من محبوبتك.» وأضافت بنبرةٍ لاهية لَعوب وهي تُمسك بالقصاصة الورقية: «والآن اعترف! هل تحتوي هذه على رفضها الأخير، أم التماس أخير لقُبلةٍ أخَوية والبقاء صديقين؟»

قال السير أندرو الذي بدأ أخيرًا يستعيد رِباطة جأشه تدريجيًّا: «أيًّا تكن يا ليدي بليكني، هذه الرسالة الصغيرة لي بلا شك، و...»

لم يهتمَّ الشاب بما إن كان تصرفه سيعتبر غيرَ مُهذَّب تجاه سيدة، فاندفع فجأةً نحو الرسالة، لكن أفكار مارجريت كانت أسرعَ من أفكاره، وكان ردُّ فعلها تحت ضغط هذه الإثارة الشديدة أسرعَ وأكثر ثقةً. كانت طويلةً وقوية؛ أخذت خطوةً سريعةً إلى الوراء وارتطمت بالطاولة الصغيرة التي كانت من طراز شيراتون وكانت غير متوازنة بالفعل، فسقطت بضجة اصطدام شديدة مع الشمعدان الكبير الذي كانت تحمله.

أطلقَت صرخة تحذيرٍ سريعة:

«الشموع يا سير أندرو؛ بسرعة!»

لم يقع ضررٌ جسيم؛ إذ انطفأت شمعة أو اثنتان بالفعل أثناء سقوط الشمعدان، أمَّا بقية الشمعات فأسقَطَت بعض الشحم على السجادة الثمينة ليس إلَّا، وإحداها أشعلَت الغِطاء الورقيَّ الواقيَ فوقها. أطفأ السير أندرو النَّارَ بسرعةٍ ومهارة، وأعاد الشمعدان إلى مكانه فوق الطَّاولة، لكن هذا كان قد استغرق منه بضع ثوانٍ، وتلك الثواني كانت كلَّ ما احتاجت إليه مارجريت لتُطلَّ بنظرةٍ سريعةٍ على تلك الورقة وتعرف محتواها: دزينةٌ من الكلمات بالخطِّ اليدوي المشوَّه نفسِه الذي رأته من قبل، وتحمل الشعارَ نفسَه؛ زهرةٌ نجميةُ الشكل مرسومةٌ بحبرٍ أحمر.

وعندما نظر إليها السير أندرو مرة أخرى، لم يرَ سوى الذعر على وجهها من الحادث المفاجئ المزعج، والارتياح تجاه عاقبته السارَّة، بينما كانت القصاصة الصغيرة المهمة قد سقطَت على ما يبدو مُرفرفةً نحو الأرض. التقطَها الشَّاب بصبرٍ نافد، وبدا وجهُه أكثرَ ارتياحًا بينما أطبقَت أصابعُه عليها بقوة.

قالت وهي تهز رأسها بتنهيدةٍ ممازحة: «من العار يا سير أندرو أن تُحطِّم قلب دوقةٍ ما مرهَفةٍ، بينما تنالُ حُبَّ حُلوتي الصغيرة سوزان، عجبًا! أُومِن بأن كيوبيد نفسه مَن كان يقف في صفك وهدَّد بحرق مَقرِّ وزارة الخارجية كلِّه، فقط لِيجعلَني أُسقِط رسالةَ الحب قبل أن تدنسَ بعينَيَّ الطائشتين. عجبًا، لو كانت لديَّ لحظةٌ واحدة أخرى، لربما عرَفتُ أسرار دوقةٍ آثمة.»

قال السير أندرو، الذي صار هادئًا الآن كما كانت هي: «هل ستعذرينني يا ليدي بليكني إن استأنفتُ المهمة الشائقة التي قاطعتِها؟»

«بكل تأكيد يا سير أندرو! فأنَّى لي أن أخاطر بإعاقةِ إله الحب مرةً أخرى؟ ربما قد يُجازيني بعقابٍ فظيع على وقاحتي. احرق تذكار حبِّك بالتأكيد!»

كان السير أندرو قد بَرَم الورقة إلى لفافةٍ طويلة بالفعل، وكان يُمسك بها مجددًا أمام لهب الشمعة التي بقيَت مشتعلة. لم يُلاحظ الابتسامةَ الغريبة التي ارتسمَت على وجه الحسناء المقابلة له؛ إذ كان منهمكًا بشدةٍ في عملية الإتلاف، ولو أنه لاحظها، لكانت نظرةُ الارتياح قد تلاشَت من وجهه. راقب الرسالةَ المصيرية وهي تتلوَّى تحت اللهب. ثم سرعان ما سقَطَت الشذرة الأخيرة على الأرض وداس الرمادَ بعَقِبه.

قالت مارجريت بليكني بلا مبالاتها الجميلةِ الخاصة بها وبأكثرِ ابتساماتها جاذبيةً: «والآن يا سير أندرو، هل تُجازف بإثارة غيرة آنستك الجميلة بأن تطلب مني أن أُشاركك رقصة المينويت؟»

الفصل الثالث عشر

إمَّا ... أو؟

بدَت الكلمات القليلة التي تمكَّنَت مارجريت بليكني من قراءتها على القصاصة الورقية نصفِ المحروقة؛ كأنها كانت كلمات القدَر حرفيًّا. «سأنطلق بنفسي غدًا ...» كانت قد قرأتْ هذه الجملة بوضوحٍ تام، ثم وجدَت الباقيَ مشوشًا بسبب دُخان الشمعة، الذي طمس الكلمات القليلة التَّالية، ولكن في الأسفل مباشرة، كانت توجد جملةٌ أخرى، وكانت تلك الجملة الآن بارزةً وواضحة في ذهنها كأحرفٍ من نارٍ. «إن أردتم التحدُّث إليَّ مجددًا، فسأكون في غرفة العشاء في تمام الساعة الواحدة.» كانت الرسالة كلُّها ممهورةً بالشعار الصغير المُخربَش في استعجال؛ الزهرة الصغيرة النجمية الشكل التي كانت قد صارت مألوفةً جدًّا لها.

تمام الواحدة! كانت السَّاعة الآن تقترب من الحادية عشرة، وكانت تلك اللحظات تشهد رقصة المينويت الأخيرة، بينما كان السير أندرو فولكس والليدي بليكني الجميلة يترأَّسان الأزواج المتراقصة خلال حركاتها الدقيقة والمعقَّدة.

الساعة تقترب من الحادية عشرة! بدا أنَّ عقارب الساعة المُصمَّمة على طراز لويس الخامس عشر الجميل فوق مسندها المُذهب تتحرَّك بسرعةٍ جنونية. ساعتان أُخرَيان وسيتحدَّد مصيرُها ومصيرُ أرماند. ساعتان كان عليها فيهما أن تُقرر ما إن كانت ستحتفظ بالمعلومة التي حصلَت عليها لنفسها بدهاءٍ وتترك أخاها لمصيره، أم ستخون بإرادتها رجلًا شجاعًا، كرَّس حياتَه لإخوته في الإنسانية، رجلًا نبيلًا وكريمًا، وفوق ذلك كلِّه، مُطمئنًّا إلى عدم وجود خطرٍ غادِر. كانت هذه تبدو فعلةً فظيعة. ولكن على أي حال، كان يوجد أرماند! أرماند الذي كان هو الآخَر نبيلًا وشجاعًا، أرماند الذي كان هو الآخر مطمئنًّا إلى عدم وجود خطرٍ غادِر. وكان أرماند يحبُّها، حتى إنه لَيأتمنها على حياته

عن طيبِ خاطر، والآن، في الوقت الذي تستطيع فيه أن تُنقذه من الموت، كانت متردِّدة. أوه! كان ذلك رهيبًا، بدا أنَّ وجهَ أخيها الطيِّب الوديع، المفعَم بحُبها، ينظر إليها مؤنِّبًا. بدا كأنه يقول لها: «كان بإمكانكِ إنقاذي يا مارجو! واخترتِ حياةَ رجلٍ غريب، رجلٍ لا تعرفينه ولم ترَيْهِ من قبل، وآثرتِ إبقاءه سالمًا، بينما أرسلتِني إلى المقصلة!»

كانت كلُّ هذه الأفكار المتضاربة تموج في رأسِ مارجريت، بينما كان جسدها ينساب عبر حركاتِ رقصة المينويت المتلوية الرشيقة. لاحظتْ — بذاك الإحساس الفطن لديها — أنها كانت قد نجحَت في تهدئة مخاوف السير أندرو تمامًا. كان تحكُّمها في نفسها مثاليًّا تمامًا؛ إذ كانت ممثلةً أبرَع في هذه اللحظة، وطوال رقصة المينويت، مما كانت عليه في أي وقتٍ مضى على مسرح الكوميدي فرانسيز، ولكن آنذاك، لم تكن حياةُ أخيها المحبوب تعتمد على قدراتها التمثيلية.

كانت أذكى من أن تُبالغ في أدائها، ولم تتطرَّق بمزيدٍ من التلميحات إلى الرسالة الغرامية المُفترَضة التي كانت قد كبَّدَت السير أندرو فولكس معاناةً بالغة لمدة خمس دقائق. راقبَت توتُّرَه يذوب أمام ابتسامتها المشرقة، وسرعان ما أدركتْ أنها، أيًّا ما كان الشك الذي خامرَه آنذاك، نجحَت في تبديده تمامًا بحلول الوقت الذي عُزِفَت فيه آخر مقاطع المينويت؛ لم يدرك على الإطلاق حالةَ الانفعال المحموم التي كانت فيها، والجهد المضني الذي تكبَّدَته للحفاظ على استمرارية محادثةٍ عادية.

عندما انتهت الرقصة، طلبَت من السير أندرو أن يُرافقها إلى الغرفة المجاورة.

قالت: «لقد وعَدتُ بأن أنزل للعشاء مع صاحب السمو، لكن قبل أن نفترق أخبرني، هل سامحتني؟»

«سامحتكِ؟»

«أجل! اعتَرِف، لقد أرعبتُك هناك للتو ... لكن تذكر، أنا لستُ امرأةً إنجليزية، ولا أرى تبادُلَ الرسائل الغرامية جريمةً، وأعِدُ بأنني لن أخبر صغيرتي سوزان. لكن الآن أخبرني، هل يمكنني استقبالك في حفلتي النهرية يوم الأربعاء؟»

ردَّ متهربًا: «لستُ متيقنًا يا ليدي بليكني. ربما أضطرُّ إلى مغادرة لندن غدًا.»

قالت بجِدية: «ما كنتُ لأفعل ذلك لو كنتُ مكانك»، وعندما رأَت النظرة القلقة تعود إلى عينَيه، أضافت بمرح: «لا أحد أبرع منك في رمي الكرات يا سير أندرو، سنفتقدك بشدةٍ في لعبة البولينغ على العُشب.»

كان قد قادَها عبر الغرفة إلى غرفةٍ أخرى على الجانب الآخر، حيث كان سموُّ الأمير بالفعل ينتظر الليدي بليكني الحسناء.

قال الأمير مقدِّمًا ذِراعه لمارجريت: «سيدتي، العشاء بانتظارنا، وأنا كلي أمل. لقد عبَسَت إلهة الحظ في وجهي بإصرارٍ شديد في لعبة النرد؛ لذا أتطلع بيقين إلى ابتسامة إلهة الجمال.»

سألت مارجريت بينما أخذَت ذراعَ الأمير: «جلالتك كنتَ سيِّئَ الحظ على طاولات لعب الوَرق؟»

«أجل! في غاية سوء الحظ. فبليكني، الذي لم يكتفِ بأنه أثرى أثرياء رعايا أبي، لديه كذلك أفظعُ حظٍّ جيد. بالمناسبة، أين ذاك الفكاهي الفَريد؟ أُقسم يا سيدتي أن هذه الحياة لن تكون سوى صحراءَ كئيبةٍ بدون ابتساماتكِ وتعليقاته الطريفة.»

الفصل الرابع عشر

تمام السَّاعة الواحدة!

كان العشاء مبهجًا للغاية. صرَّح كل الحاضرين بأن الليدي بليكني لم تكن أروعَ من ذلك قَط، وبأنَّ السير بليكني «الأبلَه اللعين» لم يكن أكثرَ تسليةً من ذلك قَط.

ضحك صاحبُ السمو حتى انهمرَت دموعه على خدَّيه من تعليقات بليكني الطريفة المضحكة رغم حماقتها. وغُنِّيَت أبياتُه الركيكة غير الموزونة، «نبحث عنه هنا، نبحث عنه هناك»، إلخ، على لحنِ أغنية «مرحى! أيها البريطانيون المبتهجون!» (هو! ميري بريتونس!) وسط خلفيةٍ صوتية من قرعِ الكئوس على المنضدة بصوتٍ عالٍ. وفوق ذلك، كان لدى اللورد جرينفل طاهٍ ممتازٌ جدًّا؛ أكد بعضُ المازحين الطرفاء أنه سليلُ عائلةٍ فرنسيةٍ نبيلةٍ عريقة، وأنه بعدما خسر ثروته، جاء باحثًا عنها في مطبخ مقر وزارة الخارجية.

كانت مارجريت بليكني في أكثر حالاتها تألُّقًا، وبالتأكيد لم يكن لدى أحد في غرفة العشاء المزدحمة تلك أدنى فكرةٍ حول المعاناة الفظيعة التي كانت تستعرُ في قلبها.

كانت دقاتُ السَّاعة تُتَكتِك بلا رحمة. كانت قد تجاوزت منتصف الليل منذ وقتٍ طويل، وحتى أمير ويلز كان يُفكر في ترك طاولة العشاء. في غضون نصف الساعة التَّالي، كان سيتصارع مَصيرا رجلَين شجاعين: أخاها الحبيب وذاك الرجل الآخر، البطل المجهول.

لم تُحاول مارجريت حتى رؤيةَ شوفلان خلال السَّاعة الأخيرة هذه؛ كانت تعرف بأنَّ عينيه الثَّاقبتين الثعلبيتين ستُرعبانها في الحال، وسترجحان كفةَ ميزان قرارها نحو أرماند. وفي الوقت الذي لم ترَه فيه، كان ما يزال في قرارة قلبها بصيصٌ خافت من أملٍ غامضٍ في أنَّ «شيئًا ما» سيحدث، حدثٌ جَلَل، هائل، فارق، سيُزيح عن كتفَيها الشابتين الضعيفتين عبْءَ المسئولية المُريع هذا، عبء الاضطرار إلى اختيارٍ قاسٍ بين خيارَين أحلاهما مُر.

لكن الدقائق ظلَّت تتكتك بذاك الصوت الرتيب الممل، الذي يبدو دائمًا أنها تُظهره عندما تتألم أعصابنا بدقَّاتها المستمرة.

استؤنف الرقص بعد العشاء. كان صاحب السمو قد غادر، وكان يدور حديثٌ عامٌّ عن المغادرة بين الضيوف الأكبرِ سِنًّا، أمَّا الشباب، فكانوا لا يعرفون الكلل، وبدَءوا رقصةَ جيفوت جديدةً ستَشغَل ربع السَّاعة القادم.

لم تشعر مارجريت بأنها قادرةٌ على أداء رقصةٍ أخرى؛ فحتى أقصى المستويات تحمُّلًا من ضبط النفس له حدود. تمكَّنَت مجددًا من الذَّهاب إلى المخدع الصغير، الذي كان لا يزال الأكثرَ خُلوًّا من الناس بين جميع الغرف، برفقة أحد وزراء الحكومة. كانت تعرف أن شوفلان متربصٌ بها في مكانٍ ما بالتأكيد، وهو على أتمِّ استعداد لاستغلال أول فرصةٍ للِّقاءِ وجهًا لوجه. التقَت عيناهما للحظةٍ في رقصة المينويت قبل العشاء، وأدركَت أن الدبلوماسي الفطن، بعينيه الباهتتين الثاقبتين، كان قد تكهَّن بأن مهمتها قد أُنجِزَت.

كانت تلك مشيئة القدر. وكانت مارجريت، الممزَّقة بأفظع صراعٍ يمكن لقلب امرأةٍ أن يعرفه على الإطلاق، قد استسلمَت لأمره. لكن لا بد من إنقاذ أرماند بأي ثمن؛ فهو قبل كل شيءٍ أخوها، وكان لها أمًّا وأبًا وصديقًا منذ أن كانت طفلةً صغيرةً فقَدَت كِلا والديها. كان مجردُ تخيُّل أن أرماند سيموت ميتة الخائن على المقصلة أفظعَ من أن تستطيع مواصلة التفكير فيه؛ بل في الحقيقة كان مستحيلًا. لم يكن ممكنًا أبدًا أن تدعَ هذا يحدث، أبدًا. أمَّا الغريب، البطل ... حسنًا! فلْتدَع القدَر يُقرِّر مصيره. ستخلص مارجريت حياةَ أخيها من يد ذلك العدو الوحشي، ثم تدع ذلك الداهية المُلقَّبَ بسكارليت بيمبرنيل يُنقذ نفسه بعدئذٍ.

ربما كانت مارجريت تأمُل — ببصيص أمل مبهم — في أنَّ ذاك المُخطِّط الجريء، الذي حيَّر جيشًا من الجواسيس شهورًا عديدة، سيظل قادرًا على التهرُّب من شوفلان والبقاء حصينًا حتى النهاية.

خطر كلُّ هذا ببالها وهي جالسةٌ تستمع إلى الكلام المفعم بالدعابات الذكية الطريفة من الوزير، الذي شعر قطعًا بأنه وجد في الليدي بليكني مستمِعةً مثاليةً جدًّا. فجأةً رأت وجه شوفلان الفطن الشبيهَ بالثعلب يختلس النظر عبر المدخل المغطَّى بستار.

قالت للوزير: «لورد فانكورت، هلا أسديت لي خدمة؟»

قال بملاطفة: «أنا كُلي في خدمة سيادتكِ.»

«هلَّا نظرتَ ما إن كان زوجي ما زال في غرفة طاولات الورق؟ وإن كان هناك، فهلَّا أخبرته بأنني متعبةٌ جدًّا وسأكون سعيدةً بالذَّهاب إلى البيت سريعًا.»

من المعروف أنَّ أوامر المرأة الجميلة ملزِمةٌ لجميع البشر، حتى لوزراء الحكومة. استعدَّ اللورد فانكورت لإطاعتها فورًا.

قال: «لا أودُّ ترك سيادتكِ وحدك.»

«لا تقلق إطلاقًا. سأكون آمنةً هنا، وأظن أن لا أحد سيزعجني ... لكنني متعبةٌ حقًّا. أنت تعرف أنَّ السير بيرسي سيعود بنا إلى ريتشموند قائدًا العربة. إنه طريقٌ طويل، وإذا لم نُسرع، فلن نصلَ إلى البيت قبل بزوغ الفجر.»

اضطُرَّ اللورد فانكورت إلى أن يذهب مرغمًا.

وحالما اختفى، تسلَّل شوفلان إلى داخل الغرفة، وفي اللحظة التَّالية كان يقف هادئًا جامدًا بجوارها.

قال: «ألديك أخبارٌ لي؟»

بدا أن عباءةً جَليديةً قد استقرَّت فجأةً حول كتفَي مارجريت؛ ومع أن خدَّيها كانا يتوهجان بالنَّار، كانت تشعر بالبرد والخدَر. آه يا أرماند! هل ستعرف يومًا التضحيةَ الرهيبة بالكبرياء والكرامة والأنوثة التي تُقدِّمها أختٌ مخلصةٌ من أجلك؟

قالت وهي تنظر أمامها بطريقةٍ شبه آلية: «لا شيء مهم، لكنه قد يكون مفتاحًا لحل اللغز. تمكَّنتُ — بغض النظر عن الكيفية — من رؤية السير أندرو فولكس يهمُّ بحرق ورقة بإحدى تلك الشموع في هذه الغرفة بالتحديد. ونجحتُ في الإمساك بتلك الورقة بين أصابعي دقيقتين، وفي إلقاء نظرةٍ خاطفة عليها لعشر ثوانٍ.»

سأل شوفلان بهدوء: «أكان وقتًا كافيًا لمعرفة محتواها؟»

أومأت بالإيجاب، ثم تابعَت بالنبرة الهادئة الآلية ذاتِها: «في زاوية الورقة، كان يوجد الشعار التقريبي المعتاد للزهرة الصغيرة النجمية الشكل. قرأتُ سطرين فوق الورقة، فيما كان كل شيءٍ آخر محروقًا ومسودًّا بفعل النَّار.»

«وما كان ذانِك السطران؟»

بدا أن حنجرتها قد انقبضَت فجأة. شعرَت للحظة أنها لا تستطيع نطق الكلمات التي قد ترسل رجلًا شجاعًا إلى حتفه.

أضاف شوفلان بسخريةٍ جامدة: «من حُسن الحظ أن الورقة لم تحترق كلها؛ لأنها بذلك كانت ستُسفِرُ عن عواقبَ سيئة على أرماند سان جوست. ماذا كان السطران أيتها المواطنة؟»

قالت بهدوء: «أحدهما كان «سأنطلق بنفسي غدًا» والثَّاني «إن أردتُم التحدُّث إليَّ، فسأكون في غرفة العشاء في تمام السَّاعة الواحدة».»

رفع شوفلان ناظريه تجاه السَّاعة الموضوعة فوق الرفِّ مباشرة.

قال بهدوء: «إذن ما زال لديَّ الكثير من الوقت.»

سألته: «ماذا ستفعل؟»

كانت شاحبةً كتمثال، وكانت يداها باردتين كالثلج، وكان رأسها وقلبها يرتجَّان بالضغط الرهيب على أعصابها. أوه، كم كان ذلك قاسيًا! قاسيًا! ما الذي فعلتْه لتستحقَّ كلَّ هذا؟ لقد اتخذَت قرارها، فهل فعلَت فعلة دنيئة أم سامية؟ لا يعلم هذا إلا الملاكُ الذي يُدوِّن في الكتاب الذهبي.

كرَّرَت بنبرةٍ آلية جامدة: «ما الذي ستفعله؟»

«أوه، لا شيء في الوقت الحاضر. أمَّا بعد ذلك، فهذا يعتمد ....»

«على ماذا؟»

«على مَن سأراه في غرفة العشاء في تمام السَّاعة الواحدة.»

«سترى سكارليت بيمبرنيل بالتأكيد. لكنك لن تعرفه.»

«لا. لكني سأعرف قريبًا.»

«سيكون السير أندرو قد حذَّره.»

«لا أظن هذا. عندما افترقتِ عنه بعد المينويت، وقف وراقبَكِ، لحظةً أو اثنتين، بنظرةٍ جعلتْني أفهم أن شيئًا ما قد حدث بينكما. وكان من الطبيعي تمامًا — أليس كذلك؟ — أن أخمن بتفطُّن طبيعة ذاك «الشيء». لذا انهمكتُ في محادثةٍ طويلةٍ وحيوية مع الشَّاب — ناقشنا فيها النجاحَ الفريد الذي حقَّقه السيد جلوك في لندن — حتى جاءت سيدةٌ وطلبَت منه مرافقتها إلى العشاء.»

«وبعد ذلك؟»

«لم أبعد عينَيَّ عنه أثناء العشاء. وعندما صعدنا كلنا الدرَج مجددًا، تشَبَّثَت به الليدي بورتارلس وبدأتْ حديثًا عن موضوع الآنسة الجميلة سوزان تورناي. عرَفتُ أنه لن يتحرك إلى أن تُنهيَ الليدي بورتارلس الموضوع، وهذا لن يحدث حتى ربع ساعةٍ أخرى على الأقل، وقد بقيَت الآن خمس دقائق على حلول السَّاعة الواحدة.»

كان يستعد للذهاب، وذهب إلى المدخل حيث سحب الستارَ جانبًا، ثم وقف لحظةً يشير لمارجريت نحو جسد السير أندرو فولكس البعيد الذي كان منخرطًا في محادثةٍ وُدِّية مع الليدي بورتارلس.

قال بابتسامةٍ ظافرة: «أظن أنني أستطيع بكل ثقة أن أتوقع العثورَ على الشخص الذي أبحث عنه في غرفة العشاء يا سيدتي الجميلة.»

«قد يكون هناك أكثرُ من شخص.»

«أيًّا كان من سيكون هناك، فعند دقات السَّاعة الواحدة، سيتعقَّبه أحدُ رجالي كظلِّه؛ فمِن بين هؤلاء، سيُغادر واحدٌ أو ربما اثنان أو حتى ثلاثة، إلى فرنسا غدًا. وأحدهم سيكون سكارليت بيمبرنيل.»

«حقًّا؟ ... وبعد ذلك؟»

«أنا أيضًا يا سيدتي الجميلة سأغادر إلى فرنسا غدًا. فالأوراق التي عثَرنا عليها في دوفر بحوزة السير أندرو فولكس تتحدث عن حيٍّ كاليه، وعن نُزلٍ أعرفه جيدًا يُدعى «القط الرمادي»، وعن موقع مهجور في مكانٍ ما من الشَّاطئ — اسمه «كوخ الأب بلانشار» — يجب أن أحاولَ العثورَ عليه. كل هذه الأماكن ورَدَت على أنها المُلتقيات التي يعرض هذا الإنجليزيُّ المتطفل على الخائن تورناي وآخرين لقاءَ مبعوثيه عندها. لكن يبدو أنه قرَّر عدمَ إرسال مبعوثيه؛ نظرًا إلى أنه قال إنه «سينطلق بنفسه غدًا». الآن، أحد هؤلاء الأشخاص الذين سأراهم قريبًا في غرفة العشاء، سيرحل إلى كاليه، وسأتبع أنا ذلك الشخصَ إلى المكان الذي ينتظره فيه أولئك الأرستقراطيون الهاربون؛ لأن ذلك الشخص يا سيدتي الجميلة سيكون الشخص الذي أبحث عنه، طيلة ما يقرب من عامٍ، الرجل الذي فاقتني مقدرتُه، والذي خدَعني دهاؤه، والذي جعلتْني جُرأته — نعم! أنا! — أنا الذي كنتُ خبيرًا في الحِيَل والخداع في أيام شبابي؛ مذهولًا من سكارليت بيمبرنيل الغامضِ المراوغ.»

توسَّلَت: «وأرماند؟»

«هل أخلَفتُ وعدي من قبل قَط؟ أعِدُك بأنني، في اليوم الذي ننطلق فيه أنا وسكارليت بيمبرنيل إلى فرنسا، سأرسل إليكِ رسالتَه الطَّائشة عبر مرسالٍ خاص. بل وأتعهَّد لكِ بشرفِ فرنسا بأن سان جوست سيكون هنا في إنجلترا سالمًا بين أحضانِ أخته الفاتنة، في اليوم الذي أضعُ فيه يدي على ذلك المتطفل الإنجليزي.»

وبانحناءةٍ عميقة متقَنة، ونظرةٍ أخرى إلى السَّاعة، تسلَّل شوفلان من الغرفة مسرعًا.

بدا لمارجريت أنها كانت تستطيع، وسط كلِّ الضوضاء وكل صخب الموسيقى والرقص والضحكات، أن تسمع خطواته الشبيهة بخطوات القط وهو يتسلَّل مسرعًا عبر غرف الاستقبال الواسعة، أن تسمَعه ينزل الدَّرَج الضخم، ويصلُ إلى غرفة العشاء ويفتح الباب. لقد شاء القدر، جعَلها تتكلَّم وجعلها تفعل فعلةً خسيسة وشائنة من أجل أخيها الحبيب. استندَت إلى الوراء في كرسيِّها، مذعنةً ساكنة، وهي ترى هيئة عدوها الذي لا يرحم حاضرةً دومًا أمام عينيها المتألمتَين.

عندما وصل شوفلان إلى غرفة العشاء كانت خاليةً تمامًا. كان لها ذاك المظهرُ البائس المهجور المبهرَج الذي يُذكِّر المرء كثيرًا بمنظر ثوب حفلٍ في صبيحة اليوم التَّالي.

كئوسٌ نصفُ فارغةٍ متناثرةٌ على الطَّاولة، ومناديلُ مبسوطةٌ مُبعثَرة في الأرجاء، وبَدَت الكراسيُّ — التي كان بعضها مواجهًا لبعضٍ في مجموعاتٍ ثنائية وثلاثية — كأنها مقاعدُ أشباح منخرطين في محادَثات سرية. كانت توجد مجموعات من كرسيَّين — متقاربين جدًّا — في الأركان البعيدة من الغرفة؛ مما ينُم على مُغازلاتٍ هامسة حدثَت مؤخرًا حول شطيرة لحمٍ باردة وشمبانيا؛ وكانت توجد مجموعاتٌ من ثلاثةِ كراسي وأخرى من أربعة كراسيَّ توحي بحدوث مناقشاتٍ مسلية وحيوية عن آخِر الفضائح؛ فيما كانت توجد كراسيٌّ منتصبة في وضعيتها الأصلية ومرصوصة في صفٍّ وهي ما تزال تبدو متزمتةً وناقدة ولاذعة كالأرامل الثريَّات العَجائز؛ وكانت توجد بضعةُ كراسيَّ منفردة منعزلة بالقرب من الطَّاولة تنُم عن أشخاصٍ أَكُولين منكبِّين على الأطباق الغالية النادرة جدًّا، وأخرى مقلوبة على الأرض تفصح بالكثير عن جودة النبيذ الموجود في سراديب اللورد جرينفل.

كان المكان في الحقيقة نسخةً شَبَحية من ذلك التجمُّع الأنيق في الطَّابق العُلوي؛ شبحٌ يسكن كلَّ منزلٍ يشهد إقامة حفلات راقصة وتقديمَ عشاء شهي؛ صورةٌ مرسومةٌ بطبشور أبيضَ على لوحٍ رمادي، تبدو باهتةً وعديمة اللون الآن بعدما صارت الواجهة خاليةً من الفساتين الحريرية الزَّاهية والمعاطف ذات التطريز الرَّائع، وبعدما صارت الشموع تومض بارتعاشٍ ناعس في تجاويفها.

ابتسم شوفلان بعذوبةٍ وهو يفرك يدَيه ذواتَي الأصابع النحيلة معًا، نظر في أرجاء غرفة العشاء الخالية، التي غادرها كلُّ الخدَّام، حتى آخِر واحدٍ منهم لينضمَّ إلى أصدقائه في القاعة بالأسفل. كان الصمتُ يعم الغرفة الخافتة الإضاءة، بينما بدا أن صوت موسيقى رقصة الجيفوت وهمهمةَ الأحاديث والضحكات البعيدة وقعقعة عربات تأتي بين حينٍ وآخَر، تصل إلى قصر «الأميرة النَّائمة» هذا كهمهمةِ أشباحٍ تُرفرف من بعيد.

كانت غرفة العشاء كلُّها تبدو ساكنةً وفاخرة وهادئة جدًّا لدرجة أنَّ حتى أقوى الناس بصيرةً — ولو كان نبيًّا حقيقيًّا — لم يكن ليُخمِّن أبدًا أنَّ تلك الغرفة الخالية، في هذه اللحظة، ليست سوى فخٍّ منصوب للإمساك بأدهى المخططين الذين شهدتهم تلك المرحلةُ المثيرة وأجرَئهم على الإطلاق.

استغرق شوفلان في التفكير وحاول استشراف المستقبل القريب. كيف سيكون شكلُ هذا الرجل الذي أقسم هو وقادة الثورة كلُّهم على أن يقتلوه؟ كان كلُّ شيءٍ حوله غريبًا وغامضًا؛ شخصيته التي أخفاها بدهاءٍ شديد، والمقدرة التي سيطر بها على أكثرَ من تسعة عشر رجلًا من النبلاء الإنجليز الذين يبدو أنهم يُطيعون كلَّ أمرٍ منه طاعةً عمياء ومتحمِّسةً، والحبُّ الشديد والامتثالُ اللذان أثارَهما في عُصبته الصغيرة المدرَّبة، وفوق كل ذلك، جُرأته الخارقة وجسارته اللامحدودة التي جعلَته يتحدَّى ألدَّ أعدائه داخل أسوار باريس نفسِها.

لا عجب أنَّ اسم شُهرة الإنجليزيِّ الغامض كان يُثير في سكَّان فرنسا قُشَعريرةً متطيِّرة. فشوفلان نفسه، وبينما كان يتفحص الغرفة المهجورة الخاليةَ التي سيظهر فيها البطلُ الغريب حالًا، أحسَّ بشعورٍ غريبٍ يزحف نزولًا بطول عموده الفقري.

لكنَّ خُططه كانت مُحكَمة. كان متيقنًا من أن سكارليت بيمبرنيل لم يتلقَّ تحذيرًا، ومتيقنًا بالقدر نفسِه من أن مارجريت بليكني لم تخدعه. فلو أنها فعَلَت … كانت عينا شوفلان الباهتتان الثاقبتان سترمقانها بنظرةٍ قاسيةٍ تجعلها ترتعش. ولو أنها خدعَته، كان أرماند سان جوست سينال أشدَّ العقاب.

لكن لا، لا! بالطبع لم تخدعه!

من حُسن الحظ، كانت غرفة العشاء خالية؛ فمن شأن هذا أن يجعل مُهمة شوفلان أسهل، عندما يدخل ذاك الشخص الغامض، المطمئنُّ إلى عدم وجودِ خطرٍ غادر، بعد قليل وحده. فلا أحد كان موجودًا في الغرفة الآن سوى شوفلان فقط.

مهلًا! بينما كان يتفحَّص الغرفة الخالية بابتسامةٍ راضية، انتبه موفَدُ الحكومة الفرنسية الماكرُ إلى صوت تنفُّسٍ هادئ رَتيب من أحد ضيوف اللورد جرينفل، الذي، دون شكٍّ، كان قد تعشى عشاءً وفيرًا ولكن بحِكمةٍ وتدبُّر، وكان يتمتَّع بقسطٍ هادئ من النوم بعيدًا عن صخب الرقص في الأعلى.

نظر شوفلان حوله مرةً أخرى، وهناك في زاويةِ إحدى الأرائك في الركن المظلِم من الغرفة، كان يضطجع، بفمٍ مفتوحٍ وعينَين مغلقتين وأنغامٍ قيلولة هادئةٍ مسالمةٍ تنبعث من منخريه، صاحب الملابس الرَّائعة والأطراف الطويلة؛ زوج أذكى امرأةٍ في أوروبا.

نظر شوفلان إليه بينما كان ممدَّدًا هناك، ساكنًا غيرَ واعٍ، في سلامٍ مع العالم ومع نفسه بعد أفضلِ عشاء، وابتسم ابتسامةً، تكاد تكون مُشفقة، خفَّفت لحظةً من حدَّة التجاعيد الجامدة على وجه الفرنسي واللمعة السَّاخرة في عينيه الباهتتين.

كان من الواضح أن النَّائم الغارق في نومٍ بلا أحلام، لن يتدخَّل في فخٍّ شوفلان للإمساك بسكارليت بيمبرنيل الماكر ذاك. فرَك يدَيه معًا وحذا حذْوَ السير بيرسي بليكني؛ إذ تمدَّد هو أيضًا في ركن أريكةٍ أخرى وأغلق عينَيه وفتح فمَه، وبدأ يُصدِر صوتَ تنفُّسٍ مُسالمٍ و... انتظر متربصًا!

الفصل الخامس عشر

ارتياب!

كانت مارجريت بليكني قد راقبَت هيئة شوفلان النحيلة المكسوَّة بالأسود وهو يشقُّ طريقه عبر قاعة الرقص. ثم انتظرَت مُرغَمةً بينما كانت أعصابها تتألم من وخز الانفعال.

جلسَت بهمَّةٍ فاترة في المخدع الصغير الذي كان لا يزال خاليًا، وظلَّت تنظر عبر ستائر المدخل نحو الأزواج الرَّاقصين على الجانب الآخَر؛ كانت تنظر إليهم لكنها لم تكن ترى شيئًا، وكانت تسمع الموسيقى لكنها لم تكن واعيةً بشيءٍ سوى شعورِ الترقُّب، والانتظار القلِق المرهق.

استحضر عقلُها صورةَ ما كان يحدث، ربما في هذه اللحظة بالضبط، في الطَّابق الأسفل. غرفة العشاء شِبه الفارغة، السَّاعة المصيرية — شوفلان متربِّص! — ثم في اللحظة المُنتظَرة بالضبط، يدخل رجل، سكارليت بيمبرنيل، القائدُ الغامض الذي قد أصبح شبهَ خياليٍّ لمارجريت؛ فهذه الهُوية الخفية كانت غريبة جدًّا وعجيبة جدًّا.

تمنَّت لو أنها كانت، هي الأخرى، في غرفة العشاء في هذه اللحظة، تراه عند دخوله؛ كانت تعرف بأن حَدْسها الأنثوي سيجعلها تتعرَّف على وجه ذاك الغريب فورًا — أيًّا ما كانت هُويتُه — على تلك الشخصية القوية لقائد مجموعةٍ من الرجال؛ لبطل، للنَّسْر العالي العظيم الذي كان جَناحاه الجريئان على وشك الوقوع في شَرَك مصيدة النمس.

وكدأب النساء، تخيَّلَته بحزنٍ خالص؛ بدَت قاسيةً جدًّا سخريةُ ذاك القدر الذي ترك الأسد المِقْدام يستسلم لِقَضمة جُرَذ! آه! لو أن حياة أرماند لم تكن على المحك! ...

تحدَّث صوتٌ فجأةً بالقرب من مرفقها، قائلًا: «يا إلهي! لا بد أن سيادتكِ ظننتِ بأني مهمِلٌ جدًّا. واجهتُ صعوبةً شديدة في إيصال رسالتكِ لأنني لم أجد بليكني في أي مكانٍ في البداية ...»

كانت مارجريت قد نسيَت كلَّ شيءٍ بشأن زوجها وبشأن رسالتها إليه؛ حتى اسمه بدا غريبًا وغيرَ مألوف لها عندما نطَقه اللورد فانكورت، ففي الدقائق الخمس الأخيرة، كانت مستغرقةً تمامًا في عيش حياتها القديمة في شارع ريشيليو مجددًا، حين كان أرماند بجانبها دومًا يُحبها ويحميها، ويحرسها من العديد من المؤامرات الخفيَّة التي كانت تستعرُ بلا توقُّفٍ في باريس آنذاك.

تابع اللورد فانكورت: «لكنني وجدتُه أخيرًا وأخبرتُه برسالتكِ. قال بأنه سيُصدر الأوامرَ حالًا لتجهيز الخيول.»

قالت وهي ما تزال شاردةً تمامًا: «آه! وجدتَ زوجي وأخبرتَه برسالتي؟»

«أجل، كان يغُطُّ في نومٍ عميقٍ في غرفة العشاء. لم أستطع إيقاظه في البداية.»

قالت بدون تفكيرٍ مُحاوِلةً استجماعَ خواطرها: «شكرًا جزيلًا لك.»

سأل اللورد فانكورت: «هل تُشرفينني سيادتك بهذه الرقصة حتى تجهز عربتك؟»

«لا، شكرًا لك سيدي، لكني — وأرجو أن تُسامحني على ذلك — متعبةٌ جدًّا، والحرارة في قاعة الحفل أصبحَت خانقة.»

«الجوُّ في المستنبت الزجاجي باردٌ لذيذ؛ دعيني آخُذْكِ إلى هناك، ثم أُحضِر لكِ شيئًا. تبدين متوعكةً يا ليدي بليكني.»

كرَّرَت بوَهْن: «أنا فقط منهَكة جدًّا»، وسمحَت للورد فانكورت بأن يأخذها إلى حيث كان الهواء باردًا بفضل الأضواء المنخفضة والنباتات الخضراء. أحضر لها كُرسيًّا غاصت فيه. كانت مدَّة الانتظار الطويلةُ هذه لا تُطاق. فلماذا لم يأتِ شوفلان ويُخبرها بنتيجة مراقبته؟

كان اللورد فانكورت مُلاطفًا جدًّا لها. لكنها تقريبًا لم تكن تسمع ما يقوله، وأفزعَته فجأةً بسؤاله بغتة، قائلة:

«لورد فانكورت، هل رأيتَ مَن كان في غرفة العشاء باستثناء السير بيرسي بليكني؟»

قال: «موفد الحكومة الفرنسية، السيد شوفلان، فقط وقد كان غارقًا في النوم بالمثل في ركنٍ آخر، لِمَ تسألين؟»

«لا أدري ... أنا ... هل لاحظتَ كم كانت السَّاعة عندما كنتَ هناك؟»

«لا بد أنها كانت الواحدة وخمس أو عشر دقائق.» ثم أضاف: «أتساءل ما الذي تُفكرين به سيادتك يا تُرى»، لأنَّه كان من الواضح أنَّ أفكار السيدة الجميلة كانت شاردة بعيدًا جدًّا، وبدا جَليًّا أنها لم تكن تستمع إلى حديثه المثقَّف.

لكنَّ أفكارها في الواقع لم تكن شاردةً بعيدةً جدًّا؛ بل كانت في الأسفل بطابق واحدٍ فقط، في هذا المبنى نفسِه، في غرفة العشاء حيث كان شوفلان ما يزال جالسًا متربصًا. هل فشل يا تُرى؟ لوهلةٍ لاح هذا الاحتمال في ذهنها كبصيصٍ من الأمل؛ أمل في أن يكون سكارليت بيمبرنيل ذاك قد تلقى تحذيرًا من السير أندرو، وفي أن فخَّ شوفلان قد فشل في الإمساك بطائره، لكن ذلك الأمل سرعان ما تلاشى وأفسح مجالًا للخوف. هل فشل يا تُرى؟ ولكن عندئذٍ ... أرماند!

كان اللورد فانكورت قد سكتَ عن الكلام منذ أدرك أن كلامه لا يَلْقى آذانًا مُصغيَة. كان يبحث عن فرصةٍ للانسحاب؛ لأن الجلوس أمام سيدةٍ من الواضح أنها غيرُ منتبهةٍ لأشد الجهود المبذولة لتسليتها، مهما كانت جميلة، ليس أمرًا مُبهجًا حتى لوزيرٍ في مجلس الوزراء.

قال أخيرًا بتردُّد: «هل أرى إن كانت عربتُكِ جاهزة؟»

«أوه، شكرًا لك ... شكرًا لك ... نعم إذا تكرَّمت ... أعرف أنني رفيقةٌ بشعة مع الأسف ... لكنني متعَبةٌ حقًّا ... وربما سيكون من الأفضل أن أكون وحدي.»

كانت تتوق إلى التخلُّص منه؛ لأنها كانت تأمل في أنَّ شوفلان سيتجوَّل حول المكان، كالثعلب الذي يُشبِهه بشدة، ظنًّا منه أنه سيعثر عليها وحدها.

لكن اللورد فانكورت ذهب، ومع ذلك لم يأتِ شوفلان. أوه! ما الذي حدث؟ شعرَت بأنَّ مصير أرماند يهتزُّ في الميزان ... وكانت خائفةً — خوفًا قاتلًا الآن — من أن يكون شوفلان قد فشل، وأن يكون سكارليت بيمبرنيل قد نجح في المراوَغة مرةً أخرى؛ وكانت متيقِّنةً من أنها عندئذٍ لا يُمكن أن تنتظر رحمةً أو شفقة من شوفلان.

لقد تركَها بين «إما ... أو ...»، خيارَين أحلاهما مُر، ولن يرضى بسِواهما؛ كان شريرًا للغاية، وقد يدَّعي أنه يعتقد أنها ضلَّلتْه عمدًا، وبعدما يفشل مجددًا في صيد النسر، سيكون عقله الانتقاميُّ قانعًا بالفريسة الأكثر تواضعًا؛ أرماند!

لكنها كانت قد فعلَت كلَّ ما بوُسعِها؛ لقد بذَلَت قُصارى جهدها من أجل أرماند. لم تكن لتتحمَّل التفكير في أنَّ كل هذا قد فشل. لم تستطع الجلوسَ ساكنةً؛ أرادت أن تذهب وتسمع الخبرَ الأسوأ فورًا؛ بل إنها تساءلتْ لماذا لم يأتِ شوفلان بعدُ ليُنفِّس عن غضبه ويتهكَّم عليها.

جاء اللورد جرينفل بنفسه بعد قليل ليُخبرها بأن عربتها جاهزة، وبأن السير بيرسي كان ينتظرها بالفعل؛ واللجام في يده. ودَّعَت مارجريت مضيفها المبجَّل المرموق، أوقفها الكثيرُ من أصدقائها وهي تمرُّ عبر الغرف ليتحدَّثوا إليها ويُبادلوها الوداع اللطيف.

كان الوزير وحده هو مَن ودَّع الليدي بليكني الجميلة عند أعلى الدَّرَج، أمَّا في الأسفل، على بَسْطة الدرَج، فكان يوجد جيشٌ حقيقي من السَّادة النبلاء المُلاطِفين ينتظرون توديع ملكة الجمال والأناقة، بينما في الخارج، أسفل شُرفة الرِّواق المعمَّد الفسيح، كانت جيادُ السير بيرسي الضخمة واقفةً تحكُّ الأرض بحوافرها بنفادِ صبر.

ما إن ودَّعَت مضيفَها وداعًا أخيرًا عند أعلى الدرَج، حتى رأت شوفلان فجأةً؛ كان يصعد الدرَج ببطءٍ وهو يفرك يدَيه معًا بهدوء.

كان وجهه المتقلِّب مكتسيًا بنظرةٍ غريبة، مستمتعةٍ بعض الشيء وحائرة تمامًا، وحينما الْتقَت عيناه الثاقبتان بعينَي مارجريت، أصبحَتا ساخرتَين بشكلٍ غريب.

قالت بينما توقَّفَ عند أعلى السلَّم منحنيًا بطريقة مدروسة أمامها: «سيد شوفلان، عرَبتي في الخارج، هل لي أن أطلب منك اصطحابي إليها؟»

وبملاطَفتِه المعهودة، مدَّ إليها ذراعه وقادها إلى أسفل الدَّرَج. كان الحشد هائلًا جدًّا؛ إذ كان بعضُ ضيوف الوزير ينصرفون، فيما كان البعضُ الآخر متَّكِئين على الدرابزين يُراقبون الحشد وهو يصعد ويهبط صفًّا على الدَّرَج العريض.

قالت أخيرًا بيأس: «شوفلان، لا بد أن أعرف ما حدث.»

قال متصنِّعًا الاندهاش: «ماذا حدث يا سيدتي العزيزة؟ أين؟ متى؟»

«أنت تُعذبني يا شوفلان، لقد ساعدتك الليلة ... بالتأكيد لديَّ الحق في أن أعرف. ماذا حدث قبل قليلٍ في غرفة العشاء السَّاعة الواحدة؟»

كانت تتحدَّث همسًا؛ واثقةً من أن كلماتها ستتلاشى وسط صخب الحشد العام قبل أن تصل إلى مسامع أيِّ أحد، باستثناء الرجل الذي يقف بجانبها.

«ساد هدوءٌ وسلامٌ يا سيدتي الجميلة؛ ففي تلك السَّاعة كنتُ نائمًا في زاوية إحدى الأرائك، والسير بيرسي بليكني كان نائمًا في ركن أريكة أخرى.»

«ولم يأتِ أحدٌ إلى الغرفة إطلاقًا؟»

«لا أحد.»

«إذن فقد فشلنا، أنت وأنا؟ ...»

«أجل! لقد فشلنا؛ ربما ...»

توسَّلتْ قائلة: «لكن أرماند؟»

«آه! مصير أرماند سان جوست معلقٌ بخيط ... صلِّي للرب يا سيدتي العزيزة ألَّا ينقطع ذلك الخيط.»

«شوفلان، لقد عملتُ من أجلك بإخلاص، بجدية ... تذكر ذلك. ...»

قال بهدوء: «أتذكَّر وعدي؛ في اليوم الذي نلتقي فيه أنا وسكارليت بيمبرنيل على التراب الفرنسي، سيكون سان جوست بين ذراعَي أخته الفاتنة.»

قالت مرتعشةً: «وهو ما يعني أنَّ يدَيَّ ستتلطخان بدماءِ رجلٍ شجاع.»

«إمَّا دماؤه أو دماءُ أخيكِ. من المؤكد أنكِ تتمنَّين في اللحظة الحاليَّة، كما أتمنى أنا، أن ينطلقَ سكارليت بيمبرنيل الغامض إلى كاليه اليوم ...»

«أنا لا أتمنى إلا أُمنيةً واحدة فقط أيها المواطن.»

«وهي؟»

«أن يحتاجَ إليكَ الشيطان، سيدك، في مكانٍ آخر قبل طلوع شمس اليوم.»

«أنتِ تُجامليننني أيتها المواطنة.»

كانت قد أوقفَته بعضَ الوقت في منتصف الدَّرَج أثناء نزولهما، محاولةً التوصُّل إلى الأفكار الكامنة وراء ذاك القناع النحيل الشبيهِ بوجه الثعلب. لكن شوفلان ظلَّ مهذبًا وساخرًا وغامضًا، ولم يُفْشِ بكلمة للمرأة المسكينة القلقة المتلهِّفة إلى أن تعرف ما إن كان عليها أن تخاف أو تجرؤ على الأمل.

سرعان ما أُحيط بها عند البسطة الواقعة أسفلَ الدرَج. فالسيدة بليكني لم تكن تخطو من أيِّ منزلٍ إلى عربتها بدون موكبٍ مُرافِق من العثِّ البشري، مرفرفًا حول الضوء الباهر الساطع لجمالها. ولكن قبل أن تولي ظهرها أخيرًا لشوفلان، رفعَت يدًا صغيرةً إليه، بذلك الاستعطافِ الطفوليِّ الذي كانت متفردةً به.

استعطفتْه قائلة: «أعطِني بعض الأمل يا صغيري شوفلان.»

انحنى بملاطَفةٍ مثالية على تلك اليد الصغيرة التي بدَت جميلةً وبيضاءَ جدًّا في القفَّاز الأسود الشفاف الرقيق المصنوع من الدانتيل، وقبَّل أطرافَ الأصابع الوردية، وقال:

«صلِّي للرب يا سيدتي ألا ينقطعَ الخيط»، كرَّر قوله بابتسامته الغامضة.

ثم تنحَّى جانبًا، وسمح للعث البشري بالرفرفة على مقربةٍ أكبرَ حول الشمعة، واختفى الوجه الثعلبيُّ الماكر عن ناظِرَيها وسط الحشد المتألق من الشبان الأثرياء المتأنقين، الذين كانوا مهتمِّين أشدَّ الاهتمام بكل لفتة من الليدي بليكني.

الفصل السادس عشر

ريتشموند

بعد دقائقَ قليلة، كانت تجلس ملتفَّةً بالفراء الغالية بالقرب من السير بيرسي بليكني على كرسي مقصورة عربته الفخمة، فيما كانت الجياد الأربعة تُسرع بصهيلٍ مُدوٍّ عبر الشَّارع الهادئ.

كان الليل دافئًا بالرغم من النسيم اللطيف الذي كان يُبرد خدَّي مارجريت المشتعلَين بهواءٍ مُنعش كالمروحة. وسرعان ما صارت منازلُ لندن قابعةً خلفهما، وكان السير بيرسي يقود جيادَه بسرعةٍ نحو ريتشموند، مُقعقعةً بحوافرها فوق جسر هامرسميث.

تلوَّى النهر ذَهابًا وإيابًا في انحناءاته الجميلة، فبدا مثل أفعى فِضَّيةٍ تحت سَنَا القمر المتلألئ. وكانت الظلالُ الطويلة من الأشجار البارزة على جانبَي الطريق تنشر حُجُبًا قاتمة متقطعة على الطريق. كانت الجياد تركض بالسرعة القُصوى، ولم تكن يدا السير بيرسي القويَّتان السديدتان تكبحها إلَّا بقدر طفيف.

كانت هذه الرحلات الليلية بعد الحفلات الرَّاقصة ومآدب العشاء في لندن مصدرَ سعادةٍ دائمًا لمارجريت، وكانت مارجريت تُكِنُّ تقديرًا شديدًا لغرابة أطوار زوجها التي جعَلتْه يتبنَّى هذه العادة في العودة بها كلَّ ليلة إلى بيتهما الجميل بالقرب من النهر، بدلًا من السكن في منزلٍ خانق مُملٍّ في لندن. كان يحبُّ قيادة جياده الجامحة على طول الطرقات الخالية المضاءة بضوء القمر، وكانت هي تُحبُّ الجلوس على كرسي مقصورة العربة تاركةً نسيمَ الليل الصيفي الإنجليزي العليل يُرَوِّح بالهواء على وجهها بعد الجو الحارِّ في حفلة الرقص أو مأدُبة العَشاء. لم تكن مثل هذه الرحلات طويلة؛ إذ كانت تستغرق أقلَّ من ساعة، في بعض الأحيان، عندما تكون الجياد منتعشةً جامحة، ويُطلِق لها السير بيرسي العِنان.

وفي هذه الليلة، بدا أنه يملك قوةً شيطانية خارقة في أصابعه، وبَدَت العربة كأنها تطير على الطريق، بحذاء النهر. وكالعادة، لم يُحادِثْها، لكنه كان يُحدق أمامه مباشرةً، واللجام يبدو طليقًا تمامًا بين يديه البيضاوَين النحيلتين. نظرَت إليه مارجريت مترددةً مرةً أو اثنتين، وكانت ترى جانبَ وجهه الوسيم وعينًا ناعسةً واحدة، بحاجبها النَّحيل المستقيم وجَفْنها المتثاقل المتدلِّي.

بدا الوجه في ضوء القمر جِديًّا بشكلٍ فريد، وذكَّر قلبَها المتألِّمَ بأيام الخِطبة السعيدة، قبل أن يتحول زوجها إلى ذاك المغفَّل الكسول، المتأنق الخامل الذي يبدو أنه يمضي كلَّ حياته في غرف الورق ومآدِب العشاء.

لكنها الآن، في ضوء القمر، لم تستطع أن ترى نظرةَ العينين الزرقاوين النَّاعستين، بل كان بإمكانها فقط أن ترى الحدَّ الخارجي للذقن الجامد، وزاوية فمِه القوي، وشكل جبهته العريض المُحدَّد جيدًا، حقًّا، كانت الطبيعة قد أرادت خيرًا بالسير بيرسي؛ ومن المؤكَّد أنَّ كل عيوبه كانت بسبب والدته المسكينة شِبْه المخبولة ووالده المشتَّت المفطور القلب، اللذَين لم يكترث أيٌّ منهما بالحياة الصغيرة التي كانت تنبت بينهما، والتي ربما كانت لا مبالاتهما نفسها قد بدأت تُحطِّمها بالفعل.

شعرَت مارجريت فجأةً بتعاطُفٍ شديد تجاه زوجها. فالأزمة الأخلاقية التي مرَّت بها للتو جعلَتها تشعر بالتسامح تجاه أخطاء الآخرين وسلوكياتهم المنحرفة.

اكتسحها إدراكٌ بمدى قدرة القدَر على صفع الإنسان وقهره؛ فلو أن أحدًا أخبرها قبل أسبوعٍ بأنها ستنحطُّ إلى حدِّ أن تتجسَّس على أصدقائها، بأنها ستخونُ رجلًا شجاعًا مطمئنًّا وتُسلمه إلى يدَي عدوٍّ لا يعرف الشفَقة، لكانت ستضحك على الفكرة إلى حدِّ الازدراء.

لكنها كانت قد فعلَت تلك الأشياء، ربما ستكون هي المسئولةَ عن موت ذلك الرجل الشجاع، تمامًا مثلما هلَك ماركيز سان قرياقوس قبل ذلك بعامَين بسبب كلماتٍ طائشةٍ من لسانها، لكنها في تلك القضية القديمة كانت بريئةً أخلاقيًّا؛ إذ لم تكن تقصد أيَّ أذًى حقيقي، بل كلُّ ما في الأمر أنَّ القدَر تدخَّل. أمَّا في هذه المرة، فقد فعلت شيئًا خسيسًا بوضوح، فعَلَته عمدًا لدافعٍ قد لا يَلقى تقديرًا حتى من دعاة الأخلاق المتشدِّدين.

وبينما كانت تشعر بذراع زوجها القويةِ بجانبها، خَطر ببالها أيضًا كم سيَكرهُها ويحتقرها إنْ عرَف بما فعلَته الليلة. هكذا يحكم البشرُ على بعضهم البعض، بسطحية، ولا مبالاة، ويحتقر بعضُهم بعضًا بقليلٍ من المنطق وبلا إحسان. كانت تحتقر زوجها

لتفاهته واهتماماته المبتذَلة غيرِ الفكرية، وشعرَت بأنه سيحتقرها احتقارًا أشدَّ لأنها لم تكن قويةً بما يكفي لأن تفعل الصواب من أجل الصواب، ولأن تضحي بأخيها لأجل ما يُمليه عليها ضميرُها.

وبينما كانت مارجريت منغمسة في أفكارها، وجدَت أن هذه السَّاعة الليلية الصيفية المنعِشة قصيرةٌ جدًّا؛ وأدركَت فجأة، وسط شعورٍ بإحباطٍ شديد، أن الجياد قد انعطفَت نحو بوَّابةِ منزلها الإنجليزي الجميل الضخمة.

أصبح منزل السير بيرسي بليكني المطلُّ على النهر تاريخيًّا؛ كان فسيحَ الأبعاد، قائمًا وسط حدائقَ متراصَّةٍ بشكلٍ رائعٍ، وله شُرفةُ رِواق بديعةُ المنظر وواجهةٌ مُطلَّة على النهر. كانت جُدرانه قد شُيِّدت في عهد تيودور، وكان طوبها الأحمر القديم يبدو بارزًا وفاتنًا وسط تعريشةٍ خضراء، فيما كان البستان الجميل، بقُرص المِزْوَلة الشمسيَّة القديمة الموجودة فيه، يُضيف لمسةً حقيقيةً من التناغم إلى حديقته الأمامية. كانت الأشجار المُعمَّرة الضخمة تُلقي بظِلالٍ جميلة باردة على الأرض، والآن، في هذه الليلة في أوائل الخريف، تحولت ألوان الأوراق بدرجة طفيفة إلى زعفرانية وذهبية، وكانت الحديقة العتيقة تبدو شاعريةً وهادئة بقدر كبير في ضوء القمر.

وبدقةٍ لا تعرف الخطأ، أوقف السير بيرسي الجيادَ الأربعة مباشرةً أمام بهوِ الدخول المُصمَّم على الطِّراز الإليزابيثي، ومع أنَّ الوقت كان متأخرًا، بدا أن جيشًا من سائسي الخيول قد خرَج من باطن الأرض حرفيًّا عندما توقَّفَت العربة مُدوِّيةً كالرعد، وكانوا يقفون باحترامٍ حولها.

ترجَّل السير بيرسي من العربة بوثبةٍ سريعة، ثم ساعد مارجريت على النزول. ظلَّت واقفةً في الخارج لحظةً بينما كان يُعطي أحدَ رجاله بضعةَ أوامر. طافت المنزل وكانت تمشي على المَرجة بينما كانت تنظر حالمةً إلى المشهد الطبيعي الفِضِّي. بدَت الطبيعة في حالة سكونٍ خلَّاب مقارنةً بالمشاعر الهائجة العنيفة التي كانت قد مرَّت بها؛ إذ كان يمكنها أن تسمع همسًا طفيفًا لخَرير النهر والصوت الخافت لسقوط الأوراق الميتة كالأشباح من الأشجار بين الفينة والأخرى.

كان كلُّ شيءٍ آخَر من حولها هادئًا. سمعَت الجيادَ تتبخترُ بينما اقتِيدَت إلى حظائرها البعيدة، ووقْع أقدام الخدم المُسرعين وهُم يذهبون جميعًا إلى الدَّاخل ليرتاحوا، حتى المنزل أيضًا كان ساكنًا تمامًا. كانت الأضواء لا تزال مشتعلة في جَناحَين منفصلين من الغُرَف فوقَ غرفِ الاستقبال الواسعة للغاية؛ كانت تلك غُرُفَها، وغُرُفَه، التي كانت منفصلةً

بعضها عن بعضٍ تمامًا بعرضِ المنزل كلِّه، بقدر ما أصبحت حياة كلٍّ منهما منفصلةً عن الآخر. تنهَّدَت لا إراديًّا، ولم تكن في تلك اللحظة قادرةً على معرفة السبب.

كانت تُعاني وجعًا مفرطًا في قلبها. بألمٍ عميق شعرَت بالأسى على حالها. لم تشعر في حياتها بهذا القدر من الوحدة المثيرة للشفقة، وبهذه الرغبة الشديدة في المواساة والتعاطف. وبتنهيدةٍ أخرى، تَوَلَّت عن النهر باتِّجاه المنزل، متسائلةً بتحيُّر عمَّا إن كانت ستستطيع يومًا أن تجد الرَّاحة والنوم بعد هذه الليلة.

وفجأةً، قبل أن تصل إلى شُرفة المدخل، سمعت صوتَ خطوةٍ ثابتةٍ على الحصى الجاف، ثم ظهرَت هيئةُ زوجها من الظلام في اللحظة التَّالية. كان هو الآخَر قد طاف المنزل وكان يتجوَّل في البستان نحو النهر. كان لا يزال يرتدي معطفَ القيادة الثقيلَ ذا الطيَّات والياقات العديدة الذي كان قد جعله بنفسِه أحدثَ صيحةٍ في الأزياء، لكنه كان مُرجِعًا إياه إلى الوراء دافنًا يدَيه كعادته في الجيوب العميقة لبنطاله المصنوع من السَّاتان؛ كان الزيُّ الأبيض الرَّائع الذي ارتداه في حفل اللورد جرينفل بمنديل العُنق الدانتيل الذي لا يُقدَّر بثمَن؛ يبدو شبَحيًّا بشكلٍ غريبٍ أمام الخلفية القاتمة المتمثِّلة في المنزل.

بدا أنه لم ينتبه لوجودها؛ لأنه، بعدما توقَّف بِضع لحظات، سرعان ما استدار عائدًا نحو المنزل وصعد مباشرةً نحو الشرفة.

«سير بيرسي!»

كانت إحدى قدمَيه على الدرجة السُّفلى من درجات الشرفة، ولكن عندما سمع صوتها، جفل بارتجافةٍ طفيفة وتوقَّف، ثم نظر باحثًا وسط الظِّلال التي نادته منها.

تقدَّمَت بسرعةٍ إلى ضوء القمر، وحالما رآها، قال بتلك الملاطفة المتقَنة التي يتصنَّعُها دائمًا عندما يتحدث إليها:

«في خدمتك، سيدتي!»

لكن قدمه كانت لا تزال على درجة الشرفة، وكان في سلوكه ككلٍّ إيحاءٌ غيرُ مباشر، واضحٌ لها بلا ريب، بأنه كان يرغب في الذَّهاب، ولم تكن لديه رغبةٌ في محادثةٍ ثنائية بعد مُنتصف الليل.

قالت: «الهواء منعشٌ لذيذ، والقمر شاعريٌّ وهادئ، والحديقة جذَّابة. ألا تبقى بعضَ الوقت؛ فالسَّاعة ليست متأخرةً جدًّا، أم أن رفقتي بغيضةٌ جدًّا لك، لدرجة أنَّك تتعجل لتخليص نفسك منها؟»

ردَّ بهدوءٍ بارد: «لا، يا سيدتي، بل العكس هو الصحيح، وأضمن لكِ أنكِ ستجدين القمرَ أكثرَ شاعريةً دون رفقتي؛ فلا ريبَ من أنني كلما أسرعت في إزالة العائق، كان ذلك أفضلَ لسيادتكِ.»

استدار مجددًا ليُغادر.

قالت بسرعة: «أعتقد أنك مخطئٌ بشأني يا سير بيرسي»، وأضافت وهي تدنو منه قليلًا: «فالقطيعة التي حدَثَت بيننا — مع الأسف! — لم تكن من صُنعي، تذكَّر.»

اعترَض ببرود: «حقًّا! لا بد أن تعذريني هنا سيدتي! فدائمًا ما كانت ذاكرتي ضعيفةً للغاية.»

نظر إلى عينَيها مباشرةً بتلك النظرةِ اللامبالية الناعسة التي اعتادها حتى صارت متأصِّلةً فيه. ردَّت إليه تلك النظرةَ المُحدِّقة للحظة، ثم لانت عيناها بينما اقتربَت منه عند أسفل درجات الشرفة.

«ضعيفة للغاية يا سير بيرسي؟ ربَّاه! كم تغيَّرتْ ذاكرتك حتمًا! هل كان ذلك قبل ثلاث سنواتٍ أم أربع عندما رأيتَني في باريس ساعةً واحدة في طريقك إلى الشرق؟ فعندما عُدتَ بعدها بسنتين، لم تكن قد نسيتني.»

بدَت جميلةً جمالًا ربانيًّا وهي واقفةٌ في ضوء القمر، ومعطف الفراء ينزلقُ من فوق كتفَيها الجميلتَين، والتطريز الذهبي على فستانها يتلألأ حولها، وعيناها الزرقاوان الطفوليَّتان تُحدِّقان فيه بكامل اتساعِهما.

وقفَ للحظةٍ جامدًا وساكنًا ما عدا يده التي قبضَت على الدرابزين الحجري للشرفة.

قال ببرودٍ جليدي: «لقد رغِبتِ في وجودي، يا سيدتي. وأفترض أن ذلك لم يكن بهدف الانغماس في ذكرياتٍ لطيفة.»

لا ريب في أن صوته كان باردًا عنيدًا؛ وكان سلوكُه أمامها جامدًا لا يَلين. كانت الكرامة الأنثوية ستقترح أن تُبادله البرودَ بالبرود، وأن تتجاوزَه دون كلمةٍ أخرى سوى إيماءةٍ مهذَّبةٍ من رأسها، لكن الحَدْس الأنثويَّ اقترح أنه يتوجَّب عليها البقاء، تلك الحاسة الحادَّة التي تجعل المرأة الجميلة مُدرِكةً لمدى قدرتها على جلب الرجل الوحيد الذي لا يحترمها عند ركبتَيها. مدَّت يدها نحوه.

«كلا يا سير بيرسي، لِمَ لا؟ الحاضر ليس رائعًا جدًّا للدرجة التي تجعلُني لا أتمنى الخوضَ في الماضي قليلًا.»

أحنى قامته الطويلة، وأخذ بأطراف الأنامل التي ما زالت تَمدُّها إليه وقبَّلها برسمية.

قال: «فعلًا، يا سيدتي، إذن ستعذرينني إن كانت قُدراتي العقلية البليدة لا تستطيع مُرافقتَك إلى هناك.»

همَّ بالمغادرة مرةً أخرى، لكنها نادته مجددًا بصوتها الطفولي العَذْب الذي كاد أن يكون حَنونًا.

«سير بيرسي.»

«خادمك، يا سيدتي.»

قالت بحدَّةٍ مفاجئة غيرِ عقلانية: «هل يمكن أن يموت الحُب؟ كنتُ أظن أن العشق الذي كنت تحمله لي في الماضي سيدوم طوال العمر. ألم يبقَ شيءٌ من ذاك الحب يا بيرسي ... شيء قد يساعدك ... على جَبْرِ هذه القطيعةِ المحزنة؟»

بدا أن قامته الضخمة ازدادَت تصلُّبًا بينما كانت تتحدث إليه هكذا، وتيبَّس الفمُ القوي، وتسللت نظرةُ عنادٍ مُتعنِّتٍ إلى عينيه الزرقاوين اللتين كانتا ناعستين كالعادة.

سأل ببرود: «معذرة، لأيِّ غرضٍ سيدتي؟»

«لا أفهمك.»

قال بمرارةٍ مفاجئة بدا أنها تندفع حرفيًّا عبر كلماته، مع أنه كان يبذل جهدًا واضحًا لكبحِها: «مع أنَّ الأمر بسيطٌ بما يكفي، أطرحُ عليكِ السؤال بتواضع؛ لأن عقلي البليدَ غيرُ قادرٍ على فهم الغرض من هذا، أعني مزاج سيادتكِ الجديد المفاجئ. هل تقصدين أنكِ تشتهين أن تُعيدي تسليتَكِ الشيطانية التي مارَستِها بنجاحٍ العامَ الماضي؟ هل ترغبين في رؤيتي متيَّمًا مستجْدِيًا عند قدَمَيكِ مرةً أخرى، حتى تستمتعي برَكْلي جانبًا ككلبٍ صغيرٍ مزعجٍ مجددًا؟»

كانت قد نجحَت في استفزازه حاليًّا، ونظرَت إليه مباشرةً مرةً أخرى؛ لأنها تذكَّرَت أنه كان هكذا منذ عامٍ مضى.

همسَت: «بيرسي! أتوسل إليك! ألا يُمكننا دفنُ الماضي؟»

«اعذريني يا سيدتي، لكنني فهمتُ من كلامكِ أنك ترغبين في الخوض فيه.»

قالت، بينما تسلَّلَت نبرةٌ حانيةٌ إلى صوتها: «لا! لم أكن أقصد «ذلك» الماضيَ يا بيرسي! بل كنتُ أقصد الوقت الذي كنت لا تزال تُحبني فيه! وأنا ... أوه! كنتُ مغرورةً وطائشة؛ غرَّتْني ثروتك ومكانتك، فتزوَّجتُك آملةً في قرارةِ قلبي أنَّ حُبَّك العظيم لي سيُنبِتُ داخلي حبًّا لك ... لكن، وا أسَفاه! ...»

كان القمر قد غاص خلف كومةٍ من الغيوم. ومن الشرق بدأ ضوءٌ يزيح عباءةَ الليل الثقيلة. لم يكن بإمكانه الآن أن يرى سوى الحدودِ الخارجية لقامتها الرشيقة، والرأسِ الملَكي الصغير، وتموُّجات شعرها الذهبية المحمرَّة الغزيرة، والجواهر اللامعة التي تُشكِّل الزهرة النجمية الحمراء الصغيرة التي كانت ترتديها إكليلًا في شعرها.

«بعد أربعٍ وعشرين ساعة من زواجنا يا سيدتي، هلَك ماركيز سان قرياقوس وجميعُ عائلته تحت المقصلة، ووصلتْ إليَّ الشَّائعة المنتشرة بأن زوجة السير بيرسي بليكني هي مَن ساعدَت في إرسالهم إليها.»

«لا! أخبرتُك بنفسي بحقيقةِ تلك القصة الشَّائنة.»

«لم تفعلي ذلك إلا بعدما قُصَّت عليَّ بواسطة غرباء، بكل تفاصيلها المروعة.»

قالت بحدةٍ شديدة: «وأنت صدَّقتَهم في التوِّ واللحظة، بلا دليلٍ ولا تحقُّق؛ صدقتَ أنني، أنا التي أخذتَ على نفسك عهدًا بأن تُحبَّها أكثر من حياتك، ومَن اعترفتَ بأنك تعشقها، يُمكن أن أفعل شيئًا حقيرًا جدًّا كالذي حكاه أولئك «الغرباء». ظننتَ أنني تعمَّدتُ خِداعَك بشأن المسألة كلِّها؛ صحيحٌ أنني كان يجب أن أفصح عن الأمر قبل أن أتزوَّجَك، ولكن، لو أنك أصغيتَ إليَّ، كنتُ سأخبرك بأنني حتى ذاك الصباح الذي أُخذ فيه سان قرياقوس إلى المقصلة، كنتُ أبذل كلَّ ما بوُسعي مستخدِمةً كلَّ نفوذٍ لديَّ لإنقاذه هو وعائلته. لكن كبريائي أجبرتني على أن أطبق شَفَتي، عندما بدا أنَّ حبك قد مات، وكأنه هَلَك تحت سكِّين تلك المقصلة ذاتها. ومع ذلك كنتُ سأخبرك كيف خُدِعت! أجل! أنا التي منَحَتْني تلك الشَّائعاتُ المنتشرةُ نفسُها لقبَ أذكى عقولِ فرنسا! استُدرِجْتُ إلى فعل ذلك بحيلةٍ خادعة، من رجالٍ عرَفوا كيف يتلاعبون بي مُستغلِّين مَحبَّتي لأخي الوحيد ورغبتي في الانتقام. هل كان هذا غيرَ طبيعي؟»

صار صوتها مختنقًا بالدموع. سكتَت لحظةً أو اثنتين، محاوِلةً استعادةَ شيءٍ من رِباطة الجأش. نظرَت إليه باستعطافٍ وكأنه قاضٍ سيُقرِّر مَصيرها. كان قد تركها تتحدَّث بطريقتها المحتدَّة الجيَّاشة دون أن يُعلق، ولو بكلمةِ تعاطف، والآن بعدما سكتَت محِاولةً كبح الدموع السَّاخنة التي تدفَّقَت من عينيها، انتظر، جامدًا وساكنًا. بدا أن الضوء الرماديَّ الخافت للفجر الباكر جعله أطولَ وأشدَّ جمودًا. بدا الوجه الكسول الودود متغيرًا بشكلٍ غريب. استطاعت مارجريت، مع أنها كانت منفعلةً، أن ترى أنَّ العينَين لم تعودا مسترخيتَين فاترتين، وأن الفم لم يَعُد مبتهجًا وأبلَه. وبدا أن نظرةً غريبةً مفعمة

بالعاطفة الشديدة تشعُّ من أسفل جَفنَيه المتثاقلين المتدلِّيَين، فيما كان الفمُ مغلقًا بإحكام والشفتان مضغوطتين كما لو أن قوة الإرادة وحدها هي من تكبح تلك العاطفة الجيَّاشة.

كانت مارجريت بليكني، قبل كل شيء، امرأة، امرأةً بكل نواقص النساء الجذَّابة، وكل خَطاياهن المحبَّبة. أدركَت فورًا أنها كانت مُخطئةً طَوال الأشهر القليلة الماضية، وأنَّ الرجل الذي كان واقفًا أمامها، باردًا كالتمثال، أحَبَّها عندما وقع صوتُها المنغَّمُ في أذنه بقدرِ ما كان يُحبها قبل عام، وأنَّ عاطفته ربما تكون في سُبات، لكنها موجودة، قويةٌ وعارمة وطاغية، بقدرِ ما كانت في المرة الأولى التي التقَت شَفتاها بشفتَيه في قُبلةٍ واحدة طويلة جنونية.

كانت الكبرياءُ قد صدَّته عنها، وكدأبِ النساء، كانت تنوي استعادة ذلك الحُبِّ الذي كان لها من قبل. وفجأةً بدا لها أن السعادة الوحيدة التي يُمكن أن تحملَها لها الحياةُ مرةً أخرى ستكون في الشعور بقُبلة هذا الرجل مرةً أخرى على شفتَيها.

قالت بصوتها الذي صار الآن خافتًا عذبًا حانيًا بلا حدود: «استمِع إلى القصة يا سير بيرسي. أرماند كان كلَّ شيءٍ لي! لم يكن لنا والدان، وربَّى كلٌّ منَّا الآخَر. كان هو أبي الصغير، وكنتُ أنا أمَّه الصغيرة، أحبَّ كلٌّ منا الآخَر كثيرًا. ثم في يومٍ ما؛ هل تسمح لي يا سير بيرسي؟ أمَر ماركيز سان قرياقوس بجلدِ أخي، جلَدَه رجالُه؛ ذاك الأخ الذي كان أحبَّ عندي من الدنيا كلِّها! وما هي تُهمته؟ أنه تجرَّأ، وهو من عامة الشعب، على أن يُحبَّ ابنة ذاك الأرستقراطي؛ لهذا نُصِب له فخٌّ وهوجِم بغتةً وجُلِد ... جُلِد ككلبٍ حتى كان بينه وبين الموت شبرٌ واحد! أوه، كم عانَيت! الإهانة التي تلقَّاها كانت تأكلُ روحي نفسَها! وعندما حانت الفرصةُ وكنت قادرةً على الانتقام، انتهَزتُها. لكنني كنتُ أفكر في تكبيد الماركيز الفَخورِ بعضَ المضايقة والإهانة ليس إلَّا. كان يتآمرُ مع النمسا ضدَّ بلاده. عرَفتُ المعلومة بمحض الصدفة، وأفصحت عنها، لكنني لم أكن أعلم ... كيف كان لي أن أُخمِّن؟ ... لقد نصَبوا لي فَخًّا وخدَعوني. وعندما أدركتُ ما فعلته، كان السيف قد سبق العذل.»

قال السير بيرسي بعد لحظةٍ من الصمت بينهما: «ربما من الصعب قليلًا أن تسترجعي أحداثَ الماضي يا سيدتي. صحيحٌ أنني أقررتُ لك بأن ذاكرتي سريعةُ النسيان، لكن تلك الذكرى بقيَت في ذهني بالتأكيد، ففي وقتِ موت الماركيز، طلبتُ منك شرحًا لتلك الشَّائعات الكريهة المنتشِرة. وإذا كانت تلك الذَّاكرة نفسها لا تخونني حتى الآن، فإني

أتصوَّر أنكِ رفَضتِ تقديمَ «أيِّ» تفسيرٍ لي حينها، وطلبتِ من حُبِّي ولاءً مُهينًا لم أكن مُستعدًّا لتقديمه.»

«أردتُ أن أمتحنَ حُبَّك لي، ولم ينجح في الامتحان. كنتَ تقول لي دومًا إنك لم تكن تتنفَّسُ أنفاس الحياة إلا لأجلي ولأجل حُبِّي.»

قال بينما بدأ جمودُه يختفي تدريجيًّا، وبدأتْ صَلابتُه تلين: «ولتمتَحِني ذاك الحب، طلبتِ أن أُفرِّط في شرفي، أن أقبَل بلا تذمُّرٍ ولا سؤال، مثل عبدٍ أحمقَ ذليل، كلَّ فعلٍ يصدر من سيدتي. ولأنَّ قلبي كان يَفيض بالحب والعشق، لم أطلب منك تفسيرًا؛ بل كنتُ أنتظر أن تُقدِّميه من تلقاء نفسكِ، ولم أشك؛ بل كنتُ أرجو فقط. لو أنكِ قلتِ ولو كلمةً واحدة فقط، كنت سأقبل أيَّ تفسيرٍ منكِ وأُصدِّقُه. لكنكِ ترَكتِني بلا أي كلمة سوى اعترافٍ سافرٍ بالتفاصيل البشعة الفعلية، وعُدتِ بكبرياء وفخر إلى منزل أخيكِ، وتركتِني وحدي ... أسابيع ... ولم أكن أعرفُ مَن أصدِّق آنذاك؛ لأن الضريح المقدَّس، الذي كان يحوي وهمي الأوحد، كان حُطامًا مفتتًا على الأرض عند قدمي.»

لم تكن بحاجةٍ الآن إلى التذمُّر بشأن برودِه وسلبيَّته؛ فصوتُه نفسه كان يرتجف بعاطفةٍ قوية، مع أنه كان يبذل جهودًا خارقةً لكبحِها.

قالت بحزن: «أجل! جُنون كبريائي! حالما ذهبتُ إلى هناك، ندمتُ بالفعل. ولكن عندما عدت، أوه، وجدتُك متغيرًا جدًّا! ترتدي ذاك القناعَ النَّاعس غيرَ المبالي بالفعل ولم تُنحِّه جانبًا قطُّ حتى ... حتى الآن.»

كانت قريبةً منه جدًّا لدرجة أن شعرها النَّاعم الطليق كان يتطايرُ ملامسًا خدَّه؛ وأصابتْه عيناها، اللتان كانتا تلمعان بالدموع، بالجنون، وأشعلتْ أنغامُ صوتها النيرانَ في شراييِنه. لكنه قرَّر ألَّا يُذعن للسحر الفاتن لهذه المرأة التي عَشِقها بشدَّة، والتي عانت كبرياؤه مرارةً شديدة على يدَيها. أغلق عينَيه ليحجبَ عنهما المنظرَ البهيَّ لهذا الوجه العذب، لهذا العُنقِ الأبيض كالثلج والقوام الرشيق، الذي كان الضوء الزهريُّ الخافت للفجر قد بدأ يحوم حوله ويلاعبه.

قال ببرودٍ شديد: «لا يا سيدتي، ليس قناعًا؛ أقسمتُ لك ... مرةً، أن حياتي كانت مِلكَكِ. طوالَ الأشهر الماضية كانت ألعوبةً في يدَيكِ ... لقد أدَّت غرضها.»

لكنها الآن كانت تعرف أنَّ هذا البرود الشديد مجردُ قناع. وفجأة، عاودَها التفكيرُ في الهَمِّ والحزن اللذَين مرَّت بهما الليلةَ الماضية، لكن من دون الإحساس بالمرارة هذه المرةَ، بل بشعورٍ بأن هذا الرجل الذي أحَبَّها سيُساعدها في تحمُّل العبء.

قالت باندفاع: «سير بيرسي، الربُّ يعلم أنك حاولتَ جاهدًا أن تجعل المهمة التي كلَّفتُ بها نفسي صعبةً للغاية. تحدَّثتَ للتو عن مزاجي، حسنًا! سنُسميه هكذا إن أردت. كنتُ أريد التحدُّث معك ... لأن ... لأنني كنتُ في مشكلة ... وكنت بحاجةٍ ... إلى تعاطُفِك.»

«أنا في أمرك سيدتي.»

تنهَّدَت قائلة: «يا لبرودك! ربَّاه! لا أصدق أنَّك أنت الشخصُ الذي، قبل بضعة أشهرٍ فقط، كانت دمعةٌ واحدة من عيني، كانت تجعلك شبهَ مجنون. الآن آتي إليك ... بقلبٍ شبهِ منفطر ... و... و...»

قال بينما كان صوته يرتجفُ بقدر ارتجاف صوتها: «أرجوكِ سيدتي، كيف يمكنني مساعدتُكِ؟»

«بيرسي! أرماند في خطرٍ قاتل. لقد وقعَت إحدى رسائله ... رسالة طائشة ومندفعة ككلِّ أفعاله، ومُرسَلة إلى السير أندرو فولكس، في يد شخصٍ متعصِّب. لقد فُضِح أمر أرماند بلا رَجعة ... غدًا، ربما يعتقلونه ... وبعد ذلك المقصلة ... إلا إذا ... إلَّا إذا ...» ثم أضافت بنحيبٍ مُعذَّبٍ مفاجئ وهي تستعيد أحداث الليلة الماضية في عقلها بسرعة: «أوه! هذا فظيع! فظيع! ... وأنت لا تفهم ... لا يمكنك ... وأنا ليس لديَّ أحدٌ ألجأ إليه ... للمساعدة ... أو حتى للتعاطف. ...»

كانت دموعُها الآن تأبى أن تُكبَح. اجتاحها كلُّ ضيقها ومعاناتها، وقلقها الرهيب بشأن مصير أرماند. ترنَّحَت وكادت تسقط، فاستندَت إلى الدرابزين الحجري، ثم دفَنَت وجهها بين كفَّيها وبكت بمرارة.

حالما ذكَرَت اسم أرماند سان جوست والخطر المحدِق به، كان لونُ وجه السير بيرسي قد صار أشدَّ شحوبًا، وبَدَت نظرةُ الإصرار والعزم أشدَّ بروزًا من أي وقتٍ مضى في عينَيه. لكنه لم يقُلْ شيئًا في الوقت الرَّاهن، بل راقبَها بينما كان جسدها الجميل يهتزُّ بالنشيج، راقبها حتى لانت قَسَماتُ وجهه بلا وعيٍ منه، وبدا أنَّ عينَيه تلمعان كما لو كانتا على وشك أن تدمعا.

قال بسخريةٍ مريرة: «وهكذا فكلبُ الثورة القاتل انقلَب على نفس الأيدي التي أطعمَتْه؟ ...» وأضاف بلطفٍ بالغ بينما استمرَّت مارجريت بالبكاء الهستيري: «يا إلهي، سيدتي، هلا جفَّفتِ دموعَك؟ ... لا يمكنني أبدًا أن أتحمل رؤيةَ امرأةٍ جميلةٍ تبكي، وأنا ...»

مدَّ ذراعيه غريزيًّا وبعاطفةٍ مسيطرة مفاجئة، عندما رأى انعدامَ حيلتها وحزنَها، ثم كان سيأخذها ويحتضنها، كان سيحميها من كلِّ شرٍّ بروحِه نفسِها، بدماء قلبه نفسها ... لكن الكبرياء انتصَرت في هذا الصراع مجددًا، تمالَك نفسَه بجهدٍ هائل من إرادته، وقال بنبرةٍ باردة، مع أنها كانت لا تزال مهذبةً جدًّا:

«ألن تَستعيني بي يا سيدتي، وتُخبريني كيف أنالُ شرف خدمتكِ؟»

بذلَت مجهودًا عنيفًا لتتمالك نفسها، ثم أدارت وجهها الملطَّخ بالدموع نحوه، ومدَّت أناملها إليه مرةً أخرى وقبَّلَها بنفس المُلاطفة الدقيقة، لكن أصابع مارجريت بقيت في يده هذه المرةَ ثانيةً أو اثنتين أطولَ ممَّا كان لازمًا بكلِّ تأكيد، وهذا لأنها شعرت بأنَّ يدَه ترتعش ارتعاشًا محسوسًا وتحترقُ بحرارة، بينما كانت شفتاه باردتَين كالرخام.

قالت بعذوبةٍ وبساطة: «هل يمكنك فعلُ أيِّ شيءٍ لأجل أرماند؟ لك نفوذٌ كبير في القصر الملكي ... والكثير من الأصدقاء ...»

«لا سيدتي، ألا ينبغي أن تستعيني بدلًا من ذلك بنفوذِ صديقك الفرنسي، السيد شوفلان؟ فعلاقاته، إن لم أكن مخطئًا، تصلُ إلى حدِّ الحكومة الفرنسية الجمهورية.»

«لا يمكنُني أن أطلب منه ذلك يا بيرسي ... أوه! ليتني كنتُ أجرؤ على إخبارك ... لكن ... لكن ... لكنه وضع ثمنًا لرأس أخي، وهذا الثمن هو ...»

كانت مستعدةً للتخلي عن كل ما تملك مقابل أن تتحلَّى بالشجاعة حينها لإخباره بكل شيء ... كل ما فعلته في تلك الليلة ... كيف عانت وكيف أُجبِرَت وأُمسك بها من الذراع التي تؤلمُها. لكنها لم تجرؤ على الاستسلام لذلك الدَّافع ... ليس الآن، ليس في الوقت الذي بدأتْ تشعر فيه للتوِّ بأنه ما زال يُحبها، في الوقت الذي عاودها فيه الأملُ في أنها تستطيع الظفَر بحبِّه مجددًا. لم تجرؤ على الاعتراف بشيءٍ آخَر له. ففي النهاية، ربما لن يفهم، ربما لن يتعاطف مع معاناتها وما تعرضت له من إغراءات. فحبُّه لها الذي لا يزال في سُباتٍ، قد يرقد رقاد الموت.

لعله تكهَّن بما كان يجول في خاطرها. فحالتُه كلها كانت تشير إلى توقٍ شديد، تضرُّعٍ حقيقي لِنَيلِ هذه الثقة التي حجَبتها عنه كبرياؤها الغبية. وعندما بقيَت صامتةً تنهَّد، وقال ببرودٍ واضح:

«ربَّاه يا سيدتي، بما أن الأمر يُضايقك، فلن نتحدثَ عنه. أمَّا بخصوص أرماند، فأرجو ألَّا تخافي. أعدُكِ بأنه سيكون بخير. الآن، هل تأذنين لي بالذهاب؟ الوقت بدأ يتأخَّر و...»

اقتربت منه أكثرَ، وهي تتكلم برقةٍ حقيقية، قائلةً: «هل ستقبل امتناني على الأقل؟»

هَمَّ سريعًا وباندفاعٍ شبهِ تلقائيٍّ بأن يأخذها بين ذراعَيه؛ لأن عينيها كانتا تَسبَحان في بحر من الدموع، فكان متشوقًا لتقبيلها لإيقاف بكائها؛ لكنها كانت قد أغْرَته مرةً من قبل، هكذا بالضبط، ثم نحَّتْه جانبًا ووضعَته على الرفِّ كقفَّازٍ غيرِ مناسب. ظنَّ أنَّ هذه حالةٌ مزاجية مؤقَّتة، نزوة، وكان أشدَّ كبرياء من أن يُسلم نفسه مرةً أخرى.

قال بهدوء: «ما زال هذا باكرًا يا سيدتي! لم أفعل شيئًا بعد. السَّاعة متأخرةٌ ولا بد أنك مرهَقة. ستكون وصيفاتُكِ بانتظاركِ في الأعلى.»

تنحَّى جانبًا ليسمح لها بالمرور. أطلقَت تنهيدةً خائبةً سريعة. كان كبرياؤه وجمالها في صراعٍ مباشر، وظلَّت كبرياؤه منتصرةً. ربما تكون مخدوعةً الآن رغم كل شيء؛ إذ ربما يكون ما حسبَته وهجَ الحب في عينيه مجردَ اتقادٍ للكبرياء أو، مَن يعلم، ربما يكون كرهًا وليس حُبًّا. وقفَت تنظر لحظةً أو اثنتين. بدا مجددًا أنه كان جامدًا وفاترَ المشاعر كالسَّابق. لقد انتصَرت كبرياؤه، ولم يُبدِ أيَّ اهتمام بها. كان ضوء الفجر الرمادي يُذعن تدريجيًّا لضوء الشمس المشرقة الوردي. بدأت الطيورُ تُغرد، واستيقظت الطبيعة مبتسمةً بسعادةٍ لدفءِ هذا الصباح الرائع في أكتوبر. لم يكن يوجد بين هذين الفؤادَين سوى حاجزٍ قويٍّ منيع، مُشيَّدٍ من الكبرياء على كلتا النَّاحيتَين، ولم يكن أيٌّ منهما يريد أن يكون أولَ من يهدمه.

أحنى قامتَه الطويلة انحناءةً رسميةً طويلة منخفضة، بينما بدأت أخيرًا تصعد درجات الشرفة بتنهيدةٍ صغيرة مريرة أخرى.

كان ذيلُ ثوبها الطويل المطرَّز بالذهب يكنس الأوراق الميتة عن الدرجات، مُصدِرًا حفيفًا خافتًا متناغمًا، وهي تصعد بانسيابية، مسنِدةً إحدى يدَيها إلى الدرابزين الحجري، فيما كان ضوء الفجر الورديُّ يُشَكِّل هالةً ذهبية حول شعرها، ويجعل الياقوتَ الذي يُزين رأسها ومعصمَيها يتلألأ. وصلت إلى الباب الزجاجي الطويل المؤدي إلى داخل المنزل. وقبل أن تدخل، توقفَت مرةً أخرى لتنظر إليه، على أمل أن ترى ذراعَيه ممدودتَين إليها، وتسمع صوته يُناديها لتعود. لكنه لم يتحرَّك؛ بدَت قامتُه الطويلة الضخمة تجسيدًا تامًّا لكبرياء لا تلين وعنادٍ شرس.

تدفَّقَت دموعٌ ساخنةٌ إلى عينيها مجددًا، ولأنها لم تكن تريد أن تدَعَه يراها، استدارت سريعًا للدَّاخل، وركضت بأسرع ما يمكنها إلى غرفها.

ولو أنها عادت بعدئذٍ، ونظرَت مجددًا إلى الحديقة المضاءة باللون الوردي، كانت سترى ما كان سيجعل معاناتها الثقيلة تبدو خفيفةً وسهلة التحمُّل؛ إذ كانت سترى

رجلًا قويًّا غلبته عاطفته ويأسه. كانت الكبرياء قد تراجعَت أخيرًا، وذهب العناد، وصارت الإرادة بلا قوة. لم يكن سوى رجلٍ واقعٍ في الحبِّ بجنون، بشوقٍ أعمى، بوَجْد. وحالما تلاشى صوتُ خطواتها الخفيفة داخل المنزل، جثا على ركبتيه منحنيًا على درجات الشُّرفة، وفي غمرة جنون حبه، قبَّل المواضعَ التي داستها قدَماها الصغيرتان على الدرَجات موضعًا موضعًا، وقبَّل الدرابزين الحجريَّ عند آخِر موضعٍ كانت يدُها الصغيرة مُستنِدةً إليه.

الفصل السابع عشر

وداع

عندما وصلَت مارجريت إلى غرفتها، وجدَت خادمتها قلقةً جدًّا عليها.

قالت المرأة المسكينة وعيناها نصفُ مغلقتين من شدة النعاس: «ستكونين متعبةً جدًّا سيادتك. فالسَّاعة تجاوزَت الخامسة.»

قالت مارجريت بلطف: «آه، أجل يا لويز، يُمكنني القولُ إنني سأكون متعبةً قريبًا، لكنكِ أنتِ متعبةٌ جدًّا الآن؛ لذا اذهبي إلى فِراشكِ حالًا. سأذهب إلى فِراشي وحدي.»

«لكن يا سيدتي ...»

«لا تُجادلي الآن يا لويز، بل اذهبي إلى الفراش. ألبِسيني رداءً أتدثَّر به واتركيني وحدي.»

كانت لويز مستعِدَّة تمامًا لإطاعتها. خلعت ثوب حفل سيدتها الرَّائع، ودثَّرتها برداءٍ خفيفٍ واسع.

سألتها عندما انتهَت: «هل تُريدين شيئًا آخَر سيادتكِ؟»

«لا، لا شيء آخر، أطفِئي النور وأنتِ خارِجة.»

«أجل سيدتي. ليلةً سعيدةً سيدتي.»

«ليلةً سعيدة يا لويز.»

عندما غادرَت الخادمة، أزاحت مارجريت الستائرَ جانبًا وفتحَت النَّوافذ. كانت الحديقة والنهر خلفها مغمورَين بالنور الوردي. وعلى مسافةٍ بعيدة ناحيةَ الشرق، كانت أشعَّة الشمس المشرقة قد حوَّلَت اللون الوردي إلى ذهبيٍّ مشرق. كان البستان خاليًا الآن ونظرَت مارجريت إلى الأسفل نحو الشرفة حيث كانت تقف قبل لحظاتٍ قليلة وهي تُحاول دون جدوى أن تستعيدَ حُبَّ الرجل الذي كان كلُّه لها يومًا ما.

كان من الغريب أنها، وسط كلِّ همِّها وكل قلقها على أرماند، كانت شبهَ واعية في اللحظة الحاليَّة بوجعٍ حادٍّ ومرير في قلبها.

حتى أطرافها بدا أنها تتألَّم شوقًا لحبِّ ذلك الرجل الذي رفَضها، الذي قاوم رقَّتها وبقي باردًا أمام استعطافاتها، ولم يستجب لبريق الوَجْد الذي جعلها تشعرُ وتأمل أن تلك الأيَّام السعيدة السالفة في باريس لم تمُتْ وتُنسَ تمامًا.

كم كان كلُّ هذا غريبًا! كانت لا تزال تُحبه. والآن عندما تأمَّلت سوء الفهم والشعور بالوحدة طوال الأشهر القليلة الماضية، أدركَت أنها لم تتوقَّف عن حبه قَط، وأنها دائمًا ما كانت تشعر في أعماق قلبها شعورًا غامضًا طفيفًا بأن تفاهاته الحمقاءَ وضحكته البلهاء وعدم مبالاته الكسولة لم تكن سوى قناع، وأنَّ الرجل الحقيقي القوي العاطفيَّ ذا الإرادة ما زال موجودًا، الرجل الذي أحبَّته وانبهرَت بجِدَّة مشاعره، والذي جذبَتها شخصيتُه؛ لأنها شعَرَت دائمًا بأنه كان يُخفي شيئًا معيَّنًا وراء بلادته العقلية الظاهرية، شيئًا ظلَّ يُخفيه عن العالم كله، وعنها هي بالخصوص.

إنَّ قلب المرأة أُحْجيةٌ معقَّدة؛ وغالبًا ما تكون صاحبتُه نفسها عاجزةً تمامًا عن حل هذا اللغز.

هل وقعَت مارجريت بليكني «أذكى امرأةٍ في أوروبا» في حُبِّ رجلٍ أحمق حقًّا؟ هل كان ما شعرَت به تجاهَه عندما تزوَّجَته قبل سنةٍ حبًّا؟ هل كان ما تشعر به تجاهه الآن حُبًّا بعدما أدركَت أنه ما زال يُحبها، لكنه لن يكون لها عبدًا وعاشقًا وَلْهانَ غيورًا مرةً أخرى؟ لا! حتى مارجريت نفسُها لم تكن تستطيع أن تجزم بذلك. ليس في هذه اللحظة بأيِّ حال؛ ربما أوصدت كبرياؤها عقْلَها ومنعته أن يفهم قلبها كما ينبغي. لكن هذا ما كانت تعرفه؛ أنها تنوي الإمساكَ بذاك القلب المكابر مرَّةً أخرى. أنها ستظفر به مجددًا ... وأنها لن تخسَرَه أبدًا بعدئذٍ .... ستحتفظ به، وتحتفظ بحبِّه، وتستحقُّه وتعتز به؛ كانت واثقةً جدًّا من أنها لن تشعرَ بالسعادة مجددًا بدون حبِّ ذلك الرجل بالذات.

وهكذا تدافعَت أكثرُ الأفكارِ والمشاعر تناقضًا عبر عقلها بجموح. وبينما كانت منهمكةً فيها، تركت الوقت يمضي، وربما لأنها كانت متعبةً من طول الانفعال؛ أغلقت عينيها بالفعل وغرقَت في نومٍ مضطرب، حيث بدا أن أحلامها العابرة السريعة ليست سوى استمرارٍ لأفكارها القلقة، إلى أن استيقظتْ فجأةً، من الحلم أو التأمُّل، على صوت أقدامٍ خارجَ بابها.

نهضت متوترةً وأرهفَت السمع؛ كان المنزل نفسه هادئًا كما هو دائمًا، وكان صوتُ الأقدام قد تراجع. وعبر نافذتها المفتوحة على اتِّساعِها، كانت أشعةُ شمس الصباح الساطعة تغمر غرفتها بالضوء. رفعَت عينيها إلى السَّاعة؛ كانت قد تجاوزت السَّادسة بنصف ساعة؛ أي إنَّ الوقت كان أبكرَ من أن يكون أيٌّ من سكان المنزل قد نهض من فِراشه.

لا بد أنَّ النعاس قد غلبَها بلا أيِّ وعيٍ منها. أيقظها صوتُ الخطوات وكذلك أصواتٌ خافتة مكتومة؛ فمَاذا كانت هذه الأصوات يا تُرى؟

مشَت عبر الغرفة بخفَّةٍ، على أطراف أصابعها، وفتحت الباب لِتُصغي؛ لكنها لم تسمع أيَّ صوت، لم تسمع شيئًا سوى ذاك السكون المميز المصاحِب للصباح الباكر حين يكون البشرُ كلُّهم غارقين في أعمق نوم. لكن ضجيج الخطوات كان قد وتَّرَها، وعندما رأت فجأةً عند قدَمَيها، على عتبة الباب بالضبط، شيئًا أبيضَ مستلقيًا هناك — رسالة على ما يبدو — لم تجرؤ على لمسها. إذ بدت الرسالة شبحيَّةً جدًّا. من المؤكد أنها لم تكن موجودةً عندما كانت تصعد الدَّرَج، فهل أسقطتْها لويز يا تُرى؟ أم أن شبحًا مُعذِّبًا يتلاعبُ بها ويجعلها ترى رسائلَ خيالية غير موجودة أصلًا؟

أخيرًا انحنَت لتلتقطَها، ورأت، وسط ذهولٍ وحيرةٍ بالغة، أنَّ الرسالة مُرسَلة إليها بخطِّ يد زوجها الكبير العمَلي. ما الذي قد يريد قولَه لها في منتصف الليل، ولا يمكنه الانتظار حتى الصباح؟

مزَّقَت الظرف لتفتحَه وقرأت الرسالة التي جاء فيها:

«ظرفٌ طارئٌ جدًّا يُجبرني على المغادرة إلى الشمال فورًا؛ لذا أرجو من سيادتكِ العذر إن لم أظفر بشرف توديعكِ. قد يُبقيني عملي مشغولًا لمدة أسبوع؛ لذا قد لا أحظى بشرفِ حضور حفلة سيادتكِ النهرية يوم الأربعاء. سأبقى خادمَ سيادتك الأكثرَ تواضعًا وطاعة.

بيرسي بليكني.»

لا بد أن مارجريت قد تشرَّبَت بلادةَ عقلِ زوجها فجأة؛ لأنها اضطُرَّت إلى إعادة قراءة السطور القليلة البسيطة مِرارًا قبل أن تتمكَّنَ من استيعاب معناها بالكامل.

وقفَت على بسطة الدرج تُقلِّب في يدها هذه الرسالةَ الغامضة المقتضَبة مرارًا، بينما كان عقلها مُتبلدًا، وأعصابها متوترةً بسبب الانفعال وهاجسٍ متشائم لم تستطع تفسيره جيدًا.

صحيحٌ أنَّ السير بيرسي كان يمتلك عقاراتٍ وأراضيَ كثيرة في الشمال، وكان قد سافر إلى هناك كثيرًا من قبل وحده، وكان يبقى بعيدًا لمدة أسبوع في كل مرة، ولكن بدا من الغريب جدًّا أن تطرأ ظروفٌ بين الخامسة والسادسة صباحًا تضطرُّه إلى الانطلاق بهذه السرعة الشديدة.

حاولَت دون جدوى التخلُّصَ من توترها غير المعتاد؛ إذ كانت ترتجف من رأسها إلى أخمصِ قدمَيها. وتملَّكَتها رغبةٌ جارفة لا يمكن السيطرةُ عليها في أن ترى زوجها مجددًا وفورًا، هذا إن لم يكن قد انطلق بالفعل.

نزلت الدرَجَ قفزًا وركَضَت مباشرةً عبر القاعة باتجاه الباب الأمامي، ناسيةً أنها لم تكن ترتدي سوى رداء الصباح الخفيف جدًّا، وأن شعرها كان طليقًا منفلتًا على كتفيها.

كان البابُ موصدًا بالأقفال والمزاليج كالعادة؛ لأن الخدم الدَّاخليِّين لم يكونوا قد استيقظوا بعد، لكنَّ أذنيها الحادَّتَين كانتا قد سمعتا أصواتَ حصان يحكُّ بحوافره الأرضية الحجرية المرصوفة.

بأصابعَ مرتعشةٍ متوترة فتحَت مارجريت المزاليج واحدًا تلو الآخر، بينما تكدَّمَت يداها وتضرَّرَت أظفارُها؛ لأن الأقفال كانت ثقيلةً ومتصلِّبة. لكنها لم تهتم؛ فجسدها كله كان يرتعش قلقًا من مجرد التفكير في أن يكون الأوان قد فات؛ أن يكون زوجُها قد رحل دون أن تراه وتتمنَّى له «رحلةً موفقة!».

وأخيرًا، أدارت المفتاح وفتحَت الباب بقوَّة. اتضَح أنَّ أذُنَيها لم تخدَعاها. إذ كان يوجد سائسٌ واقف بالقرب من الباب ممسكًا بزمام حصانَين: كان أحدهما هو «سلطان»، الحصان المفضَّل والأسرع لدى السير بيرسي، مُسرجًا ومستعدًّا للرحلة.

وفي اللحظة التَّالية، ظهر السير بيرسي نفسه من وراء الناصية البعيدة من المنزل، وتوجَّه مسرعًا نحو الحِصانَين. كان قد غيَّر زيَّ الحفل الأنيق، لكنه كعادته كان مكتسيًا بثيابٍ غالية لا عيب فيها؛ إذ كان مرتديًا حُلَّةً من قماشٍ ممتاز، ومنديلَ عنقٍ مكشكشًا من الدَّانتيل، وحذاءً طويلَ العنق وبنطالَ ركوب.

تقدَّمَت مارجريت بضع خطوات. رفع عينَيه ورآها. وظهر تقطيبٌ طفيف بين عينيه. قالت بسرعةٍ واهتياج: «أنت ذاهب؟ إلى أين؟»

فقال بطريقته الباردة النَّاعسة المعتادة: «كما تشرَّفتُ بإبلاغ سيادتكِ، عملٌ عاجلٌ ومفاجئ، يتطلَّب وجودي في الشمال صباحَ اليوم.»

«لكن ... ضيوفك في الغد ...»

«لقد رجوتُ سيادتكِ أن تُقدِّمي أعذاري المتواضعة لصاحب السمو. أنت مضيفةٌ ممتازة، ولا أظن أن أحدًا سيفتقدني.»

قالت وهي ما تزال تتحدث بنفس السرعة والتوتر: «ولكن بالتأكيد كان يمكنك أن تؤجِّل رحلتك ... إلى ما بعد حفلتنا النهرية .... فمن المؤكَّد أن العمل ليس بتلك الضرورة المُلحَّة ... وأنت لم تقل شيئًا عنه ... سوى الآن للتو.»

«عمَلي، كما تشرفتُ بإخبارِكِ يا سيدتي، مفاجئٌ بقدر هو عاجل. لذا هل لي أن ألتمس إذنَكِ بالذَّهاب. هل توجد أيُّ حاجةٍ أستطيع قضاءها لكِ في البلدة؟ ... في رحلة عودتي؟»

«لا ... لا ... شكرًا ... لا شيء. لكنك ستعود قريبًا؟»

«قريبًا جدًّا.»

«قبل نهاية الأسبوع؟»

«لا يمكنني أن أجزم.»

كان من الواضح أنه يحاول الرحيل، بينما كانت هي تبذل كلَّ ما بوسعها لتؤخِّرَه لحظةً أو اثنتين.

قالت: «بيرسي، ألن تُخبرني بسبب رحيلك اليوم؟ فبالتأكيد يحقُّ لي، بصفتي زوجتك، أن أعرف. لم تُستدعَ إلى الشمال. أنا أعرف هذا. لم تأتِ أيُّ رسائل، ولم يصل أيُّ سُعاةٍ من هناك قبل أن نغادر إلى دار الأوبرا الليلة الماضية، ولم يكن يوجد شيءٌ ينتظرك عندما عُدنا من الحفل الراقص. أنت لستَ ذاهبًا إلى الشمال، أنا متيقنةٌ من ذلك. ثمة لغزٌ غامض ... و...»

ردَّ بنبرةٍ تحملُ قدرًا طفيفًا من نفاد الصبر: «لا، لا يوجد أيُّ غموض سيدتي. عملي له علاقةٌ بأرماند ... هو ذا! الآن، هلَّا أذِنتِ لي بأن أذهب؟»

«بأرماند؟ ... لكنك لن تُعرِّض نفسك للخطر؟»

«خطر؟ أنا؟ ... لا، سيدتي، اهتمامك يُشرفني. كما قلتِ، لديَّ بعضُ النفوذ، وأنوي استخدامه قبل فوات الأوان.»

«هل ستسمح لي بشكرك على الأقل؟»

قال ببرود: «لا سيدتي، لا داعي إلى ذلك. فحياتي في خدمتك، وقد حصَلتُ بالفعل على مقابل هذه الخدمة وزيادة.»

قالت وهي تمدُّ يديها نحوه باندفاع: «وحياتي لك يا سير بيرسي، إن كنتَ ستَقبلها، نظيرَ ما تفعله من أجل أرماند. اطمئن! لن أؤخِّرَك ... سأظلُّ أُفكِّر فيك ... وداعًا! ...»

كم كانت تبدو فائقةَ الجمال في هذا الضوء الصباحي، بينما ينساب شعرها المتوهِّج حول كتفَيها. انحنى بشدَّةٍ وقبَّل يدها؛ فشعَرَت بالقُبلة المتوقدة وخفق قلبها بالسعادة والأمل.

قالت برقة: «ستعود؟»

أجاب وهو ينظر بتوقٍ إلى عينَيها الزرقاوين: «قريبًا جدًّا!»

سألته، بينما أعطته عيناها وعدًا بلا حدود، متجاوبةً مع نظرته: «و... ستتذكَّر؟ ...»

«سأتذكَّر دائمًا سيدتي، بأنك شرَّفتِني بطلب خدماتي.»

كانت كلماتُه باردةً ورسمية، لكنها لم تُحبِط مشاعرَها هذه المرة. فقلبها الأنثويُّ استطاع قراءة ما تحت القناع البارد الذي كانت كبرياؤه لا تزال تجبره على ارتدائه.

انحنى لها مجددًا، ثم طلب إذنها للرحيل. تنحَّت جانبًا بينما امتطى صَهْوةَ «سلطان»، ثم لوَّحَت له بوداعٍ أخير وهو يركض بالحصان خارج البوابات.

سرعان ما أخفاه منعطفٌ في الطريق عن ناظرَيها؛ وكان سائسه الخصوصيُّ قد واجه صعوبةً في مواكبة سرعته؛ لأن «سلطان» انطلق بسرعةٍ بالغة استجابةً لمزاج سيدِه المتحمس. أطلقت مارجريت تنهيدةً كادت تكون سعيدة، ثم استدارت ودخلَت المنزل. عادت إلى غرفتها لأنها شعرَت بالنعاس الشديد فجأةً، مثل طفلةٍ متعبة.

بدا أنَّ قلبها كلَّه قد غُمِر في الحال بسلامٍ تام، وصحيحٌ أنه كان لا يزال يتألَّم بشوقٍ غامض، لكنَّ بصيصًا طفيفًا من الأمل اللذيذ هدَّأه كما لو كان بلسمًا.

لم تعُد تشعر بالقلق على أرماند. فالرجل الذي غادر للتو ممتطيًا جَوادَه، عازمًا على مساعدة أخيها، قد بثَّ في نفسها ثقةً تامةً في قوته ومقدرته. تعجَّبَت من نفسها لأنها كانت تنظر إليه يومًا ما على أنه أحمقُ تافه؛ فبالطبع كان ذلك قناعًا يُخفي به الجُرحَ المرير الذي أحدَثَته في ثقته وفي حبِّه. كانت عاطفتُه ستُسيطر عليه، ولم يكن يريد أن يدَعها ترى أنه ما زال يهتمُّ بها جدًّا وأنه كان يُعاني عميقًا في قرارة نفسه.

لكن الآن سيكون كل شيءٍ على ما يُرام؛ ستسحقُ كبرياءها، وتجعلُها متواضعةً أمامه، وستُخبره بكل شيء، وتثقُ به في كل شيء؛ وتلك الأيَّام السعيدة ستعود، عندما كانا يتجولان

معًا في غابات فونتينبلو، عندما كانا يتحادثان قليلًا — لأنه كان دائمًا رجلًا صامتًا — لكنها كانت تشعر عندئذٍ بأنها تستطيع دائمًا أن تتَّكئ على ذاك القلب القويِّ وتجد فيه الرَّاحة والسعادة.

كلما فكَّرَت في أحداث الليلة الماضية، كانت تصبح أقَلَّ خوفًا من شوفلان ومُخطَّطاته. لقد فشل في اكتشاف هُوية سكارليت بيمبرنيل، كانت متأكدةً من ذلك. فاللورد فانكورت وشوفلان نفسُه أكَّدا لها أن غرفة العشاء لم يكن فيها أيُّ أحد في تمام السَّاعة الواحدة سوى الرجل الفرنسي نفسه وبيرسي — أجل! — بيرسي! ربما كانت ستسأله لو أن ذلك كان قد خطر ببالها! بأي حال، زالت مخاوفُها من أن البطل الشجاع المجهول سيسقط في فخِّ شوفلان، وعلى أي حال، لن تكون هي المسئولةَ عن موته.

صحيحٌ أنَّ أرماند كان لا يزال في خطرٍ، لكن بيرسي وعدها بأن أرماند سيكون سالمًا، وبطريقةٍ ما، بينما كانت مارجريت تنظر إليه وهو يبتعد ممتطيًا صهوةَ جوَاده، لم يُخامرها شكٌّ مطلقًا، ولو حتى أدنى قدر منه، في أنه قد يفشل في أي شيء عَزم على تحقيقِه مهما كان. وقرَّرَت أنها، عندما يصلُ أرماند سالمًا إلى إنجلترا، لن تسمح له بالعودة إلى فرنسا.

كانت تشعر الآن بأنها تكاد تكونُ سعيدة، وبعدما أغلقَت الأستار مجددًا لتحجب الشمسَ السَّاطعة، ذهبت إلى فراشها أخيرًا، ووضَعَت رأسها على الوسادة، ومثل طفلةٍ مرهقة، سرعان ما نامت نومًا هادئًا بلا أحلام.

الفصل الثامن عشر

الشعار الغامض

كان جزءٌ كبيرٌ من النهار قد انقضى، عندما استيقظَت مارجريت منتعشةً من نومها الطويل. أحضَرَت إليها لويز كأسًا من الحليب الطَّازَج وصحنًا من الفاكهة، وتناولَت هذا الإفطار البسيط بشهيةٍ مفتوحة.

تزاحَمَت الأفكار متكدسةً ومتسارعةً في عقلها وهي تقضم عنبها، وكان أغلب أفكارها يركض خلف قامة زوجها الطويلة المنتصبة، الذي كانت قد شاهَدَته يرحل مختفيًا عن ناظِرَيها على صهوة جواده قبل أكثرَ من خمس ساعات.

ورَدًّا على استفسارات مارجريت المتلهفة، عادت لويز بخبر عودة السَّائس إلى البيت مع «سلطان»، بعدما ترك السير بيرسي في لندن. قال السَّائس إنه يظنُّ أن سيده كان على وشك الصعود على متن مركبِه الشراعي، الذي كان راسيًا أسفلَ جسر لندن مباشرةً. إذ كان السير بيرسي قد وصل بجوَاده إلى هناك، ثم التقى ببريجز، رُبَّان مركب «داي دريم»، وأرسل السَّائس عائدًا إلى ريتشموند مع «سلطان» والسرج الفارغ.

تفاقمَت حيرةُ مارجريت أكثر من أي وقت مضى عند سماع هذا الخبر. فإلى أين يمكن أن يكون السير بيرسي ذاهبًا بمركب «داي دريم» الآن يا تُرى؟ لقد قال قبل رحيله إنه ذاهبٌ من أجل أرماند. حسنًا! السير بيرسي لديه أصدقاء ذَوو نفوذٍ في كل مكان. ربما يكون ذاهبًا إلى جرينتش أو ... لكن مارجريت توقفَت عن التخمين؛ فكل شيءٍ سيتَّضحُ قريبًا؛ قال إنه سيعود، وإنه سيظل متذكِّرًا.

كان أمام مارجريت يومٌ طويلٌ وخالٍ من أي نشاط. كانت تنتظر زيارةً من زميلة دراستها القديمة، سوزان تورناي الصغيرة. إذ كانت مارجريت، بكُلِّ ما لديها من خُبثٍ مرح، قد انتهزَت فرصةَ وجود أمير ويلز الليلة الماضية، وطَلَبَت من الكونتيسة في حضرته أن تسمح لسوزان بزيارتها. فأشاد صاحبُ السمو بالفكرة بأعلى صوته، وصرَّح بأنه

سيَسعد بالمرور سريعًا على مارجريت وسوزان في وقتٍ ما بعد الظهر. لم تجرؤ الكونتيسة على الرفض، واضطُرَّت فورًا إلى أن تُقدِّم وعدًا بأنها ستُرسل سوزان الصغيرة لإمضاء يومٍ طويلٍ وسعيدٍ في ريتشموند مع صديقتها.

كانت مارجريت تنتظرها بلهفة؛ إذ كانت مشتاقة إلى محادثةٍ عن أيَّام المدرسة القديمة مع الصغيرة، وشعرَت بأنها ستُفضل رفقة سوزان على أي شخصٍ آخر، وأنهما يُمكن أن تتجوَّلا معًا عبر البستان القديم البديع والحديقة المليئة بالغزلان، أو تتمشَّيا بمحاذاة النهر.

لكن سوزان لم تكن قد أتت بعد، فيما ارتدَتْ مارجريت ملابسها واستعدَّت للنزول إلى الطَّابق الأسفل. كانت تبدو صبيَّةً تمامًا صباحَ ذلك اليوم في فستانها البسيط المصنوع من الموصلين بحزام أزرقَ عريضٍ حول خصرها النحيف، والشَّال المتقاطع الأنيق الذي قد ثبَّتتْ به زهورًا قرمزية نضرة عند نهدها.

عبَرَت بسطة الدَّرَج الواقعةَ خارج جَناح غرفها، ووقفت ساكنةً للحظة عند أعلى الدرَج الفخم المصنوع من خشب البلُّوط، الذي كان يؤدي إلى الطَّابق السفلي. كان على يسارها جَناحُ غُرَف زوجها، التي لم تدخلها من قبلُ قَط تقريبًا.

كان الجَناح مكوَّنًا من غرفة نوم، وغرفة ملابس وغرفة استقبال، وفي أقصى نهاية بسطة الدرَج، كانت توجد غرفة مكتب صغيرة، ودائمًا ما كانت تظلُّ موصَدة عندما لا يستخدمها السير بيرسي. لم يكن يُسمَح لأحدٍ بدخولها أبدًا. لم تكترث مارجريت بذلك قَط، وبالطبع لم يجرؤ بقيةُ الخدم على كسر هذه القاعدة الصَّارمة.

وكثيرًا ما كانت مارجريت تُمازح زوجها بذلك الازدراء الودود، الذي كانت تُعامله به مؤخرًا، بشأن السرِّية التي تكتنفُ غرفة المكتب الخاصة به. فدائمًا ما كانت تقول ضاحكةً إنه يُبعِد كلَّ عيون المتطفِّلين بصرامةٍ عن معتكَفِه؛ لأنه يخشى أن يكتشفوا مدى ضآلة «المطالَعة» التي تحدثُ بين جدرانها الأربعة؛ حيث من المؤكَّد أنَّ أبرز قطعةِ أثاثٍ فيها هي كرسيٌّ مُريح ذو ذراعَين لأجل غفوات السير بيرسي الحُلوة.

خطر كلُّ ذلك ببال مارجريت في ذاك الصباح المشرق من شهر أكتوبر بينما كانت تُحدق بطول الدهليز. كان واضحًا أن فرانك مشغولٌ بغُرَف سيده؛ لأن أغلب الأبواب كانت مفتوحة، ومن بينها باب غرفة المكتب.

استولى عليها فضولٌ طفوليٌّ متَّقد لتختلسَ نظرةً إلى مُعتكَف السير بيرسي. لم تكن تلك القاعدةُ المانعة الصَّارمة تنطبق عليها بالطبع، وبالطبع لن يجرؤ فرانك على

معارضتها. لكنها مع ذلك كانت ترجو أن يكون الخادمُ مشغولًا في إحدى الغرف، لتتمكَّنَ من إلقاء نظرةٍ واحدةٍ خاطفة، سِرًّا وبلا مضايقة.

سارت عبر بسطة الدَّرَج بخفَّةٍ على أطراف أصابعها، وكزوجة «ذي اللحية الزرقاء»، كانت ترتجف بمزيجٍ من الانفعال والتعجب، وتوقفَت للحظة على العتبة مرتابةً ومحتارةً بغرابة.

كان الباب مواربًا، ولم تتمكَّن من رؤية أيِّ شيءٍ في الدَّاخل. دفعَت البابَ فاتحةً إيَّاه بتردُّد، ولم يكن يوجد صوتٌ في الغرفة؛ فمن الواضح أن فرانك لم يكن فيها؛ ولذا دخَلَتها بجُرأة.

دُهِشَت فورًا من البساطة الشديدة لكل شيءٍ حولها؛ فالستائر الدَّاكنة الثقيلة، والأثاث الثقيل المصنوع من خشب البلُّوط، والخريطة أو الخريطتان المعلَّقتان على الجدار، كلُّ هذا الأشياء لم تستحضر في ذهنها على الإطلاق صورةَ الرجل الكسول الاجتماعي الأنيق الذي يرتاد الحفلات الراقية، عاشِق سباقات الخيل، ورائد صيحات الأزياء المتأنِّق، فتلك كانت الصورةَ الظاهرية للسير بيرسي بليكني.

لم تكن توجد أيُّ علامةٍ في الغرفة تدل على المغادرة على عجَل. إذ كان كل شيءٍ في مكانه الصحيح، ولم تكن توجد أيُّ قصاصات ورقية متناثرة على الأرضية، ولا خِزانةٌ ولا دُرجٌ تُركا مفتوحَين. كانت الستائر مزاحة جانبًا وكان هواءُ الصباح المنعِشُ ينساب إلى الداخل من خلال النَّافذة المفتوحة.

وفي مواجَهة النافذة، في وسط الغرفة بالضبط، كان يوجد مكتبٌ عمَليٌّ ثقيل بدا كأنه مُستخدَمٌ بكثرة. وكانت توجد على الجدار، ناحيةَ اليسار من المكتب، صورةٌ كبيرة تمتدُّ من الأرض حتى السقف لامرأةٍ بالحجم الطبيعي، وكانت مؤطَّرةً بشكلٍ رائعٍ ومطليةً بعنايةٍ وممهورة باسم الرسَّام بوشيه. كانت تلك والدةَ بيرسي.

لم تكن مارجريت تعرف شيئًا عنها، باستثناء أنها تُوفِّيَت في الخارج معتلَّةَ الجسد والعقل، حين كان بيرسي لا يزال طفلًا. لا بد أنها كانت امرأةً جميلةً جدًّا يومًا ما، عندما رسمَها بوشيه، وبينما كانت مارجريت تنظر إلى الصورة، لم تستطع إلا أن تدهشَ من التشابُه العجيب الذي لا بد أنه كان موجودًا بين الأم والابن. إذ كان لديهما الجبين المربَّع المنخفض نفسُه، المتوَّجُ بشعرٍ فاتح كثيفٍ ناعمٍ وثقيل، والعينان الزرقاوان العميقتان أنفسُهما، النَّاعستان بعضَ الشيء تحت حاجِبَين مستقيمَين مُحدَّدَين بوضوح، وكانت تلك العينان تحملان الحِدة نفسَها خلف المظهر الكسول، والعاطفةَ الكامنة نفسَها التي كانت

تُضيء وجه بيرسي في الأيَّام الخوالي قبل زواجه، والتي استطاعت مارجريت ملاحظتَها فجر اليوم عندما كانت قريبةً منه وسمحت للمحة رقةٍ بأن تتسلَّل إلى صوتها.

تفحَّصَت مارجريت اللوحةَ لأنها أثارت اهتمامها، وبعد ذلك التفتَت ونظرَت مجددًا نحو الطَّاولة الثقيلة. كانت مُغطَّاةً بكومةٍ من الأوراق، كلها محزومةٌ بانتظام مُحكَمٍ ومزوَّدة بملصقات تُشير إلى محتوياتها، وكانت تبدو كسجِلَّاتِ حسابات وفواتيرَ منظمةٍ بطريقة مثالية. لم يخطر ببالِ مارجريت من قبلُ كيف كان السير بيرسي، الذي كان العالم كلُّه يعتقد أنَّه أبلهُ تمامًا، يُدير الثروة الهائلة التي تركَها له والدُه، ولم تجد قَط أنَّ الأمر يستحقُّ الاستفسار، مع الأسف!

كانت منذ أن دخلَت هذه الغرفة المُرتَّبة المنظَّمة قد شعرَت بذهولٍ شديد جدًّا، لدرجة أنَّ هذا الدليل الواضح على قدرات زوجها القوية في إدارة المال والأعمال لم يُصبها إلَّا بتعجُّب عابر. لكنه أيضًا عزَّز معرفتَها، التي صارت مؤكَّدةً الآن، بأنَّ تفاهاته الدنيوية وعاداته المتأنِّقة وكلامه الأحمق، لم تكن مجردَ قناع يرتديه، بل دَور مدروس يؤدِّيه متعمدًا.

تساءلت مارجريت مجددًا. لمَ يُكلف نفسه كلَّ هذا العناء؟ لماذا يرغب — وهو يبدو رجلًا رصينًا جادًّا بكل وضوح — في الظهور أمام بقية الناس على أنه شخص أبلهُ تافه؟

ربما كان يرغب في إخفاء حُبِّه لزوجته التي تُعامله بازدراء ... لكن من المؤكد أن هدفًا كهذا كان يمكن الحصول عليه بتضحيةٍ أقل، وبعناء أقلَّ بكثير من التمثيل الدَّائم المستمر لدورٍ مصطنَع.

بدأت تنظر حولها بلا هدفٍ مطلقًا الآن، كانت في حيرةٍ رهيبة، وبدأ يستحوذ عليها فزعٌ مجهول لا يُمكن وصفُه أمام كلِّ هذا الغموض غير القابل للتفسير. شعرت فجأةً بالبرد وعدم الرَّاحة في هذه الغرفة الكئيبة القاتمة. لم تكن توجد صورٌ على الجدران ما عدا لوحةَ بوشيه الجميلة، وخريطتين فقط، كِلتاهما لأجزاءٍ من فرنسا؛ إحداهما للسَّاحل الشمالي، والأخرى لضواحي باريس. تساءلَت عن غاية السير بيرسي من هاتين الخريطتين.

بدأ رأسها يؤلمها، وأدارَت ظهرها لتلك الغرفة الغريبة، التي تُشبه غُرفة «ذي اللحية الزرقاء»، بعدما دخلَتها ولم تفهمها. لم تكن تريد أن يراها فرانك هنا، وبنظرةٍ أخيرة حولها، التفتَت مرةً أخرى نحو الباب. ولكن بينما كانت تلتفتُ، اصطدمَت قدمُها بجسمٍ صغير يبدو أنه كان واقعًا على السجَّادة بالقُرب من المكتب، وكان يتدحرج الآن عبر الغرفة بعدما اصطدمَت به.

انحنَت لتلتقطه. كان خاتمًا ذَهبيًّا صُلبًا برأسٍ مسطحٍ، منقوش عليه شعارٌ صغير.

قلَّبته مارجريت بين أصابعها، وتفحصَت النقشَ الموجود على سطحه. كان يُمثل زهرةً نجمية كانت قد رأت شكلَها بوضوحٍ مرتَين من قبل: مرةً في الأوبرا، ومرةً في حفل اللورد جرينفل.

الفصل التاسع عشر

سكارليت بيمبرنيل

لم تستطع مارجريت نفسُها لاحقًا أن تُحدد اللحظة التي تسلَّل فيها الشكُّ الغريب إلى عقلها. ركَضَت خارجةً من الغرفة وهي تقبض على الخاتَم بقوةٍ في يدها ونزلَت الدَّرَج ومنه إلى الحديقة في الخارج، حيث استطاعت، في خلوة تامة، وحيدةً مع الزهور والنهر والطيور، أن تنظر إلى الخاتَم مجددًا وتتفحص الشعار عن قرب.

كانت جالسةً الآن تحت ظلِّ شجرة جميز متدليةٍ وهي تنظر ببلاهةٍ وبلادة إلى الرأس الذهبي المسطَّح المنقوش عليه شكل الزهرة النجمية.

عجبًا! كان هذا سخيفًا! كانت تحلم! كانت أعصابها مجهَدةً ورأت علاماتٍ وأسرارًا في أبسط الصُّدف. ألم يكن جميعُ مَن في البلدة يتعمَّدون مؤخرًا تقليدَ شعار سكارليت بيمبرنيل البطولي الغامض؟

ألم ترتدِه هي نفسُها مُطرَّزًا على ثوبها؟ ووضَعَته في شعرها ممثَّلًا بمجوهراتٍ وحُليٍّ زجاجية لامعة؟ فما وجه الغرابة في أن يكون السير بيرسي قد اختار استخدام الشعار كخاتم ختم؟ من الممكن أن يكون ببساطة قد فعل ذلك ... أجل ... بكل بساطة ... و... فوق ذلك ... أيُّ صلةٍ يمكن أن تكون بين زوجها المتغندر المتأنِّق، بثيابه الغالية وسلوكه الكَسول المهذَّب، وذاك المخطِّط الجريء الذي أنقذ ضحايا فرنسيين على مرأًى من قادة الثورة المتعطشة للدماء؟

كانت أفكارها تموج كدوَّامة، وكان عقلها فارغًا ... لم تكن تفهم أيَّ شيءٍ يحصل من حولها، وانتفضَت مفزوعةً تمامًا عندما ناداها صوتٌ شابٌّ عذبٌ عبر الحديقة.

«عزيزتي! عزيزتي! أين أنتِ؟» وجاءت سوزان الصغيرة راكضةً عبر البستان، نضرةً كبرعم زهرة، بعينين تتراقصان سرورًا، وشعرٍ بتموُّجات بُنيةٍ تُرفرف مع نسيم الصباح العليل.

مَضَت تُثرثر ببهجة: «أخبَروني بأنكِ في الحديقة»، ثم رمت بنفسها باندفاعٍ بناتي مُبهج إلى ذراعَي مارجريت، مُضيفةً: «لذا ركضتُ لأفاجئَكِ. لم تتوقَّعي وصولي بهذه السرعة، أليس كذلك يا عزيزتي الصغيرة مارجو؟»

أخفت مارجريت الخاتمَ في ثنايا منديلها، وحاولت أن تتجاوب بمرحٍ وخلو بالٍ مع اندفاع الفتاة الصغيرة.

قالت بابتسامة: «بالتأكيد يا حلوتي، مبهِج أن تكوني لي وحدي، وليومٍ كاملٍ طويلٍ جميل ... ألن تشعري بالملل؟»

«أوه! الملل! مارجو، كيف يُمكنك أن تقولي شيئًا سخيفًا كهذا. عجبًا! عندما كنا في الدير القديم العزيز معًا، دائمًا ما كنا نشعر بالسعادة عندما كان يُسمَح لنا بالبقاء معًا.»

«وتبادل الأسرار.»

تأبَّطت كِلتا الفتاتين ذراعَ الأخرى وبدأتا تتجولان في الحديقة.

قالت سوزان الصغيرة بحماس: «أوه! كم هو جميلٌ منزلكِ يا حبيبتي مارجو، وكم أنكِ سعيدةٌ بالتأكيد!»

قالت مارجريت بتنهيدةٍ ممزوجة بالحُزن والحنين: «أجل، بالتأكيد! من المفترض أن أكون سعيدة، أليس كذلك يا حلوتي؟»

«تقولين هذا بحزنٍ شديد يا عزيزتي. آه، حسنًا، أفترض أنه بعدما أصبحتِ امرأةً متزوجةً لن تعودي مهتمةً بتبادُل الأسرار معي. أوه! كم كان لدينا الكثيرُ والكثيرُ من الأسرار في المدرسة! هل تتذكَّرين؟ حتى إننا أخفينا بعضَها عن الأخت تيريزا من أكاديمية «هولي إنجلز»؛ مع أنها كانت لطيفةً جدًّا.»

قالت مارجريت بمرح: «والآن لديكِ سِرٌّ مهم جدًّا، هه أيتها الصغيرة؟ وستعترفين به لي حالًا.» وأضافت عندما رأت أن وجهَ سوزان الجميل الصغيرَ احمرَّ من الخجل: «لا، لا داعي إلى الاحمرار خجلًا يا عزيزتي. ربَّاه، لا يوجد ما تخجَلين منه! إنه رجلٌ حقيقي نبيل، وجديرٌ بأن تفخَري به حبيبًا و... زوجًا.»

ردَّت سوزان بنبرةٍ خافتة: «بالتأكيد يا عزيزتي لستُ خجلة، وأشعر بفخرٍ شديد جدًّا جدًّا لأنك تمدَحينه.» وأضافت مُفكِّرةً: «أظن أن أمي ستُوافق، وسأكون — أوه! — سعيدةً جدًّا، لكني بالطبع لن أفكر في شيءٍ حتى يُصبح والدي سالمًا ...»

اقشعرَّت مارجريت. والد سوزان! كونت تورناي! أحد أولئك الذين ستُصبح حياتهم في خطرٍ إن نجح شوفلان في كشفِ هُوية سكارليت بيمبرنيل.

كانت قد فهمت طَوال الوقت، من كلام الكونتيسة وكذلك من واحدٍ أو اثنين من أعضاء العصبة، أن قائدهم الغامضَ قد تعهَّد بشرفه بإحضار كونت تورناي الطريد سالمًا من فرنسا. وبينما واصلَت الصغيرة سوزان — التي لم تكن واعيةً بأيِّ شيء، سوى سرِّها الصغير المهم للغاية — ثرثرتَها، عادت أفكارُ مارجريت إلى أحداث الليلة الماضية.

الخطر المحدق بأرماند، تهديدات شوفلان، خياره القاسي الذي قبِلَته بعد تخييرها بين أمرَين أحلاهما مُر.

وبعد ذلك دورها هي في المسألة، الذي كان يفترض أن يُتوَّج في السَّاعة الواحدة صباحًا في غرفة عشاء اللورد جرينفل عندما كان موفَدُ الحكومة الفرنسية الوحشي سيتمكَّن أخيرًا من معرفة هُوية سكارليت بيمبرنيل، الذي تحدَّى جيشًا من الجواسيس علانيةً وانضمَّ بجُرأةٍ شديدة، وبدافع التسلية ليس إلَّا، إلى صفِّ أعداء فرنسا.

منذ ذلك الوقت لم تكن قد سمعت شيئًا من شوفلان. واستنتجَت أنه فشل، ومع ذلك لم تكن تشعر بالقلق على أرماند؛ لأن زوجها وعَدها بأنه سيكون سالمًا.

لكن الآن، وبينما كانت سوزان تُثرثر بمرح، هبط عليها رعبٌ فظيع فجأةً بشأن ما فعَلَته. صحيحٌ أنَّ شوفلان لم يُخبرها بأي شيء، لكنها تذكَّرَت كم كان ساخرًا وشريرًا عندما ودَّعَته بعد الحفل. هل كان قد اكتشف شيئًا حينَها؟ هل كان واضعًا خُططَه بالفعل للإمساك بذاك المخطِّط الجريء متلبسًا بالجُرم المشهود في فرنسا، وإرساله إلى المقصلة بلا تردد ولا تأخير؟

شعرَت مارجريت بغثيان من شدة الرعب، وقبضَت يدها بتشنُّج على الخاتم في فستانها.

توقفت سوزان عن سرد حكايتها الطويلة الشائقة، وقالت لها مؤنِّبة إيَّاها: «أنتِ لا تُصغين إليَّ يا عزيزتي.»

قالت مارجريت بجُهدٍ وهي تجبر نفسها على الابتسام: «لا، لا يا عزيزتي؛ أُصغي إليك بالتأكيد. أحبُّ سَماعك تتحدَّثين ... وسعادتكِ تجعلني مسرورةً جدًّا. لا تخافي إطلاقًا، سنجد طريقةً لإقناع أمِّكِ. السير أندرو فولكس إنجليزيٌّ نبيل؛ لديه المال والجاه، لن ترفض الكونتيسة منْحَ موافقتها. لكن ... الآن يا صغيرتي ... أخبريني ... ما آخِر أخبار والدكِ؟»

قالت سوزان بسعادةٍ شديدة: «أوه! أفضل ما يمكن أن نسمعه. جاء اللورد هاستينجز لزيارة أمي باكرًا صباح اليوم. قال إنَّ كل شئون أبي العزيز تسير على ما يُرام، ويمكننا أن نتوقع بثقةٍ وصولَه إلى إنجلترا في أقلَّ من أربعة أيَّام».

قالت مارجريت: «أجل»، بينما كانت مُحدِّقة بكلِّ اهتمام إلى شفتَي سوزان التي أضافت قائلةً ببهجة:

«أوه! ليس لدينا أيُّ قلق الآن! أنت لا تعلمين، يا عزيزتي، أن سكارليت بيمبرنيل العظيمَ النبيل ذاك قد ذهب بنفسه ليُنقذ أبي.» وأضافت سوزان متحمسة: «لقد ذهب يا عزيزتي ... ذهب بالفعل. كان في لندن صباح اليوم، وسيكون في كاليه ربما بحلول الغد ... حيث سيلتقي بأبي ... وحينها ... وحينها ...»

وقعَت الصدمة. كانت تتوقَّع ذلك طَوال الوقت، مع أنها حاولت طوال نصفِ الساعة الأخيرِ أن توهِم نفسها وتُضلل مخاوفَها. لقد ذهب إلى كاليه، وكان في لندن صباح اليوم ... هو ... سكارليت بيمبرنيل ... بيرسي بليكني ... زوجها ... الذي وشَتْ به إلى شوفلان الليلة الماضية.

بيرسي ... بيرسي ... زوجها ... هو سكارليت بيمبرنيل. أوه! كيف كانت عمياءَ إلى هذا الحد؟ فهمَت كلَّ شيءٍ الآن؛ كل شيءٍ دفعةً واحدة ... ذاك الدَّور المصطنَع الذي كان يُمثِّله، القناع الذي كان يرتديه ... ليخدع الجميع.

وكلُّ هذا من أجل التسلية والمشاغبة فقط! إنقاذ الرجال والنساء والأطفال من الموت، مثلَما يَفتِكُ رجالٌ آخَرون بالحيوانات ويقتلونها من أجل الإثارة وحبًّا في الفعل نفسِه ليس أكثر. لقد أراد الرجل العاطلُ الغنيُّ هدفًا لحياته؛ فتسلَّى، هو والمغامرون الشبابُ الذين انضمُّوا إليه تحت رايته، أشهُرًا، بالمخاطرة بحياتهم من أجل قلةٍ بريئة.

ربما كان ينوي أن يُخبرها في بداية زواجهما، ثم وصلت قصةُ ماركيز سان قرياقوس إلى مسامعه، فأعرضَ عنها فجأةً مُعتقدًا، بلا شك، أنها قد تخونه يومًا ما هو ورفاقه الذين أقسَموا على اتباعه؛ ولذا خدَعَها، كما خدع الجميع، بينما يَدين المئاتُ بحياتهم له الآن، وتَدين له عائلاتٌ كثيرة بالحياة والسعادة.

كان قناعُ المتأنِّق التَّافه جيدًا، وقد أتقن تمثيلَ الدور. لا عجب أن جواسيس شوفلان فَشِلوا في اكتشاف أنَّ ذاك الشخص الذي يبدو مغفلًا أبلهَ هو نفسه الرجل الذي حيَّر أذكى الجواسيس الفرنسيين، سواءٌ في فرنسا أو إنجلترا، بجُرأته المتهورة وبراعته الواسعة الحيلة. حتى في الليلة الماضية، عندما ذهب شوفلان إلى غرفة عشاء اللورد جرينفل للبحث عن سكارليت بيمبرنيل الجريء ذاك، لم يرَ سوى السير بيرسي بليكني الأبلَه التافه ذاك نائمًا بعُمق في ركن الأريكة.

هل استطاع عقلُه الداهية الفَطِن أن يُخمن السرَّ عندئذٍ؟ هنا يكمن كلُّ اللغز المُحيِّر الفظيع المروِّع. هل أرسلتْ مارجريت بليكني زوجَها إلى حتفه، عندما وَشَت بغريبٍ مجهولِ الاسم إلى مصيره لتُنقذ حياةَ أخيها؟

لا! لا! لا! وألف لا! بالتأكيد لا يُمكن أن يُوجِّه القدَر ضربةً كهذه؛ الطبيعة نفسُها ستتمرَّد، بالتأكيد كانت يدُها ستُشَلَّ عندما كانت ممسكةً بتلك القصاصة الورقية الصغيرة قبل ارتكابِ عملٍ مريعٍ وفظيعٍ جدًّا كهذا.

قالت سوزان، التي صارت تشعر بفزعٍ حقيقي؛ لأن لون مارجريت أصبح باهتًا وشاحبًا: «لكن ما هذا يا عزيزتي؟ هل أنتِ مريضةٌ يا مارجريت؟ ما الخطب؟»

تمتمَت كما لو كانت في حلم: «لا شيء، لا شيء يا طفلتي. انتظري لحظة ... دعيني أفكِّر ... أفكر! ... قلتِ إنَّ سكارليت بيمبرنيل قد ذهب اليوم ...؟»

«مارجريت، عزيزتي ما الخطب؟ أنت تُخيفينني. ...»

«قلتُ لك يا صغيرتي لا شيء ... لا شيء. لا بد أن أبقى وحدي دقيقة، و... يا عزيزتي ... قد أُضطرُّ إلى تقليصِ وقتنا معًا اليومَ. ربما أُضطر إلى الذهاب ... هل ستتفهَّمين؟»

«أفهم أن شيئًا ما قد حدث يا عزيزتي، وأنك تُريدين البقاءَ وحدكِ. لن أعيقكِ، لا تَشغَلي بالكِ بي. فخادمتي لوسيل لم تذهب بعد ... سنعود معًا ... لا تشغلي بالكِ بي.»

طَوَّقَت مارجريت بذراعيها باندفاعٍ. فمع أنها كانت صغيرة، شعرَت بحُزنِ صديقتها المؤلم، وباللباقة اللامتناهية لحنانها البناتي، لم تُحاول أن تتطفَّلَ على الموضوع، بل كانت مستعدَّةً للانسحاب من تِلْقاء نفسِها.

قبَّلَت مارجريت مِرارًا، ثم مشَت حزينةً عائدةً عَبر المَرجة. لم تتحرَّك مارجريت، بقيَت هناك تُفكِّر ... متسائلةً عمَّا ينبغي فعلُه.

وحالما كانت سوزان الصغيرة على وشك صعود درَجات الشُّرفة، وصل راكضًا سائسٌ من عند ناصية المنزل نحو سيدتِه. كان يحمل في يده رسالةً مختومةً بالشمع. استدارَت سوزان غريزيًا؛ إذ أخبرها قلبُها بأن الرسالة تحوي أخبارًا سيئة أخرى لصديقتها، شعرت بأن مارجو المسكينة لم تكن في حالةٍ تسمح لها بتحمُّل المزيد.

وقف السَّائس باحترامٍ بجانب سيدته، ثم سلمَها الرسالة المغلقة.

سألت مارجريت: «ما هذه؟»

«أوصلها ساعٍ للتو يا سيدتي.»

أخذت مارجريت الرسالةَ بتلقائيةٍ آليَّة، وقلَّبَتها بين أصابعها المرتجفة.

قالت: «مَن أرسلها؟»

أجاب السَّائس: «قال السَّاعي يا سيدتي إنَّ الأوامر التي تلقَّاها كانت تقضي بإيصال هذه، وإنَّ سيادتكِ ستفهمين ممَّن جاءت.»

مزَّقَت مارجريت الظرفَ فاتحةً إيَّاه. كان حَدسُها قد أخبرها بالفعل بمحتوى الرسالة، ولم تُلقِ عليها سوى نظرةٍ خاطفة بطريقة آلية.

كانت تلك رسالةً من أرماند سان جوست إلى السير أندرو فولكس؛ الرسالة التي سرَقها جواسيسُ شوفلان في «استراحة صيَّاد السمك» والتي كان شوفلان يُهدِّدها بها؛ لإجبارها على طاعته.

الآن كان قد أوفى بوعدِه؛ أعاد إليها الرسالةَ التي تَفضح سانت جوست ... لأنه أصبح يسير في درب سكارليت بيمبرنيل.

تهاوَت حواسُّ مارجريت، شعرت بأن روحها تُغادر جسدها؛ ترنَّحَت وكانت ستسقط لولا ذراعُ سوزان التي أحاطت بخصرها. وبمجهودٍ جبَّار، تمالكَت نفسها مرة؛ فما زال يوجد الكثير الذي يتعيَّن فعله.

قالت للخادم بهدوءٍ شديد: «أحضِرْ ذاك السَّاعيَ إليَّ، لم يُغادر بعد؟»

«نعم، سيدتي.»

ذهب السَّائس والتفتَت مارجريت إلى سوزان.

«وأنتِ يا صغيرتي، اركُضي إلى الدَّاخل. أخبري لوسيل بأن تستعد. فأنا مع الأسف مضطرةٌ إلى إعادتكِ إلى البيت يا طفلتي. و... انتظري، أخبري إحدى الخادمات بأن تُجهز لي ثوبَ سفرٍ وعباءةً.»

لم تردَّ سوزان. قبَّلتْ مارجريت بحنانٍ وأطاعتها بلا كلمة؛ إذ كان لسانُ الصغيرة مُلجَمًا من هول البؤس الذي لا يوصَف الذي اعتلى وجْهَ صديقتها.

بعد دقيقة عاد السَّائس، ووراءه السَّاعي الذي كان قد أحضر الرسالة.

سألت مارجريت: «مَن أعطاك هذا الظرف؟»

أجاب الرجل: «سيدٌ نبيل مهذَّب يا سيدتي، في نُزل «الوردة والشوكة» مقابلَ محطة «تشارينج كروس». قال إنَّكِ ستفهمين.»

«في «الوردة والشوكة»؟ ماذا كان يفعل؟»

«كان في انتظار العربة التي قد أمَر بإحضارها يا سيدتي.»

«العرَبة؟»

«أجل يا سيدتي، أمر بإحضار عربةٍ خاصة. فهمتُ من تابعه أنه متوجهٌ مباشرةً إلى دوفر.»

«هذا يكفي، يمكنك الذَّهاب.» ثم التفتت نحو السَّائس قائلة: «جَهِّز عربتي وأسرَعَ أربعِ خيولٍ في الحظيرة حالًا.»

ذهب السَّائس والسَّاعي مسرِعَين للتنفيذ. وبقيَت مارجريت وحيدةً تمامًا واقفةً على المَرجة للحظةٍ. كان قوامُها الرشيق متصلبًا كتمثال، وعيناها ثابتتَين ويداها معقودتَين على صدرها بقوة، فيما كانت شفتاها تتحرَّكان مُتمتِمتَين بإلحاحٍ مثير للشفقة وفاطرٍ للقلب:

«ما العمل؟ ما العمل؟ أين أجدُه؟ أوه يا إلهي! امنحني البصيرة.»

لكن هذه لم تكن لحظةً مناسبةً للندم واليأس. لقد ارتكبَت — عن غير قصد — فعلةً رهيبة شنيعة؛ أبشع جريمة ارتكبتها امرأةٌ على الإطلاق في رأيها، كانت تراها بكلِّ ما فيها من رعب. بدا لها الآن أنَّ الغِشاوة التي كانت على بصيرتها، والتي منعتها من أن تَحزُر سرَّ زوجها، كانت بمثابة خطيئةٍ قاتلة أخرى. كان يجب أن تعرف! كان يجب أن تعرف!

كيف تخيَّلتْ أنَّ رجلًا أحبَّ بقوةٍ شديدةٍ كالتي أحبَّها بها بيرسي بليكني منذ البداية؛ كيف لرجلٍ كهذا أن يكون حقًّا بالحماقةِ والبلاهة اللتين اختار أن يتظاهرَ بهما؟ كان يجب أن تعرف هي على الأقلِّ أنه كان يرتدي قِناعًا، وبمعرفتها لذلك، كان ينبغي أن تخلعه عن وجهه متى كانا وحدهما.

كان حبُّها له ضئيلًا وهَشًّا، وتحطَّم بسهولةٍ بفعل كبريائها، وهي أيضًا كانت ترتدي قناعًا في تظاهُرِها بأنها تحتقرُه، في حين أنها في الحقيقة كانت قد أساءت فَهْمه تمامًا.

لكن لا وقتَ الآن لاسترجاع الماضي. لقد ارتكبَت خطيئةً بعَمى بصيرتها، والآن لا بد أن تُصلح ما أفسدَته، ليس بالندم الفارغ، بل بتصرُّفٍ فعليٍّ فوري ومفيد.

كان بيرسي قد انطلق إلى كاليه، غيرَ مدركٍ إطلاقًا أنَّ ألدَّ أعدائه يتعقَّبه. كان قد أبحرَ في وقتٍ باكر من صباح ذاك اليوم من جسر لندن. وإذا كانت الرياح مواتية، فمن المؤكد أنه سيكون في فرنسا خلالَ أربعٍ وعشرين ساعة؛ ولا شك أنه قد أخذ الرياح في حُسبانه واختار هذا الطريق.

أمَّا شوفلان، فسيُسافر مسرعًا إلى دوفر ويستأجر مركبًا هناك، وسيصل بالتأكيد إلى كاليه في الوقت نفسِه تقريبًا. وفي كاليه، من المُنتظر أن يلتقيَ بيرسي بكل أولئك المتلهِّفين

الذين ينتظرون سكارليت بيمبرنيل النبيلَ الجريء، الذي جاء لإنقاذهم من الموت الفظيع غير المُستحَق. ولكن في ظلِّ مراقبة شوفلان لكل تحركاته الآن، فإنَّ بيرسي لن يُعرِّض حياته هو فقط للخطر، بل حياة والد سوزان، كونت تورناي، وحياة أولئك المطارَدين الآخرين الذين ينتظرونه ويثقون به. وكذلك كان يوجد أرماند، الذي ذهب للقاء تورناي، مطمئنًّا بمعرفة أن سكارليت بيمبرنيل يعتني بسلامته.

كانت مصائرُ كل أولئك الناس، ومصيرُ زوجها، في يدِ مارجريت؛ لا بد أن تُنقذهم، إن كان من الممكن إتمامُ هذه المهمة بعزمٍ وبراعة بشَريَّين.

ولكن مع الأسف، لا تستطيع فعل كلِّ هذا وحدها. فعند وصولها إلى كاليه، لن تكون على درايةٍ بمكان زوجها، في حين أنَّ شوفلان، بسرقَته الأوراقَ في دوفر، كان قد حصل على خطٍّ سير الرحلة كلها. أرادت أن تُحذر بيرسي أولًا وقبل كل شيء.

صارت تعرفه الآن بما يكفي لتفهمَ أنه لن يتخلَّى عمَّن وثقوا به، ولن يهرب من الخطر ويترك كونت تورناي يقع في أيدي المتعطِّشين للدماء الذين لا يعرفون الرحمة. ولكن إن حُذِّر، فيمكنه أن يضع خُطةً جديدةً ويكون أكثرَ حذرًا وتأنيًا. ربما يقع في فخٍّ ماكرٍ إذا كان غافلًا مطمئنًّا؛ ولكن حالما يتلقى تحذيرًا، فربما قد ينجح.

وإذا فشل؛ إذا تبيَّن في الحقيقة أنَّ القدر، وشوفلان، بكل بما لديه من مواردَ وإمكاناتٍ تحت تصرُّفه، أقوى من المُخطط الجريء رغم كل شيء؛ فعلى الأقل ستكون هناك بجانبه عندئذٍ لتُواسيَه وتُعبِّر عن حبِّها له واعتزازها به، لتخدع الموتَ في النهاية بجعله يبدو حلوًا، إذا ماتا معًا، وهما متعانقان بحرارة، ومُفعَمان بالسعادة المطلقة بمعرفة أن العاطفة استجابَت للعاطفة، وأن سوء الفهم كله انتهى.

صار جسدها كله صُلبًا كأنما امتلأ بعزمٍ هائلٍ راسخ. هذا ما ستفعله إن أعطاها الربُّ الحيلة والقدرة. زالت النظرة الشاخصة من عينيها، وتوهَّجَتا بنارٍ داخليةٍ لمجرد التفكير في أنها ستلقاه مجددًا عمَّا قريب جدًّا، وسط أشدِّ الأخطار المميتة فتكًا، ولمعتا ببهجةِ مُشاطرته هذه الأخطارَ — ببهجة مساعدته ربما — وأنها ستكون معه في النهاية، إن فشلت.

أصبح الوجهُ الطفولي الحلو جامدًا وعازمًا، وأغلقت فمها المنحنيَ بإحكامٍ على أسنانها المطبقة. عقَدَت العزم على تحقيق غايتها أو الموت دونها، معه أو من أجله. وظهرَت بين حاجبيها المستقيمَين تقطيبةٌ تنمُّ عن إرادةٍ حديديةٍ وعزمٍ لا يَلين؛ إذ كانت قد وضَعَت خُططَها بالفعل. ستذهب لإيجاد السير أندرو فولكس أولًا؛ فهو صديقُ بيرسي المقرَّب،

وتذكَّرَت مارجريت بقُشَعريرةٍ في جسدها تلك الحماسة العمياء التي كان الشَّابُّ يتحدَّث بها دائمًا عن قائده الغامض.

سيُساعدها حيثما تحتاج إلى مساعدته؛ كانت عربتها جاهزة. ستُغيِّر ثيابها وتودِّع سوزان الصغيرة، ثم يمكنها أن تنطلق في طريقها.

وهكذا سارت بهدوءٍ إلى داخل المنزل، بلا استعجالٍ، ولكن بلا تردد.

الفصل العشرون

الصديق

بعد ذلك بأقلَّ من ساعة، كانت مارجريت جالسةً داخل العربة التي تحملها بسرعةٍ نحو لندن، غارقةً في أفكارها.

كانت قد ودَّعَت سوزان الصغيرة وداعًا مفعمًا بالمحبة، وشهدَت الطفلة تُغادر سالمةً في عربتها عائدةً إلى البلدة مع خادمتها. وأرسلت ساعيًا برسالة اعتذارٍ محترمةٍ إلى صاحب السمو، ترجوه تأجيلَ زيارته المبجَّلة بسبب عملٍ طارئٍ وعاجل، وساعيًا آخَر سبقها إلى فيفرشام لتجهيز خيلٍ نشطةٍ من أجل التبديل.

ثم غيَّرَت ثوبها المصنوعَ من الموصلين وارتدت زيًّا قاتمًا مخصَّصًا للسفر ووشاحًا، وأخذت ما تحتاج إليه من المال — إذ كان سخاءُ زوجِها يضعُ المال دائمًا تحت تصرفها بالكامل — وانطلقت في طريقها.

لم تُحاول خداع نفسها بأيِّ آمالٍ جوفاءَ عديمة الجدوى؛ فسلامة أخيها أرماند مشروطةٌ بالقبض الوشيك على سكارليت بيمبرنيل. وحيث إن شوفلان كان قد أعاد إليها الرسالة التي تفضح أرماند، فمن المؤكد أنه كان مقتنعًا تمامًا في قرارة نفسه بأن بيرسي بليكني هو الرجل الذي أقسمَ أن يقبض روحه.

لا! لم يكن يوجد مجالٌ لأيِّ أوهام حمقاء! بيرسي، الزوج الذي أحبَّتْه لشجاعته التي أثارَت إعجابَها بحرارة، كان في خطرٍ مميتٍ وشيك بسببها. كانت قد وشَت به إلى عدوِّه — صحيحٌ أن ذلك حدث دون قصد — لكنها كانت قد وشَت به بالفعل، وإن نجح شوفلان في نصبِ فخٍّ له وهو غير مُدركٍ حتى الآن للخطر المُحدق به، فستكون السببَ في موته. موته! في حين أنها مستعدةٌ للدفاع عنه بدماء قلبها، والتضحية بروحها عن طيبِ خاطرٍ من أجله.

كانت قد أمرَت بأن تأخذَها عربتُها إلى نُزل «التَّاج»؛ وحالما وصلَت، أمرَت سائق العربة بأن يُطعِم الخيل ويُريحها. ثم طلبَت مِحَفَّة، وحُمِلَت إلى المنزل في بال مول حيث كان يقطن السير أندرو فولكس.

من بينِ كل أصدقاء بيرسي الذين انضَوَوا تحت رايته الجسورة، شعرَت بأنها ستُفضِّل الإسرارَ إلى السير أندرو فولكس. فهو دائمًا ما كان صديقًا لها، وفوق ذلك، حُبُّه لسوزان الصغيرة الآن جعله أقربَ إليها من ذي قبل. وإن لم يكن في المنزل، أو ربما غادر من أجل خوض المهمَّة الجنونية مع بيرسي، حينها ستتَّصل باللورد هاستينجز أو اللورد توني؛ لأنها كانت تريد عونًا من أحد أولئك الشباب، وإلا فستكون عاجزةً بالفعل عن إنقاذ زوجها.

لكنَّ السير فولكس كان في المنزل، وقد أدخل خادمُه سيادتها فورًا. صعدَت الدرَج إلى غرف الشابِّ الأعزب المريحة، وأُخِذت إلى غرفة طعامٍ صغيرة لكنها مفروشةٌ بشكلٍ فاخر. وبعد لحظةٍ أو اثنتين، ظهر السير أندرو بنفسه.

كان واضحًا أنه فوجئ كثيرًا عندما سمع هُويةَ ضيفته؛ لأنه كان ينظر بقلقٍ — بل وارتياب — إلى مارجريت وهو يُقدم تحيته بانحناءةٍ مُتقنة أمامها، وفق متطلبات آداب الذوق الصَّارمة آنذاك.

كانت مارجريت قد نحَّت كلَّ آثار توترها جانبًا؛ إذ كانت هادئةً تمامًا، وبعدما ردَّت على الشَّاب بتحيةٍ متقَنة، استهلَّت كلامها بهدوء شديد:

«سير أندرو، لا أريد إضاعةَ الوقت الثمين في الكثير من الكلام، يجب أن تأخذ بعضَ الأشياء التي سأخبرك بها على أنها مؤكَّدة بلا أيِّ جدال. وهي ليست مهمَّة. بل المهم هو قائدك ورفاقك، سكارليت بيمبرنيل ... زوجي ... بيرسي بليكني ... إنه في خطرٍ مميت.»

إذا كانت تحمل أدنى شكٍّ في صحة استنتاجاتها قبل هذا اللقاء، فقد صارت متيقنةً تمامًا الآن؛ وذلك لأن السير أندرو ذَهِل تمامًا وأصبح شاحبًا جدًّا، وكان عاجزًا تمامًا عن أيِّ محاولةٍ لإبداء ردٍّ مُراوِغ ذكي.

تابعَت بهدوء: «لا يهم كيف عرَفتُ هذا يا سير أندرو، فحمدًا للرب أنني عرفت، وأنَّ أوان إنقاذه ربما لم يَفُت. مع الأسف لا أستطيع فعل هذا وأنا وحيدةٌ تمامًا؛ ولذا جئتُ إليك أطلب المساعدة.»

قال الشَّاب محاولًا الاستفاقةَ من الصدمة: «ليدي بليكني، أنا ...»

قاطعته: «هلَّا سمعتني أولًا؟ الوضع كالآتي. عندما سرقَ مُوفَدُ الحكومة الفرنسية أوراقكم تلك الليلةَ في دوفر، وجدَ بينها بعضَ الخطط التي ستُنفذونها أنتم أو قائدكم لإنقاذ كونت تورناي وآخرين. لقد سافر سكارليت بيمبرنيل — زوجي بيرسي — لتنفيذ هذه المهمة بنفسه اليوم. وشوفلان يعلم أنَّ سكارليت بيمبرنيل وبيرسي بليكني شخصٌ واحد. وسيتبعُه إلى كاليه، وهناك سيُمسك به. وتعرف كما أعرف المصيرَ الذي ينتظره على يد الحكومة الثورية الفرنسية. لن يُنقذه تدخلُ إنجلترا؛ ولا حتى تدخل الملك جورج نفسه. فروبسبيير وعصابته سيحرصون على أن يكون أوان التدخل قد فات. ليس هذا فحسب، بل إنَّ القائدَ الموثوق سيكون وسيلةً، بلا وعيٍ منه، للكشف عن مكانِ اختباء كونت تورناي وجميع أولئك الذين، حتى الآن، يضَعون آمالهم عليه.»

تحدَّثَت بهدوءٍ وعقلانية مجردةٍ من الانفعال وعزمٍ ثابتٍ لا يلين. كان هدفها أن تجعل ذلك الشَّابَّ يثق بها ويساعدها؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا بدونه.

كرَّر محاولًا كسْبَ الوقت للتفكير في أفضلِ ما يمكن فعله: «لا أفهم.»

«حقًّا! لكني أعتقدُ أنك تفهم يا سير أندرو. من المؤكد أنك تعلم أنني أقول الحقيقة. واجِه هذه الحقائق. بيرسي أبحر إلى كاليه، وأفترضُ أنه سَيرسُو في مكانٍ منعزلٍ من السَّاحل، وشوفلان يتعقَّبُه. لقد غادر مسرعًا إلى دوفر وسيعبر القنال الليلة على الأرجح. ما الذي سيحدث برأيك؟»

كان الشَّابُّ صامتًا.

«بيرسي سيصلُ إلى وجهته، غيرَ مدركٍ أنه مُلاحَق، وسيعثر على تورناي والبقية؛ من بينهم أرماند سان جوست أخي، سيعثر عليهم واحدًا تِلوَ الآخَر، وهو لا يعرف على الأرجح أن أثقَب عينين في العالم تُتابعان كلَّ تحركاته. وهكذا يكون قد وشى بأولئك الذين وثقوا به ثقةً تامة، وعندما لا يبقى شيءٌ يستفيدونه منه، ويكون على وشك العودة إلى إنجلترا مع أولئك الذين ذهب لإنقاذهم بشجاعة، ستُغلَق أبواب الفخِّ عليه وسيُرسَل إلى المقصلة لإنهاء حياته النبيلة.»

ظل السير أندرو صامتًا.

قالت بانفعالٍ عاطفي: «أنت لا تثق بي، أوه يا إلهي! ألا يمكنك أن ترى أنني جادةٌ كالموت؟» وأضافت بينما أمسكَت يداها الصغيرتان بكتفَي الشَّابِّ فجأةً مجبرةً إيَّاه على النظر مباشرةً في عينيها: «يا رجل، يا رجل. أخبرني، هل أبدو كأحقرِ شيءٍ على الأرض؛ امرأة يمكن أن تخون زوجها؟»

قال الشاب أخيرًا: «لا سمح الله أن أنسبَ إليكِ مثلَ هذه الدوافع الشريرة يا سيدة بليكني، لكن ...»

«لكن ماذا؟ ... أخبرني ... أسرِعْ يا رجل! ... حتى الثواني ثمينة!»

سأل بحزمٍ وهو يُحدِّق بتدقيقٍ إلى عينيها الزرقاوين: «هل ستُخبرينني يدُ مَن التي ساعدَت في إرشاد السيد شوفلان إلى المعلومات التي تقولين إنه يعرفها؟»

قالت بهدوء: «يدي، أعترفُ بذلك، لن أكذب عليك؛ لأنني أتمنى أن تثقَ بي تمامًا. لكن لم تكن لديَّ فكرة — كيف كان لي أن أعرف؟ — بشأن هُوية سكارليت بيمبرنيل ... وكانت سلامةُ أخي هي جائزتي إن نجَحتُ.»

«في مساعدة شوفلان في تتبُّع سكارليت بيمبرنيل؟»

أومأت إيجابًا.

«لا فائدة من إخبارك كيف أجبرني. أرماند أكثرُ من مجرد أخٍ لي، و... و... كيف كان لي أن أُخمِّن؟ ... لكننا نضيع الوقت هنا، يا سير أندرو ... كلُّ ثانيةٍ ثمينة ... أقسم بالرب! ... زوجي في خطر ... صديقك! رفيقك! ساعدني في أن أنقذه.»

شعر السير أندرو بأنه أصبح في موقفٍ صعب جدًّا. القسَم الذي أخذه على نفسه أمام قائده ورفيقه كان قسمًا يقتضي الطاعةَ والتزام السرية، ولكن من المؤكَّد أنَّ هذه المرأة الجميلة، التي تطلب منه أن يثقَ بها، جادةٌ وصادقة؛ ومن المؤكد كذلك أنَّ صديقه وقائده في خطرٍ وشيك و...

قال أخيرًا: «ليدي بليكني، يعلم الرب أنك حيَّرتِني، حتى إنني لا أعرف ما يتوجَّب عليَّ. أخبريني بما تُريدينني أن أفعل. يوجد تسعةَ عشر واحدًا منَّا مستعدون للتضحية بحياتهم من أجل سكارليت بيمبرنيل إن كان في خطر.»

قالت بطريقة جافة: «لا حاجة إلى حياة أحدٍ الآن يا صديقي، فبراعتي العقلية وأربعُ خيولٍ سريعة ستؤدي الغرضَ الضروري. لكن يجب أن أعرف أين يُمكنني أن أجدَه.» أضافت، وقد امتلأت عيناها بالدموع: «أصْغِ إليَّ، لقد أذللتُ نفسي أمامك، واعترفتُ بخطَئي لك، هل يجب أن أعترف بضعفي كذلك؟ أنا وزوجي كنا مُتجافيَين؛ لأنه لم يثِقْ بي، ولأنني كنتُ عمياء جدًّا لدرجةٍ أعجزَتني عن أن أفهم. لا بد أن تقر بأن الغطاء الذي عصَب به عينيَّ كان سميكًا جدًّا. فهل غريب أنني لم أرَ من خلاله؟ لكن الليلة الماضية، وبعد أن قُدتُه إلى خطرٍ مُميتٍ عن غيرِ قصد، زال عن عيني فجأةً. إن لم تُساعدني يا سير أندرو، فسأظلُّ أسعى جاهدةً إلى إنقاذ زوجي. سأبذل كلَّ قدرةٍ أملكها من أجله، لكنني قد أكون

عاجزة؛ لأنني قد أصلُ بعد فوات الأوان، وعندئذٍ لن يبقى لك شيءٌ سوى الندم طوالَ الحياة و... و... ولن يبقى لي سوى قلبٍ مفطور.»

قال الشَّاب وقد تأثَّر بالجدية اللطيفة النابعة من هذه السيدة الجميلة الرَّائعة: «لكن يا سيدة بليكني، هل تعلمين أنَّ ما تعتزمين فِعلَه هو عملُ الرجال؟ ... فلا يمكنكِ أن تُغادري إلى كاليه وحدكِ. ستُعرِّضين نفسكِ لأشدِّ المخاطرات المحتملة، وفرصك في إيجاد زوجك الآن — حتى لو أعطيتُكِ إرشاداتٍ دقيقةً جدًّا إلى مكانه — ضئيلةٌ للغاية.»

تمتمَت هامسةً: «أوه، أتمنى أن توجد مخاطرات! وأتمنى أن توجد أخطارٌ أيضًا! فلديَّ خطايا كثيرةٌ أُكفِّر عنها. لكنك مع الأسف قد تكون مخطئًا. فعيونُ شوفلان مُسلَّطةٌ عليكم كلكم؛ لذا لن يكاد يُلاحظني. أسرِع يا سير أندرو! ... العربةُ جاهزةٌ ولا توجد لحظةٌ لنُضيعها. لا بدَّ أن أصلَ إليه!» وكرَّرَت بهمةٍ تكاد تكون وحشية: «لا بد! لأُنبِّهه إلى أنَّ ذلك الرجل يتعقَّبُه. ألا يمكنك أن ترى ... ألا يمكنك أن ترى، إنني يجبُ أن أصل إليه ... حتى ... حتى إن كان أوان إنقاذه قد فات ... على الأقل ... لأكون بجانبه ... في النهاية.»

«ربَّاه يا سيدتي، يجب أن تأمريني. وبكل سرورٍ سأقدِّم أنا أو أيٌّ من رفاقي حياتَنا من أجل زوجكِ. أمَّا إن كنتِ ستذهبين بنفسكِ ...»

مدَّت يدها إليه: «لا يا صديقي، ألا ترى أنني سأُجنُّ إن تركتُك تذهب بدوني؟ هل ستثق بي؟»

قال ببساطة: «إني أنتظر أوامرك.»

«استمع إذن. عربتي جاهزة لأخذي إلى دوفر. هلَّا تبعتَني بأقصى سرعةٍ تملكها خيولك. سنلتقي بعد حلول الليل في «استراحة صيَّاد السمك». سيتجنَّبُها شوفلان، لأنه معروفٌ هناك، وأظن أنها آمَنُ مكان. سأقبل أن تُرافقني إلى كاليه بسرور ... فكما تقول، قد لا أستطيع الوصولَ إلى السير بيرسي مهما أعطيتَني من إرشاداتٍ دقيقةٍ إلى مكانه. سنستأجر مركبًا شراعيًّا في دوفر ونعبر خلال الليل. وستكون متنكرًا، إن لم يكن لديك مانع، على أنَّك خادمي، وبذلك لن يكتشف أمرك، على ما أظن.»

أجاب الشَّاب بجدية: «أنا كُلي في خدمتكِ يا سيدتي. أومِنُ، بإذن الرب، بأنكِ ستُبصرين مركب «داي دريم» قبل أن نصل إلى كاليه. فمع وجود شوفلان في أعقابه، كلُّ خطوةٍ يخطوها سكارليت بيمبرنيل على التراب الفرنسي محفوفةٌ بالخطر.»

«بمشيئة الرب يا سير أندرو. لكن الآن، سأودِّعُك. سنلتقي الليلةَ في دوفر! سيكون هذا سباقًا بيني وبين شوفلان عبر القنال الليلة، والجائزة هي حياةُ سكارليت بيمبرنيل.»

قبَّل يدَها ورافقها إلى مِحَفَّتها. وبعد رُبع ساعة كانت قد عادت إلى نزل «التَّاج» حيث كانت عربتُها وخيولها جاهزةً في انتظارها. وفي اللحظة التَّالية انطلقَت تهدر عبر شوارع لندن، ثم مباشرةً نحو طريق دوفر بسرعةٍ جنونية.

لم يكن لديها الآن وقتٌ لليأس. كانت منخرطةً في سعيٍ فِعلي، ولم يكن لديها متسع للتفكير. وبوجود السير أندرو فولكس رفيقًا وحليفًا لها، عاد الأمل يتَجدَّد في قلبها.

سيكون الربُّ رحيمًا. لن يسمح بارتكابِ جريمةٍ رهيبةٍ كهذه؛ بأن يموتَ رجلٌ شجاعٌ على يد المرأة التي تُحبه وتعشقه، والمستعدة بكلِّ سرور للتضحية بحياتها من أجله.

شرَدَت أفكار مارجريت مجددًا إليه، ذاك البطل الغامض الذي كانت تُحبه دائمًا بلا وعيٍ منها عندما كانت هُويَّته غيرَ معروفةٍ لها. والمضحِك أنها في تلك الأيَّام كانت تصفُه بأنه مَلِكُ فؤادها الغامض، والآن قد عرَفَت فجأةً أن ذلك الشخص الغامض الذي عشقَته، والرجل الذي أحبَّها بهُيام، شخصٌ واحد، فما العجب في أن بِضْع رُؤًى سعيدة قد بدأَتْ تُداعب خيالها؟ تساءلت متحيرةً عمَّا ستقوله له عندما يلتقيان وجهًا لوجهٍ لأول مرة.

كانت قد مرَّت بكَمٍّ هائل من القلق النفسي، وكمٍّ هائلٍ من الانفعال والإثارة خلال السَّاعات القليلة الماضية؛ لذا سمحَت لنفسها برفاهيةِ احتضان هذه التخيُّلات القليلة الأكثر إشراقًا وإثارةً للتفاؤل. وتدريجيًّا، عمِلَت قعقعةُ عجلات العربة، بصوتها الرتيب المتواصل، على تهدئة أعصابها، فأُغلِقت، لا إراديًّا، عيناها اللتان تؤلمانها من التعب والدموع الكثيرة المذروفة وغير المذروفة، وراحت في نومٍ مضطرب.

الفصل الحادي والعشرون

ترقُّب

وصلَت أخيرًا إلى «استراحة صيَّاد السمك» في وقتٍ متأخر ليلًا. قطعت المسافة كاملةً في أقلَّ من ثماني ساعات، بفضل تبديل الخيول مراتٍ لا تُعَد ولا تُحصى في مختلِف محطَّات العربات، التي دائمًا ما كانت تُنفق فيها بسخاءٍ، وبذلك كانت تحصل على أفضلِ وأسرع ما يمكن الحصولُ عليه.

وكذلك لم يعرف سائقُ عربتها الكلَل؛ فالوعد بإعطائه مكافأةً سخية خاصةً ساعد بلا شكٍّ في إبقائه نشطًا، وقد أشعل الأرضَ حرفيًّا تحت عجلات عربة سيدته.

أحدثَ وصولُ السيدة بليكني في منتصف الليل اضطرابًا كبيرًا في «استراحة صيَّاد السمك». إذ قفَزَت سالي من سريرها مسرعة، وكان السيد جيليباند يُحاول جاهدًا أن يهيئ وسائل الراحة لضيفته المهمة.

كان هذا الرجلُ الطيب وابنتُه الطيبة متمرِّسَين للغاية في التحلِّي بالآداب الخاصة بمالكي الأنْزال؛ لذا لم يُظهرا أيَّ دهشةٍ إزاءَ وصول السيدة بليكني، وحدها، في هذه السَّاعة الغريبة. من المؤكد أنَّ ما خَطَر ببالهما كان أكثرَ بكثير، لكن مارجريت كانت أشدَّ انهماكًا في أهمية رحلتها — أو جِدِّيتها المميتة بالأحرى — من أن تتوقَّف وتَشْغَل بالها بمثل هذه التفاهات.

كانت غرفةُ القهوة — مسرح الاعتداء الخسيس على السيدَين الإنجليزيَّين — خاليةً تمامًا. أعاد السيد جيليباند إضاءةَ المصباح في عُجالة، وسرعان ما أعاد إشعالَ جَذْوة مبهجة من النار في المدفأة الكبيرة، ثم سحَب كُرسيًّا مُريحًا إلى جوارها، فغاصت فيه مارجريت بامتنان.

سألتْها الآنسة سالي الجميلة التي كانت مشغولةً بوضعِ مفرشٍ أبيضَ كالثلج على المائدة استعدادًا لتقديمِ عشاءٍ بسيطٍ لسيادتها: «هل ستقضين الليلةَ هنا سيادتكِ؟»

أجابت مارجريت: «لا! ليس الليلة كلَّها. أيًّا كان الأمر، فلن أحتاج إلى غرفةٍ غير هذه إن كان يمكنني أن آخذها لي وحدي ساعةً أو اثنتَين.»

قال جيليباند الفاضل: «إنها تحت أمر سيادتكِ»، وكان وجهه المحمرُّ جامدًا تمامًا حتى في أضيقِ ثناياه؛ خشيةَ أن يَفضح الدهشةَ البالغة التي بدأ يشعر بها الرجلُ الفاضل أمام «صاحبة المكانة الاجتماعية العالية».

قالت مارجريت: «سأعبر القنال حالما يتحول المد، وفي أول مركبٍ شراعيٍّ يمكنني إيجادُه. لكن سائق العربة ورجالي سيبقَون هنا الليلة، وربما لعدة ليالٍ؛ لذا أرجو منك أن تجعلهم مرتاحين.»

«أجل سيدتي، سأعتني بهم. هل تُحضر لكِ سالي بعضَ الطعام للعشاء؟»

«أجل من فضلك، ضَع شيئًا باردًا على الطَّاولة، وحالما يأتي السير أندرو فولكس، أوصله إلى هنا.»

«أجل سيدتي.»

الآن صار الضيق واضحًا على وجه جيليباند الفاضلِ رغمًا عنه. كان يُكِنُّ احترامًا كبيرًا للسير بيرسي بليكني، ولم تُعجبه رؤية امرأتِه تهرب مع السير الشَّاب أندرو. صحيحٌ أنَّ ذلك لم يكن من شأنه، وأنَّ السيد جيليباند لم يكن من مُمارسي النميمة والحديث عن شئون الآخرين. لكنه تذكَّر، في أعماقه، أن سيادتها في نهاية المطاف مجرد واحدة من أولئك «الأجانب»، فما العجب في أن تكون بلا أخلاقٍ مثل بقيتهم؟

أضافت مارجريت: «لا تبقَ سهرانًا يا جيليباند الفاضل، ولا أنتِ كذلك يا آنسة سالي؛ فالسير أندرو قد يتأخَّر.»

كان جيليباند راغبًا بشدةٍ في أن تذهبَ سالي إلى سريرها. فقد بدأ يشمئزُّ بشدةٍ من هذا الوضع. لكنَّ الليدي بليكني ستدفعُ بسخاءٍ نظيرَ إقامتها، والأمر بالتأكيد ليس من شأنه.

أعَدَّت سالي عَشاءً خفيفًا من اللحم البارد، والنبيذ والفاكهة على الطَّاولة، ثم غادرَت بعد تأدية التحية باحترام، متسائلةً في عقلها الصغير عن السبب الذي يجعل سيادتها تبدو بهذه الجِدِّية بينما توشك على الهرب مع عشيقها.

ثم بدأت مدةُ الانتظار المملِّ لمارجريت. كانت تعرف أن السير أندرو — الذي يجب أن يتحصَّل لنفسه على ملابسِ خادمٍ مناسبة — لا يمكن أن يصل إلى دوفر إلا بعد ساعتَين على الأقل. صحيحٌ أنه كان فارسًا رائعًا بالتأكيد، وفي حالةٍ طارئةٍ كهذه سيستخفُّ بالأميال

السبعين الفاصلة بين لندن ودوفر. بل وسيُشعل الأرض حرفيًّا تحت حوافرِ حِصانه، لكنه قد لا يحصل على أحصنةٍ بديلةٍ جيدةٍ دائمًا، وفي كل الأحوال، لم يكن بإمكانه أن ينطلق من لندن إلا بعد ساعةٍ من مُغادرتها.

لم تكن قد رأتَ أثرًا لشوفلان على الطريق. وقال سائقُ عربتها، الذي سألته، إنه لم يرَ أحدًا يُطابق الوصف الذي أعطته إيَّاه سيدتُه عن الهيئة الضئيلة للفرنسي الصغير.

لذلك، من الواضح أنه كان متقدمًا عليها طوال الوقت. لم تجرؤ على سؤالِ النَّاس في الأنزال المختلفة التي كانوا يتوقفون فيها لتغييرِ الأحصنة. إذ خشِيَت أن يكون لشوفلان جواسيسُ على طول الطريق، وقد يصلُ سؤالها إلى مَسامعهم، فيَسبقونها ويحذرون عدوَّها من اقترابها.

كانت الآن تتساءل في أيِّ نُزلٍ قد يكون متوقفًا خلال رحلته، أو ما إن كان حظُّه الجيد قد أسعَفه لاستئجار مركبٍ بالفعل، وصار في طريقه إلى فرنسا الآن. قبضَت تلك الفكرةُ على قلبها كما لو كانت مِنْجَلَة من حديد. فإن صحَّ ذلك حقًّا، فسيكون الأوان قد فات بالفعل!

طغَت عليها الوحدةُ في الغرفة؛ فكلُّ شيءٍ فيها كان ساكنًا سكونًا رهيبًا، وكانت تكَّاتُ ساعة الجد — البطيئة والمنتظمة على نحوٍ بشع — هي الصوتَ الوحيد الذي كان يكسر هذه الوحدة الفظيعة.

كانت مارجريت بحاجة إلى كل طاقتها، وإلى كل ثباتها على مقصدها؛ للاحتفاظ بشجاعتها خلال هذا الانتظار المرهق بعد منتصف الليل.

لا بد أن جميعَ من في المنزل قد ناموا باستثنائها هي. كانت قد سمعت سالي تصعد إلى الطابَق العُلوي. وكان السيد جيليباند قد ذهب لتلبيةِ احتياجات سائق العربة ورجالها، ثم عاد وظلَّ واقفًا أسفلَ شُرفة الرِّواق في الخارج، تمامًا حيث كانت مارجريت قد قابلتْ شوفلان قبل أسبوع. من الواضح أنه كان بانتظار السير أندرو فولكس، ولكن سرعان ما غلَبه النعاس؛ لأنَّ مارجريت — زيادةً على صوت تكَّات السَّاعة البطيئة — سرعان ما استطاعَت أن تسمع الأصوات الرتيبة العذبة لشخير الرجل الفاضل.

صارت تُدرك الآن منذ بعض الوقت أن اليوم الأكتوبريَّ الدَّافئ الذي بدأ سعيدًا، تحوَّل إلى ليلٍ باردٍ وعاصف. كانت تشعر ببردٍ شديد، وكانت سعيدةً باللهب المبهِج في المدفأة، لكن تدريجيًّا ومع مرور الوقت، أصبح الجوُّ أشدَّ عصفًا، وكان صوت الأمواج المتكسرة على رصيف إدارة الشئون البحرية يصل إليها كضجيجِ رعدٍ مكتوم، مع أن الرصيف كان بعيدًا بعضَ الشيء عن النزل.

كانت الرياح تشتدُّ صخبًا، وهي ترجُّ النوافذ المدعمةَ بقضبان الرصاص وأبواب المنزل القديم الضخمة محدثةً قعقعةً، وتهزُّ الأشجار الموجودة في الخارج وتهدر عبر المدخنة الواسعة. تساءلت مارجريت عمَّا إن كانت الرياح ستكون مواتيةً لرحلتها. لم تكن تخشى العواصف، وكانت تُفضل تحدِّيَ أسوأ المخاطر على أن تؤخِّر الرحلة ولو ساعةً واحدة.

تيقظَّت من تأملاتها على صوتِ هَرْج مفاجئ في الخارج. كان من الواضح أنَّ ذلك هو السير أندرو فولكس، الذي وصل للتوِّ في عُجالةٍ جنونية؛ لأنها سمعَت حوافر حِصانه تَهْدِرُ على أحجار الرصُف في الخارج، ثم صوت السيد جيليباند النَّاعس والمبتهِج يُرحب به.

ثم للحظة، أدركَت مارجريت حَرَج موقفِها: وحدها في هذه السَّاعة، في مكانٍ يعرفونها فيه جيدًا، على موعدٍ مع فارسٍ شابٍّ معروفٍ بالقدْر نفسِه، ووصل متنكِّرًا! يا له من قوتٍ للنميمة لدى ذوي النيات الخبيثة!

كان الجانب الفكاهيُّ من تلك الفكرة هو ما خطر أساسًا ببال مارجريت؛ إذ كان يوجد تناقضٌ طريف بين جدِّية مُهمَّتِها، والتفسير الذي سيضعه السيد جيليباند الفاضل لأفعالها بطبيعة الحال؛ وذلك لأنَّ ابتسامةً صغيرةً بدأت تُداعب ثنايا فمِها الطفولي لأول مرةٍ منذ عدةِ ساعات، وعندما دخل السير أندرو غرفةَ القهوة بعد ذلك على الفور، وهو يكاد يكون عَصيًّا على تَعرُّف هُويته الحقيقية في ثوبه الشبيه بثياب الخَدَم، استطاعت أن تُحيِّيَه بضحكةٍ مبتهجةٍ تمامًا.

قالت: «ربَّاه! يا سيدي الخادم، أنا راضيةٌ عن مظهرك!»

دخل السيد جيليباند وراء السير أندرو وهو يبدو متحيرًا بغرابة. فتنكُّر الشَّاب الشهم قد أكَّد أسوأَ شكوكِه. انتزع غطاءَ زجاجة النبيذ، وجهز الكراسيَّ واستعدَّ للانتظار، دون أي ابتسامةٍ على وجهه البشوش.

قالت مارجريت وهي ما تزال تبتسمُ على الفكرة التي من المؤكد أن جيليباند الفاضلَ كان يُفكر فيها الآن: «شكرًا لك أيها الصديق الفاضل، لن نطلب شيئًا آخر؛ وخُذ هذه لأجل كل العناء الذي تكبَّدتَه بسببنا.»

سلَّمَت بضعَ عملات ذهبية لجيليباند الذي أخذها باحترامٍ، وامتنانٍ لائق.

قاطعَها السير أندرو بينما كان جيليباند يهمُّ بالمغادرة: «على رِسْلكِ يا ليدي بليكني، مع الأسف سنطلبُ شيئًا آخر من كرم ضيافة صديقي جيليباند. يؤسفني إخبارُكِ بأننا لن نتمكن من العبور الليلة.»

ردَّدَت بذهول: «لن نتمكَّن من العبور الليلة؟ ولكن لا بد أن نفعلها يا سير أندرو، لا بد! من المستحيل ألَّا نستطيع، ومهما تكُن التكلفة، يجب أن نجد مَركبًا الليلة.»

لكن الشَّاب هز رأسه نفيًا بحزن.

«يؤسفُني القول إن المشكلة لا تكمن في التكلفة يا ليدي بليكني. توجد عاصفةٌ سيئةٌ تهبُّ من فرنسا، والرياح معاكسةٌ لنا بعنادٍ تام، فلا يمكننا أن نُبحر إلى أن يتغير اتجاهها.»

أصبحَت مارجريت شاحبةً كالموتى. لم تكن تتوقَّع هذا. الطبيعة نفسُها تُفاجئها بخدعةٍ بشعة قاسية. بيرسي في خطر، ولا يمكنها أن تذهب إليه؛ لأنه تَصادَف أن الرياح تهب من ساحل فرنسا.

كرَّرَت بهِمَّة لَحوح غريبة: «لكن لا بد أن نذهب! ... لا بد! أنت تعرف أننا لا بد أن نذهب! ... ألا يمكنك أن تجد طريقة؟»

قال: «لقد ذهبتُ إلى السَّاحل بالفعل، وتحدثتُ مع بِضعة رَبَابِين. من المستحيل تمامًا أن نُبحر الليلة، هذا ما أكده لي كلُّ بحَّار.» وأضاف وهو ينظر نظرةً ذاتَ مغزًى إلى مارجريت: «لا أحد يُمكنه أن يخرج من دوفر الليلة.»

فهمَت مارجريت فورًا ما كان يقصده. فهذا يعني أنَّ الوضع ينطبقُ على شوفلان أيضًا كما ينطبق عليها. فأومأتْ بسرور لجيليباند.

قالت له: «حسنًا إذن لا بد أن أُذعن، هل لديك غرفةٌ لي؟»

«أوه، أجل سيادتك. غرفةٌ لطيفةٌ ساطعة الإضاءة وجيدة التهوية، سأتفقَّدُها فورًا. وتوجد واحدةٌ أخرى لأجل السير أندرو ... وكِلْتاهما جاهزةٌ تمامًا.»

قال السير أندرو بسرور، مُربتًا بقوةٍ على ظهر المضيف الفاضل: «هذا ممتازٌ يا جيلي الفاضل. افتح هاتَين الغرفتَين، واترك شموعنا هنا على الخِزانة. أراهن أنك تكاد تموت من شدة النُّعاس، وسيادتها لا بد أن تتناول العشاء قبل أن تخلد إلى النوم. اطمئن، لا تخشَ شيئًا يا صديقي يا صاحبَ الوجه الحزين؛ فزيارةُ سيادتها، حتى وإن كانت في هذا الوقت غيرِ المعتاد، شرفٌ كبير لمنزلك، والسير بيرسي بليكني سيُكافئك مكافأةً مضاعفة، إن اعتنيتَ جيدًا بخصوصيتها وراحتها.»

مما لا شك فيه أن السير أندرو كان قد خمَّن الشكوكَ والمخاوف المتضاربة الكثيرة التي كانت تموج بعنفٍ في رأس جيليباند الفاضل، ولأنه سيدٌ شهم، حاولَ بهذا التلميح الرائع أن يُهدِّئ بعضَ شكوك مالكِ النُّزل الفاضل. وشعر بالرضا عندما رأى أنه نجح

جُزئيًّا في ذلك. فأساريرُ وجه جيليباند المحمرِّ قد انفرَجَت قليلًا عند ذكر السير بيرسي بليكني.

قال بطريقةٍ متحمسة أقلَّ برودًا: «سأذهب لتفقُّدِها حالًا، هل لدى السيدة كلُّ ما تريد على العشاء؟»

«كل شيء، شكرًا لك يا صديقي الفاضل، وحيث إنني أكاد أموت من التعب، فأنا أرجوك أن تتفقَّد الغرف.»

قالت بلهفةٍ فورَ خروج جيليباند من الغرفة: «الآن أخبرني، أخبرني بكل ما لديك من أخبار.»

أجاب الشَّاب: «لا يوجد الكثيرُ لأخبرِكِ به يا ليدي بليكني سوى ما قلتُه بالفعل. العاصفة تجعل إبحارَ أيِّ مركب من دوفر في هذا المدِّ مستحيلًا. لكن ما بدا لكِ في البداية مِحنةً رهيبة هو في الحقيقة منحةٌ مُستترة. إن كنا لا نستطيع العبورَ إلى فرنسا الليلة، فشوفلان في المأزق نفسِه.»

«ربما يكون قد غادر قبل بدء العاصفة.»

قال السير أندرو بسرور: «أسأل الربَّ أن يكون قد فعل؛ لأنه عندئذٍ سيكون على الأرجح قد جُرف عن مَساره! ومَن يعلم؟ قد يكون مُمدَّدًا الآن في أعماق البحر؛ لأن عاصفةً هوجاء تحتدم، وستُلحِق الضرر بكلِّ المراكب الصغيرة التي يتصادف وجودها في عُرض البحر. لكننا مع الأسف لا نستطيع بناء آمالنا على تَحطُّم مركب ذاك الشيطان الماكر، وكل خططه المُهلِكة. فجميعُ البحَّارة الذين تحدَّثتُ معهم أكَّدوا لي أنَّ دوفر لم يخرج منها أيُّ مركب منذ عدةِ ساعات؛ ومن ناحية أخرى، تيقنتُ بنفسي من أن غريبًا قد وصل بعربةٍ بعد ظُهر اليوم، وأجرى، مثلي، بعضَ الاستفسارات عن العبور إلى فرنسا.»

«إذن فشوفلان ما يزال في دوفر؟»

«بلا شك. هل أذهب وأتربَّص به ثم أطعنُه بسيفي؟ فتلك حقًّا كانت الطريقة الأسرع للتخلُّص من المشكلة.»

«لا يا سير أندرو، لا تمزح! وا أسفاه! منذ الليلة الماضية، كثيرًا ما أجدُ نفسي أتمنى موتَ ذاك الشيطان. لكن ما تقترحه مستحيل! فقوانينُ هذا البلد تمنع القتل! فقط في فرنسا الجميلة تحدثُ تلك المذبحة الشَّاملة بشكلٍ قانوني، باسم الحرية والمحبة الأخوية.»

كان السير أندرو قد أقنعَها بالجلوس على الطَّاولة لِتُشاركه بعض العشاء وتشربَ القليل من النبيذ. كان من المؤكَّد أنَّ هذه الرَّاحة الإجبارية لمدة اثنتَي عشْرةَ ساعةً على

الأقل ستكون صعبةَ التحمُّل جدًّا في حالة الانفعال الشديد التي كانت تشعر بها. ولأنها كانت مطيعةً في مثل هذه الأمور كالأطفال، حاولت مارجريت أن تأكل وتشرب.

استطاع السير أندرو، بذلك التعاطف العميق الذي يولد داخلَ كلِّ العشَّاق، أن يمنحَها بعض السرور بالحديث عن زوجها. سرَد لها بعضًا من عمليات الهروب الجريئة التي دبَّرها سكارليت بيمبرنيل لأجل المطارَدين الفرنسيِّين المساكين، الذين كانت الثورةُ الدموية القاسية تضطرُّهم إلى الخروج من البلاد. وجعل عينَيها تلمعان بالحماسة عندما أخبرها عن شجاعته وبراعته وسَعة حيلته عندما تعلَّق الأمر بانتشال رجالٍ ونساء، بل وأطفال، من تحت نصل المقصلة القاتلة المستعدة دائمًا.

حتى إنه جعلها تبتسمُ بابتهاجٍ تام بإخبارها عن أزياءِ سكارليت بيمبرنيل التنكُّرية العديدة والعجيبة، التي استطاع من خلالها خداعَ أقوى الحراسات المُشددة التي فُرِضَت ضدَّه عند حواجز باريس. وفي المرة الأخيرة هذه، كان هروب كونتيسة تورناي وابنَيها تحفةً حقيقيَّة؛ إذ كان بليكني قد تنكَّر في هيئةِ امرأةٍ عجوزٍ فظيعة تعمل في السوق، وترتدي قُبعةً قذرة فوق شعرٍ رمادي أشعث، لدرجة أنَّ منظره كان قادرًا على إضحاكِ الآلهة.

ضحكَت مارجريت من قلبها بينما كان السير أندرو يُحاول وصفَ مظهر بليكني الذي كانت أشدُّ صعوباته تكمن دائمًا في طوله المرتفع، الذي جعل صعوبة التنكُّرِ في فرنسا مُضاعفَة.

وهكذا مضَت ساعة. وبقيَت ساعاتٌ كثيرة أخرى يتحتَّم إمضاؤها في خمول إجباري في دوفر. نهضت مارجريت عن الطَّاولة متنهدةً بنفادِ صبر. كانت تحمل برهبة هَمَّ الليلة التي ستمضيها في فراشها في الطابق العلوي، في معية أفكار قلقة للغاية تُلازمها وتجعل، هي وصوت عواء العاصفة، النوم يجافيها.

تساءلت أين هو بيرسي الآن. كان «داي دريم» مَركبًا بَحريًّا قويًّا متينَ البناء. وكان السير أندرو قد أعرب عن رأي مفاده أنَّه لا شك في أن المركب كان يبحر مع اتجاه الرياح قبل اندلاع العاصفة، أو أنه ربما لم يُغامر بالدخول في عُرض البحر إطلاقًا، بل كان راسيًا بهدوءٍ عند بلدة جريفسند.

كان بريجز رُبَّانًا خبيرًا، وكان السير بيرسي يستطيع التعامل مع المركب الشراعيِّ كأي بحَّارٍ بارع. لذا لم يكن يوجد خطرٌ عليهما من العاصفة.

كان الوقت قد تجاوزَ منتصف الليل بكثيرٍ عندما ذهبَت مارجريت إلى فِراشها لترتاح. وكما كانت تخشى، ظلَّ النومُ يجافيها بعناد. كانت أفكارُها حالكةَ السواد خلال هذه السَّاعات الطويلة المِلَّة، بينما احتدمت تلك العاصفة المتواصلة التي كانت تُبعدها عن بيرسي. آلم صوتُ الأمواج المتكسرة البعيدة قلبها وملأه حُزنًا. كانت في الحالة المزاجية التي يُحدِث فيها البحرُ تأثيرًا حزينًا في الأعصاب. فقط عندما نكون سعداء جدًّا، نستطيع مواصلةَ التحديق ببهجةٍ إلى سطح الماء الشاسع اللامتناهي، وهو يتموَّج باستمرارٍ دَءوبٍ ورَتابةٍ مُزعجة، ترافقه أفكارنا سواء أكانت قاتمةً أم بهِيجة. فعندما تكون بهيجة، يُردِّد الموج صدى بهجتها، ولكن عندما تكون حزينة، يبدو أن كل موجةٍ تجلب معها، وهي تتماوجُ، مزيدًا من الحزن، وتُخبرنا بأنَّ كل مَسرَّاتنا تافهةٌ وعديمة الفائدة.

الفصل الثاني والعشرون

كاليه

إنَّ أشدَّ الليالي مَللًا وإرهاقًا وأطولَ الأيام لا بد أن تنتهيَ حتمًا، عاجلًا أم آجِلًا.

كانت مارجريت قد أمضَت خمسَ عشْرةَ ساعةً في هذا العذاب الذهني الحادِّ حتى كادت تُجن. وبعد ليلةٍ بلا نوم، نهضَت مبكرًا، مفعمةً بحماس جامح، متلهفةً لبدايةِ رحلتها، هَلِعة من خشية أن تكون عقبات أخرى كامنةً في طريقها. نهضَت قبل أن يستيقظ أيُّ أحدٍ في المنزل، خائفة بشدة، خشية أن تفوتها الفرصةُ الذهبية الوحيدة للانطلاق.

عندما نزلَت إلى الطابق السُّفلي، وجدَت السير أندرو جالسًا في غرفة القهوة. كان قد نهض من فراشه قبلها بنصف الساعة، وقد ذهب إلى رصيف إدارة الشئون البحرية، ليجدَ أنَّه لا القارب الفرنسي ولا أي مركبٍ خاصٍّ مستأجَرٍ استطاع الخروجَ من دوفر بعد. كانت العاصفة حينها في ذروتها، وكان المدُّ يتحول، وإن لم تهدأ الريحُ أو يتغيَّر اتجاهُها، فقد يتعيَّن عليهما الانتظارُ مُجبرين عشر ساعات أو اثنتَي عشرة ساعةً أخرى حتى الارتفاع التالي للمد، قبل أن يستطيعا الانطلاق. ولم تكن العاصفة قد هدأت ولم يكن اتجاه الريح قد تغيَّر، وكان المد ينحسر بسرعة.

شعَرَت مارجريت بغثيانٍ من شدة اليأس عندما سمعَت الأخبار الكئيبة. ولولا شدة رسوخ عزيمتها، لانهارت تمامًا، وأجَّجَت قلقَ الشاب، الذي بدا بوضوح أنه كان قد صار منفعلًا جدًّا.

فمع أنه حاول إخفاء قلقِه، استطاعت مارجريت أن ترى أن السير أندرو كان قلقًا ومتلهفًا مِثلها تمامًا للوصول إلى رفيقه وصديقه. كان هذا التعطُّل الإجباري مريعًا على كِلَيهما.

لم تستطع مارجريت قَط لاحقًا أن تعرف كيف أمضَيا ذلك اليوم المُقلق في دوفر. كانت مرتعبةً من إظهار نفسها خشيةَ أن يكون أحدُ جواسيس شوفلان في الجوار؛ لذا أخذَت غرفةَ جلوسٍ خاصةً، وقعدَت فيها هي والسير أندرو ساعةً تلو الأخرى، مُحاوِلَين، على أوقاتٍ متباعدة، أن يتناولا بعضَ الوجبات الروتينية التي كانت سالي الصغيرةُ تجلبها إليهما، دون أن يفعلا شيئًا سوى التفكيرِ والتخمين، ولِمامًا فقط التمنِّي.

هدأَت العاصفة بعد فوات الأوان؛ إذ كان المدُّ حينئذٍ أشدَّ انحسارًا من أن يستطيع أيُّ مركبٍ الإبحار. كانت الريح قد تغيرت وأخذت تستقرُّ حتى صارت نسيمًا شماليًّا غربيًّا، هبةٌ حقيقية من الربِّ لعبورٍ سريعٍ إلى فرنسا.

وبقي هذان الاثنان منتظرَين، وهما يتساءلان عمَّا إن كانت السَّاعة التي سينطلقان فيها أخيرًا، ستأتي أصلًا. لم يكن في هذا اليوم المملِّ سوى فترةٍ واحدة سعيدة، وذلك عندما ذهب السير أندرو إلى الرصيف مجددًا وعاد توًّا ليُخبر مارجريت بأنه قد استأجر مركبًا سريعًا ذا ربَّان مستعدٍّ للإبحار حالما يُصبح المدُّ مواتيًا.

ومن تلك اللحظة، بدَت السَّاعات أقلَّ مللًا، وصار الانتظار أقلَّ يأسًا، وأخيرًا، في السَّاعة الخامسة مساءً، وصلت مارجريت إلى الرصيف، متَّشحةً بحجابٍ مُحكَمٍ على وجهها، ويتبعها السير أندرو فولكس، الذي كان، متنكِّرًا على أنه خادمُها، يحمل عددًا من الأمتعة.

وحالما صعدَت على متن المركب، الذي كان يُسمَّى «فوم كريست»، أنعشَها هواءُ البحر النقيُّ اللاذع، وكان النسيم قويًّا كفايةً لأن ينفخ أشرعة المركب بينما كان يشقُّ طريقه بخفة نحو عُرض البحر.

كان غروب الشمس رائعًا بعد العاصفة، وبينما كانت مارجريت تراقب جرُوفَ دوفر البيضاءَ تختفي شيئًا فشيئًا عن الأنظار، صارت روحها أهدأَ، وعاد إليها ما يشبه التفاؤلُ.

كان السير أندرو يَفيض بالاهتمام اللطيف، وشعرَت بأنها محظوظةٌ جدًّا لأنها تحظى بصحبته في محنتها العظيمة هذه.

وشيئًا فشيئًا بدأ شاطئُ فرنسا الرمادي يظهر من خلال ضباب المساء الآخذ في التجمع سريعًا. كان يمكن رؤيةُ بضعة أضواءٍ وامضة، وبرز العديد من قمم الكنائس المستدقَّة وسط الضباب المحيط بها.

وبعد نصف ساعة، رسا المركب، وعلى متنه مارجريت، على الشاطئ الفرنسي. عادت إلى ذلك البلد حيث كان الرجالُ في نفس هذه اللحظة عاكفين على ذبح المئات من إخوتهم البشر، وإرسال النساء والأطفال بالآلاف إلى القالَب الحجريِّ المخصص لقطع الرءوس.

كان منظر البلد نفسه ومنظر شعبه، حتى في هذه البلدة الشَّاطئية البعيدة، يُعبِّر عن تلك الثورة المتأججة، على بُعد ثلاثمائة ميل في باريس الجميلة، التي أصبحَت الآن بشعةً جراء التدفُّق المستمر لدماء أبنائها النبلاء، ونحيبِ الأرامل وبكاء الأطفال اليتامى.

كان جميعُ الرجال يرتدون قُبعاتٍ حمراء — بمستوياتٍ مختلفةٍ من النظافة — لكنهم كلَّهم كانوا يحملون الشارةَ الدائرية الثلاثية الألوان مُثبَّتةً على جانبهم الأيسر. ولاحظَت مارجريت بقُشَعريرةٍ أن وجوه أبناء بلادها لم تَعُد بَشوشة كالمعتاد، بل صارت تعلوها نظرةُ ارتيابٍ خبيثةٌ باستمرار.

كان كلُّ رجلٍ في هذه الأيَّام جاسوسًا على رفاقه؛ فحتى أبسط كلمة تُقال على سبيل المزاح يمكن في أي وقت أن تُقدَّم دليلًا على الميول الأرستقراطية أو على التآمر على الشعب. حتى النساء كنَّ يتجوَّلْن في الأنحاء بنظراتٍ فضولية مرتعبةٍ، وكراهيةٍ متربصةٍ في عيونهن البنية؛ ونظر الجميع إلى مارجريت عندما وطِئَت الشَّاطئ، متبوعةً بالسير أندرو، وهمسوا عند مرورها بجانبهم: «أرستقراطيون ملاعين!» أو «إنجليز ملاعين!»

عدا هذا، لم يُثِر وجودهما أيَّ تعليقٍ آخر. كانت كاليه، حتى في تلك الأيَّام، على اتصالٍ دائم بإنجلترا من أجل الأعمال التجارية، وكثيرًا ما كان التجارُ الإنجليز يُرَوْن على هذا الساحل. كان من المعروف، في ظل رسوم الجمارك الباهظة في إنجلترا، أنَّ كميات كبيرةً من النبيذ والبراندي الفرنسيَّين تُهرَّب عبر القنال. وأسعدَ هذا كثيرًا البورجوازيين الفرنسيين؛ لأنهم كانوا يُحبون أن يروا الحكومة الإنجليزية والملك الإنجليزي، اللذَين كانوا يكرهونهما، يُحرَمان بهذه الحيل الملتويةِ من إيراداتهما المشروعة؛ ودائمًا ما كان أيُّ مُهرِّب إنجليزي ضيفًا مرحَّبًا به في حانات كاليه وبولوني.

لذا ففي حين كان السير أندرو يقود مارجريت رويدًا رويدًا عبر شوارع كاليه المتعرِّجة، ربما ظنَّ كثيرٌ من السكَّان، الذين كانوا يلتفتون بحدَّةٍ لينظروا إلى الغريبَين المتشحَين بالثياب الإنجليزية، أنهما كانا عازمَين على شراء بضائع خاضعة للرسوم الجمركية لبلادهم المكسوة بالضباب، واكتفوا بنظرةٍ عابرة إليهما.

لكنَّ مارجريت تساءلَت كيف كان زوجها ذو القامة الطويلة الضخمة يستطيع المرورَ من كاليه دون أن يُلاحظه أحد، وتعجَّبَت متسائلةً أيُّ تنكرٍ هذا الذي كان يتخذه ليُؤدِّيَ عمله النبيل دون أن يثير كثيرًا من الانتباه.

كان السير أندرو يقودها عبر البلدة، دون أن يتبادلا أكثرَ من بضع كلمات، إلى الجهة الأخرى المقابلة للجانب الذي رسا بهما المركب عنده، وعلى الطريق المؤدِّي إلى «رأس جريس نيز». كانت الشوارع ضيقةً ومتعرجةً تفوح منها رائحةٌ بشعة جدًّا؛ مزيجٌ من روائح السمك المتعفِّن والأقْبِيَة الرطْبة. كانت السماء قد أمطرَت بغزارةٍ هنا خلال العاصفة يوم أمس، وأحيانًا كانت قدمُ مارجريت تغوص في الوحل حتى الكاحل؛ لأن الطرق لم تكن مُضاءةً باستثناء بضعِ ومضات عابرةٍ من حين إلى آخر من المصابيح الموجودة داخل المنازل.

لكنها لم تحفل بأيٍّ من هذه المَشَاقِّ التَّافهة؛ إذ كان السير أندرو قد قال عندما رسا المركب بهما: «ربما نلتقي ببليكني في نُزُل «القط الرمادي»»، فكانت تمشي كأنها على سجَّادةٍ من بتلات الورد؛ لأنها كانت ستلتقي بزوجها قريبًا.

أخيرًا وصَلا إلى وجهتِهما. كان من الواضح أن السير أندرو يعرف المكان؛ لأنه سارَ في الظلام بلا أخطاء ولم يسأل أحدًا عن الطريق. كان المكان عندئذٍ أشدَّ ظلامًا من أن تستطيع مارجريت ملاحظةَ واجهة هذا المنزل. كان «القط الرمادي»، كما سمَّاه السير أندرو، نُزُلًا صغيرًا على جانب الطريق عند ضواحي كاليه وعلى الطريق المؤدِّي إلى رأس جريس نيز. وكان يقع على مسافةٍ كبيرة من السَّاحل، لأن صوتَ البحر كان يبدو قادمًا من بعيد.

طرَقَ السير أندرو الباب بمقبض عصاه، فسمعَت مارجريت صوتًا أشبهَ بنخرةٍ منزعجة وعددًا من اللعنات من الداخل. طرَق السير أندرو البابَ مجددًا بطريقةٍ أشدَّ إلزامًا، فسُمِعَت المزيدُ من اللعنات، ثم بدا أنَّ أحدًا يقترب من الباب بخطواتٍ متثاقلةٍ وهو يُجرجر قدميه. بعد قليل فُتِح الباب، ووجدَت مارجريت نفسَها أمام أقذر الغرف التي رأتها في حياتها وأكثرِها تهالكًا.

كان ورقُ الجدران، في حالته الرديئة التي كان عليها، يتدلَّى من الحوائط في شرائط؛ ولم تكن توجد قطعةُ أثاثٍ واحدة في الغرفة يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يُطلق عليها «سليمة». فأغلب الكراسيِّ كانت مكسورةَ الظهر أو بلا مقاعد، فيما كانت إحدى زوايا الطَّاولة مسنودةً بحُزمةٍ من العِصيِّ لأن ساقها الرَّابعة كانت مكسورة.

كان يوجد موقدٌ ضخم في أحد أركان الغرفة، وكان يتدلَّى فوقه قِدرٌ تتصاعد منه رائحةُ حساء ساخن ليست كريهةً جدًّا. وفي أحد جوانب الغرفة، على ارتفاعٍ عالٍ في الجدار، كان يوجد مكانٌ أشبه بغرفة عُلوية، مُعلَّقة أمامها ستارةٌ ممزقةٌ ذات مربَّعاتٍ بيضاءَ وزرقاء. وكان يوجد أسفلها دَرَج متهالك يؤدي إليها.

وعلى الحوائط العارية الكبيرة التي كانت كلُّها، بورقها العديم اللون، ملطَّخةً بقذاراتٍ متنوِّعة، كان مكتوبًا بالطبشور بحروفٍ عريضة كبيرة على مسافاتٍ متباعدة: «الحرية – المساواة – الإخاء».

وكان كلُّ هذا المسكن القذر مُضاءً بضوءٍ خافتٍ من مصباحٍ زيتيٍّ كريهِ الرائحة، يتدلَّى من عوارض السقف المتهالكة. كان المسكن كلُّه يبدو متَّسخًا وقذرًا ومُنفِّرًا إلى حدٍّ فظيع، لدرجة أنَّ مارجريت لم تكَدْ تجرؤ على تجاوُز العتبة.

غير أنَّ السير أندرو كان قد تقدَّم إلى الدَّاخل بلا تردُّد.

قال بجُرأةٍ متحدثًا بالفرنسية: «مسافرون إنجليز أيها المواطن!»

كان الشخص الذي جاء إلى الباب ردًّا على طَرْق السير أندرو، والذي يُفترض على الأرجح أنه صاحبُ هذا المسكن القذر، شيخًا قرَويًّا متينَ البُنيان، وكان مكتسيًا بقميصٍ أزرق متَّسِخ، ومنتعِلًا نعلًا ثقيلًا كانت عيدانُ القش بارزةً من كل جوانبه، ومرتديًا بنطالًا أزرقَ مهترئًا، والقبَّعة الحمراء الحتمية ذات الشارة الدائرية الثلاثية الألوان، التي كانت تُعبر عن آرائه السياسية الحاليَّة. كان يحمل غليونًا خشَبيًّا قصيرًا تنبعث منه رائحةُ تبغٍ قويةٌ كريهة. نظر إلى المسافِرَين بارتيابٍ وقدرٍ كبيرٍ من الازدراء، وتمتمَ قائلًا: «إنجليز مَلاعيييين!» وبصَق على الأرض ليُظهر مزيدًا من استقلاليةِ روحه، لكنه مع ذلك تنحَّى جانبًا ليسمح لهما بالدخول؛ إذ كان يعي جيدًا بلا شكٍّ أن هؤلاء «الإنجليز الملاعيييين» أنفسَهم دائمًا ما يحملون محفظاتٍ مَلْأى بالنقود.

قالت مارجريت وهي تدخل الغرفة واضعةً مِنديلَها على أنفها الدقيق: «أوه يا ربي! يا له من مكان خَرِبٍ مُريع! متأكدٌ أن هذا هو المكان؟»

ردَّ الشَّاب وهو ينفض، بمنديله العصريِّ الأنيق المحاط بحافاتٍ من الدَّانتيل، الغبارَ عن كرسيٍّ لتجلس عليه مارجريت: «أجل! إنه المكان بالتأكيد؛ لكني أُقسم أنني لم أرَ مكانًا أحقر منه في حياتي.»

قالت وهي تنظر حولها ببعض الفضول وبكثيرٍ من الرعب نحو الحوائط المهترئة، والكراسيِّ المحطمة، والطَّاولة المتداعية: «ربَّاه! لا يبدو جذابًا بالتأكيد.»

لم يُبدِ صاحبُ «القط الرمادي» — واسمه بروجار — مزيدًا من الاهتمام بضيفَيه؛ إذ استنتج أنهما سيطلبان العشاءَ الآن، وإبان تلك المدَّة الزمنية، لم يكن يمكن لمواطنٍ حُر أن يُظهر إذعانًا مُبجِّلًا، ولا حتى سلوكًا مهذَّبًا، لأحدٍ مهما كان مَلبسُه أنيقًا.

كان يجلس أمام الموقد جسدٌ مكوَّم يبدو مكتسيًا بثيابٍ أغلبُها أسمالٌ بالية، وكان جسدَ امرأةٍ على ما يبدو، مع أنه كان من الصعب تمييزُ ذلك، لولا القبعةُ التي كانت بيضاءَ يومًا ما، والثوب الذي يُشبه الملابس النسائية. كانت جالسةً تُغمغم لنفسها وتقلب الحساء في القدر من وقتٍ إلى آخر.

قال السير أندرو أخيرًا: «اسمع، يا صديقي! نريد بعض العشاء ...» وأضاف مشيرًا إلى صُرَّة الأسمال المتكوِّمة بجوار الموقد: «أنا متيقنٌ من أن تلك المواطنة هناك تُحضِّر حساءً لذيذًا، وسيدتي لم تذُق الطعام منذ عدة ساعات.»

استغرق بروجار عدة لحظات قبل أن يُبدِيَ اكتراثًا بطلبه. فالمواطن الحرُّ لا يستجيب بسهولةٍ بالغةٍ لرغبات أولئك الذين يتصادف أن يطلبوا شيئًا منه.

تمتمَ قائلًا: «أرستقراطيون مَلاعين!» وبصق على الأرض مرةً أخرى.

ثم توجَّه ببُطءٍ شديدٍ نحو خِزانةٍ موجودة في أحد أركان الغرفة، وأخذ منها سلطانيةَ حساءٍ قديمةً مصنوعة من البيوتر، ثم سلَّمَها، ببطءٍ ودون كلمة، إلى زوجته التي بدأت، بالصمت نفسِه، تملأ السلطانية بالحساء من قِدْر المرق.

راقبَت مارجريت كلَّ هذه التحضيرات برعبٍ تام، ولولا جدِّيةُ مقصدها، لَهُرِعَت هاربةً من هذا المسكن القذر ذي الرَّائحة الكريهة.

قال السير أندرو وقد رأى نظرةَ الرعب على وجه مارجريت: «ربَّاه! مضيفنا ومضيفتنا ليسا بَشوشَين. كنت أتمنى أن أقدم لكِ وجبةً أشهى طعمًا وأكثرَ إشباعًا ... لكني أظن أنك ستجدين الحساء مقبولًا والنبيذَ جيدًا، فهؤلاء النَّاس مُمرَّغون في القذارة لكنهم عادةً ما يعيشون عيشةً جيدة.»

قالت بلُطف: «لا، أرجوك يا سير أندرو، لا تَشغل بالك بي. فعقلي ليس ميَّالًا إلى التفكير في العشاء إطلاقًا.»

كان بروجار مُستمرًّا ببُطءٍ في تحضيراته المروعة؛ إذ وضع زوجَين من الملاعق وكأسَين على الطَّاولة، وقد مسح السير أندرو الملاعقَ والكئوسَ جيدًا على سبيل الاحتياط.

وكان بروجار قد أخرج أيضًا زجاجةً من النبيذ وبعض الخبز، وبذلتْ مارجريت جهدًا في سحب كرسيِّها إلى المائدة والتظاهر بأنها تأكل. أما السير أندرو، فوقف خلف كرسيِّها متقمصًا دورَه كخادم.

وبعدما رأى أن مارجريت غيرُ قادرةٍ على الأكل إطلاقًا، قال: «لا، يا سيدتي أرجوكِ، أتوسَّل إليكِ أن تُحاولي ابتلاعَ بعض الطعام؛ تذكَّري أنكِ تحتاجين إلى قوَّتِك كلِّها.»

من المؤكد أن الحساء لم يكن سيئًا، فطعمُه ورائحته كانا جيدَين. ربما كانت مارجريت ستتلذَّذ به لولا فظاعةُ المكان المحيط بها. لكنها، على أي حال، كسرَت الخبز وشربَت بعض النبيذ.

قالت: «لا، يا سير أندرو، لا أحبُّ أن أراك واقفًا. إنك تحتاج إلى الطعام بقدرِ ما أحتاج إليه. إذا جلستَ بجواري وشاركتَني العشاء، فلن يخطر ببال هذا المخلوق شيءٌ سوى أنني امرأةٌ إنجليزية منحرفة تهرب مع خادمها الذي تعشقه.»

وفي الحقيقة، فإنَّ بروجار، بعدما اكتفى بوضع الضروريات اللازمة على المائدة، بدا أنه لا يولي ضيفَيه أي قدر آخر من الاهتمام. كانت السيدة بروجار قد خرَجَت بهدوءٍ من الغرفة بأقدام متثاقلة، فيما وقف الرجل وظلَّ يتلكَّأ في أرجاء الغرفة مُدخِّنًا غليونَه ذا الرَّائحة الكريهة، أمام أنف مارجريت بالضبط في بعض الأحيان، كما يحقُّ لأي مواطن حُرٍّ متساوٍ مع أي شخص أن يفعل.

قال السير أندرو بانفعالٍ بريطاني أصيل: «اللعنة على هذا البهيم!» بينما كان بروجار يتَّكئ على الطَّاولة وهو يُدخن ويُحدق بتعالٍ نحو الأسفل إلى ذَينِك الإنجليزيَّين الملعونين.

رأتْ مارجريت أن السير أندرو، بطبيعته البريطانية المتأصِّلة، يقبض يدَيه بشكلٍ مُنذرٍ بسوء، فسارعت وقالت مُحذِّرة: «أستحلفك باسم الربِّ يا رجل، تذكَّرْ أنك في فرنسا، وأن هذا هو مِزاج الناس في هذه السنة.»

تمتمَ السير أندرو بشراسة: «أود أن أخنق هذا البهيم!»

كان قد أخذ بنصيحة مارجريت وجلس بجوارها إلى المائدة، وكان كِلاهما يبذل جهودًا نبيلةً لخداع الآخَر، بادِّعاء الأكل والشرب.

قالت مارجريت: «أرجوك، لا تُعكر مِزاجَ هذا المخلوق، حتى يُجيب عن الأسئلة التي يجب أن نطرحها عليه.»

«سأفعل ما بوُسعي، لكن يا إلهي! أُفضِّل أن أخنقَه على أن أسأله.» ثم أضاف السير أندرو بالفرنسية وبنبرةٍ دمثة، مُربِّتًا بلُطف على كتف بروجار: «هاي! يا صديقي، هل ترى عادةً أشخاصًا كثيرين مثلنا في هذه الأنحاء؟ أقصد، كثيرًا من المسافرين الإنجليز؟»

التفتَ بروجار ناظرًا إليه من فوق كتفه القريبة، وظلَّ ينفخُ غليونه بضع لحظات لأنه لم يكن مستعجلًا، ثم تمتم قائلًا:

«ها! ... أحيانًا!»

قال السير أندرو بلا مبالاةٍ: «آه! المسافرون الإنجليز يعرفون دائمًا أين يمكنهم الحصولُ على نبيذٍ جيد، صحيح! يا صديقي؟ الآن أخبرني، تتساءل سيدتي عمَّا إن كنتَ قد رأيتَ أحدَ أصدقائها المقربين بالصُّدفة؛ سيدٌ إنجليزي يأتي إلى كاليه من أجل العمل؛ إنه طويل القامة، وكان في طريقه إلى باريس مؤخرًا ... كانت سيدتي تأمُل في أن تلتقيَ به في كاليه.»

حاولتْ مارجريت ألَّا تنظر إلى بروجار؛ خشية أن تُفتَضَح لهفتها الملتهبة التي ترقبت بها إجابته. لكن المواطن الفرنسي الحر لا يتعجَّل الإجابة على الأسئلة أبدًا، أخذ بروجار وقته، ثم قال ببطء:

«رجلٌ إنجليزيٌّ طويل؟ ... اليوم! ... أجل.»

سأله السير أندرو بلا مبالاة: «رأيتَه؟»

تمتم بروجار متجهمًا: «أجل، اليوم.» ثم أخذ قبعة السير أندرو بهدوءٍ من فوق كرسيٍّ قريب، واعتمرها على رأسه، وشدَّ قميصه الأزرق المتَّسِخ، وحاول بوجهٍ عام أن يشرح إيمائيًّا أن ذاك الشخص كان يرتدي ثيابًا أنيقةً جدًّا. وتمتم قائلًا: «أرستقراطيٌّ لعين! ذاك الإنجليزي الطويل!»

كتمَت مارجريت صرخةً بصعوبة.

وغمغمَت: «إنه السير بيرسي بالتأكيد، وليس متنكرًا حتى!»

ابتسمَت، وسط كلِّ القلق الذي كانت تشعر به ومن بين دموعها المتجمعة، من فكرة أن «الطبع غلاب»، وأن السير بيرسي يخوض أشدَّ الأخطار فتكًا وجنونًا، بمعطف مصمَّمٍ على أحدثِ طِراز على ظهره، ومنديلِ عنق ذي أطراف ممدودةٍ من الدانتيل.

تنهَّدَت قائلة: «أوه! يا لذاك التهوُّر! أسرِع يا سير أندرو! اسأله متى غادر.»

قال السير أندرو مخاطبًا بروجار باللامبالاة المصطنَعة نفسِها: «آه، أجل يا صديقي، سيدي دائمًا ما يرتدي ملابسَ جميلة؛ من المؤكد أنَّ الرجل الإنجليزي الطويل الذي رأيته هو صديق سيدتي. وقلتَ إنه غادَر؟»

«غادَر ... أجل ... لكنه سيعود ... إلى هنا؛ لقد طلب عشاءً ...»

وضع السير أندرو يده على ذراع مارجريت محذرًا إيَّاها بسرعة؛ وكان ذلك في آخرِ لحظة قبل فوات الأوان؛ لأن فرحتها الجامحة المجنونة في اللحظة التَّالية كادت تفضحها. فالسير بيرسي سالمٌ وبخير، وسيعود إلى هنا عاجلًا، وربما تتمكَّن من رؤيته بعد لحظاتٍ قليلة ... أوه! بدا أنَّ جُموح سعادتها يكاد يفوق قدرتها على أن تتحمَّل.

قالت لبروجار الذي بدا أنه قد تحول فجأةً في عينيها إلى أحدِ رُسُل السعادة المُنزَلين من السماء: «اسمع! اسمع! ... هل قلتَ إنَّ الرجل الإنجليزي سيعود إلى هنا؟»

بصق رسول السعادة المُنزَل من السماء على الأرض ليُظهِر ازدراءه لكل أرستقراطي اختار التردُّد إلى نزل «القط الرمادي».

غمغمَ قائلًا: «أآآه! لقد طلب عشاءً؛ سيعود ...» وأضاف: «الإنجليزي اللعين!» على سبيل التذمُّر من إحداث كل هذه الضجة لأجل مجرد رجلٍ إنجليزي.

سألته بلهفةٍ وهي تضع يدها البيضاء الرقيقة على كُمِّ قميصه الأزرق المتَّسِخ: «لكن أين هو الآن؟ هل تعرف؟»

قال بروجار باقتضابٍ وبإيماءة عابسة نافضًا عن ذراعه تلك اليدَ الجميلة التي يفتخر أمراءُ بتقبيلها: «ذهب لإحضار حصان وعربة.»

«في أيِّ وقتٍ ذهب؟»

لكن كان واضحًا أنَّ بروجار كان قد اكتفى من هذه الاستجوابات. فلم يكن يرى أن من اللائق لمواطن — مُتساوٍ مع الجميع — أن يُستجوَب هكذا بأسئلةٍ متتالية من أرستقراطيِّين مَلاعين، حتى وإن كانوا إنجليزًا أثرياء. بل كان الأنسب لكرامته الوليدة، بالتأكيد، أن يكون فظًّا قدر الإمكان؛ فالردُّ بوُدٍّ على أسئلةٍ مهذبة يُعَد علامةَ خنوعٍ بالتأكيد.

قال بفظاظةٍ غاضبة: «لا أعرف. لقد قلتُ ما يكفي، كفاكم أيها الأرستقراطيون الملاعين! ... لقد جاء اليوم. طلب عشاءً. خرج. سيعود. هذا كل شيء!»

وبهذا التأكيد الفارق على حقوقه كمواطنٍ ورجلٍ حرٍّ في أن يكون فظًّا بقدرِ ما يشاء، خرج بروجار من الغرفة متثاقلًا وصفق البابَ خلفه.

الفصل الثالث والعشرون

أمل

قال السير أندرو وقد رأى أن مارجريت تبدو راغبةً في استدعاء المُضيف الفظِّ ليعود مجددًا: «ربَّاه يا سيدتي! أظن أنَّ من الأفضل أن نتركَه وشأنَه. لن نعرف شيئًا آخرَ منه، وربما نُثير شكوكه. لا أحد يدري أي جواسيس يمكن أن يكونوا متربصين حول هذه الأماكن الملعونة.»

ردَّت بابتهاج: «وماذا يُهمني؟ الآن أعرف أن زوجي آمن، وأنني سأراه بعد قليل!»

قال بذُعرٍ حقيقي؛ لأنها تحدثَت بصوتٍ عالٍ جدًّا في غمرةِ ابتهاجها: «هششش! حتى الجدران لها آذانٌ في فرنسا هذه الأيَّام.»

نهض بسرعةٍ عن المائدة، ومشى في أرجاء الغرفة الجرداء المتَّسِخة، متنصِّتًا بإصغاءٍ عند الباب الذي خرج منه بروجار للتو، فلم يسمع إلَّا تمتماتٍ بالشتائم وخطواتِ أقدام متثاقلةٍ. وركض كذلك إلى أعلى الدرجات المهترئة التي تقود إلى العلية، ليتيقَّن بنفسه من عدم وجود جواسيسَ تابعين لشوفلان في المكان.

قالت مارجريت ببهجةٍ، عندما عاد الشَّابُّ مجددًا للجلوس بجانبها: «هل نحن وحدنا يا سيدي الخادم؟ هل يمكننا الكلام؟»

ناشدها: «بحذرٍ قدْرَ الإمكان!»

«ربَّاه يا رجل! لكن وجهك عابس! أمَّا أنَّا، فيُمكنني أن أرقص فرحًا! فلم يعُد يوجد سببٌ للخوف. مركبنا على الشَّاطئ، «فوم كريست» على بُعد أقلَّ من ميلَين في البحر، وزوجي سيكون هنا، ربما تحت هذا السقف نفسِه خلال نصف الساعة القادم. بالتأكيد! لا يوجد عائقٌ أمامنا؛ فشوفلان وعصابته لم يصلوا بعد.»

«لا، يا سيدتي! يؤسفني أن أقول إننا لسنا متيقِّنين من ذلك.»

«ماذا تعني؟»

«لقد كان في دوفر في الوقت نفسِه الذي كنَّا فيه هناك.»

«وأوقفَته العاصفة نفسُها التي منعتنا من الانطلاق.»

«بالضبط. لكن؛ لم أقُل هذا من قبل لأني خشيتُ أن تُصابي بالذعر؛ رأيتُه على الشَّاطئ قبل أقلَّ من خمس دقائق من انطلاقنا. على الأقل تيقنتُ بنفسي آنذاك من أنه هو؛ كان متنكرًا بإتقانٍ في هيئة كاهن، حتى إن الشيطان، وليَّهُ، ما كان ليستطيع تَعرُّفَ هُويَّته. لكنني سمعته آنذاك، يتفاوض على مركبٍ يأخذه بسرعةٍ إلى كاليه، ولا بد أنه قد انطلق مُبحرًا خلال أقلَّ من ساعةٍ بعدنا.»

سرعان ما فقد وجهُ مارجريت فرحته. فالخطر الرهيب المُحدق ببيرسي، بعدما صار الآن على أرض فرنسا بالفعل، بات واضحًا لها وضوحًا مفاجئًا مرعبًا. فشوفلان يُلاحقه عن قُرب، والدبلوماسي الماكر يحظى بنفوذٍ تام هنا في كاليه، وهكذا يُمكن بكلمةٍ منه أن يُقتفى أثرُ بيرسي ويُعتقَل و...

بدا وكأن كلَّ قطرة دمٍ في عروقها تجمَّدَت؛ فحتى في أشد لحظات كربها في إنجلترا، لم تكن مدركةً تمامًا لمدى دُنوِّ الخطر المُحدِق بزوجها. كان شوفلان قد توعَّد بجلب سكارليت بيمبرنيل إلى المقصلة، والآن صار المخطِّطُ الجريء، الذي كان غموضُ هُويَّته صائنًا لحياته حتى الآن، مكشوفَ الهُويَّة، على يدَيها هي، أمام ألدِّ أعدائه وأشدِّهم قسوة.

عندما نصَب شوفلان فخًّا للورد توني والسير أندرو فولكس في غرفة قهوة «استراحة صيَّاد السمك»، حصل على جميع خُطط هذه الحملة الأخيرة. كان من المقرَّر أنَّ أرماند سان جوست وكونت تورناي ومطارَدين ملكيَّين آخرَين سيلتقون بسكارليت بيمبرنيل — أو بالأحرى باثنين من مبعوثيه كما كان مُزمعًا في الأصل — في هذا اليوم، الثَّاني من أكتوبر، في مكانٍ معروفٍ جيدًا للعصبة، ولَّح إليه تلميحًا غامضًا باسم «كوخ الأب بلانشار».

كان أرماند، الذي لم يكن مُواطنوه يعرفون شيئًا عن صلته بسكارليت بيمبرنيل ولا تنَصُّله من السياسات الوحشية لعهد الإرهاب، قد غادر إنجلترا قبل أكثرَ من أسبوعٍ بقليل، حاملًا معه التعليماتِ اللازمةَ التي ستسمح له بلقاءِ المطارَدين الآخَرين وإيصالهما إلى هذا المكان الآمن.

كانت مارجريت قد استنتجَت كلَّ هذا القدر منذ البداية، وأكَّد لها السير أندرو فولكس تخميناتِها. وكانت تعرف أيضًا أنَّ السير بيرسي، عندما أدرك أن شوفلان سرَق

خُططه وتوجيهاته لمساعديه، لم يجد متَّسَعًا من الوقت للتواصل مع أرماند، أو إرسال توجيهاتٍ جديدةٍ إلى المُطارَدين.

أي إنهم سيكونون موجودين حتمًا في الوقت والمكان المحدَّدَين، دون أن يكونوا على درايةٍ بحجم الخطر المميت الذي ينتظر مُنقِذَهم الشجاع.

ما كان بليكني، الذي خطَّط للحملة ودبَّرها كلَّها كالعادة، ليسمحَ بأن يتعرَّض أحدٌ من رفاقه الأصغر سنًّا لخطر الاعتقال شبهِ المؤكد. ولذلك قال في رسالته العاجلة إليهم في حفلة اللورد جرينفل: «سأنطلق بنفسي غدًا ... وحدي.»

والآن بعدما صارت هُويته معروفةً لعدوِّه اللدود، فكل خطواته ستكون مرصودةً، من اللحظة التي وطئَت فيها قدمُه فرنسا. ستقتفي جماعةُ شوفلان أثرَه وستتعقبه حتى يصل إلى ذاك الكوخ الغامض الذي ينتظرُه فيه المطارَدان، وهناك سيُغلَق الفخُّ عليه وعليهما.

لم يبقَ سوى ساعةٍ واحدة — الساعة التي سبقَت بها مارجريت والسير أندرو عدوَّهما في الانطلاق من دوفر — لتحذير بيرسي من الخطر الوشيك المحدق به، وإقناعه بالعدول عن الحملة المتهوِّرة، التي لا يمكن إلا أن تنتهيَ بموته.

ولكن على أيِّ حال، كانت لديهما تلك الساعة.

قال السير أندرو بجِدِّية: «شوفلان يعلم بشأن هذا النزُل من الأوراق التي سرقَها، وعندما يصل سيأتي إلى هنا مباشرةً.»

قالت: «لم يصل إلى اليابسة بعد، فنحن نسبقه بساعة، وبيرسي سيكون هنا حالًا. سنكون في منتصَف القنال قبل أن يُدرك شوفلان أننا قد انسلَلْنا من بين أصابعه.»

تحدَّثَت بحماسٍ وجدِّية على أمل أن تبثَّ في صديقها الشَّاب بعضًا من الأمل المتفائل الذي ما زال قلبها متمسكًا به، لكنه هز رأسَه بحزن.

قالت ببعض الضجَر: «أستعود إلى الصمت مجددًا يا سير أندرو؟ لِم تهزُّ رأسك وتبدو عابسًا؟»

أجاب: «عجبًا، يا سيدتي، لأنكِ، بينما تضعين خُططَكِ الوردية، تنسَين العنصر الأهم.»

«ما الذي تعنيه بحقِّ السماء؟ لم أنسَ شيئًا.» وأضافت بنفاد صبر أشد: «أيَّ عنصرٍ تقصد؟»

أجاب السير أندرو بهدوء: «طوله ستةُ أقدام، واسمه بيرسي بليكني.»

غمغمَت: «لا أفهم.»

«أتظنِّين أن بليكني سيُغادر كاليه دون إنجاز ما شَرَعَ فيه؟»

«تقصد ...؟»

«لديه كونت توريناي العجوز ...»

تمتمَت: «الكونت ...؟»

«وسان جوست ... وغيرهما ...»

قالت بشهقةٍ معذَّبةٍ من قلبٍ كسير: «أخي! ساعدني يا إلهي، لكني كنتُ مع الأسف قد نسيتُ.»

«مع أنَّهم مُطارَدون، فهؤلاء الرجال ينتظرون الآن بثقةٍ تامةٍ ويقين ثابت وصولَ سكارليت بيمبرنيل الذي تعهَّد بشرفه بأن ينقلهم سالمين عبر القنال.»

في الحقيقة، كانت قد نسيَت كلَّ ذلك! فبدافع الأنانية السَّامية لدى امرأةٍ تحبُّ مِن كل قلبها، لم تكن تفكر في أحدٍ سِواه خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية. حياته النبيلة الثمينة، الخطر المحدق به؛ هو، الحبيب، البطل الشجاع، وحده كان يسكن عقلها.

تمتمَت قائلةً: «أخي!» فيما تجمَّعَت الدموع الثقيلة واحدةً تلو الأخرى في عينيها عندما تذكرَت أرماند، محبوبها ورفيقها في طفولتها، الرجل الذي ارتكبَت من أجله الخطيئةَ المميتة، وأوقعَت بتصرف يائس حياة زوجها الشجاع في الخطر.

قال السير أندرو بفخر: «السير بيرسي بليكني لن يكون موضعَ ثقةٍ ولا قائدًا مشرفًا لمجموعةٍ من السَّادة الإنجليز لو تخلَّى عن أولئك الذين وضَعوا ثقتَهم فيه. أمَّا بخصوص إخلاف وعده، فالفكرة نفسُها مستحيلة.»

خيَّم الصمتُ بضع لحظات. دفَنَت مارجريت وجهها بين يدَيها، وتركَت الدموعَ تقطُر ببطءٍ عبر أصابعها المرتجفة. لم يقل الشَّاب شيئًا؛ إذ توجَّعَ قلبُه لرؤية هذه السيدة الجميلة في حزنها الهائل. كان يشعر طوال الوقت بالمأزق الفظيع الذي أغرقَهم جميعًا فيه تصرفُها المتهور. كان يعرف صديقَه وقائده جيدًا، بجُرأته الطائشة وشجاعته الجنونية وتقديسه لوعوده. كان السير أندرو يعرف أن بليكني يُفضِّل أن يتحدَّى أيَّ خطر، ويخوض أشدَّ المجازفات فتكًا، على أن يُخلِف وعده، وأنه، رغم وجود شوفلان في أعقابه، سيحاول محاولةً أخيرةً، مهما كانت يائسةً، لإنقاذ أولئك الذين وثقوا به.

قالت مارجريت أخيرًا وهي تبذلُ جهودًا باسلةً لتجفيف دموعها: «يا إلهي، يا سير أندرو، أنت مُحق، ولن أُخزيَ نفسي الآن بمحاولة إقناعه بالعدول عن واجبه. فكما تقول،

ستكون توسُّلاتي بلا فائدة.» وأضافت بحماسٍ وحزم: «لِيمنَحْه الربُّ القوة والقدرة ليتفوَّقَ على مُطارديه. ربما لن يرفض أَخْذَك معه، عندما يبدأ عمله النبيل، فبوُجودِكما معًا، ستحظَيان بالدهاء والشجاعة! لِيَحمِكما الرب! لكن يجب ألَّا نُضيعَ الوقت الآن. ما زلت أُومِن بأن سلامته تعتمد على أن يعرف أن شوفلان في أثره.»

«بلا شك. لديه حيلٌ عجائبية في جعبته. وحالما يُدرك الخطر، سيتوخَّى المزيد من الحذر؛ براعته معجزةٌ حقيقية.»

«إذن فما قولك في أن تُجري رحلةً استكشافية في القرية بينما أنتظر أنا هنا تحسُّبًا لقدومه! قد تُصادف أثر بيرسي وهكذا نوفِّر الوقت الثمين. إن وجدته، أخبره بأن يأخذ حذرَه! ... فألدُّ أعدائه في أعقابه!»

«لكن هذه خربةٌ وضيعة لا يُمكن أن تنتظري فيها.»

«كلا، لا أمانع ذلك! لكن هلَّا سألت مضيفنا العابس الفظَّ إن كان بإمكانه السماحُ لي بالانتظار في غرفةٍ أخرى، حيث يمكن أن أكون آمَنَ من الأعين المتطفِّلة لأي مسافرٍ عابر. قدِّم له بعضَ المال فورًا، حتى لا يتوانى عن إبلاغي حالما يعود الرجل الإنجليزي الطويل.»

كانت تتحدَّث بهدوء، بل وبابتهاج الآن، وهي تُفكر في خططها، مُستعدةً للأسوأ إن لزم الأمر؛ قرَّرَت ألَّا تُظهر المزيدَ من الضعف، ستُثبت أنها تستحقُّه، تستحق هذا الرجلَ الذي يوشك على التضحية بحياته لأجل إخوته في الإنسانية.

أطاعها السير أندرو بلا تعليق. اجتاحه شعورٌ غريزي بأن عقلها الآن هو الأقوى؛ لذا كان على أتمِّ استعدادٍ لأن يُسلِم نفسه لتوجيهاتها، وأن يُصبح اليد المُنَفِّذة بينما تكون هي الرأسَ الموجِّه.

مضى إلى باب الغرفة الداخلية الذي اختفى خلفه بروجار وزوجتُه قبل قليل، وطرَقه، وكالعادة جاء الجواب وابلًا من الشتائم.

قال الشَّاب بنبرةٍ آمرة: «هاي! صديقي بروجار! سيدتي ترغب في أن تستريح هنا بعضَ الوقت. هل يمكنك أن تدَعَها تستخدمُ غرفةً أخرى؟ فهي ترغب في أن تكون وحدها.»

أخذ بعضَ المال من جيبه وتركه يُصلصل في يده صلصلةً ذاتَ مغزًى. كان بروجار قد فتح الباب واستمع، بلا مبالاةٍ فظَّة كالعادة، إلى طلب الشَّاب. ولكن عند رؤية الذهب تخلَّى قليلًا عن سلوكه المتكاسل؛ إذ أخرج الغليون من فمه ودخل الغرفةَ بأقدام متثاقلة.

ثم أشار من فوق كتفه نحو العلية الموجودةِ عند أعلى الجدار.

قال بنخرةٍ: «يمكنها الانتظارُ في الأعلى هناك! المكان مريحٌ وليس لديَّ غرفةٌ أخرى.»

قالت مارجريت بالإنجليزية: «هذا أفضلُ مكان ممكن»؛ إذ أدركَت فورًا المزايا التي سيُتيحها لها مثلُ هذا المكان المخفيِّ عن الأنظار. وأضافت: «أعطِه المال يا سير أندرو، سأكون سعيدةً جدًّا في الأعلى، ويمكنني رؤيةُ كل شيءٍ دون أن يراني أحد.»

أومأت لبروجار الذي تنازلَ ليصعد إلى العِلية ويرتِّب القشَّ الموضوع على الأرض ليكون مناسبًا للجلوس عليه.

قال السير أندرو بينما كانت مارجريت تستعدُّ بدورها لصعود الدرجات المتهالكة: «هل لي أن أطلب منكِ ألَّا تفعلي أي شيءٍ متهوِّر، تذكَّري أن هذا المكان يعجُّ بالجواسيس. أتوسل إليكِ ألَّا تُظهري نفسكِ للسير بيرسي ما لم تكوني متيقنةً تمامًا من أنكِ وحدكِ معه.»

شعر بأنَّ تحذيراته غيرُ ضروريةٍ حتى وهو يقولها؛ فمارجريت كانت هادئةً وصافيةَ الذهن كأي رجل. لم يكن يوجد خوفٌ من أن تفعل أيَّ شيءٍ متهور.

قالت وهي تبذلُ جهدًا طفيفًا للابتهاج: «كلا، أستطيع أن أعِدَك بذلك بكلِّ صدق. لن أُعرِّض حياةَ زوجي ولا خُططَه للخطر بالتحدث إليه أمامَ غُرباء. لا تقلق إطلاقًا، سأنتظر فرصتي وأساعده بالطريقة التي أراه في أمسِّ الحاجة إليها.»

نزل بروجار وكانت مارجريت مستعدةً للصعود إلى مخبئها الآمن.

قال السير أندرو بينما بدأت تصعد السلالم: «لا أجرؤ على تقبيل يدِك يا سيدتي بما أنني خادمك، لكنني أرجو أن تكوني مبتهجةً ومتفائلة. إن لم أُصادف بليكني خلال نصفِ ساعة، فسأعود متوقعًا أن أجده هنا.»

«أجل، هذا سيكون التصرُّف الأفضل. يمكننا أن ننتظر نصفَ الساعة. لا يمكن لشوفلان أن يكون هنا قبل ذلك. ليُساعِدْنا الرب على أن يرى أحدنا بيرسي قبل نفاد الوقت. حظًّا طيبًا لك يا صديقي! لا تخشَ عليَّ إطلاقًا.»

وصعدَت الدرجات الخشبية المهترئةَ بخفَّةٍ نحو العلية. لم يُبدِ بروجار مزيدًا من الاهتمام بمارجريت. فهي يمكن أن ترتاح هناك أو لا كما تشاء. راقبها السير أندرو حتى وصلتْ إلى العِلية وجلسَت على القش. جذبَت الستائر الممزَّقة لتُغلق بها مدخلَ العلية، ولاحظ الشَّاب أنها قد تركَّزَت في موضعٍ فريدٍ هناك؛ لترى وتسمعَ دون أن يُلاحظها أحد.

كان قد دفع لبروجار مبلغًا سَخيًّا؛ وبذلك لن يكون لدى صاحبِ النزل العجوز الفظِّ دافعٌ إلى فضح أمرها. ثم استعدَّ السير أندرو للذهاب. استدار مرةً أخيرةً عند الباب ونظر إلى الأعلى نحو العِلية، كان وجه مارجريت الحلو يختلس النظرَ إليه عبر الستائر الممزقة، وابتهج الشَّاب لأنه وجده مطمئنًّا وحتى مبتسمًا بلطف. وبإيماءة وداع أخيرة لها، خَرج مختفيًا وسط ظلام الليل.

الفصل الرابع والعشرون

الفخ المميت

مرَّ ربعُ السَّاعة التَّالي سريعًا ودون صخب. ففي الغرفة السفلية، كان بروجار منشغلًا بعضَ الوقت بإخلاء سطح الطَّاولة وإعادة تنظيمها لضيفٍ آخر.

وبفضل مُشاهدة هذه التحضيرات، وجدَت مارجريت أن الوقت يمضي بتسليةٍ أكبر. كان هذا العشاء البسيط جدًّا يُعَد من أجل بيرسي. من الواضح أن بروجار كان يحمل قدرًا من الاحترام للإنجليزي الطويل؛ لأنَّه بدا متكبدًا بعضَ العناء ليجعل مظهرَ المكان أقلَّ تنفيرًا من ذي قبل.

حتى إنه أخرج من تجويفٍ مستترٍ في الخِزانة العتيقة ما بدا أنه مفرش طاولة بالفعل، وعندما بسطه ووجده مليئًا بالثقوب، هز رأسه بتردٍ بعض الوقت، ثم بذل قصارى جهده ليبسطَه على الطَّاولة بحيث يُخفي أغلب عيوبه.

وبعدئذٍ، أخرج منديلًا قديمًا مهترئًا لكنه على قدرٍ من النظافة، وعَكَف بحذرٍ على مسح الكئوس والملاعق والأطباق التي وضعها على الطَّاولة.

لم تستطع مارجريت أن تمنع نفسها من الابتسام وهي تُشاهد هذه التحضيرات التي أنجزها بروجار متفوهًا بالشتائم. من الواضح أن طول قامة الرجل الإنجليزي وبُنيانه الضخم، أو ربما ثقل قبضته، قد أرهبا المواطن الفرنسيَّ الذي وُلِد حُرًّا، وإلا فما كان ليُكلف نفسه أبدًا هذا العناءَ من أجل أي أرستقراطي لعين.

عندما أصبحَت الطَّاولة جاهزةً — بحالتها الرديئة التي كانت عليها — رمَقها بروجار برِضًا واضح، ثم مسح الغبار عن أحد الكراسي بزاوية قميصه، وقلَّب الحساء في قِدْر المرق، ورمى بحُزمةٍ جديدةٍ من الأغصان في النَّار، ثم غادر الغرفةَ متراخيًا متباطئًا.

بقيت مارجريت وحدها مع أفكارها. كانت قد فرَشَت عباءة سفرها على القش وكانت تجلس فوقها جلسةً مريحة إلى حدٍّ ما، ولأنَّ القش كان جديدًا، فالروائح الكريهة القادمة من الأسفل لم تصل إليها إلا مُخفَّفة.

لكنها للحظةٍ كانت شِبهَ سعيدة؛ سعيدة لأنها عندما اختلسَت النظر من خلال الستائر الممزقة، كانت ترى كرسيًّا متهالكًا ومفرش طاولةٍ ممزقًا وكوبًا وطبقًا ومِلعقة؛ ولا شيء غير ذلك. لكن تلك الأشياء الصَّامتة والقبيحة بدت كأنها تقول لها إنها تنتظر بيرسي؛ وإنهما قريبًا، قريبًا جدًّا، سيكونان وحدهما معًا لأنَّ الغرفة القذرة لا تزال فارغة.

كانت تلك الفكرة مُبهجةً جدًّا، لدرجة أن مارجريت أغلقَت عينيها لتطردَ من رأسها كلَّ الأفكار سواها. فخلال دقائقَ قليلة، ستكون وحدها معه، ستركض نازلةً السلَّمَ وتدَعه يراها، وسيأخذها بين ذراعيه، وبعدها ستجعله يرى أنها مستعدةٌ بسرورٍ للموت من أجله ومعه؛ لأن الدنيا ليس فيها سعادةٌ أعظم من ذلك.

ولكن ماذا سيحدث بعدئذٍ؟ لم تستطع أن تُخمن إطلاقًا ولو من بعيد. كانت تعرف بالتأكيد أن السير أندرو مُحق، وأن بيرسي سيُحاول تنفيذ كلِّ ما عقَد العزم عليه، وأنها — وهي هنا الآن — لن تتمكَّنَ من فعلِ شيءٍ سوى تنبيهِه ليتوخَّى الحذر؛ لأنَّ شوفلان يتعقَّبُه بنفسه. بعد تحذيره، ستكون مُرغَمةً على أن تراه ينطلق في مهمته الرهيبة والجريئة، دون أن تستطيع أن تُحاول استبقاءه بكلمةٍ ولا حتى بنظرةٍ. ستكون مضطرَّةً إلى أن تُطيعه مهما كان ما يطلبه منها، حتى إنها قد تُضطرُّ إلى الانسحاب من المشهد والانتظار، في عذابٍ لا يوصَف، بينما من المحتمل أن يكون ذاهبًا إلى حتفه.

لكن حتى ذلك بدا أقلَّ فظاعةً من تحمُّلِ عناءِ تَخيُّل ألَّا يعلم أبدًا كم أحبَّته؛ على أيِّ حال، ستستريح من هذا العناء؛ فالغرفة القذرة نفسها، التي بدا أنها في انتظاره، أخبرتها بأنه سيكون هنا قريبًا.

فجأةً، التقطتْ أذناها المُرهفتان صوتَ أقدامٍ بعيدةٍ تقترب، فوثب قلبُها بجُموحٍ من الفرح! هل جاء بيرسي أخيرًا؟ لا! لم تكن الخطوات واسعةً ولا ثابتةً كخطواته إطلاقًا؛ وفوق ذلك، شعرت بأنها تستطيع سماعَ خطواتِ شخصَين مختلفَين. أجل! هذا صحيح! يوجد رجلان قادمان إلى هذا الاتجاه. ربما يكونان غريبَين جاءا ليحصلا على شراب أو ...

ولكن لم يكن لديها الوقتُ للتخمين؛ لأنها سرعان ما سمعَت نداءً آمرًا عند الباب، وفي اللحظة التَّالية، فُتِح بعنفٍ من الخارج بينما صاح صوتٌ أجش آمر:

«هاي! المواطن بروجار! مرحبًا!»

لم تتمكن مارجريت من رؤية الوافدَين الجديدَين، لكنها، من خلال ثقبٍ في إحدى الستائر، استطاعت مراقبة جزءٍ من الغرفة بالأسفل.

سمعت خطوات بروجار المتثاقلة بينما كان يخرج من الغرفة الدَّاخلية متمتمًا بوابل الشتائم المعتادة. ولكنه عندما رأى الغريبَين، توقَّف في وسط الغرفة، في نطاقِ رؤية مارجريت بوضوح، ونظر إليهما بازدراءٍ أشدَّ ممَّا رمق به ضيفَيه السَّابقين، وتمتم قائلًا: «كهنة ملاعين!»

بدا أن قلبَ مارجريت قد توقف فجأة عن النبض؛ كانت عيناها الكبيرتان تحدقان بأقصى اتِّساعهما إلى أحد الوافدَين الجديدين، الذي كان الآن قد تقدم بخطوةٍ سريعة نحو بروجار. كان يرتدي جبةَ الكهَنة وقبعةً ذاتَ حواف عريضةٍ وحذاءً ذا إبزيم كدأبِ الكهنة الفرنسيِّين، ولكن بينما كان واقفًا أمام صاحب النزل، فتح جبتَه للحظةٍ مُظهِرًا وشاحَ موظَّفي الحكومةِ ثلاثيَّ الألوان، الذي أحدث منظرُه تأثيرًا فوريًّا في تحويل سلوك بروجار من الازدراء إلى الخضوع المتذلِّل.

بدا أنَّ منظر الكاهن الفرنسي هو ما جمَّد الدماء في عروق مارجريت. صحيحٌ أنها لم تستطع رؤية وجهه الذي كان مظلَّلًا بقبعته ذات الحافات العريضة، لكنها تعرَّفَت اليدَين النحيلتين العظميتين، والحدبة الطفيفة، مِشية الرجل كلها! كان ذلك شوفلان!

صدمها هولُ الموقف كما لو أنها تلقَّت ضربةً حقيقية؛ تهاوت حواسها بخيبة الأمل الفظيعة، والذعر مما ينتظرها، واحتاجت إلى بذلِ مجهودٍ يكاد يكون خارقًا حتى لا تنهار فاقدةً الوعي تحت وطأة كلِّ هذا.

قال شوفلان لبروجار بعجرفة: «صحن حساءٍ وزجاجة نبيذ، ثم اغرُب عن هنا؛ فهمتَ؟ أريد أن أكون وحدي.»

أطاعه بروجار بصمتٍ ودون أيِّ غمغماتٍ هذه المرة. جلس شوفلان إلى الطَّاولة التي كانت مجهزةً للإنجليزي الطويل، وانشغل صاحب النزل بخدمته بخضوع؛ إذ قدم صحن الحساء وسكب النبيذ. أمَّا الرجل الذي دخل مع شوفلان، ولم تستطع مارجريت رؤيتَه، فظل واقفًا بجوار الباب.

هُرِع بروجار إلى الغرفة الدَّاخلية بإشارةٍ فظةٍ من شوفلان، الذي أومأ بعدئذٍ للرجل الذي كان برفقته.

تعرفَت مارجريت فورًا على هذا الرجل الذي كان ديجا، سكرتير شوفلان وتابعه المؤتمَن الذي كانت تراه كثيرًا في باريس في الأيَّام المنقضية. مشى عبر الغرفة، ووضع أذنه عند باب بروجار مُرهِفًا السمع.

سأله شوفلان بفظاظة: «لا يتنصَّت؟»

«لا أيها المواطن.»

للحظة خشيت مارجريت من أن يأمر شوفلان ديجا بتفتيش المكان؛ لم تجرؤ على تخيُّل ما سيحدث إن اكتُشِفَت. ولكن لحسن الحظ، بدا أنَّ لهفة شوفلان للتحدث إلى سكرتيره أقوى من خوفه من الجواسيس؛ لأنه استدعى ديجا إلى جانبه مجددًا بسرعة.

سأله قائلًا: «المركب الإنجليزي؟»

أجاب ديجا: «لم نعُد نستطيع رؤيته بعد غروب الشمس أيها المواطن، لكنه كان يتَّجه غربًا آنذاك، نحو رأس جريس نيز.»

تمتمَ شوفلان: «آه! ... جيد! والآن بخصوص الكابتن جوتلي؟ ... ماذا قال؟»

«أكد لي أن جميع الأوامر التي أرسلتَها إليه الأسبوعَ المنصرم قد نُفِّذَت بحذافيرها. كل الطرق التي تؤدي إلى هذا المكان تحرسها دورياتٌ متناوبة ليلًا ونهارًا منذ ذلك الوقت، والشواطئ والجروف تخضع لتفتيشٍ وحراسةٍ مشددة للغاية.»

«هل يعرف مكان «كوخ الأب بلانشار» هذا؟»

«لا أيها المواطن، يبدو أنَّه لا أحد يعرفه بهذا الاسم. يوجد عددٌ كبيرٌ من أكواخ الصيَّادين على طول السَّاحل كله بالطبع ... لكن ...»

قاطعَه شوفلان بنفاد صبر: «هذا يكفي. والآن ماذا بشأن الليلة؟»

«الطرُق والشَّاطئ خاضعان لدورياتِ حراسة كالعادة أيها المواطن، والكابتن جوتلي ينتظر أوامرَ أخرى.»

«إذن، عُد إليه فورًا. وأخبره بأن يُرسل تعزيزاتٍ إلى كل دوريات الحراسة، وخصوصًا تلك الموجودة بطول الشَّاطئ ... أتَفْهم؟»

كان شوفلان يتحدثُ باقتضاب وفي صميم الموضوع مباشرة، وكانت كلُّ كلمةٍ يقولها تطعن قلب مارجريت كمسمارٍ في نعش أعزِّ آمالها.

أضاف قائلًا: «على هؤلاء الرجال أن يلتزموا بأقصى درجاتِ اليقظة لرصدِ أي غريبٍ قد يكون سائرًا أو راكبًا أو قائدًا على طول الطريق أو الشَّاطئ، بالأخص إن كان غريبًا طويلَ القامة، ولا داعي إلى أن أُسهِبَ في وصفه لأنه سيكون متنكرًا على الأرجح؛ لكنه لن يتمكنَ من إخفاء طول قامته تمامًا، إلَّا إذا تظاهر بأنه أحدَب، فهمت؟»

أجاب ديجا: «تمامًا أيها المواطن.»

«حالما يلمح أيٌّ من الرجال شخصًا غريبًا، يجب على اثنين منهم أن يُبقياه تحت المراقَبة. والرجل الذي سيترك الغريب الطويل يُفلِت من مراقبته بعدما يلمحه مرة، سيدفع حياته ثمنًا لاستهتاره؛ ولكن يتوجَّب على رجلٍ واحدٍ أن يأتيَ إليَّ هنا راكبًا في الحال ويبلغني، هل هذا واضح؟»

«واضحٌ تمامًا أيها المواطن.»

«حسنًا، إذن. اذهب وقابل جوتلي فورًا. تيقَّنْ من بدءِ تحرُّك رجال التعزيز الإضافيِّين نحو دوريات الحراسة، ثم اطلب من الكابتن أن يسمح لك بأخذِ نصف دُزينةٍ أخرى من الرجال، وأحضِرْهم إلى هنا معك. يمكنك أن تعود خلال عشر دقائق. هيا ...»

أدى ديجا التحية العسكرية وتوجَّهَ نحو الباب.

بينما كانت مارجريت تستمع، مُفعَمة بالرعب، لتوجيهات شوفلان إلى مرءوسه، تجلَّت أمام عينَيها كلُّ تفاصيل خُطة الإمساك بسكارليت بيمبرنيل تَجلِّيًا مروِّعًا. كان شوفلان يأمُل أن يَبقى المُطارَدون في مخبَئهم المخفيِّ شاعِرين بأمانٍ وهمي إلى أن ينضمَّ إليهم بيرسي. وعندئذٍ، يُحاصَر المخطِّط الجريء ويُقبَض عليه متلبسًا بتهمة مساعدةِ الملَكيِّين خائني الجمهورية وتحريضهم. وهكذا، فإنْ أحدث اعتقاله ضجةً في الخارج، فحتى الحكومة البريطانية لن يحقَّ لها تقديمُ اعتراض قانوني دفاعًا عنه؛ فلأنه متآمرٌ مع أعداء الحكومة الفرنسية، سيكون لفرنسا الحقُّ في إعدامه.

سيكون الهروب مستحيلًا عليه وعليهم. فكل الطرق خاضعةٌ للمراقبة ودوريات حراسة مشدَّدة، لقد نُصِب الفخُّ بإحكام، وصحيح أنَّ شباكه ما زالت واسعةً حاليًّا، لكنها تَضيق شيئًا فشيئًا إلى أن تُطبَق على المخطِّط الجريء الذي ربما لن يُنقذه شيءٌ منها الآن ولا حتى دهاؤه الخارق.

كان ديجا يهمُّ بالمغادرة، لكن شوفلان أعاده مجددًا. تساءلت مارجريت متحيرةً أيُّ خططٍ شيطانيةٍ أخرى يمكن أن يكون قد وضعها، من أجل أن يُمسك برجلٍ شجاعٍ واحدٍ وحيدٍ، في مواجهة دُزينتين من الرجال. نظرَت إليه وهو يلتفتُ ليتحدَّث إلى ديجا؛ كان يمكنها أن ترى الجزء السفلي من وجهه أسفل قبعة الكاهن ذات الحافات العريضة. رأت مارجريت في تلك اللحظة قدرًا هائلًا جدًّا من الكراهية القاتلة، والغلِّ الشيطاني في الوجه النحيل والعينين الباهتتين الصغيرتين، لدرجة أن الأمل الأخير في قلبها مات؛ لأنها شعرَت بأنها لا يُمكن أن تنتظر أيَّ رحمةٍ من هذا الرجل.

قال شوفلان بضحكةٍ مكتومة غريبة وهو يفرك يدَيه العظميتين الشبيهتَين بالمخالب بعضهما ببعض، بإيماءةٍ تنمُّ على رضًا شيطاني: «لقد نسيت. ذاك الطويل قد يُقاتل. تذكَّروا ألَّا تُطلقوا عليه النار بأيِّ حال، ما لم يكن ذلك حلًّا أخيرًا. أريد الغريب الطويل حيًّا ... إن أمكن.»

ضحك، كما أخبرنا دانتي بأن الشياطينَ تضحك عند رؤية عذاب الملعونين. كانت مارجريت تحسب أنها قد مرَّت بكلِّ الرعب والمعاناة اللذَين قد يتحمَّلُهما قلبٌ بشري، ولكن الآن، بعدما غادر ديجا المسكن، وبقيَت وحيدةً في هذه الغرفة القذرة الموحشة برفقةِ ذلك الشيطان، شعرَت بأن كلَّ ما عانته كان تافهًا مقارنةً بهذا. ظل يُقهقِهُ ويضحك ضحكاتٍ مكتومةً لنفسه بعضَ الوقت، فاركًا يدَيه معًا مترقبًا انتصاره.

كانت خُططه موضوعة بإحكام ومن المرجَّح أن ينتصر! لم تُترَك ثغرةٌ يمكن من خلالها أن يهرب الرجلُ الأشجع والأدهى. فكل طريقٍ محروسٌ وكل ركنٍ مراقَبٌ، وفي ذلك الكوخ المهجور الكائن في مكانٍ ما على السَّاحل، تنتظر مجموعةٌ صغيرةٌ من المُطارَدين منقِذَهم، وسيُودون به إلى الموت، لا! بل إلى ما هو أسوأُ من الموت. فذاك الشيطان المكتسي بزيِّ الكهَنة هناك شَرٌّ من أن يسمح لرجلٍ شجاعٍ بأن يموت موتًا سريعًا مفاجئًا كجنديٍّ في موقع خدمته.

كان يتوق، أكثر من أي شيء آخر، إلى أن يُمسك بعدوِّه الداهية، الذي لطالما حيَّره، عاجزًا في قبضته؛ إذ كان يتمنَّى أن يشمتَ به، أن يتلذَّذ بسقوطه، أن يُلحِقَ به أيَّ عذابٍ معنوي أو ذهني لا تقدر على ابتكاره سوى كراهيةٍ مميتة. فمن المؤكَّد أنَّ النَّسْر الشجاع، حين يُصطاد وتُقصُّ أجنحتُه المهيبة، سيكون محكومًا عليه بتحمُّل قَرْض الجُرذ. وستكون هي، زوجته التي أحبَّته والتي وضَعته في هذا الموقف، عاجزةً عن فعل أيِّ شيءٍ لمساعدته.

عاجزة عن فعل أي شيء، سوى أن تأمُلَ في الموت بجانبه، وفي لحظة وجيزة تخبره فيها بأن حبها — التام والصَّادق والمتقد — له وحده.

كان شوفلان الآن جالسًا بالقرب من الطَّاولة وقد خلع قبَّعتَه، ولم يكن بإمكانِ مارجريت أن ترى سوى الخطوطِ الخارجية لجانب وجهه النحيل وذقنه المدبَّب بينما كان منحنيًا على عَشائه الضئيل. كان واضحًا أنه راضٍ تمامًا، وينتظر الأحداثَ بهدوءٍ تام، بل وبدا متلذذًا بالطعام البغيض الذي قدَّمه له بروجار. وكانت مارجريت تتساءل عن مقدار الكراهية التي يمكن أن تكمُنَ في قلب إنسانٍ تجاه إنسان آخر.

وفجأةً، بينما كانت تُراقب شوفلان، التقطتْ أذُناها صوتًا جعل قلبها يتحول إلى حجر. ولكن لم يكن يُقصَد بهذا الصوت إثارةُ الرعب في أي أحد؛ لأنه كان مجرد صوتٍ مرحٍ منتعش لشابٍّ مبتهجٍ يُغني من القلب «حفظ الرب الملك!»

الفصل الخامس والعشرون

النَّسر والثعلب

انقطعَت أنفاسُ مارجريت، بدا أن حياتها ذاتها قد توقَّفَت لحظةً وهي تستمع إلى ذلك الصوت وتلك الأغنية. كانت قد أدركَت أنَّ ذلك المغنِّيَ هو زوجها. سمعه شوفلان كذلك؛ لأنه ألقى نظرةً سريعةً على الباب، ثم سرعان ما رفع قبعته ذاتَ الحافات العريضة وصفقَها فوق رأسه معتمرًا إيَّاها في لمح البصر.

اقتربَ الصوت، وللحظةٍ خاطفة، تملَّكَت مارجريت رغبةٌ جامحة في الإسراع إلى أسفل والركض عبر الغرفة لتُوقف تلك الأغنية بأي ثمن، لتتوسَّل إلى ذلك المغنِّي المبتهج أن يهرب؛ يهرب بحياته قبل فوات الأوان. كبَحَت اندفاعَها في آخرِ لحظة. فمن المؤكد أنَّ شوفلان سيوقفها قبل أن تصل إلى الباب، وعلاوة على ذلك، لم تكن تعلم إن كان لديه جنودٌ رهن إشارته بالقرب من هنا. وبذلك قد تكون فعلتها الطائشة تصديقًا على إشارةِ موت الرجل الذي كانت مستعدَّةً للتضحية بحياتها لتُنقِذَه.

«لِيحكمنا أمدًا طويلًا
حفظ الربُّ الملك!»

هكذا غنَّى الصوتُ بحماسةٍ أشدَّ من ذي قبل. وفي اللحظة التالية، فُتح الباب وخيَّم صمتٌ مطبقٌ نحوَ ثانية.

لم تستطع مارجريت رؤيةَ الباب، فحبسَت أنفاسها، محاولةً تخيُّلَ ما يحدث.

كان بيرسي بليكني، عند دخوله، قد رأى، بالطبع، الكاهن القاعد إلى الطَّاولة فورًا؛ ظل مترددًا أقلَّ من خمس ثوان، وفي اللحظة التَّالية رأته مارجريت يسير عبر الغرفة متحدثًا بصوتٍ عالٍ مبتهج:

«مرحبًا! ألا يوجد أحد؟ أين ذاك المغفَّل بروجار؟»

كان يرتدي المعطف الرَّائع ذاتَه وحُلَّةَ الركوب ذاتَها اللذَين كان مرتديًا إياهما عندما ودَّعَته في ريتشموند منذ ساعاتٍ عديدة. وكالعادة كانت ثيابه بلا عيبٍ إطلاقًا، وكان دانتيل «ميكلين» الأنيقُ المحيط برقبته وأكمامه ناصعًا جدًّا في نسيجه الرقيق، وكانت يداه تبدوان بَيضاوَين نحيلتَين، فيما كان شعره الأشقر ممشطًا بعناية، وكان يحمل عدسته بإيماءته المصطنَعة المعتادة. في الحقيقة، بدا أنَّ السير البارون بيرسي بليكني في هذه اللحظة كان ضيفًا ذاهبًا إلى حفل في حديقة أمير ويلز، وليس رجلًا يتعمَّد إدخالَ رأسه ببرودِ أعصاب في فخٍّ مدبَّرٍ له من ألدِّ أعدائه.

توقَّف لحظةً في منتصف الغرفة، فيما بدَت مارجريت، التي كانت مشلولةً تمامًا من شدة الرعب، عاجزةً حتى عن التنفس.

كانت تتوقَّع في كل لحظة إشارةً من شوفلان من شأنها أن تجعل المكان يمتلئ بالجنود، وأنها ستُسرع نحو الأسفل لتساعد بيرسي على المقاومة وإلحاق الأذى بأعدائه قبل موته. وبينما كان واقفًا هناك بأناقةٍ وتأدُّب ودون إدراك، كادت أن تصرخ له قائلة:

«اهرب يا بيرسي! ... إنه عدوُّك اللدود! ... اهرب قبل فوات الأوان!»

لكنها لم تملك الوقتَ لفعل ذلك حتى؛ لأن بليكني في اللحظة التَّالية مشى بهدوءٍ نحو الطَّاولة، وصفق الكاهن على ظهره بمرحٍ قائلًا بنبرته المتباطئة المصطنعة:

«يا للغرابة! ... آ... السيد شوفلان. أقسم أنني لم يخطر ببالي أنني سألتقيك هنا.»

أصيب شوفلان الذي كان يضعُ الحساء في فمه في هذه اللحظة بشَرْقةٍ شديدة. أصبح وجهه النحيل بنفسَجيًّا تمامًا، وتعرَّض مبعوثُ فرنسا الماكر لنوبةِ سُعال عنيفة أنقذَتْه من فضحِ شعوره بأشدِّ مفاجأةٍ مباغِتة مرَّ بها على الإطلاق. فمن المؤكد أنه لم يكن يتوقَّع على الإطلاق حركةً جريئةً كهذه مِن عدوه؛ وتلك الصفاقة الجريئة حيَّرَته تمامًا في هذه اللحظة.

كان واضحًا أنه لم يأخذ احتياطَه سلفًا ويجعل النزل محاصرًا بالجنود. وبدا واضحًا أن بليكني كان قد خمَّن ذلك، ومن المؤكَّد أن عقله واسعَ الحيلة كان بالفعل قد وضع خُطةً ما ليقلبَ هذا اللقاء الذي لم يكن في الحسبان لمصلحته.

بقيَت مارجريت ساكنةً بلا حَراك في العِلية. كانت قد قطعت وعدًا جادًّا للسير أندرو بألَّا تتحدثَ إلى زوجها أمام الغرباء، وكان لديها ما يكفي من رِباطة الجأش لئلا تُفسد خططه بتصرفٍ مندفع غير عقلاني. كان الجلوس في سكونٍ تام ومراقبة ذَينك الرجلين امتحانًا رهيبًا للثبات. كانت مارجريت قد سمعَت شوفلان يُصدر الأوامرَ بإخضاع كل

الطرق لدوريات حراسةٍ مشدَّدة. ولذا كانت تعرف أنَّ بيرسي إن غادر «القطَّ الرمادي» الآن — أيًّا كان الاتجاه الذي سيذهب إليه — فلن يتمكن من الابتعاد بدون أن يلحظه بعضُ رجال دوريَّات الكابتن جوتلي. وحتى إن بقي، فسيكون لدى ديجا وقتٌ ليعود بنصفِ الدُّزينة من الرجال الذين كان شوفلان قد أمر بهم خِصِّيصَى.

كان الفخُّ يَضيق، ولم تكن مارجريت قادرةً على شيء سوى المشاهدة والتساؤل. بدا الرجلان نقيضين غريبين، وكان شوفلان هو الذي أبدى قدرًا طفيفًا من الخوف. كانت مارجريت تعرفه بما يكفي لتُخمِّن ما يجول بخاطره. لم يكن يخشى على نفسه مع أنه كان وحيدًا في نزلٍ خالٍ مهجور مع رجلٍ قويِّ البِنية، وجريء ومتهور إلى حدٍّ خارق. كانت تعرف أن شوفلان مُستعدٌّ لمواجهة أشدِّ المخاطر عن طِيب خاطرٍ من أجل القضية التي يؤمن بها، لكن ما كان يخشاه أن هذا الرجل الإنجليزيَّ المتجاسر سيُضاعف فُرصَه في الهرب إذا طرَحَه أرضًا وأفقده الوعي؛ فأتباعه قد يعجزون عن الإمساك بسكارليت بيمبرنيل عندما يفقدون توجيهاتِ اليد الماكرة والعقل الداهية المُحفِّز بكراهيةٍ قاتلة.

ولكن كان من الواضح أنَّ مبعوث الحكومة الفرنسية لم يكن لديه في هذه اللحظة ما يخاف منه مما يمكن أن يفعله خصمه القوي. كان بليكني يُربت على ظهره بجِدِّية، منخرطًا في أتفهِ ضحكاته وأفكَهها.

كان يقول بمرح: «آسفٌ جدًّا ... آسفٌ للغاية ... يبدو أنني أزعجتُك ... تتناولُ الحساءَ أيضًا ... شيءٌ مقرفٌ وغريب هذا الحساء ... آ... يا ربي! لقد تُوفي صديقٌ لي يومًا ما ... آ... شَرِق بشدة ... مثلك تمامًا ... بجرعةِ حساء.»

ثم ابتسم ابتسامةً خجولة ممازحة ناظرًا نحو الأسفل إلى شوفلان.

وأكمل حالما تمالكَ الآخَرُ نفسه من الشرقة الشديدة: «يا للغرابة! يا لها من خَربةٍ لا تليق إلا بالبهائم ... أليست كذلك؟» وأضاف معتذرًا وهو يجلس على كرسيٍّ قريبٍ من الطَّاولة ويسحب وعاءَ الحساء نحوه: «سحقًا! لا تُمانع، أليس كذلك؟ يبدو أن ذاك المغفل بروجار نائمٌ أو ما شابه.»

كان يوجد صحنٌ آخَرُ على الطَّاولة، وبهدوء سكب لنفسه بعضَ الحساء، ثم ملأ لنفسه كأسًا من النبيذ.

تساءلَت مارجريت للحظة عمَّا سيفعله شوفلان. كان تنكُّرُه مُتقَنًا جدًّا، لدرجة أنَّ ربما كان ينوي أثناءَ محاولة استعادة رباطة جأشه أن يُنكر هُويَّته، لكن شوفلان كان

أفطنَ من أن يأتيَ بحركةٍ خاطئة وطفولية كهذه، وكان بالفعل قد مدَّ يده مُصافحًا، وقال بدماثة:

«أنا مبتهجٌ حقًّا لرؤيتك يا سير بيرسي. لا بد أن تعذرني، إحم، كنتُ أظنك على الجانب الآخر من القنال، إنها مفاجأةٌ مباغتة كادت تخطف أنفاسي.»

قال السير بيرسي بابتسامةٍ مازحة: «سحقًا! هذا ما فعلته بالضبط، أليس كذلك، آ، سيد، آ، شوبرتان؟»

«معذرة، شوفلان.»

«أستميحك عذرًا ... ألفَ مرة. أجل؛ شوفلان بالطبع. آ... لا أستطيع أبدًا أن أتقبل الأسماء الأجنبية. ...»

كان يتناولُ حساءه بهدوء، ويضحك مداعبًا كما لو أنه جاء كلَّ هذا الطريق إلى كاليه خصوصًا ليستمتع بالعشاء في هذا النزل القذر بصحبة عدوه اللدود.

كانت مارجريت تتساءل في تلك اللحظة لماذا لم يطرح بيرسي الفرنسيَّ الضئيل أرضًا في التو واللحظة، ومن المؤكد بلا شكٍّ أنَّ فكرةً كهذه قد راوَدَته؛ لأنَّ عينَيه الناعستين بدا أنهما، بين الحين والآخر، كانتا تومِضان ومضةً مُنذِرةً بسوءٍ وهما تحدقان إلى هيئة شوفلان الهزيلة، الذي كان قد تمالكَ نفسه تمامًا بعد الشرقة الآن وكان يتناول حساءه بهدوءٍ أيضًا.

لكن العقل الذكي الذي نسَج العديدَ من الخطط الجريئة ونفَّذَها كان أبعدَ نظرًا من أن يخوضَ مُخاطراتٍ لا داعيَ إليها. ففي النهاية، ربما يكون هذا المكان مليئًا بالجواسيس، وقد يكون صاحبُ النزل مأجورًا لدى شوفلان. وكذلك لم يكن بليكني متيقنًا من أنَّ شوفلان لا يستطيع بنداءٍ واحد منه أن يجلب عشرين رجلًا يُطوِّقونه، وهكذا ربما يُحاصر ويقبض عليه قبل أن يستطيع مساعدة المُطارَدين، أو تحذيرهم على الأقل. ما كان ليُخاطر بهذا؛ فغايته كانت مساعدةَ الآخرين، وإخراجَهم سالمين؛ لأنه كان قد وعدهم، وسيَفي بوعده. وبينما كان يأكل ويُثرثر، كان يُفكر ويُخطط، بينما كانت المرأة المسكينة بالأعلى في العلية تعتصرُ دماغها لتعرف ما ينبغي أن تفعلَه، متحملةً عذابَ رغبتها الشديدة في النزول مسرعةً إليه، لكن دون أن تجرُؤَ على الحركة خشيةَ أن تُفسد خططه.

كان بليكني يقول بمرح: «لم أكن أعرفُ أنك ... آ... من أعضاء الكنيسة.»

تلعثمَ شوفلان قائلًا: «أنا ... آ... همم ....» كان جَليًّا أن صَفاقة خصمه الهادئة قد أفقدته توازنه المعتاد.

أكمل السير بيرسي بوداعةٍ وهو يسكب لنفسه كأسَ نبيذٍ أخرى: «لكن سحقًا! كنت سأستطيع أن أتعرَّف عليك في أي مكان، مع أن الشعر المستعار والقبعة قد غيَّرا شكلك قليلًا.»

«تظن ذلك؟»

«يا ربي! إنهما يغيران الرجالَ جدًّا ... لكن ... يا إلهي! أرجو ألَّا تنزعج من إدلائي بهذا التعليق؟ ... فالتعليقُ على الآخرين تصرفٌ وقح جدًّا. أرجو ألَّا تنزعج؟»

قال شوفلان متعجلًا تغييرَ موضوعِ المحادثة: «لا، لا إطلاقًا ... إحم! أرجو أن تكون الليدي بليكني بخير.»

أنهى بليكني بكلِّ تَروٍّ صحنَ الحساء، وشرب كأسَ نبيذه، وبدا لمارجريت لحظيًّا كما لو أنه ألقى نظرةً خاطفةً في كل أرجاء الغرفة.

قال أخيرًا بنبرة جافة: «بخيرٍ تمامًا، شكرًا لك.» خيَّم سكوتٌ لحظي راقبَت مارجريت خلاله هذين الخَصمَين، اللذين كان من الواضح أنَّ كِلَيهما يُقَيِّم نفسه مقارنةً بالآخر في ذهنه. كان يُمكنها أن ترى كامل وجه بيرسي حيث كان قاعدًا إلى الطَّاولة على بُعد أقلَّ من عشرِ ياردات من حيث كانت جاثمةً حائرة لا تعرف ماذا تفعل ولا فيمَ ينبغي أن تُفكر. كانت بحلول تلك اللحظة قد سيطرَت تمامًا على رغبتِها في الاندفاع إلى الأسفل وإظهارِ نفسها لزوجها. فالرجل القادر على أداء دورٍ تمثيلي بالطريقة التي كان بيرسي يؤدِّيه بها الآن لم يكن يحتاج إلى كلمةِ تحذيرٍ من امرأةٍ ليحترس.

انغمسَت مارجريت في اللذة المُحبَّبة إلى قلبِ كل امرأة رقيقةٍ بالنظر إلى الرجل الذي تُحبه. تطلَّعَت من خلال الستارة الممزَّقة إلى وجه زوجها الوسيم، وكان بإمكانها الآن أن ترى بوضوحٍ تام، خلف عينَيه الزرقاوَين الكسولتين وابتسامتِه التافهة، القوةَ والمقدرة وسَعةَ الحيلة التي جعلت سكارليت بيمبرنيل محلَّ تبجيلٍ وثقةٍ من أتباعه. لقد قال لها السير أندرو: «يوجد تسعةَ عشَرَ واحدًا منَّا مستعدون للتضحية بحياتهم من أجل زوجِكِ يا ليدي بليكني»؛ وبينما كانت تنظر إلى جبهته، التي كانت منخفضةً لكنها مربَّعة وعريضة، والعينين اللتين كانتا زرقاوَين ولكن عميقتَين وحادَّتَين، وكلِّ هيئة الرجل، ذي المقدرة التي لا تُقهَر، الذي يُخفي وراءَ دورٍ كوميدي مؤدًّى بإتقانٍ قوةَ إرادته شبهِ الخارقة وعبقريتَه المدهشة، فهمَت سببَ افتتان أتباعه به، أفلم يُلقِ بتعاويذه على قلبها ومخيلتها هي أيضًا؟

ألقى شوفلان، الذي كان يُحاول إخفاءَ نفادِ صبره خلف سلوكه المهذَّب المعتاد، نظرةً سريعةً على ساعته. لن يطول انتظار ديجا؛ دقيقتان أو ثلاثٌ أخرى ثم سيكون هذا الإنجليزيُّ الوقح مقيَّدًا بإحكامٍ في قبضةِ نصف دُزينةٍ من أكفأِ رجال الكابتن جوتلي.

سأله بلا اكتراث: «أأنتَ في طريقك إلى باريس يا سير بيرسي؟»

أجاب بليكني وهو يضحك: «يا للغرابة! لا، لن أذهبَ إلى أبعدَ من مدينةِ لِيل؛ فباريس لا تُناسبني ... لقد صارت باريسُ مكانًا بهيميًّا وحشيًّا غيرَ مريحٍ الآن ... آ... يا مسيو شوبرتان ... أستميحك عذرًا، شوفلان!»

أجاب شوفلان ساخرًا: «لا تُناسب سيدًا إنجليزيًّا مثلك، يا سير بيرسي، لا يهتم بالصراع القائم هناك.»

«سُحقًا! كما ترى لا شأن لي بهذا، وحكومتنا اللعينة تقفُ في صفِّكم تمامًا. فبِيت المسن يَخافُ من ظِلِّه.» وأضاف بينما كان شوفلان يُلقي نظرةً أخرى على ساعته: «يبدو أنك على عجلةٍ من أمرك يا سيدي. موعدٌ ربما. أرجو ألَّا تَشغل بالك بي. فأنا لديَّ متسع من الوقت.»

نهض عن الطَّاولة وسحب كرسيًّا بقُرب الموقد. وشعرَت مارجريت مجددًا برغبةٍ فظيعة في الذهاب إليه؛ لأن الوقت كان يمضي، وقد يعود ديجا في أي لحظة مع رجاله. لم يكن بيرسي يعرف ذلك و... أوه! كان كلُّ هذا فظيعًا جدًّا، وكانت تشعر بعجزٍ شديد.

تابعَ بيرسي بدماثة: «لستُ في عجلةٍ من أمري، لكن، سحقًا! لا أريد أن أقضيَ سوى أقلِّ وقتٍ ممكن في هذه الخَربة الملعونة!» وأضاف بينما كان شوفلان ينظر خلسةً إلى ساعته للمرة الثَّالثة: «لكن، رباهُ يا سيدي! ساعتك تلك لن تتحرَّكَ أسرعَ رغم كل النظرات التي تُلقيها عليها، تتوقَّع وصول صديق ربما؟»

«أجل ... صديق!»

ضحك بليكني: «أرجو ألَّا تكون سيدةً يا سيدي القسيس، فمؤكدٌ أن الكنيسة المقدَّسة لا تسمح بهذا؟ ... هه؟ ... أليس كذلك! لكني أقترح عليك أن تقتربَ من الموقد ... فقد أصبح الجوُّ قارسًا.»

ركَل اللهبَ بكعبِ حذائه ممَّا جعل الحطب يستعرُ في الموقد القديم. بدا غيرَ متعجِّلٍ للمغادرة، وكان من الظاهر أنه غيرُ مدركٍ للخطر الوشيك المحدق به. سحب كرسيًّا آخَر بجوار الموقد، وجلس شوفلان، الذي كان نفادُ صبره قد خرج عن سيطرته تمامًا بحلول هذا الوقت، بجوار الموقد بوضعيةٍ تجعله يطلُّ على الباب. مضى على ذَهابِ ديجا نحوُ رُبع

ساعة. كان واضحًا جدًّا لعقل مارجريت الموجوع أنه حالما يصل، سيغضُّ شوفلان النظرَ عن كل خُططه الأخرى بخصوص المُطارَدين، وسيقبض على سكارليت بيمبرنيل الوقح فورًا.

قال الأخير بمرح: «أيا سيد شوفلان، أخبِرْني من فضلك، هل صديقتُك جميلة؟ تِلكم النساء الفرنسيات الصغيرات ذكيَّاتٌ للغاية؛ أليس كذلك؟ لكنني أؤكد أنني لا أحتاجُ إلى السؤال عن ذلك.» وأضاف وهو يتمشَّى بلا مبالاةٍ نحو طاولة العشاء: «فيما يتعلَّق بمسائل الذَّوق، لم تكن الكنيسة رجعيةً قَط ... هه؟»

لكن شوفلان لم يكن يستمع. فكلُّ حواسه كانت منصبَّةٌ على ذاك الباب الذي سيدخل منه ديجا قريبًا. كانت أفكارُ مارجريت أيضًا مرتكزةً هناك؛ لأن أذنَيها قد التقطتا فجأةً، خلال سكون الليل، صوتَ خطواتٍ عديدةٍ منتظمةٍ على بُعد مسافةٍ منهم.

كان ذلك صوتَ ديجا ورجالِه. ثلاث دقائق أخرى وسيكونون هنا! ثلاثُ دقائق أخرى وسيكون الشيء الفظيع قد حدث؛ النَّسر الشجاع سيكون قد سقط في فخِّ النمس! همَّت الآن بالتحرُّك والصراخ، لكنها لم تجرؤ على ذلك؛ لأنها بينما سمعت الجنود يقتربون، كانت تنظر نحو بيرسي وتُراقب كلَّ حركةٍ من حركاته. كان يقف بالقرب من المائدة التي كانت بقايا العشاء والأطباق والأكواب والملاعق وأواني الملح والفلفل متناثرةً عليها. كان موليًا ظهره لشوفلان، وكان لا يزال يُثرثر بطريقته البلهاءِ المصطنَعة، لكنه أخذ من جيبه عُلبة السَّعوط وأفرغ فيها محتوى علبةِ الفلفل فجأةً وبسرعة.

بعدها التفتَ مجددًا إلى شوفلان بالضحكة البلهاء ذاتِها، وقال:

«هه؟ هل قلتَ شيئًا يا سيدي؟»

كان شوفلان منهمكًا جدًّا في الإصغاء إلى صوتِ تلك الخطوات المقتربة؛ لذا لم يُلاحظ ما كان خَصمُه الماكرُ يفعله. تمالك نفسه الآن محاولًا أن يبدوَ غيرَ مكترثٍ في خضمِّ انتصاره المتوقَّع.

قال الآن: «لا، إنه، كما كنتَ تقول يا سير بيرسي ...؟»

قال بليكني وهو يقترب من شوفلان بالقرب من الموقد: «كنتُ أقول إنَّ اليهودي في بيكاديلي قد باعَني هذه المرةَ أفضلَ سَعوط جَرَّبتُه على الإطلاق. هلَّا شرَّفتني يا سيدي القسيس؟»

اقترب من شوفلان بأسلوبه اللامكترث الوَدود، حاملًا عُلبةَ السعوط نحو عدوه اللدود.

لم يتخيَّل شوفلان، الذي أخبر مارجريت مرةً بأنه قد رأى حِيَلًا كثيرة في أيام شبابِه، هذه الحيلةَ قَط. وبينما كانت إحدى أذنَيه مركزةً على تلك الخطوات السريعة المقتربة، وإحدى عينَيه ملتفتةً نحو الباب الذي سيظهر منه ديجا ورجالُه بعد قليل، اطمأنَّ إلى الأمان الزائف الذي نسَجَه الإنجليزيُّ الصفيق بسلوكه اللامبالي المصطنَع، ولم يُخمِّن ولو من بعيدٍ الحيلةَ التي كانت تُلعب عليه.

أخذ قليلًا من السَّعوط بين إبهامه وسبابتِه.

لا أحد سوى شوفلان، الذي أقدَم دون قصدٍ على استنشاقِ جرعةٍ من الفلفل بكلِّ قوة، يستطيع تَخيُّل الحالةِ الميئوسِ منها التي سيصل إليها أيُّ إنسان باستنشاقةٍ كهذه.

شعر شوفلان بأن رأسه يكاد ينفجر، وبدا أن العطسة تِلْو العطسة كادَت تخنقه، كان أعمى وأصمَّ وأبكمَ في هذه اللحظة، واستطاع بليكني في أثناء تلك اللحظة، بهدوءٍ وبلا أدنى استعجالٍ، أن يعتمر قبَّعتَه، ويُخرج بعضَ المال من جيبه ويضعه على الطَّاولة، ثم خرج من الغرفة بخطواتٍ متشامخة!

الفصل السادس والعشرون

اليهودي

استغرقَت مارجريت بعض الوقت لاستجماع حواسِّها المشتَّتة؛ فالحادثة القصيرة السَّابقة كلها قد استغرقَت أقلَّ من دقيقة، وكان ديجا والجنود ما يزالون على بُعد مائتَي ياردة عن نُزل «القط الرمادي».

وعندما استوعبَت ما حدث، ملأ مزيجٌ من السعادة والتعجُّب قلبَها. كان الحَدَث كلُّه متقنًا جدًّا وعبقريًّا جدًّا. وكان شوفلان لا يزال عاجزًا تمامًا، أشدَّ عجزًا بكثيرٍ ممَّا كان يمكن أن يكون عليه حاله لو أنه نال لكمةً قاضيةً من قبضته؛ وذلك لأنه الآن لم يكن يستطيع أن يرى ولا أن يسمع ولا أن يتكلَّم، بينما انسلَّ خَصمُه الماكر من بين أصابعه بكل هدوء.

غادر بليكني، وكان من الواضح أنه سيُحاول الانضمامَ إلى المُطارَدين في «كوخ الأب بلانشار». صحيحٌ أن شوفلان كان في تلك اللحظة عاجزًا، وأنَّه حتى تلك اللحظة لم يكن سكارليت بيمبرنيل الجريء قد وقع في قبضة ديجا ورجالِه. لكن كل الطرق وبقاع الشَّاطئ كانت خاضعةً لدورياتِ حراسة. كلُّ مكانٍ كان مُراقَبًا وكلُّ غريب كان يُبقى قيدَ الملاحظة. فإلى أيِّ مدًى يمكن لبيرسي أن يبتعد وهو متأنقٌ هكذا بملابسه الرَّائعة بدون أن يلاحَظ ويلاحَق؟

لامَت نفسها الآن بشدة على أنها لم تنزل إليه سريعًا وتُعطِه رسالةَ التحذير والحب التي ربما كان يحتاج إليها رغم كل شيء. فهو لم يكن يعرف شيئًا عن الأوامر التي أصدرَها شوفلان لأجل الإمساك به، وحتى الآن، ربما …

لكن قبل أن يكتمل تشكُّل هذه الأفكار في عقلها، سمعَت صوتَ إنزال الأسلحة في الخارج قرب الباب، وصوت ديجا يصرخ في رجاله قائلًا: «وقوف!»

كان شوفلان قد استردَّ بعضًا من حالته الطبيعية، وأصبح عطاسه أقلَّ عنفًا، ووقف على قدمَيه بصعوبةٍ بالغة. تمكن من الوصول إلى الباب في اللحظة التي سمع فيها قرع ديجا على الباب من الخارج.

فتح شوفلان الباب، وقبل أن يتمكن سكرتيره من قول أيِّ كلمة، استطاع أن يقول متلعثمًا بين عطستَين:

«الغريب الطويل ... بسرعة! ... هل رآه أيٌّ منكم؟»

سأله ديجا متفاجئًا: «أين أيها المواطن؟»

«هنا يا رجل! عبر هذا الباب! منذ أقلَّ من خمس دقائق.»

«لم نرَ شيئًا أيها المواطن! القمر لم يبزغ بعد، و...»

قال شوفلان بغضبٍ محتدِم: «وأنت متأخرٌ خمسَ دقائق يا صديقي.»

«أيها المواطن ... أنا ...»

قال شوفلان بنفادِ صبر: «أنت فعلتَ ما أمرتُك به، أعرف هذا. لكنك استغرقتَ وقتًا طويلًا جدًّا في ذلك. لحسن الحظ، لم يحدث ضررٌ كبير وإلا كانت العاقبةُ سيئةً عليك، أيها المواطن ديجا.»

شحب وجه ديجا قليلًا. كان سلوك رئيسه كله يعجُّ بالغضب والكراهية.

قال متلعثمًا: «الغريب الطويل أيها المواطن ...»

«كان هنا، في هذه الغرفة، قبل خمس دقائق، يتناول العشاء على تلك الطَّاولة. اللعنة على وقاحته! لأسبابٍ واضحة، لم أجرؤ على القبض عليه وحدي. وبروجار أحمقُ للغاية، ويبدو أنَّ ذاك الإنجليزيَّ اللعين يملك قوةَ ثَور، وها هو انسلَّ أمام عينَيك مباشرة.»

«لا يمكنه أن يبتعد دون أن يُلاحظه أحدٌ أيُّها المواطن.»

«هه؟»

«أرسلَ الكابتن جوتلي أربعين رجلًا لتعزيز مأمورية الحراسة؛ عِشرون منهم توجهوا نحو الشَّاطئ. وقد أكَّد لي مجددًا أن الحراسة ستستمرُّ طوال اليوم، وأن لا غريب يستطيع أن يبلغ الشَّاطئ أو يصل إلى مركبٍ دون أن يُلحظ.»

«هذا جيد. هل يعرف الرجال عملَهم؟»

«لقد تلَقَّوا أوامرَ واضحةً أيها المواطن، وأنا شخصيًّا تحدثتُ إلى أولئك الذين كانوا على وشك الانطلاق إلى مهمتهم. سيتبعون أيَّ غريبٍ يرَونه كظلِّه — بأشدِّ قدرٍ ممكنٍ من السرية — خصوصًا لو كان طويلًا أو محدودبَ الظهر كما لو أنه يُخفي طوله.»

قال شوفلان متلهِّفًا: «وبالطبع لن يُحاولوا القبضَ على شخصٍ بهذه المواصفات بأيِّ حالٍ من الأحوال. سنترك سكارليت بيمبرنيل الوقحَ ذاك ينسلُّ من بين أصابعَ خرقاء. لا بد أن ندعَه يصلُ إلى «كوخ الأب بلانشار» الآن، وهناك سنُحاصره ونُمسك به.»

«الرجال يفهمون هذا أيها المواطن، وكذلك أنهم حالما يلحظون غريبًا طويلًا، فلا بد أن يُلاحقوه كظلِّه، بينما يعود رجلٌ واحدٌ ليُبلغك.»

قال شوفلان وهو يفرك يدَيه راضيًا جدًّا: «هذا صحيح.»

«لديَّ أخبارٌ أخرى لك أيها المواطن.»

«ما هي؟»

«تبادل رجل طويل محادثةً طويلة منذ نحو ثلاثة أرباعِ السَّاعة مع رجلٍ يهودي، اسمه روبن، يعيش على بُعد عشرِ خطواتٍ من هنا.»

استفهَم شوفلان بلهفة: «أجل ... وبعدئذٍ؟»

«كانت المحادثة كلُّها عن حِصانٍ وعرَبة، أراد الرجل الطويل أن يستأجرَهما، وكان من المقرَّر أن يكونا جاهزَين له بحلول السَّاعة الحادية عشرة.»

«فاتت تلك السَّاعة الآن. أين يعيش روبن ذاك؟»

«على مسيرة بضع دقائق من هذا الباب.»

«أرسِلْ أحدَ الرجال ليعرفَ ما إن كان الغريب قد غادر بعربة روبن.»

«أَمْرك أيها المواطن.»

ذهب ديجا لإملاء الأوامر اللازمة على أحد الرجال. لم تَفُت مارجريت أيُّ كلمةٍ من هذه المحادثة بين ديجا وشوفلان، وبدا أن كل كلمة قالاها كانت تضرب قلبها بيأسٍ فظيعٍ وتشاؤم كئيب.

لقد جاءت كلَّ هذا الطريق، بآمالٍ كبيرةٍ وعزمٍ راسخ على مساعدة زوجها، لكنها حتى الآن لم تكن قادرةً على فعل شيءٍ سوى مُشاهدة خيوطِ الشبكة القاتلة تُطبِق على سكارليت بيمبرنيل الجريء، وقلبها ينفطر من العذاب.

لن يتمكَّنَ الآن من الابتعاد كثيرًا دون أن تُلاحقه عيون الجواسيس وتشيَ به. أصابها عجزُها بشعور بالإحباط الفظيع. أصبحَت إمكانيةُ تقديمها أدنى مساعدةٍ لزوجها شِبهَ منعدمة، واستقر أملُها الأخير على أن يُسمَح لها بمشاركته مصيرَه، مهما كان في النهاية.

وفي الوقت الحالي، كانت حتى فرصتها في رؤية حبيبها مجددًا ضئيلة. لكنها كانت مُصرَّةً على مراقبة عدوِّه عن قرب، وقد امتلأ قلبُها ببصيصٍ خافت من الأمل في أن مصير بيرسي ربما يظلُّ معلقًا في يدَي القدَر ما دامت عاكفةً على مراقبة شوفلان.

كان ديجا قد ترك شوفلان يَذْرع الغرفة ذَهابًا وإيابًا بنكَد، بينما انتظر هو شخصيًّا في الخارج عودةَ الرجل الذي أرسله للبحث عن روبن. وهكذا مرَّت عدةُ دقائق. كان واضحًا أن نفاد الصبر يلتهم شوفلان. بدا أنه لم يكن يثقُ في أحد؛ فتلك الحيلة الخادعة الأخيرة التي لعبها عليه سكارليت بيمبرنيل الجريءُ جعَلَته فجأةً يشك في النجاح، ما لم يكن موجودًا بنفسه ليُراقب عملية القبض على هذا الإنجليزي الوقح ويُوجِّهها ويُشرف عليها.

بعد حوالي خمس دقائق، عاد ديجا ووراءه يهودي مسن يرتدي معطفًا طويلًا فَضْفاضًا رثًّا متَّسخًا، باليًا مشحمًا بعرض الكتفَين. كان شعره الأحمر مصففًا على طريقة اليهود البولنديِّين، بخُصلة شعرٍ لولبية على جانبَي وجهه، وكان يحوي قدرًا كبيرًا من الشعر الرمادي، وكان وجهه مَكسوًّا بطبقةٍ عامة من السُّخام عند خدَّيه وذقَنِه؛ ممَّا أضفى عليه مظهرًا قذرًا وبغيضًا بشكلٍ استثنائي. كان ظهره يتَّسم بتلك الحدبة المعتادة التي كان بَنو عِرقه يتصنَّعونها بدافع التواضع الزائف في القرون الماضية قبل بزوغ فجر المساواة والحرية في مسائل الأديان، وكان يمشي خلف ديجا جارًّا قدمَيه بتلك المشية الفريدة التي ظلَّت سِمةً مميزة لدى التجَّار اليهود في قارة أوروبا إلى يومنا هذا.

أشار شوفلان، الذي كان يحمل كلَّ التحيُّز الفرنسي ضد العِرق المُحتَقَر، للرجل بأن يبقى على مسافةٍ بعيدة. كان الرجال الثلاثة يقفون أسفلَ مصباح الزيت المعلق بالضبط، وكانت مارجريت تراهم جميعًا بوضوح.

سأل شوفلان: «أهذا هو الرجل؟»

أجاب ديجا: «لا، أيها المواطن، لم نجد روبن؛ لذا يبدو أنَّ عربته قد غادرَت مع الغريب، لكن هذا الرجل هنا يبدو أنه يعرف شيئًا، وهو على استعدادٍ لبيعه بمقابلٍ مادي.»

قال شوفلان وهو يستدير مبتعدًا باشمئزازٍ عن النموذج الإنساني المقرف الواقف أمامه: «سحقًا!»

وقف اليهوديُّ جانبًا بتواضعٍ، متحليًا بصبر اليهود المميز، ومتكئًا على عصًا سميكةٍ معقودة، فيما كانت قبعته العريضةُ الحواف والمكسوَّةُ بالشحم تُلقي بظلٍّ عميق على وجهه المتسخ، في انتظار أن يتلطف نيافتُه النبيل بطرح بعض الأسئلة عليه.

قال شوفلان بنبرةٍ آمرة: «أخبِرَني المواطن بأنك تعرف شيئًا عن صديقي؛ الرجل الإنجليزي الطويل الذي أتمنَّى لقاءه.» وأضاف سريعًا عندما تقدم اليهوديُّ خطوةً سريعةً ومتلهفةً إلى الأمام: «اللعنة! التزِمْ بمسافتك يا رجل.»

ردَّ اليهودي الذي كان يتحدث اللغة بتلك اللَّثغة المميزة التي تنمُّ على أصوله الشرقية: «أجل فخامتك، أنا وروبن جولدشتاين التقينا برجلٍ إنجليزي طويل على قارعةِ الطريق بالقرب من هنا مساءَ اليوم.»

«هل تحدَّثتَ إليه؟»

«بل هو الذي تحدثَ إلينا فخامتك. أراد أن يعرف ما إن كان يستطيع استئجارَ حصانٍ وعربةٍ للذَّهاب على طريق شارع سان مارتين، إلى مكانٍ أراد أن يصلَ إليه الليلة.»

«ماذا قلتَ له؟»

أجاب اليهوديُّ بنبرةٍ مجروحة: «لم أقُل أيَّ شيء، روبن جولدشتاين، ذاك الخائن اللعين، ابن الشيطان ...»

قاطعَه شوفلان بفظاظة: «اختصر يا رجل، وأكمِل قصتك.»

«لقد أخذ الكلمات من على طرَف لساني فخامتك؛ عندما كنتُ على وشك أن أعرض على الإنجليزي الثريِّ حِصاني وعربتي لآخُذَه إلى أي مكان يختاره، كان روبن قد تكلم بالفعل، وعرض عليه فرسَه النحيلة المتضورة وعربتَه المحطَّمة.»

«وماذا فعل الإنجليزي؟»

«استمع إلى روبن جولدشتاين فخامتك، ووضَع يده في جيبه في اللحظة نفسِها، وأخرج قبضةً عامرةً بالذهب، وأراها لسليل بعلزبول ذاك، وأخبره بأنها كلَّها ستكون له وحده إذا كان الحصانُ والعربة جاهزَين في انتظاره بحلول السَّاعة الحاديةَ عشرة.»

«وبالطبع كان الحصان والعربة جاهزَين؟»

قال اليهودي بضحكةٍ مكتومةٍ خبيثة: «سحقًا! كانا جاهزين بعضَ الشيء، إن جاز لي التعبير يا صاحبَ الفخامة. ففرَسُ روبن كانت عرجاءَ كالعادة؛ وقد رفضَت أن تتزحزح في البداية، ولم يستطع إجبارها على التحرك إلا بعد بعضِ الوقت والكثيرِ من الركلات.»

«إذن فقد انطلقا؟»

«أجل، انطلقا منذ خمس دقائق تقريبًا. كنتُ مشمئزًّا من حماقة ذاك الغريب. وهو إنجليزيٌّ أيضًا! كان من المفترض أن يعرف أن فرس روبن لم تكن مناسبةً لتوصيله.»

«ولكن إذا لم يكن لديه خيار؟»

اعترَض اليهوديُّ بصوتٍ خشن مزعج قائلًا: «لم يكن لديه خيارٌ فخامتك؟ ألم أكرِّر عليه مائة مرة أن حِصاني وعربتي سيُوصلانه أسرعَ وأكثر راحةً من فرس روبن النحيلة الشبيهة بصُرة من العظام. لم يُصغِ إليَّ. فروبن أفَّاكٌ بارعٌ ولديه طرقُه في التملُّق. لقد خُدع الغريب. إن كان مستعجلًا، كان سيحصل على قيمةٍ أفضلَ مقابل نقوده بأخذِ عربتي.»

سأله شوفلان بلهجة آمرة: «إذن، لديك أنت أيضًا حصانٌ وعربةٌ؟»

«أجل! عندي يا صاحب الفخامة، وإن كنتَ فخامتك تريد أن تتجول ...»

«هل يتصادف أنك تعرف في أي اتجاهٍ ذهب صديقي بعربة روبن جولدشتاين؟»

فرك اليهودي ذقنَه القذرَ مفكرًا. وخفق قلب مارجريت موشكًا على أن ينفجر. كانت قد سمعَت السؤال الآمر؛ ونظرَت بقلقٍ نحو اليهودي لكنها لم تستطع أن تقرأ وجهه القابع في ظلِّ قبعته ذات الحافات العريضة. راودَها إحساسٌ غامض وشعرت بأن هذا الرجل، بطريقةٍ ما، يحمل مصيرَ بيرسي بين يدَيه الطويلتَين المتسختَين.

خيَّم سكوتٌ طويل، بينما كان شوفلان ينظر عابسًا بنفادِ صبرٍ نحو الهيئة المحدودبة أمامه؛ وأخيرًا وضع اليهوديُّ يده ببطءٍ في جيب صدره، وأخرج من أعماقه الواسعة عدةَ قطعٍ فِضِّية. وحدق إليها مفكرًا، ثم قال بنبرة هادئة:

«هذا ما أعطانيه الغريبُ الطويل عندما غادر مع روبن لأُمسِك لساني بشأنه وشأن أفعاله.»

هزَّ شوفلان كتفَيه بنفاد صبر.

وسأله: «كم معك هناك؟»

أجاب اليهودي: «عِشرون فرنكًا يا صاحب الفخامة، وأنا طوال حياتي رجل شريف.»

أخرج شوفلان بلا تعليقٍ آخر بضع قطع ذهبية من جيبه، وأبقاها في كفِّه وتركها تُصلصل وهو يمدها نحو اليهودي.

سأله بهدوء: «كم قطعةً ذهبيةً في كف يدي؟»

كان واضحًا أنه لم يكن يريد إرهابَ الرجل، بل استمالته من أجل أغراضِه الخاصَّة؛ لأن أسلوبه كان لطيفًا ودمثًا. فمن المؤكد أنه خشي إذا هدَّدَه بالمقصلة وما شابه من طرُق الإقناع الترهيبية الأخرى أن يُربك عقلَ الرجل المسن ويُشوِّش أفكاره، وارتأى أنَّ الطمع في المكسب من المرجَّح أن يكون أنفع من رهبة الموت.

ألقت عينا اليهودي نظرةً سريعةً متحمسةً على الذهب في يدِ مُحدِّثه.

وأجاب متزلفًا: «على الأقل خمسة، إن جاز لي القول يا صاحب النيافة.»

«تظنُّها كافيةً لفك لسانك الشريف؟»

«ما الذي ترغب في معرفته فخامتك؟»

«ما إن كان حِصانك وعربتك قادرَين على أخذي إلى حيث أستطيع إيجادَ صديقي الغريب الطويل الذي غادر في عربة روبن جولدشتاين؟»

«حصاني وعربتي قادران على أخذ سيادتك إلى حيثما تشاء.»

«إلى مكانٍ يدعى «كوخ الأب بلانشار»؟»

قال اليهوديُّ بذهول: «هل خمَّنتَ سيادتك؟»

«هل تعرف المكان؟»

«أعرفه سيادتك.»

«أيُّ طريقٍ يؤدي إليه؟»

«شارع سان مارتين سيادتك، ثم ممشًى من هناك إلى الجروف.»

كرَّر شوفلان بفظاظة: «أتعرف الطريق؟»

أجاب اليهوديُّ بهدوء: «كل حَجرٍ وكل ورقةِ عُشبٍ فيه سيادتَك.»

وبلا كلمةٍ أخرى، رمى شوفلان القطع الخمس من الذهب واحدةً تِلو الأخرى أمام اليهودي، الذي انحنى أرضًا، وجمَعها بمشقةٍ بالغة وهو جاثٍ على يدَيه ورُكبتَيه. تدحرجَت إحداها بعيدًا، وتكبَّد بعض العناء لإيجادها لأنها كانت قد دخلَت تحت الخِزانة. انتظر شوفلان بهدوءٍ بينما زحَف الرجل على الأرض ليجد قطعةَ الذهب.

وعندما عاود اليهوديُّ الوقوف على قدميه مجددًا، قال شوفلان:

«متى سيكون حِصانك وعربتك جاهزَين؟»

«إنهما جاهزان الآن سيادتك.»

«أين؟»

«على بُعد أقلَّ من عشَرة أمتارٍ من هذا الباب. هل تتفضَّل فخامتك وتنظر؟»

«لا أريد أن أراها. إلى أيِّ مدًى يُمكنك أن تقودني بها؟»

«حتى كوخ الأب بلانشار سيادتك، وأبعدَ ممَّا أخذَت فرسُ روبن صديقَك. أنا متيقنٌ من أننا، على بُعد أقلَّ من فرسخَين من هنا، سنُصادف روبن الخبيثَ ذاك، وفرسه وعربته والغريبَ الطويل كلهم مكوَّمين وسط الطريق.»

«كم تبعد أقربُ قريةٍ من هنا؟»

«على الطريق الذي سلكه الإنجليزي، ميكْلون هي القرية الأقرب، لا تبعد أكثرَ من فرسخَين عن هنا.»

«أيمكنه أن يحصل على وسيلةِ نقلٍ جديدةٍ إن أراد الابتعادَ أكثر؟»

«يمكنه ... إن استطاع أصلًا الوصول إلى ذلك الحد.»

«أتستطيع أنت؟»

قال اليهودي ببساطة: «هلَّا جرَّبت فخامتك؟»

قال شوفلان بهدوءٍ شديد: «هذا ما أنوي فعله، لكن تذكَّرْ أنك إن خدعتَني، فسآمرُ أقوى جنديَّين عندي بأن يضرباك حتى تُفارق أنفاسُك جسدَك القبيح للأبد. لكن إن وَجَدْنا صديقي الإنجليزي، على الطريق أو في كوخ الأب بلانشار، فستكون لك عشرُ قطعٍ ذهبيةٍ أخرى. هل تقبل الاتفاق؟»

حكَّ اليهودي ذقنَه مفكرًا مجددًا. نظر إلى المال في يده ثم إلى مُحدِّثه المتجهِّم، ثم إلى ديجا الذي كان واقفًا في صمتٍ خلفه طوال هذا الوقت. وبعد سكوتٍ لحظي، قال بتروٍّ: «أقبل.»

قال شوفلان: «اذهب وانتظر في الخارج إذن، وتذكر أن تفيَ بالمطلوب منك في الاتفاق، وإلا أقسم بالرب أنني سأُنفِّذ وعيدي.»

وبانحناءةٍ أخيرة خانعةٍ ومتذللة جدًّا، جرَّ اليهودي قدمَيه خارجًا من الغرفة. بدا شوفلان مسرورًا بالمقابلة؛ لأنه فرك يدَيه معًا بتلك الإيماءة المعتادة التي تنمُّ على رضًا خبيث.

قال لديجا أخيرًا: «معطفي وحذائي الطويل الرقبة.»

ذهب ديجا إلى الباب، ومن الواضح أنه أعطى الأوامرَ اللازمة؛ لأنه سرعان ما دخل جنديٌّ من الباب حاملًا معطفَ شوفلان وحذاءه الطويلَ الرقبة وقبعته.

خلع شوفلان جُبَّته التي كان يرتدي تحتها بنطالَ ركوبٍ وصِدارًا قُماشيًّا ضيقَين، وبدأ يبدِّل ملابسه.

قال لديجا: «أما أنت أيها المواطن فعُد، في هذه الأثناء، إلى الكابتن جوتلي بأسرعِ ما يُمكنك وأخبِرْه بأن يُعطيك دُزينةً أخرى من الرجال، وأحضرهم معك إلى شارع سان مارتين، حيث ستلحقون بعربة اليهودي وأنا بداخلها قريبًا على الأرجح. سيكون لدينا عملٌ مثير عمَّا قريبٍ جدًّا، إن لم أكن مخطئًا، في كوخ الأب بلانشار. سنُحاصِر صيدَنا هناك؛ لأن سكارليت بيمبرنيل الوقح ذاك لديه ما يكفي من الجُرأة — أو الغباء، لا أستطيع أن

أحدِّد — للالتزام بخطته الأصلية. لقد ذهب للقاءِ توريناي وسان جوست وبقية الخونة، مع أنني ظننتُ للحظةٍ أنه ربما تراجع عن فعل ذلك. عندما نجدهم، سيكونون عُصبةً من الرجال اليائسين المحاصرين وسيُضْطَرُّون إلى الدفاع عن أنفسهم بضراوة. أظن أنَّ بعض رجالنا سيسقطون صرعى، فأولئك الملَكيُّون مُبارِزون جيدون، وذاك الإنجليزي ماكرٌ كشيطان، ويبدو قويًّا جدًّا. ولكننا سنكون خمسةً ضدَّ كلٍّ واحد منهم على الأقل. يمكنك أن تتبع العربة عن قربٍ مع رجالك في شارع سان مارتين عبر ميكلون. سيكون الإنجليزي متقدمًا علينا، ولن ينظر خلفه على الأرجح.»

بينما كان يُملي هذه الأوامرَ المقتضبة الموجزة، كان قد أكملَ تبديل ملابسه. وضع زيَّ القسيس جانبًا، وصار مرتديًا ملابسه الدَّاكنة الضيقة مجددًا. وأخيرًا التقط قبعته.

قال بضحكةٍ مكتومة وهو يتأبط ذراعَ ديجا بأُلفةٍ غير معتادةٍ ويقوده نحو الباب: «سيكون لديَّ سجينٌ شائق أضعُه بين يديك. لن نقتله فورًا يا صديقي ديجا، هه؟ إن لم أكن مخطئًا، فكوخ الأب بلانشار مكانٌ منعزل مهجور على الشَّاطئ، ورجالنا سيستمتعون بالقليل من التسلية العنيفة هناك مع الثعلب الجريح. انتقِ رجالَك بعنايةٍ يا صديقي ديجا ... من الصنف الذي يتلذَّذُ بذاك النوع من التسلية، هه؟ لا بد أن نرى سكارليت بيمبرنيل ذاك ذابلًا قليلًا — أليس كذلك؟ — منكمشًا ومرتعدًا، هه؟ ... قبل أن نُقدِم أخيرًا على ...» أتى بحركة معبِّرة بيده، وهو يضحك ضحكةً خسيسة شريرةً ملأت روحَ مارجريت برعبٍ مقزز.

قال مرةً أُخرى وهو يقود سكرتيره أخيرًا إلى خارج الغرفة: «انتقِ رجالك بعناية، أيها المواطن ديجا.»

الفصل السابع والعشرون

تَعَقُّب

لم تتردَّد مارجريت بليكني ولو لحظةً واحدة قَط. كانت آخر الأصوات خارج نزل «القط الرمادي» قد تلاشت في سكون الليل. كانت قد سمعت ديجا يُملي أوامرَ على رجاله، ثم ينطلق نحو المَعقلِ ليحصلَ على دعمٍ بدُزينةٍ أخرى من الرجال؛ فستةٌ لم يكونوا كافِينَ للإمساك بالإنجليزي الماكر، الذي كان عقله الواسعُ الحيلة أخطرَ بكثير من بسالته وقوته.

وبعد بِضع دقائق، سمعَت صوت اليهودي الأجش مجددًا، وكان من الواضح أنه يَصِيحُ في حِصانه العجوز، ثم قعقعةَ العجلات وضجيجَ عربةٍ متهالكةٍ تسير متخبِّطةً على الطريق الوعر.

أمَّا داخل النزل، فكان كل شيءٍ ساكنًا. لم يُظهر بروجار وزوجته أيَّ إشارةٍ على الحياة من شدةِ ذُعرهما من شوفلان؛ كانا يرجُوان أن يُنسَيا، وأن يظَلا هكذا دون أن يشعر بهما أحدٌ بأي حال؛ إذ لم تتمكَّن مارجريت حتى من سَماع تمتمتهما المعتادةِ بالسِّباب.

انتظرَت بضع لحظات أخرى، ثم تسلَّلتْ نازلةً عبر الدرجات المكسورة، وتدثَّرَت بمعطفها الدَّاكن بإحكامٍ وتسللَت خارجةً من النزُل.

كان ظلام الليل دامسًا، بما يكفي لإخفاء هيئتها الدَّاكنةِ عن الأنظار بأي حال، بينما ظلَّت أذناها المرهفتان تتبعان صوتَ العربة السائرة في الأمام. كانت تأمُل، بالبقاء في ظلمة القنوات الجافة الممتدَّة على حافَة الطريق، ألَّا يراها رجالُ ديجا عندما يقتَربون أو دوريَّات الحراسة، التي استنتجَت أنها ما زالت مُناوِبة.

وهكذا بدأَت المرحلةَ الأخيرةَ من رحلتها المُرهِقة، وحدها في هذا الليل وسائرة على قدمَيها. كانت عاقدة العزم على السير نحو ثلاثةِ فراسخ إلى ميكلون، ثم إلى كوخ الأب

بلانشار، ولم تكن تعبأ بالبقعة الخطرة التي قد يوجد فيها هذا المكان، الذي من المرجح أن يكون على طريقٍ وعرٍ.

لم يكن حصان اليهُودي العجوز ليتمكَّن من التقدُّم سريعًا، ومع أنَّ مارجريت كانت مُتعَبة من الإرهاقِ الذهني والإجهاد العصبي، كانت متيقنةً من أنها تستطيع مُجاراة الحصان العجوز بسهولةٍ على طريقٍ شديد الانحدار، حيث سيتحتَّم السماحُ للحيوان المسكين، الذي لا بدَّ أنه يكاد يتضوَّر جوعًا، بأخذِ أوقاتِ راحةٍ طويلةٍ ومتكَرِّرة. كان الطريق على مسافةٍ من البحر، محاطًا من كِلا الجانبَين بشُجيرات وأشجارٍ مقزَّمة مكتسيةٍ بأوراق ضئيلة قليلة، مُعرِضة كلها عن اتجاه الشمال بفروعها التي بَدَت في الغَبَشِ كشَعرٍ شبَحي متيبسٍ تُحركه ريح مستمرة.

من حُسن الطالع أن القمر لم يُظهِر رغبةً في البزوغ من بين السحُب، وكانت مارجريت في مأمنٍ كبير من الأنظار لأنها كانت مُلاصقة لحافة الدَّرب وظلَّت قريبةً من صف الشجيرات. كان كلُّ شيءٍ حولها ساكنًا جدًّا، ما عدا صوتَ البحر البعيد، الذي كان يأتي من مسافةٍ قَصية، قَصية جدًّا، كأنينٍ خافت طويل.

كان الهواء شديدًا ومفعَمًا برائحة ملح البحر؛ وبعد مرحلة الخمول الإجبارية التي عاشتها مارجريت داخل النزُل القذر الكريهِ الرائحة، كان من المفترض أن تستمتع بشذَى هذه الليلة الخريفية الحلو، ولَجَبِ الأمواج الحزين البعيد، وأن تتلذَّذ بهدوءِ هذه البقعة المنعزلة وسكونها، هدوء لم تكن تقطعه إلا على فتراتٍ متقطِّعة صيحةٌ حادَّةٌ وكئيبةٌ من أحد النوارس البعيدة، وصرصرةُ عجلةٍ قادمة من مكانٍ ما على الطريق؛ كان من المفترض أن تُحب الجوَّ البارد والامتداد الشاسع للطبيعة المسالمة في هذا الجزء المنعزل من الساحل، لكنَّ قلبها كان مفعمًا بالتشاؤم القاسي، بألمٍ شديدٍ وشوقٍ إلى كائنٍ أصبح عزيزًا عليها مَعزَّة لا حد لها.

كانت قدماها تنسابان بسرعة وصمت على الحدِّ الجانبي العُشبي المحاذي للطريق؛ لأنها ارتأتْ أنَّ السَّير بالقرب من وسط الطريق لن يكون آمنًا لها، ووجدَت أنَّ مواصلة السَّير بوتيرةٍ سريعة على المنحدر الموحِل ستكون صعبة. حتى إنها ارتأت أنه من الأفضل ألا تقتربَ من العربة أكثرَ مما ينبغي؛ فكل شيء كان ساكنًا جدًّا لدرجة أنَّ صرير العجلات سيكون مُرشِدًا موثوقًا لا محالة.

كانت الوَحدَةُ مطلقة. فأضواء كاليه القليلة الخافتة قد صارت في الخلف بمسافةٍ بعيدة بالفعل، ولم تكن توجد على هذا الطريق علامةٌ على الاستيطَان البشري، ولا حتى

كوخ صيَّادٍ أو حطَّاب في أيِّ مكانٍ قريب، وعلى مسافةٍ بعيدةٍ على يمينها، كانت توجد حافة الجرف، وأسفلَها يقع الشاطئُ الصخريُّ الذي كان المدُّ يدفع بنفسه مُصطدِمًا به بهمهمةٍ بعيدة مستمرَّة. أمَّا أمامها، فكان صريرُ العجلات التي تحمل عدوًّا لا يرحم إلى انتصاره.

تساءلَت مارجريت في أيِّ بقعة بالضَّبط، على هذا الشاطئ المنعزِل، يمكن أن يكون بيرسي موجودًا الآن. من المؤكَّد أنه ليس بعيدًا؛ لأنه انطلق قبل شوفلان بأقلَّ من ربع ساعةٍ. تساءلَت عمَّا إن كان يعلم أنَّ هذا الجزءَ الهادئ من فرنسا العَبِق برائحة البحر يعجُّ بالعديدِ من الجواسيس، وكلُّهم متلهِّفون لرؤيةِ هيئتِهِ الطَّويلة ليتبَعوه إلى حيثُ ينتظره أصدقاؤُه المطمئنُّون، ثم يُطبقون الشِّباكَ عليه وعليهم.

كان شوفلان في الأمام يهتزُّ ويترَجرَج في عربةِ اليهودي، محتضِنًا أفكارًا مريحة. فركَ يدَيه معًا برِضًا، كما لو كان يفكر في الشبَكة التي حاكها، والتي لن يكون لذاكَ الإنجليزي الجريء الذي يظهر في كل مكان أملٌ في الهرب منها. وبينما كان الوقت يمضي، كان اليهوديُّ المسن يقوده بوتيرةٍ متمهلة لكنها ثابتة على طول الطريق المظلم، وكانت لهفة شوفلان تتزايد في انتظار النهاية الكُبرى لهذه المطارَدةِ المثيرة التي يُلاحق فيها سكارليت بيمبرنيل الغامض.

سيكُون القبض على ذاك المخطِّطِ المغوار أعظمَ ورقَةِ شجرٍ في إكلِيلِ مجد المواطن شوفلان. فبالقبض عليه متلبسًا، في المكان والزَّمان، بمُساعدة الخوَنة وتحريضهم ضدَّ الجمهوريَّة الفرنسية، لن يتمكَّن الإنجليزيُّ من طلب الحماية من بلاده. وعلى أي حال، كان شوفلان عاقدًا العزمَ على أن يكون أوانُ أيِّ تدخل قد فات بالفعل.

لم يخالج قلبَه أدنَى ندَم مطلقًا ولو لحظةً واحدة بشأن الموقف الذي وضعَ فيه الزوجةَ المسكينة، التي وشَتْ بزَوجها بلا إدراك. ففي الحقِيقَة، لقد توقَّف شوفلان عن التَّفكير فيها أصلًا؛ إذ كانَت له مجردَ أداةٍ مفيدة ليس إلَّا.

كان حصان اليهودي الهزِيل قادرًا بالكاد على ما هو أكثر من المشي، كان يمضِي بهروَلةٍ بطيئَة، وكان على سائقه أن يُعطيَه توقفات طويلةً ومتكرِّرة.

كان شوفلان يسأله بين الحين والآخر: «هل ما زلنا بعيدين عن ميكلون؟»

وكان الجواب الهادئ المتكرر دائمًا هو: «لسنا بعيدين جدًّا، سيادتك.»

علَّق شوفلان ساخرًا: «لم نُصادف صديقك وصديقي متكوِّمَينِ في الطَّريقِ بعد.»

ردَّ ابن موسى: «صَبرًا يا صاحبَ النِّيافةِ النَّبيل، إنهما أمامنا. أستَطيع أن أرى آثارَ عجلاتِ العربةِ التي يقودها الخائنُ ابن العمَاليقِ ذاك.»

«أنتَ متيقنٌ من الطريق؟»

«بقدر يقيني من وجود القِطَع العشر الذَّهبية تلك في جُيوب صاحبِ الفخامة النَّبيل، التي أثقُ في أنها ستكونُ لي قريبًا.»

«حالما أصَافح صديقي الطَّويل، ستكُون لك بالتَّأكيد.»

قال اليهُودي فجأةً: «أنصِت، ما كان ذلك؟»

كان يمكن الآن سَماعُ صوت حوافِر أحصنةٍ على الطَّريق المُوحل خلال السكون المُطلَق.

أضاف هامِسًا برهبة: «إنَّهم جنود.»

قال شوفلان: «توقَّف لحظة، أريدُ أن أسمع.»

كانت مارجريت أيضًا قد سمعت صوتَ خبَبِ حوافرَ قادمة نحو العربة ونحوها. ظلَّت متأهبةً بعضَ الوقت ظنًّا منها أن ديجا وجماعته سيُدركونهم قريبًا، لكنَّ هؤلاء الوافدين جاءوا من الاتجاه المعاكس، قادمين من ميكلون على الأرجح. منحها الظلامُ سِترًا كافيًا. أحسَّت بأنَّ العربة قد توقَّفَت، فمشَت بحذرٍ بالغ دون أيِّ صوت على الطَّريق الأملس، وتسلَّلتْ مُقتربةً قليلًا.

كان قلبها يخفق سريعًا، وكانت أطرافها كلها ترتجف؛ إذ كانت قد خمَّنَت بالفعل ماهيَّةَ الخبر الذي جاء به هؤلاء الرجال الرَّاكبون. «كلُّ غريبٍ على هذه الطرق أو على الشَّاطئ يجب أن يُتعقَّب كظلِّه، خصوصًا لو كان طويلًا أو محدودبًا كما لو كان يُخفي طوله، وعند رؤيته، يجبُ أن يأتيَ راكبًا رسولٌ في الحال ويُبلغَ عن ذلك.» تلك كانت أوامرَ شوفلان. فهل شوهِد الغريب الطَّويل إذن، وهل هذا هو الرَّسول الراكب حاملًا معه الخبرَ العظيم، أنَّ الأرنبَ المُلاحَق قد وضع رأسه في أنشوطة الحبل أخيرًا؟

بعدما أدركَت مارجريت أن العربة قد توقَّفت تمامًا، تمكَّنَت من الاقتراب متسللةً في الظلام؛ اقتربَت متسللةً خِلسة على أملِ أن تستطيع سَماع ما سيقوله الرَّسول.

سمعت كلمات التحدي السَّريعة:

«الحرية، الإخاء، المساواة!» ثمَّ استفسارَ شوفلان بسرعة:

«أيُّ أخبار؟»

كان رجُلانِ راكبان على صهوة حِصانيهما قد توقَّفا بالقُرب من العربة.

رأت مارجريت هيئتَيهما مظللتين أمام سماء منتصف الليل. استطاعت سماع أصواتهما، وخُوار حصانيهما، والآن، سمعَت من خلفها، وعلى مسافة بعيدة قليلًا، الخطواتِ المنتظمةَ الإيقاعية لمجموعة رجال تقترب: ديجا وجنوده.

خيَّم سكوتٌ طويل، ومن المؤكد أنَّ شُوفلان أكَّد هُويَّته للرجلَين أثناء هذا السكوت؛ لأن الأسئلة والأجوبة قد تلاحقَت بسُرعةٍ بعده فورًا.

سأل شوفلان بلهفة: «هل رأيتُم الغريب؟»

«لا، أيها المواطن، لم نرَ غريبًا طويلًا؛ وصلنا حتى حافةِ الجرف.»

«ثم؟»

«بعد ميكلون بأقلَّ من ربع فرسَخٍ، صادفنا بناءً خشبيًّا غيرَ مكتملٍ، بدا ككوخ صيَّادٍ ربما يُبقِي فيه أدواته وشِبَاكه. عندما لمحناه أول مرة، بدا فارِغًا وظننَّا في البداية أنه غيرُ مثير للريبة إطلاقًا، حتى رأينا بعضَ الدُّخانِ ينبعثُ من فجوةٍ في أحدِ جوانبه. ترجَّلتُ عن الحصان وتسلَّلتُ مقتربًا منه. كان فارغًا آنذاك، ولكن في أحد أركان الكوخ، كانت توجد جذوة نيران مشتعلة بالفحم وكان يوجد مقعَدان في الكوخ كذلك. تشاورتُ مع رفاقي، واتفقنا على أن يختبئوا مع الأحصِنة، بعيدًا عن الأنظار تمامًا، وأبقى أنا للمراقبة، وهذا ما فعلته.»

«حسنًا، وهل رأيتَ أي شيء؟»

«بعد نحو نصفِ ساعة، سمعتُ أصواتًا أيها المواطن، وبعدها فورًا، جاء رجلان باتجاه حافة الجُرف؛ بدا لي أنهما جاءا من طريقِ مدينة لِيل. أحدُهما كان شابًّا والآخر كان شيخًا هَرِمًا تمامًا. كانا يتحادثان همسًا، ولم أتمكن من سماع ما قالاه.»

أحدُهما شابٌّ والآخر شيخ هَرِم تمامًا. كاد قلب مارجريت المَوجُوع يتوقَّف عن النبض وهي تسمع ذلك: فهل الشاب هو أرماند؟ — أخوها؟ — والشيخ الهَرِم هو تورناي؟ هل هما المطارَدان اللذان يُستخدَمان كطُعمٍ، دونَ وعيٍ منهما، للإيقاع بمُنقِذهما الشجاع النَّبيل؟

تابع الجندي بينما بدا أنَّ أعصاب مارجريت المتألِّمة التقطَتْ صوت ضحكة شوفلان المكتومة المنتصرة: «بعد قليلٍ عاد الرجلان إلى الكوخ، وتسلَّلتُ مقتربًا حينها. الكوخ مبنيٌّ على نحوٍ سيِّئ جدًّا، واستطعتُ أن ألتَقط شذراتٍ من حديثهما.»

«حقًّا؟ ... بسرعة! ... ماذا سمعت؟»

«سأل الشيخُ الهَرِمُ الشابَّ عما إن كان واثقًا من أن ذلك هو المكان الصحيح. فأجاب: «أوه أجل، إنه المكانُ بالتأكيد»، وعلى ضوء الفحم المشتعِل أظهر لصاحبه ورقةً كان يحملها. قال: «هذه هي الخُطة التي أعطانيها قبل أن أغادر لندن. اتفقنا على الالتزام بتلك الخطة بحذافيرها، إلا إذا تلقيتُ أوامرَ مختلفة، وأنا لم أتلقَّ أي شيء. هذا هو الطريق الذي تبعناه، انظر ... وهذا هو مفترَق الطُّرق ... وهنا قطعنا الطريق عبر شارعِ سان مارتين ... وهنا الممشى الذي أوصلنا إلى حافة الجرف.» لا بد أنني حينها أصدرتُ ضوضاء خفيفة؛ لأن الشابَّ جاءَ إلى باب الكوخ وأمعنَ النَّظر حوله بقلق. وعندما انضمَّ إلى صاحبه مجددًا، كانا يتهامسان بصوتٍ خفيض جدًّا، لدرجة أنني لم أعُد أسمع كلامهما.»

سألَ شوفلان بنفادِ صَبر: «حسنًا؟ ... وبعدئذٍ؟»

«كان عددُنا الإجماليُّ ستة، وكنا نحرس ذاكَ الجزء من الشاطئ؛ لذا تشاوَرْنا وارتأينا أنه من الأفضل أن يَبقى أربعةٌ لمراقبة الكوخ، ونأتيَ أنا ورفيقي راكبَين فورًا لنُبلِغَ عمَّا رأيناه.»

«ألم ترَ أي أثر للغَريب الطَّويل؟»

«لا شَيء أيُّها المواطن.»

«إن رآهُ رفاقك، فماذا سَيفعلون؟»

«لن يدَعوه يُفارق أنظارَهم لحظةً، وإن أظهرَ أمارات على الهرب، أو ظهر أيُّ قارب في مرمى النظر، فسيُحاصِرونه، وإن لزم الأمر، فسيُطلِقون النار، وصوتُ إطلاق النار سيجلِبُ بقيَّة أفراد دورية الحراسة إلى المكان. بأي حال من الأحوال لن يتركوا الغريبَ يذهَب.»

تمتَم شُوفلان بشراسَة: «أجَل! لكني لا أريدُ أن يتأذَّى الغريب ... ليس بعد، لكن على أي حال، لقد بذلتم كلَّ ما في وسعكم، لتُساعِدْني الأقدار على ألَّا أتأخَّرَ كثيرًا ...»

«لقد قابلنا نِصف دُزينة من الرِّجالِ قبلَ قليل، وكانوا يحرسون هذا الطريق طوال الساعات الماضية.»

«وإذن؟»

«هم أيضًا لم يرَوا أيَّ غريبٍ.»

«لكنه أمامنا في مكانٍ ما، في عرَبةٍ أو شيءٍ آخر. اسمَع! ليست لدينا لحظة نُضيعها. كم يبعُد ذلك الكوخُ عن هنا.»

«نحو فرسَخَينِ أيُّها المواطن.»

«أيمكنُك أن تجِدَه مجددًا؟ ... فورًا؟ ... وبلا تردُّد؟»

«ليس لديَّ أي شكٍّ أيها المواطن.»

«والمشى، المؤدي إلى حافة الجُرف؟ ... حتى في الظَّلام؟»

كرر الجندي بحزم: «إنها ليسَت ليلةً ظلمَاء أيُّها المواطن، وأنا متيقنٌ من أنني أستطيع أن أتبين طريقي.»

«ترجَّل وامشِ وراءنا إذن، ودَعْ رفيقَك يأخُذ كِلا الحصَانين عائدًا إلى كاليه. لن تحتاج إلى أيٍّ منهما. ابقَ بجانِب العربة ووجِّه اليهوديَّ ليَقُود العربة مباشرةً إلى الأمام، ثم أوقِفه على بُعد ربع فرسخ من الممشى، واضمَن أنه يسلُك أكثر الطُّرق اختصارًا.»

بينما كان شوفلان يتحدَّث، كان ديجا ورجاله يقتربون بسرعة، واستطاعت مارجريت أن تسمع وقْعَ أقدامهم على مسافة مائة ياردة خلفها الآن. ارتأت أنه من غير الآمن ومن غير الضروريِّ أيضًا أن تبقى في مكانها؛ لأنها قد سمعت ما يكفي. بدَت فجأةً وكأنها فقَدَت كل قدراتها، حتى قدرتها على المُعاناة، بدا أن الخَدَر قد أصاب قلبَها وأعصابها وعقلها بعد كل هذه السَّاعاتِ من الألم المستمر، الذي تُوِّج في النهاية بهذا اليأس الرَّهيب.

لم يكن يوجد في هذه اللَّحظة أيُّ بصيصٍ من الأمل إطلاقًا. ففي نطاق فرسخَين قصيرَين من هذا المكان، كان المُطارَدون ينتظرون مُحرِّرَهم الشُّجاع. وكان هو في طريقه، في مكانٍ ما على هذا الطَّريق المنعزل، وسينضمُّ إليهم عمَّا قريب، وبعدها سيُطبَقُ عليهم الفخُّ المنصوب بإحكام؛ ستُطوِّق دُزينتان من الرجال، بقيادة رجلٍ ذي كراهية قاتلة بقدر خُبث دهائه، جماعةَ المُطارَدين الصغيرة وقائدهم الجسور. سيُمسكون بهم جميعًا. وبحسبِ ما تعهَّد به شوفلان، فأرماند سيُعادُ إليها، لكن زوجها بيرسي، الذي بدا أنها تزداد حبًّا له وولهًا به مع كل نفَس تتنفسه، سيقع في يدَي عدوٍّ عديم الرَّحمة لا يحمل شفقةً لقلب شجاعٍ ولا تقديرًا لشجاعةِ روحٍ نبيلة، عدوٍّ لن يُظهر سوى الكراهيةِ لخصمه المَاكر الذي تلاعبَ به وحيَّره زمنًا طويلًا جدًّا.

سَمِعت الجندي يُعطي اليهوديَّ بضعة توجيهات موجَزة، ثم انزوَت بسرعةٍ إلى حافة الطريق وجثَمَت خلف بعض الشجيرات المنخفضة، بينما وصل ديجا ورجاله.

اصطفُّوا كلهم خلف العربة بلا ضجيج، وبدَءوا ببطءٍ يسيرون جميعًا على الطريق المظلم. انتظرَت مارجريت حتى شعرَت بأنهم قد ابتعدوا عن نطاق سمعهم، ثم تسللَت هي أيضًا بلا ضجيج في الظلمة التي بدا أنها قد أصبحَت أشدَّ عتمةً فجأة.

الفصل الثامن والعشرون

كوخ الأب بلانشار

تابعَت مارجريت اللَّحاق بهم كأنها في حلم؛ كان الخناق يزداد ضيقًا في كل لحظةٍ على حياة حبيبها التي صارت أعزَّ لديها من أيِّ حياةٍ أخرى. وأصبح هدفها الوحيد أن ترى زوجها مجددًا، لتُخبره كم عانت، وكم أخطأت، وكم أساءت فَهمه. لقد تخلَّت عن أي أملٍ في إنقاذه؛ إذ رأته يُطوَّق تدريجيًّا من جميع الاتجاهات، وكانت تُحدِّق يائسةً في الظلام من حولها، وتساءلتْ من أين سيأتي عما قريب، ليقع في الفخِّ المميت الذي نصَبه له عدوُّه المجرد من الشفقة.

جعلها هديرُ الأمواج البعيد ترتعش الآن؛ وكانت صيحاتُ البوم أو النوارس الكئيبة بين الفَينة والأخرى تملؤها برعبٍ لا يوصَف. فكَّرَت في الوحوش المفترسة — المخلوقة في هيئةٍ بشرية — التي تتربَّص بفريستها وتقضي عليها بلا رحمة كأي ذئبٍ جائع، لإرضاء شهوة الكراهية لديها. لم تكن مارجريت خائفةً من الظلام، فلم تكن تخشى سوى ذاك الرجل، الموجود في المقدمة، الجالس في قعر عربةٍ خشبيةٍ متهالكة، ويحمل أفكارًا انتقامية من شأنها أن تجعل شياطينَ الجحيم أنفسهم يضحكون من السعادة.

كانت قدَماها تؤلمانها، وكانت رُكبتاها ترتجفان من شدة التعب الجسدي الهائل. لقد عاشت في اضطرابٍ جامح من الانفعال طوال الأيام الماضية؛ ولم تنَل أيَّ قسطٍ من النوم طَوال ثلاث ليال؛ والآن، كانت قد مشَت على طريقٍ زلقٍ طَوال ساعتَين، ولكن لم يتزعزع عزمُها إطلاقًا ولو لحظةً واحدة. سترى زوجها وستُخبره بكل شيء، وإن كان مُستعدًّا لغُفران الجريمة التي ارتكبتها بجهلها الأعمى، فربما ستنال سعادةَ الموت بجواره.

من المؤكَّد أنها كانت تسير شِبه فاقدةٍ للوعي، وكانت غريزتها فقط هي التي تُبقيها مستيقظةً وتُرشدها إلى الطريق في أعقابِ عدوِّها، عندما أوحَت إليها أذناها المرهفتان المنتبهتان إلى أخْفَتِ صوت، فجأة، بالغريزة العمياء نفسِها، بأن العربة قد توقفَت وأن

الجنود وصلوا إلى وجهتهم. ولا شك أن الممشى الذي يقود إلى حافَة الجرف وإلى الكوخ كان يقع في مكانٍ قريب أمامها على اليمين.

تسلَّلتْ غيرَ عابئةٍ بأي مخاطر، واقتربَت بشدةٍ من حيث كان شوفلان واقفًا، محاطًا بكتيبته الصغيرة، كان قد نزل من العربة وكان يُملي بعضَ الأوامر على الرجال. هذا ما أرادت سَماعه؛ فالفرصة الضئيلة التي ما زالت لديها لتُقدِّم نفعًا لبيرسي كانت تعتمد على سَماعها لكلِّ كلمةٍ عن خطط عدوه.

لا بد أن البقعة التي توقَّفت فيها المجموعة كانت تبعد نحوَ ثمانمائة مترٍ عن الساحل؛ فصوت البحر كان يأتي خافتًا جدًّا كما لو كان آتيًا من بعيد. انعطف شوفلان وديجا متبوعَين بالجنود فجأةً نحو يَمْنة الطريق، إلى الممشى الذي يقود إلى الجرف على ما يبدو، وبقيَ اليهودي على الطريق بعربته وحصانه.

وبحذرٍ لا متناهٍ، زحفَت مارجريت حرفيًّا على ركبتَيها ويدَيها، وانعطفَت نحو اليمين أيضًا؛ ومن أجل ذلك، اضطُرَّت إلى التسلُّل عبر الشجيرات المنخفضة الخشنة، محاوِلةً إحداث أقلِّ ضجيجٍ ممكن وهي تَمضي قُدمًا، جارحةً وجهَها ويدَيها من الاحتكاك بالأغصان الجافة، وعازمةً فقط على السمع دون أن يراها أو يسمعَها أحد. ومن حُسن الحظ أن الممشى — كما هو معتادٌ في هذه المناطق من فرنسا — كان يحدُّه سياجٌ شجريٌّ خشنٌ منخفض، خلفه قناةٌ جافَّةٌ مليئةٌ بالعُشب الكثيف الكبير السيقان. وهكذا استطاعَت مارجريت أن تجدَ في ذلك مأوًى لها؛ إذ كانت مَخفيَّةً تمامًا عن الأنظار، لكنَّها مع ذلك تمكنَت من الوصول إلى نطاق ثلاث ياردات من المكان الذي كان شوفلان يقف فيه وهو يُملي الأوامرَ على رجاله.

كان يتكلم بهمس خافتٍ آمر: «حسنًا، أين كوخ الأبِ بلانشار؟»

قال الجنديُّ الذي كان مؤخرًا يُرشد المجموعة: «على بُعد ثَمانمائة مترٍ من هنا بمحاذاة الممشى، وفي منتصف المسافة نحو أسفل الجرف.»

«جيدٌ جدًّا. سوف تسبقنا. فقبل أن نبدأ نزول الجرف، ستتسلَّل نحو الكوخ بالأسفل بلا ضجيجٍ قدر الإمكان، وتتيقَّن مما إن كان المَلَكيُّون الخونة هناك؟ فهمت؟»

«فهمتُ أيها المواطن.»

تابع شوفلان كلامه بطريقةٍ مؤثرةٍ مخاطبًا الجنودَ بشكلٍ جماعي: «الآن، أصغوا إليَّ جميعًا بانتباهٍ شديد؛ لأننا قد لا نتمكَّن من تبادل أيِّ كلمةٍ أخرى بعدئذٍ؛ لذا تذكروا

كلَّ حرفٍ أنطق به كما لو كانت حياتكم نفسها تعتمد على ذاكرتكم.» وأضاف بواقعيةٍ جامدة: «فربما تكون كذلك بالفعل.»

قال ديجا: «نحن نُصغي أيها المواطن، وجندي الجمهورية لا ينسى أوامره أبدًا.»

«أنت، الذي كنتَ قد تسللت إلى الكوخ، ستحاول استراقَ النظر داخله. إن كان يوجد رجلٌ إنجليزي هناك مع أولئك الخونة، رجلٌ طوله خارق، أو يحدب نفسه متعمدًا كما لو أنه يريد إخفاءَ طوله، عندئذٍ أطلِق صافرةً حادةً سريعة إشارةً لرفاقِك.» وأضاف متحدثًا إلى الجنود بصيغة الجمع مجددًا: «جميعكم عندئذٍ ستُحاصرون الكوخ وتقتحمونه سريعًا، وسيُمسك كلٌّ منكم بواحدٍ منهم قبل أن يتَسنَّى لهم إشهارُ أسلحتهم النارية؛ إن قاوم أحدٌ منهم، فأطلِقوا النار على ساقِه أو ذراعِه، لكن لا تقتلوا الرجل الطويل تحت أي ظرف. أفهمتم؟»

«فهمنا أيها المواطن.»

«الرجل ذو الطول الخارق من المرجَّح أن يكون ذا قوةٍ خارقة أيضًا؛ سيحتاج التغلبُ عليه إلى أربعةٍ أو خمسة منكم.»

خيَّم سكوتٌ لحظي قصير، ثم تابع شوفلان:

«إن كان الخونة الملَكيُّون لا يزالون وحدهم، وهذا هو الاحتمال الأرجح، فعندئذٍ حذِّر رفاقك المتربصين هناك، ولتتسلَّلوا كلكم وتختبئوا خلف الصخور والجلاميد المحيطة بالكوخ، وانتظروا هناك، في صمتٍ تام، ريثما يصل الإنجليزي الطويل، وعندها فقط، اقتحموا الكوخ، عندما يُصبح الرجل مستقرًّا تمامًا داخل أبوابه. لكن تذكروا أنكم يجب أن تكونوا صامتين كذئابٍ تتجوَّل ليلًا حول الحظائر. لا أريد لأولئك الملَكيِّين أن ينتبهوا ويتأهَّبوا؛ فأي طلقة من مسدس أو صرخة رعب أو صيحة نداء منهم ربما تكون كافيةً لتحذير الشخص الطويل وتنبيهه إلى الابتعاد عن الجروف والكوخ، و...» أضاف مشددًا: «مهمتكم الليلةَ هي الإمساك بالإنجليزي الطويل.»

«سمعًا وطاعةً أيها المواطن.»

«إذن انطلِقوا بلا ضجيج بقدر الإمكان، وسألحق بكم.»

سأله ديجا بينما بدأ الجنود يتسلَّلون بصمتٍ كالظلال واحدًا تلو الآخر على طول الممشى الوعر الضيق: «ماذا عن اليهوديِّ أيها المواطن؟»

قال شوفلان: «آه، أجل؛ لقد نسيتُ أمر اليهودي»، والتفتَ نحو اليهودي وناداه آمرًا.

قال للرجل المسن الذي كان واقفًا بهدوءٍ بجانب حصانه الهزيل، بعيدًا عن الجنود قدر الإمكان: «اسمع، أنت ... هارون، أو موسى، أو إبراهيم أو أيًّا كان اسمك اللعين.»

أجاب بتواضع: «بنيامين روزنباوم، إن كان ذلك يُرضي سيادتك.»

«لا يُرضيني سَماع صوتك، لكن يُرضيني أن أعطيَك بعض الأوامر، ومن الحكمة أن تطيعها.»

«إن كان ذلك يُرضي سيادتك ...»

«أمسك عليك لسانَك اللعين. ستبقى هنا، هل تسمع؟ مع حصانك وعربتك حتى عودتِنا، لا تنطق بأدنى صوت تحت أي ظرف، ولا تتنفَّس حتى بصوتٍ أعلى مما يَلزم، ولا تترك مكانك هذا لأيِّ سبب مهما كان، إلى أن أُعطيَك أوامرَ بذلك، هل تفهم؟»

اعترض اليهودي بنبرة مثيرة للشفقة: «لكن سيادتك ...»

قال شوفلان بنبرةٍ جعَلَت الرجل المسن الجبان يرتجف من رأسه إلى قدميه: «لا يوجد «لكن» ولا أيُّ جدال. إن عدتُ ولم أجدك هنا، أؤكِّد لك بكل صدق أنني سأعثر عليك أينما حاولتَ الاختباء، وأن العقاب السريع، المؤكَّد والفظيع، سيُدركك عاجلًا أو آجلًا. هل تسمعني؟»

«لكن يا صاحب الفخامة ...»

«قلت هل تسمعني؟»

كان كلُّ الجنود قد تسلَّلوا بعيدًا؛ وبقيَ الرجال الثلاثة واقفين معًا وحدهم في الطريق المظلم المنعزل، فيما كانت مارجريت جاثمةً هناك خلف السياج الشجري، تستمتع لأوامر شوفلان كما لو كانت تستمع لحكم إعدامها.

اعترض اليهوديُّ مجددًا بينما كان يحاول الاقتراب من شوفلان: «سمعت سيادتك، وأقسم بإبراهيم وإسحاق ويعقوب أنني سأطيعُ أوامر سيادتك بكل تأكيد، وأنني لن أتحرَّك من هذا المكان إلى أن تتفضَّل سيادتك مرةً أخرى وتُلقي بنور وجهك على خادمك المتواضع؛ ولكن تذكَّرْ سيادتك، أنني رجل مسن مسكين؛ أعصابي ليست بقوةِ أعصاب الجنود الشبان. إن أتى لصوصُ منتصف الليل يجوسون هذا الطريق المنعزل المهجور، فقد أصرخ أو أركض بسبب خوفي! وهذه حياتي التي سأخسرها، فهل يُصَبُّ عقابٌ قاسٍ كهذا على رأسي المسن المسكين بسبب شيء لا أستطيع تجنُّبَه؟»

بدا على اليهودي كربٌ صادق؛ إذ كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدمَيه. ومن الواضح أنه لم يكن من نوعية الرجال الذين يمكن أن يُترَكوا وحدهم في هذا الطريق المنعزل. كان كلام الرجل صحيحًا؛ فقد يُطلق بلا قصد، من شدةِ ذعره، صيحةً قد تكون بمثابة تحذيرٍ لسكارليت بيمبرنيل الماكر.

فكَّر شوفلان لحظة.

ثم سأله بفظاظة: «هل تظن أن حِصانك وعربتك سيكونان في مأمن وحدهما هنا؟»

هنا تدخل ديجا قائلًا: «أتصور أيها المواطن أنهما بدون ذاك اليهودي القذِر الجبان سيكونان آمَنَ مما لو بقيا معه. يبدو من المؤكد أنه، إذا خاف، إما سيُحاول الهرب أو سيصرخ بأعلى صوته.»

«لكن ماذا سأفعل بذاك الجلف؟»

«هل ستُرسله عائدًا إلى كاليه، أيها المواطن؟»

قال شوفلان بدلالةٍ متشائمة: «لا، لأننا قد نحتاج إليه ليقود العربة عائدًا بالجَرْحى عمَّا قريب.»

ساد سكوتٌ لحظي مجددًا؛ إذ كان ديجا ينتظر قرار قائده فيما كان العجوز اليهودي يئنُّ بجوار حصانه الهزيل.

قال شوفلان أخيرًا: «حسنًا، أنت أيها الكسول الجبان المسن المتثاقل، من الأفضل أن تأتيَ خلفنا بقدمَيك الثقيلتَين. اسمع أيها المواطن ديجا، كمِّم فمَ ذاك الرجل بهذا المنديل بإحكام.»

سلَّم شوفلان منديلًا لديجا، الذي بدأ يلفُّه بكل جديةٍ حول فم اليهودي. لم يُبدِ بنيامين روزنباوم أيَّ مقاومة وتركه يُكمِّمه بخضوع تام؛ فمن الواضح أنه كان يُفضل هذا الوضع المتعب على أن يُترك وحيدًا على طريق سان مارتين المظلم. ثم وقف الثلاثةُ مصطفِّين.

قال شوفلان بنفادِ صبر: «بسرعة! لقد أضعنا الكثيرَ من الوقت الثمين بالفعل.»

وسرعان ما اختفى صوتُ خطوات شوفلان وديجا الثابتة ووَقْع أقدام اليهودي العجوز المتثاقلة على الممشى.

لم تَفُت مارجريت كلمةٌ واحدة من أوامر شوفلان. بذلت كلَّ ما بوُسعِها لتستوعب الموقفَ تمامًا أولًا، ثم تستعين مرةً أخيرة بذكائها الذي وُصف مرارًا بأنه الأفضل في أوروبا، والذي هو وحده ربما يكون مفيدًا الآن.

بالتأكيد كان الموقف في هذه اللحظة ميئوسًا منه تمامًا: عُصبةٌ صغيرة من الرجال الغافلين المطمئنِّين ينتظرون في هدوءٍ وصولَ منقذِهم، الذي كان غافلًا مثلهم عن الفخ الذي نُصِب لهم جميعًا. بدَت فظيعةً جدًّا هذه الشبَكة وهي تضيق من كل الجهات، في

سكوٍ منعزل مهجور، حول قلةٍ من الرجال العُزل؛ عُزل لأنهم كانوا مخدوعين وغافلين عن الخطر المحدق بهم؛ أحدهم هو الزوج الذي تعشقه، وآخَرُ هو أخوها الحبيب. وتساءلتْ متحيرةً عن هُوية الآخرين، الذين كانوا هم أيضًا ينتظرون سكارليت بيمبرنيل، بينما كان الموت يتربص بهم خلف كلِّ جلمودٍ في الجرف.

لم يكن باستطاعتها فعلُ أيِّ شيءٍ في اللحظة الحاليَّة، عدا أن تتبعَ الجنود وشوفلان. خشيَت أن تضلَّ الطريق، وإلا كانت ستندفع وحدها إلى الأمام وتجد ذاك الكوخَ الخشبي، وربما كانت ستصل إليه في الوقت المناسب لتحذير الهاربين ومُنقِذهم الشجاع.

خطر ببالها لثانيةٍ أن تُطلق الصرخة الحادة، التي بدا أن شوفلان يخشاها، لعلها تكون تحذيرًا لسكارليت بيمبرنيل وأصدقائه، على أملِ أن يسمعوا، ويكون لديهم وقتٌ للهرب قبل أن يفوت الأوان. لكنها لم تكن تعرف مدى بُعد حافة الجرف عنها، ولم تكن متيقنةً من أن صرخاتها ستصل إلى مسامع الرجال ذوي المصير المحتوم. وكذلك ربما ستكون هذه المحاولة سابقةً لأوانها، ولن يسمح لها ببذلِ محاولةٍ أخرى غيرها. إذ ربما يُكمِّمون فمَها بإحكامٍ كفمِ اليهودي، وتصبح سجينةً عاجزة في يدَي رجال شوفلان.

تسلَّلت خلسةً بسرعةٍ كالشبح خلف ذاك السياج دون إصدار أيِّ صوت؛ إذ كانت قد خلعَت حذاءها، وتمزَّقَت جواربها عن قدمَيها بحلول هذا الوقت. لم تكن تشعر بأيِّ ألم أو قلق؛ فرغبتها التي لا تُقهر في الوصول إلى زوجها، رغم المصير الوخيم والعدوِّ الماكر، قتلَت كلَّ ألم جسدي داخلها، وشحَذَت غرائزها أضعافًا مضاعفة.

لم تسمع شيئًا سوى خطواتِ أعداء بيرسي الخافتة المنتظمة في المقدمة، ولم ترَ شيئًا — في مخيِّلتها — سوى ذاك الكوخ الخشبي، وهو، زوجها، يمشي غافلًا إلى هلاكِه المحتوم.

وفجأةً، جعلتْها تلك الغرائزُ الحادة الكامنةُ داخلها تتوقَّف في استعجالها الجنوني، وتزداد انكماشًا في ظل السياج. فالقمر، الذي كان قد أثبتَ أنه صديقٌ لها ببقائه متواريًا خلف كومة الغيوم، ظهر الآن بكلِّ بهائه المتألِّق المعتاد في ليلةٍ خريفيةٍ مبكرة، وفي لحظة غمر المنظرَ الطبيعي الغريب المهجور بدفقةٍ من الضوء الساطع.

كانت حافَةُ الجرف أمامها على بُعد أقلَّ من مائتي متر، وكان البحر يمتدُّ من أسفل الحافة بعيدًا إلى إنجلترا الحرَّة السعيدة متماوجًا بسلاسةٍ وسلام. استقر نظر مارجريت لحظةً على المياه الفِضِّية الساطعة، وبينما كانت تنظر، بدا أن قلبها الذي كان مُخدرًا بالألم طَوال هذه الساعات كان يلين ويتضخم، وامتلأت عيناها بدموع حارة؛ فعلى بُعد أقلَّ من ثلاثة أميال، كان مركبٌ شراعيٌّ رشيق بأشرعةٍ بيضاء ممدودة يقف منتظرًا.

لم تستطع مارجريت تمييزَ هُويته بيقين، لكنها خمَّنتْها. كان ذلك «داي دريم» مركب بيرسي المفضَّل، وعلى متنه بريجز العجوز، أميرُ الرَّبابنة ذاك، وكل طاقمه المكوَّن من بحَّارةٍ إنجليز؛ وبدا أن أشرعته البيضاء، التي كانت تتلألأ في نور القمر، تحمل رسالةَ سعادةٍ وأملٍ إلى مارجريت، لكنها كانت تخشى ألَّا يتحقَّق هذا الأمل أبدًا. كان المركب ينتظر هناك، في عُرض البحر، ينتظر سيدَه، كطائرٍ أبيضَ جميل مستعدٍّ للطيران، في حين أن سيده لن يتمكَّن من الوصول إليه، ولا رؤية سطحه الأملس مجددًا، ولا التحديق مرةً أخرى أبدًا في الجروف البيضاء لإنجلترا، أرض الحرية والأمل.

بدا أن منظر المركب الشراعي قد بثَّ في المرأة المسكينة المرهقة قوةَ اليأس الخارقة. فحافة الجرف كانت هناك، وفي مكانٍ ما أسفلها كان يوجد الكوخ، حيث عمَّا قريب، سيُلاقي زوجها حتفَه. لكن القمر كان بازغًا، وصارت قادرةً الآن على رؤية طريقها؛ سترى الكوخ من مسافةٍ بعيدة، وستجري إليه وتُنبِّهُهم جميعًا، وتُحذرهم بأي حال من الأحوال ليكونوا مستعدِّين للمقاومة وإلحاق الضرر بعدوهم قبل الموت، بدلًا من الإمساك بهم كجرذان في حفرة.

واصلَت المضيَّ متعثرةً خلف السياج في العشب الكثيف المنخفض في القناة الجافة. ولا بد أنها ركضَت بسرعةٍ كبيرة وتجاوزت شوفلان وديجا؛ لأنها سرعان ما وصلت إلى حافة الجرف، وسمعَت خطواتهم بوضوح من خلفها. لكنهم كانوا على بُعد بضع ياردات فقط، والآن كان ضوء القمر يغمرها بالكامل، ومن المؤكد أن هيئتها كانت تظهر مُظَلَّلَةً بوضوح وسط خلفية البحر الفضية.

لكن ذلك استمرَّ لحظةً فقط؛ لأنها في اللحظة التالية جثمت منكمشةً كحيوان منطوٍ على نفسه. استرقَت نظرةً خاطفة إلى أسفل الجروف الوعرة الشاهقة، وارتأتْ أن النزول سيكون سهلًا بما يكفي؛ لأنها لم تكن شديدةَ الانحدار، ولأن الجلاميد الكبيرة كانت تُتيح متسَعًا كافيًا لموطئ القدم. وفجأةً، بينما كانت تنظر، رأت على مسافة قليلة إلى يسارها، وفي وسط المسافة المؤدية إلى سفح الجرف، بناءً خشبيًّا غيرَ مكتمل، ولمحت عبر الجدار ضوءًا أحمر ضئيلًا يرتعش خافتًا كضوء منارة. بدا أن قلبها نفسه قد توقَّف، ولهفة الفرح كانت كبيرة جدًّا لدرجة أنها شعرت بألمٍ رهيب.

لم يكن بإمكانها أن تقيس المسافة التي يبعدها الكوخ، لكنها بدأَت تنزل المنحدر دون تردُّد، منسلَّةً من جُلْمود إلى آخَر، غيرَ عابئةٍ بالعدوِّ في الخلف، أو الجنود الذين من الواضح أنهم كلهم كانوا مختبئين لأن الرجل الإنجليزيَّ الطويل لم يكن قد ظهر بعد.

واصلَت التقدُّم، ناسيةً العدوَّ القاتل في إثرها، وظلَّت تركض وتتعثَّر وهي متألمةُ القدمَين وشبه دائخة، لكنها واصلَت التقدم ... وفجأة، سقطَت أرضًا بعنفٍ بعد تعثُّرها بشقٍّ أو حجرٍ أو صخرة زلقة. بجهد جهيد عاودت الوقوف على قدمَيها، وبدأت تركض مجددًا نحو الأمام لتُحذِّرهم قبل فوات الأوان، وتتوسَّل إليهم أن يهربوا قبل أن يأتي، وأن يخبروه بأن يبقى بعيدًا، بعيدًا عن هذا الفخ المميت، بعيدًا عن هذا المصير البشع. لكنها الآن أدركَت أن خطواتٍ أخرى من ورائها، أسرع من خطواتها، قد تقترب بالفعل في عقبِها. وفي اللحظة التالية، أمسكت يدٌ بتنورتها وشَدَّتها، فوجدت نفسها على ركبتيها مجددًا، بينما لُفَّ شيءٌ ما حول فمها ليمنعها من الصراخ.

نظرَت حولها بعجزٍ تام وهي مرتبكةٌ وشبه مهتاجة من مرارةِ خيبة الأمل، ومن خلال الضباب الذي بدا أنه يتجمع حولها، رأت وجهًا ينحني نحو الأسفل إلى مقربةٍ شديدة منها، وعينَين خبيثتَين حادَّتَين بدتا لعقلها المنفعل كأنَّهما تشعان ضوءًا أخضر غريبًا خارقًا للطبيعة.

كانت مُمدَّدةً في ظل جُلمود عملاق؛ فلم يستطع شوفلان رؤية ملامحها لكنه مرَّر أصابعه البيضاء النحيلة على وجهها.

همس قائلًا: «امرأة! بحق جميع القديسين.»

تمتم لنفسه: «لا يمكننا أن نتركها طليقة، هذا مؤكَّد. أتساءل الآن ...»

سكتَ فجأة، وبعد بضع ثوانٍ من الصمت المطبق، أطلق ضحكة مكتومة طويلة ومنخفضة وغريبة، بينما شعرت مارجريت مجددًا، وجسدها يقشعرُّ من الرعب، بأصابعه النحيلة تتجول على وجهها.

همس بملاطفة مصطنَعة: «يا إلهي! يا إلهي! إنها لَمفاجأةٌ سارةٌ بالتأكيد»، وشعرت مارجريت بيدها الهامدة العاجزة عن المقاومة تُرفع إلى شفتَيْ شوفلان النحيلتَين الساخرتَين.

كان الوضع هزْليًّا وغريبًا بالتأكيد، وفي الوقت نفسه كان مأساويًّا إلى حدٍّ رهيب جدًّا؛ فالمرأة المسكينة المنهكة، المنكسرة الروح، وشبه المهتاجة من مرارة خيبة الأمل، تتلقَّى وهي منبطحةٌ على الأرض ملاطَفاتٍ مبتذلةً من عدوها القاتل.

كانت تفقد وعيها شيئًا فشيئًا؛ إذ كانت شبه مختنقةٍ من الربطة المحكَمة حول فمها، ولم تكن لديها قوةٌ لتتحرَّك أو تنطق بأي صوت. بدا أن الانفعال الذي كان يُبقي جسدها

الرقيق مستيقِظًا قد خمد فجأة، وأن الشعور باليأس التامِّ قد شلَّ دماغها وأعصابها تمامًا.

كانت ذاهلةً لدرجةٍ أعجزتها عن السمع، ولكن لا بد من أن شوفلان قد أعطى بعضَ الأوامر؛ لأنها شعرَت بأنها قد حُمِلَت عن الأرض، وبأن اللثام على فمها قد أصبح أشدَّ إحكامًا، وبأن ذراعَين قويتَين كانتا تحملانها إلى الأمام نحو ذاك الضوء الأحمر الضئيل، الذي كانت قبل قليلٍ تعتبره منارةً وآخِرَ بصيصٍ خافت من الأمل.

الفصل التاسع والعشرون

الحصار

لم تعرف كم مضى عليها وهي محمولةٌ هكذا؛ إذ فقَدَت كل إحساسها بالوقت والمكان، وحرَمَتها بِنيتُها المتعبة من وعيها في لفتةٍ رحيمة بها.

وعندما وعَت بحالها مجددًا، شعرَت بأنها قد وُضِعَت بشكلٍ مريح بعضَ الشيء على معطفِ رجل، وظهرها مسنودٌ إلى قطعةٍ من الصخر. كان القمر قد عاد يتوارى خلف بعض الغيوم، وبدا الظلام في المقابل أشدَّ عتمة. كان البحر يهدرُ على بُعد نحو مائتَيْ قدمٍ أسفلها، وعندما نظرَت حولها، لم تعُد ترى أيَّ أثرٍ لبصيص الضوء الأحمر الضئيل.

فهمَت أن الرحلة قد وصلت إلى نهايتها، عندما سمعَت أسئلةً وأجوبةً سريعةً هامسةً على مقربةٍ منها.

«يوجد أربعةُ رجالٍ هناك أيها المواطن، وهم يجلسون بالقرب من النار، ويبدو أنهم ينتظرون بهدوء.»

«كم الساعة؟»

«إنها الثانية تقريبًا.»

«المد؟».

«قادمٌ سريعًا.»

«المركب؟»

«واضحٌ أنه إنجليزي، يبعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا. لكن لا يمكننا رؤيةُ قاربه.»

«هل اختبأ الرجال؟»

«أجل، أيها المواطن.»

«لن يُخطِئوا؟»

«لن يتزحزَحوا إلى أن يأتيَ الإنجليزي الطويل، ثم سيُحاصرون الرجال الخمسة ويتغلبون عليهم.»

«حسنًا. والسيدة؟»

«أتصوَّر أنها ما زالت غائبةً عن الوعي. إنها قريبة بجوارك أيها المواطن.»

«واليهودي؟»

«مكمَّم، وساقاه مربوطتان معًا. لا يمكنه أن يتحرك أو يصرخ.»

«جيد. إذَن فلتُجهز بندقيتك، في حال أردتَ استخدامها. اقترِب من الكوخ واتركني لأتولى أمر السيدة.»

من الواضح أن ديجا أطاعه؛ لأن مارجريت سمِعَته يتسلَّل بعيدًا على الجرف الصخري، ثم شعرَت بيدَين دافئتَين نحيلتَين كالمخالب تُمسكان بكلتا يديها بقبضةٍ من حديد.

همس شوفلان بالقرب من أذنها قائلًا: «قبل أن أزيل المنديل عن فمِك الجميل يا سيدتي الحسناء، أظن من الواجب أن أعطيَكِ تحذيرًا صغيرًا. لا يمكنني أن أتخيَّل ما الذي أكسبَني شرفَ أن تتبعني رفيقةٌ فاتنة عبر القناة، لكن إن لم أكن مخطئًا، فالغرض من هذا الاهتمام المُطْري لا يُرضي غروري، وفوق ذلك، أظن أنني مصيبٌ في تخميني أن أول صوتٍ تُصدره شفتاك الجميلتان حالما يُزال اللثام المؤلم سيكون تحذيرًا للثعلب الماكر الذي تكبَّدتُ كل هذا العناء في سبيل تتبُّعه إلى وكره.»

سكتَ لحظة، وبدا أن قبضته الحديدية تشتدُّ على معصمها، ثم تابع بالهمس المتعجل ذاتِه:

«داخل ذاك الكوخ، إن لم أكن مخطئًا مجددًا، يقبع أخوكِ أرماند سان جوست، مع ذاك الخائن تورناي ورجلَين آخرين لا تعرفينهما، في انتظارِ وصول المنقذ الغامض، الذي لطالما حيَّرَت هُويتُه لجنةَ السلامة العامة: سكارليت بيمبرنيل المتهوِّر. ولا شك في أنَّه إنْ صرختِ أو نشبَ شجارٌ هنا، أو أطلقتِ طلقات نارية، فمن المرجح جدًّا أن الساقَين الطويلتَين أنفسَهما اللتَين جلَبَتا سكارليت بيمبرنيل الغامض إلى هنا، ستأخذانه بالسرعة نفسِها إلى مكانٍ آمن. عندها سيبقى الهدفُ من سفري كلَّ هذه الأميال غير منجز. ومن ناحيةٍ أخرى، فأنتِ وحدكِ المسئولة عن أن يكون أخوكِ — أرماند — حُرًّا ليذهب معكِ الليلة إن أردتِ، إلى إنجلترا، أو أي مكانٍ آمنٍ آخر.»

لم تستطع مارجريت أن تُصدر أيَّ صوت، حيث كان المنديل ملفوفًا بإحكامٍ شديد حول فمها، لكن شوفلان كان يُحدق في وجهها عبر الظلام عن قربٍ شديد؛ لا شك أيضًا في أن يدَها أبدت استعطافًا مستجيبًا لاقتراحه الأخير؛ لأنه سرعان ما تابع قائلًا:

«ما أريدك أن تفعليه لتضمني سلامةَ أرماند شيءٌ بسيطٌ جدًّا يا سيدتي العزيزة.»

بدا أن يدَ مارجريت تنقل إليه الردَّ قائلة: «ما هو؟»

«أن تبقَي في هذه البقعة، دون أن تُصدري أيَّ صوت حتى آذنَ لكِ بالكلام.» وأضاف بضحكته المكتومة الجافة المميزة تلك، عندما بدا أن جسد مارجريت كلَّه قد تصلَّب معارضًا لأوامره: «هاه! لكني أظنُّكِ ستُطيعينني؛ لأنني أؤكِّد لكِ أنكِ إن صرختِ، كلا! بل إن أصدرتِ أيَّ صوتٍ أو حاولتِ التحركَ من هنا، فسيقبض رجالي — ويوجد منهم نحوُ ثلاثين في أرجاء هذا المكان — على سان جوست وتورناي وصديقَيهما، وسيُطلقون عليهم النار هنا — بأمرٍ مني — أمام عينيكِ.»

استمعَت مارجريت لحديث عدوِّها اللدود برعبٍ متزايد. صحيحٌ أنها كانت مخدَّرةً من شدة الألم الجسدي، ولكن كان متبقيًا لديها طاقةٌ عقليةٌ كافيةٌ لتُدرك الرعب الكامل الكامن في هذا التخيير الفظيع الذي تركَها فيه مجددًا بين خيارَين أحلاهما مُر، خيارَين أفظع وأشد ترويعًا من هذين اللذَين اقترحهما عليها في ليلة الحفل الراقص المشئومة.

فالتخيير هذه المرة يعني أنها ينبغي أن تبقى ساكنة، وتتركَ زوجها الذي تعشقه يمشي مطمئنًّا غافلًا إلى حتْفِه، وإلا فإنها، بمحاولةِ تحذيره التي قد تكون حتى غيرَ مُجدِية، ستعطي إشارةً فِعلية بموت أخيها، وثلاثة رجالٍ غافلين آخرين.

لم يكن باستطاعتها رؤيةُ شوفلان، لكنَّها كانت تكاد تشعر بعينَيه الباهتتَين الثاقبتَين تُحدِّقان بغِلٍّ شرير إلى جسدها العاجز، وكانت كلماته الهامسة المتعجلة تصل إلى أذنها كأنها مسامِيرُ في نعش أملها المتبقِّي الضعيف الأخير.

قال بنبرةٍ مهذبة: «لا يا سيدتي الفاتنة، لا يمكن أن تهتمِّي بأي شخصٍ آخر عدا سان جوست، وكل ما تحتاجين إليه لِيَبقى آمنًا هو أن تبقَيْ حيث أنتِ، وتلزَمي الصمت. لدى رجالي أوامرُ صارمة بألَّا يُلحقوا به أيَّ أذًى بكل الطرق الممكنة. أما سكارليت بيمبرنيل الغامض، فما الذي يَعنيه لك؟ صدِّقيني، لن يُنقذه أيُّ تحذيرٍ منك. والآن يا سيدتي العزيزة، اسمحي لي بإزاحة هذا الجَوْر القسري المقيت الذي أُوقِع على فمكِ الجميل. كما ترين، فأنا أريد أن تكوني حرةً تمامًا في الخيار الذي أنتِ على وشك أن تتَّخذيه.»

كانت أفكارها تموج في دوَّامة، وكان صُدْغاها يُؤلمانها، بينما كانت أعصابها مشلولةً وجسدها مخدَّرًا بالألم؛ هكذا كانت مارجريت جالسةً هناك في الظلام الذي كان يكتنفُها كأنه غِطاءُ نعشها. لم تكن تستطيع أن ترى البحر من موضعِ جلوسها، لكنها كانت تسمع همهمةَ المدِّ القادمِ الحزينةَ المتواصلة، التي كانت تحكي عن آمالها المحطَّمة، وحبِّها الضائع، والزوج الذي وشَت به وأرسلتْه إلى حتفه بيديها.

أزال شوفلان المنديلَ عن فمِها. لم تصرخ بالتأكيد؛ ففي تلك اللحظة، لم تكن قادرةً على فعل أي شيء عدا إبقاء نفسِها منتصبةً بصعوبة، وإجبار نفسِها على التفكير.

أوه! التفكير! التفكير! التفكير! التفكير فيما ينبغي أن تفعله. مضَت الدقائق؛ وفي هذا السكون البغيض، لم تستطع أن تُحدد مدى سرعةِ الوقت أو مدى بُطئه؛ لم تكن تسمع شيئًا ولم تكن ترى شيئًا، لم تشعر بشَذى هواء الخريف العبق برائحة ملح البحر، ولم تَعُد تسمع همهمةَ الأمواج، ولا قَعْقعة الحصى المتدحرج من حينٍ إلى آخَر في مكانٍ ما على المنحدَر. بدا الموقف كلُّه أقربَ فأقربَ إلى الخيال. كان من المستحيل أن تكون هي، مارجريت بليكني، ملكة مجتمع لندن، جالسةً بالفعل هنا على هذا الجزء المنعزل من الشاطئ، في منتصف الليل، بجوار ألدِّ أعدائها. وأوه! لم يكن ممكنًا أن الشخص الذي كانت تحتقره يومًا، لكنها صارت تزداد حبًّا له في كل لحظة من هذه الحياة الغريبة التي تبدو كالحلم، ربما يكون موجودًا في مكانٍ ما لا يبعد مئاتِ الأقدام من موضعها؛ لم يكن ممكنًا أنه كان يسير بلا وعي حتى الآن إلا أنه كان يسير إلى هلاكه، بينما لم تكن هي تفعل شيئًا لإنقاذه.

لماذا لم تُرسل له تحذيرًا بصرخات مدوية يتردد صداها من أول الشاطئ المنعزل إلى آخرِه، ليتوقفَ ويعود أدراجَه؛ لأن الموت يتربص به هنا بينما يتقدم؟ بلَغَت الصرخاتُ حُلقومها مرةً أو مرتين بالفعل، كما لو كانت غريزية، ثم كان الخيارُ البديل الفظيع يتجلى أمام عينيها، كانت ترى إطلاقَ النيران على أخيها وهؤلاء الرجال الثلاثة أمام عينيها، بأمرٍ منها تقريبًا؛ أي إنها ستكون قاتِلتَهم.

أوه! ذاك الشيطان المتنكِّر في هيئة البشر بجوارها، كان يعرف طبيعة البشر — وخصوصًا النساء — جيدًا. لقد تلاعبَ بمشاعرها كعازفٍ موسيقيٍّ يُداعب أوتارَ آلته ببراعة. لقد قاس أفكارها نفسَها بدقَّة.

لم تستطع أن تُعطي تلك الإشارة؛ لأنها كانت ضعيفة، ولأنها امرأة. فكيف يمكنها أن تأمر عمدًا بإطلاق الرصاص على أرماند أمام عينَيها، أن تكون مسئولةً عن إراقة دمه

الغالي، وربما يموت وبين شفتَيه لعنةٌ عليها. ووالد سوزان الصغيرة أيضًا! الشيخ الهَرِم، والرجلين الآخرَين! أوه! كان الأمر كله فظيعًا جدًّا، جدًّا.

انتظار! انتظار! انتظار! إلى متى؟ كانت ساعات الصبح الأولى تتسارع، لكن الفجر لم يطلع بعد؛ واصل البحرُ همهمتَه الحزينة المستمرَّة، وكان النسيمُ الخريفيُّ يتنهَّد برفقٍ في الليل؛ كان الشاطئ المنعزل صامتًا، بل كان كالقبر.

وفجأةً، من مكانٍ ما ليس بعيدًا، سُمع صوتٌ قويٌّ مبتهجٌ يغني «ليحفظ الرب الملك!»

الفصل الثلاثون

المركب الشراعي

توقف قلبُ مارجريت المتألم تمامًا. لم تسمع الرجال المتربِّصين يتأهبون للقتال، لكنها شعرَت بذلك. أخبرتها حواسُّها بأن كل واحدٍ منهم كان يجثم، وسيفه في يده، متأهبًا للانقضاض.

كان الصوت يقترب شيئًا فشيئًا؛ ووسط الاتساع الهائل لهذه الجروف المنعزلة، وضجيج همهمة البحر العالية بالأسفل، كان من المستحيل معرفةُ كم هو قريبٌ أو بعيد، أو من أي اتجاهٍ يأتي ذاك المغنِّي المبتهج، الذي كان يُغني «ليحفظ الربُّ الملك» بينما كان هو نفسه واقعًا في هذا الخطر المميت. كان الصوت خافتًا في البداية، ثم علا شيئًا فشيئًا؛ ومن وقتٍ إلى آخَر كان بعضُ الحصى الصغير ينفصل عن الأرض تحت وَقْع خطوات المغنِّي الثابتة، ويتدحرجُ إلى أسفل الجرف نحو الشاطئ في الأسفل.

شعَرَت مارجريت بينما كانت تستمع بأن حياتها نفسها تنسلُّ منها، كما لو أن ذاك المغنيَ سيُصبح أقربَ إلى الوقوع في الفخ كلما اقترب ذلك الصوت …

سمعَت بوضوحٍ صوتَ طقطقة بندقية ديجا بالقرب منها.

لا! لا! لا! أوه، يا إلهَ السموات! لا يمكن لهذا أن يحدث! لتكُن مسئولةً عن دم أرماند! لتوصَف بأنها قاتلة! لِتدَع حتى ذلك الأخ الذي تُحبه يكرهها ويحتقرها بسبب هذا، لكن يا إلهي! أوه يا إلهي! ستُنقذ زوجها بأي ثمن!

بصرخةٍ جامحة هبَّت واقفةً على قدميها وانطلقَت مسرعةً من حول الصخرة التي كانت منبطحة عليها؛ رأت بصيصَ الضوء الأحمر الصغير من خلال تشقُّقات الكوخ، فركَضَت إليه وارتمَت على جُدرانه الخشبية وبدأتْ تطرق عليها بقبضَتَيها في نوبةِ اهتياج شبه جنوني وهي تصرخ:

«أرماند! أرماند! لأجل الرب أطلِق النار! قائدُك قريبٌ من هنا! إنه قادم! لقد وُشِي به! أرماند! أرماند! أطلق النارَ بحق السماء!»

أُمسِك بها وطُرِحَت أرضًا. تمدَّدَت هناك متأوِّهة، ومرضوضة، ولا مبالية، لكنها ظلَّت منخرطةً في مزيجٍ من النحيب والصراخ:

«بيرسي، زوجي، لأجل الرب اهرب! أرماند! أرماند! لِم لم تُطلق النار؟»

بفحيح قال شوفلان الذي امتنع عن ضربها بصعوبةٍ بالغة: «ليوقف أحدُكم صراخَ تلك المرأة.»

رُمي شيءٌ ما على وجهها؛ فلم تستطع أن تتنفَّس وأُسكِتَت رغمًا عنها.

كان ذاك المغني الجريء أيضًا قد صمَت، فمن المؤكد أن صرخات مارجريت المحمومة نبَّهَته إلى الخطر الوشيك المحدِق به. هبَّ الرجال واقفين على أقدامهم، لم يكن يوجد داعٍ إلى أن يُواصلوا التزام الصمت، فقد تردَّد صدى صرخات المرأة المسكينة المكسورةِ القلب عبر الجروف نفسها.

تمتم شوفلان بشتيمةٍ مُنذِرة بسوءٍ وخيمٍ على مارجريت؛ لأنها تجرَّأَت على إفساد خُطته الغالية، وصاح بالأوامر سريعًا:

«إلى الداخل يا رجالي، ولا تدَعوا أحدًا يهرب من ذاك الكوخ حيًّا!»

كان القمر قد بزغ مرةً أخرى من بين السحُب؛ وكان الظلام المخيِّم على الجروف قد رحل، وحلَّ مكانه مجددًا ضوءٌ فِضيٌّ ساطعٌ. اندفع بعضُ الجنود نحو باب الكوخ المهترئ، بينما لم يبقَ أحدٌ منهم لحراسة مارجريت.

كان الباب مواربًا؛ فدفعه أحدُ الجنود فاتحًا إياه، لكن الظلام كان يُخيم على كل شيءٍ، ما عدا الفحم المشتعل الذي كان يشعُّ ضوءًا أحمرَ خافتًا في أبعدِ أركان الكوخ. توقف الجنودُ تلقائيًّا عند الباب، كآلاتٍ تنتظر أوامرَ أخرى.

أما شوفلان الذي كان متأهبًا لهجومٍ عنيف من الداخل، ولمقاومةٍ شرسة من الهاربين الأربعة تحت غطاء الظلام، فوقف لحظةً مشلولًا من شدةِ الذهول حينما رأى الجنود يقفون هناك منتصبين في هدوء، كالحرَس في مُناوبة، بينما لم يَصدر أيُّ صوتٍ من الكوخ.

توجَّه هو أيضًا نحو باب الكوخ ممتلئًا بتوجُّسٍ قلقٍ غريب، وألقى نظرةً خاطفة على العتمة وسأل بسرعة:

«ما معنى هذا؟»

أجاب أحد الجنود ببرود تام: «أظن أيها المواطن أن لا أحد موجود هنا الآن.»

صاح شوفلان متوعِّدًا بصوتٍ مُدوٍّ: «لم تتركوا أولئك الرجالَ الأربعة يهربون، أليس كذلك؟ أمَرتُكم ألَّا تتركوا أحدًا يهرب حيًّا! بسرعة، الحَقوا بهم جميعًا! بسرعة، في كل اتجاه!»

أسرَع الرجال، مُطيعين كالآلات، إلى أسفل الجرف الصخري نحو الشاطئ، وبعضُهم نحو اليمين واليسار بأسرعِ ما أمكنَ أقدامهم أن تحملهم.

قال شوفلان بشراسةٍ للرقيب الذي كان مسئولًا عن الرجال: «أنت ورجالك ستدفعون الثمنَ بأرواحكم أيها الرقيب»، وأضاف وهو يستدير نحوَ ديجا مزمجرًا: «وأنت أيضًا أيها المواطن، بسبب مخالفة أوامري.»

قال الرقيب متجهِّمًا: «أنت أمرتَنا بالانتظار أيها المواطن، حتى يصل الرجلُ الإنجليزي الطويل وينضمَّ إلى الرجال الأربعة في الكوخ. ولم يأتِ أحد.»

«لكنني أمرتُكم الآن، عندما صرَخَت المرأة، أن تقتحموا ولا تدَعوا أحدًا يهرب.»

«لكن، أيها المواطن، الرجال الأربعة الذين كانوا هناك قبلًا، قد رحَلوا منذ بعض الوقت، على ما أظن ...»

قال شوفلان وهو يكاد يختنقُ من الغضب: «تظن؟ ... أنت؟ ... وتركتموهم يذهبون ...»

اعترض الرقيب قائلًا: «أنت أمرتنا بالانتظار أيها المواطن، وبأن نُطيع أوامرك بحذافيرها وإلا فستقتلُنا. فانتظرنا.»

أضاف، بينما بدا شوفلان ثابتًا عاجزًا تمامًا عن الكلام من شدةِ الحَنق: «سمعتُ الرجال يتسللون خارج الكوخ، بعد دقائق قليلة من اختبائنا وقبل أن تصرخ المرأةُ بكثير.»

قال ديجا فجأةً: «أصغُوا!»

سمع صوت إطلاق نارٍ متكرر قادمًا من بعيد. حاول شوفلان أن يُلقيَ نظرة خاطفة بطول الشاطئ الواقع في الأسفل، ولكن من سوء حظه أن القمر ذا الضوء المتقطع اختفى مجددًا خلف كومةٍ من السحب، ولم يتمكَّن من رؤية شيء.

قال أخيرًا بتلعثُم: «ليذهب أحدُكم إلى الكوخ ويُشعل نارًا.»

أطاعه الرقيب ببلادة؛ فذهب نحو الفحم المشتعِل وأضاء مصباحًا صغيرًا كان يحمله على حزامه، كان واضحًا أن الكوخ فارغٌ تمامًا.

سأل شوفلان: «في أيِّ اتجاه ذهبوا؟»

قال الرقيب: «لا يمكنني أن أحدِّد أيها المواطن؛ فقد ذهبوا إلى أسفل الجرف أولًا، ثم اختفَوا خلف الجلاميد.»

«صه! ما كان ذلك الصوت؟»

أصغى الرجال الثلاثة بانتباه. كان يمكن سماعُ صوتٍ خافت يتردَّد صداه من بعيد جدًّا ويتلاشى بالفعل؛ صوت اضطرابٍ حاد سريع في الماء بفعل نصف دزينة من المجاديف. أخذ شوفلان منديله ومسح العرق المتصبِّب من جبينه.

قال لاهثًا: «المركب الشراعي!» ولم ينطق بحرفٍ آخر.

كان واضحًا أن أرماند سان جوست ورفاقه الثلاثة كانوا قد تمكَّنوا من التسلل على طول جانب الجروف، في حين أن الرجالَ التزموا، كجنود الجيش الجمهوري المتمرس الحقيقيِّين، التزامًا أعمى بإطاعة أوامر شوفلان بحذافيرها خوفًا على حياتهم، وانتظروا الإنجليزيَّ الطويل الذي كان هو الصيد المهم.

ومن المؤكَّد أن المطارَدين الأربعة قد وصلوا إلى أحد الخلجان الصغيرة التي كانت تبرز إلى عُرض البحر من هذا الساحل على مسافات متباعدة، ولا شكَّ في أن مركب «داي دريم» كان يترقب وصولهم بعد هذه الخلجان، وأنهم صاروا آمنين الآن على متن المركب الشراعي الإنجليزي.

سُمع دويٌّ بندقية مكتوم من عرض البحر، كما لو أنه يؤكد هذا الافتراض.

قال ديجا بهدوء: «المركب الشراعي أيها المواطن؛ لقد انطلق.»

احتاج شوفلان إلى كل أعصابه وحضور ذهنه حتى لا يستسلمَ لغضبٍ عديم الجدوى قد ينتقصُ من هيبته. لم يكن يوجد شكٌّ الآن في أن ذاك الرأسَ الإنجليزي اللعين كان قد استطاع مجددًا أن يَفوقه دهاءً تمامًا. فكيف تمكَّن من الوصول إلى الكوخ بدون أن يراه أحدٌ من الجنود الثلاثين الذين كانوا يحرسون المكان، كان ذلك أبعدَ ممَّا يستطيع شوفلان تصوُّرَه. من الواضح إلى حدٍّ كبير بالطبع أنه كان قد وصل إلى الجرف قبل الرجال الثلاثين، ولكن كان من المستحيل تفسيرُ الكيفية التي جاء بها إلى هنا بعرَبة روبن جولدشتاين طوال الطريق من كاليه بدون أن تلمحَه دورياتُ الحراسة الكثيرة المتيقِّظة. بدا حقًّا كما لو أنَّ قوةً إلهية تحرس سكارليت بيمبرنيل الجريء ذاك، وكاد عدوُّه الماكر يشعر بقُشَعريرة متطيرة مؤمنة بالخرافات تسري في جسده وهو ينظر حوله نحو الجروف الشاهقة وعُزلة هذا الشاطئ البعيد.

لكن هذا كان أمرًا واقعًا بالتأكيد! وفي عام ١٧٩٢، لم تكن توجد جنِّياتٌ ولا عفاريت. لقد سمع شوفلان وكلُّ رجاله الثلاثين بآذانهم صوتَ ذاك اللعين يُغني لِيَحفظ الربُّ الملك

طوال عِشرين دقيقةً كاملة، بعدما اختبَئوا كلهم حول الكوخ، ولا بد أن الأربعة المطارَدين، بحلول ذاك الوقت، كانوا قد وصَلوا إلى الخليج، وصعدوا إلى متن قارب، وأقرب خليجٍ كان يبعد عن الكوخ أكثرَ من ميل.

فإلى أين ذهب ذلك المغنِّي الجريء؟ ما لم يُعِره الشيطان نفسُه أجنحة، لا يمكنه أن يقطع هذا الميل على جرفٍ صخري في غضون دقيقتين؛ وقد مضَت دقيقتان فقط بين أغنيته وصوتِ مجاديف القارب في عُرض البحر. لا بد أنه تخلَّف عنهم، وأنه يختبئ الآن في مكانٍ ما في الجروف، ما زالت الدورياتُ منتشِرةً في أرجاء المكان، وسيُلاحظونه بلا شك. شعَر شوفلان بالأمل مجددًا.

كان بضعةُ رجال ممن ركَضوا للعثور على المطارَدين يصعدون الجرف الآن ببُطء، ووصل أحدُهم إلى جانب شوفلان في اللحظة ذاتِها التي وُلد فيها هذا الأمل في قلب الدبلوماسي الداهية.

قال الجندي: «لقد تأخَّرنا كثيرًا أيها المواطن، وصلنا إلى الشاطئ قُبيلَ اختفاء القمر خلف كومة الغيوم مباشرةً. من المؤكد أن القارب كان يترقَّب وصولَهم خلف ذلك الخليج على بُعد ميل، لكنه كان قد انطلق منذ بعض الوقت عندما وصلنا إلى الشاطئ، وكان قد قطَع مسافةً داخل البحر بالفعل. أطلقنا النارَ عليه، لكن ذلك لم يكن مُجديًا بالطبع. كان منطلقًا باستقامةٍ وبسرعة نحو المركب الشراعي. رأيناه بوضوحٍ شديد في ضوء القمر.»

قال شوفلان بنفادِ صبر متلهِّفًا: «قلتَ إنه كان قد رحل منذ بعض الوقت وإن أقربَ خليج يبعد ميلًا عن هنا.»

«أجل أيها المواطن! ركَضتُ طوال الطريق مباشرة نحو الشاطئ، مع أنني خمَّنتُ أن القارب سيكون منتظرًا في مكانٍ ما بالقرب من الخليج؛ لأن المدَّ كان سيصل إلى هناك في أقرب وقت. لا بد أن القارب قد رحل قبل أن تبدأ المرأة الصراخ ببِضع دقائق.»

قبل أن تبدأ المرأة الصراخ ببضع دقائق! إذن فآمال شوفلان لم تكن خادعة. ربما يكون سكارليت بيمبرنيل قد دبَّر وسيلةً لإرسال الهاربين أولًا إلى القارب، لكنه هو نفسه لم يكن لديه وقتٌ للوصول إليه؛ أي إنه ما زال على الشاطئ، وكل الطرق خاضعةٌ لحراسة مشدَّدة. على أي حال، لم يَضِع كلُّ شيءٍ بعد، ولن يَضيع، ما دام ذاك البريطانيُّ الوقح على التراب الفرنسي.

أمَر شوفلان بلهفةٍ وهو يدخل الكوخ ثانية: «أحضِر المصباح إلى هنا!»

أحضَر الرقيبُ مصباحه، واستكشف الرجلان المكانَ الصغير؛ وبنظرةٍ سريعة، لاحظ شوفلان محتوياته: المِرْجَل الموضوع بالقرب من ثقبٍ في الجدار، ويحتوي على آخِر الجمرات القليلة المحتضرة من الفحم المشتعل، وكرسيَّين صغيرين مقلوبين كما لو أن ذلك حدث وسط تعَجُّل مغادرة فجائية، ثم أدوات الصياد وشِباكه المُلقاة في أحد الأركان، وبجوارها شيءٌ صغيرٌ أبيض.

قال شوفلان للرقيب مشيرًا نحو القصاصة الورقية البيضاء: «التقِط تلك، وأحضِرها إليَّ.»

كانت قطعةً ورقيةً مجعدة، من الواضح أن المطارَدين نسوها هناك بينما كانوا متعجلين للهروب. كان الرقيبُ متهيبًا جدًّا من غضب المواطن ونفاد صبره، فالتقطَ الورقة وسلَّمها باحترامٍ إلى شوفلان.

قال الأخير باقتضاب: «اقرأها أيها الرقيب.»

«تكاد تكون غيرَ قابلةٍ للقراءة أيها المواطن ... خربشة رديئة جدًّا. ...»

كرَّر شوفلان بضراوة: «أمرتُك بأن تقرأَها.»

بدأ الرقيب على ضوء المصباح يفكُّ طلاسم الكلمات القليلة المَخْرْبَشَة على عجل.

«لا يمكنني الوصولُ إليكم بدون المجازفة بحياتكم وتعريضِ نجاح عملية إنقاذكم للخطر. عندما تتسلَّمون هذه، انتظروا دقيقتين، ثم انسَلُّوا خارج الكوخ واحدًا تِلوَ الآخر، واتجِهوا إلى يساركم فورًا، وانزلوا بحذرٍ إلى أسفل الجرف، والتزموا بالناحية اليسرى طوال الوقت، حتى تصلوا إلى الصخرة الأولى التي ترَونها بارزةً إلى مسافةٍ بعيدة داخل البحر؛ خلفها في الخليج يوجد القاربُ الذي يترقَّب وصولكم ... أطلِقوا صفيرًا حادًّا طويلًا ... سيقترب منكم ... اصعَدوا على متنه ... سيأخذكم رجالي إلى المركب الشراعي، ومنه إلى إنجلترا وبرِّ الأمان، حالما تكونون على متن «داي دريم»، أرسِلوا القارب مجددًا إليَّ، أخبِروا رجالي بأنني سأبقى على الخليج المقابل مباشرةً لنزل «القط الرَّمادي» بالقرب من «كاليه». هم يعرفونه. سأكون هناك بأسرع ما يمكن ... لا بد أن ينتظروني على مسافةٍ آمنة في عُرض البحر، إلى أن يسمعوا الإشارة المعتادة. لا تتلكَّئوا ... والتزموا بهذه التعليمات بحذافيرها.»

أضاف الرقيب وهو يُعيد الورقة إلى شوفلان: «ثم يوجد توقيعٌ أيها المواطن.»

لكن شوفلان لم ينتظر لحظة. إذ لفتَت انتباهَه عبارةٌ واحدة من هذه الخربشة المستعجلة البالغة الأهمية. «سأبقى على الخليج المقابل مباشرة لنزل «القط الرمادي» بالقرب من كاليه»؛ تلك العبارة قد تَعني النصر له.

صاح في رجاله الذين كانوا بحلولِ هذه اللحظة قد عادوا كلُّهم واحدًا تلو الآخَر من مطاردتهم بخُفَّي حُنين، وكانوا كلُّهم مجتمعين حول الكوخ مجددًا: «أيكم يعرف هذا الشاطئ جيدًا؟»

قال أحدهم: «أنا أيها المواطن؛ فقد وُلدتُ في كاليه، وأعرف كلَّ حجرٍ من هذه الجروف.»

«يوجد خليجٌ مقابلٌ مباشرةً لنزل «القط الرمادي»؟»

«يوجد أيها المواطن. وأعرفه جيدًا.»

«الإنجليزي يتطلَّع إلى الوصول إلى ذلك الخليج. وهو لا يعرف كلَّ حجرٍ من هذه الجروف؛ لذا قد يذهب إلى هناك عبرَ أطولِ طريقٍ غير مباشر، وبأي حال، سيَمضي بحذر خوفًا من دوريات الحراسة. على أي حال، ما زالت توجد فرصةٌ للإمساك به. ألف فرنك لكلِّ رجل يصل إلى ذاك الخليج قبل ذاك الرجل الإنجليزي ذي الساقَين الطويلتَين.»

قال الجندي: «أعرف طريقًا مختصرًا عبر الجروف»، واندفَع إلى الأمام بصرخةٍ حماسية، وتبعه رفاقه عن كثب.

تلاشى صوتُ خطواتهم الراكضة بعيدًا في غضون بضع دقائق. ظلَّ شوفلان يستمع إلى صوتهم للحظة؛ كان الوعد بالمكافأة يُحفز جنودَ الجمهورية. ومن جديد عاد بريق الكراهية والانتصار المتوقع يظهر على وجهه.

ظل ديجا واقفًا بجواره صامتًا هادئًا بانتظار أوامرَ أخرى، بينما كان اثنان من الجنود جاثِيَين على رُكبِهما بجوار جسد مارجريت الممدَّد على الأرض. ألقى شوفلان نظرةً شرسة على كاتم أسراره. فخُطَّته المحكَمة قد فشلَت، وكانت تكملتُها مليئةً بالمشكلات، فما زالت توجد احتماليةٌ كبيرة بأن يهرب سكارليت بيمبرنيل ذاك، وكان شوفلان، بذاك الغضبِ الجنوني الذي أحيانًا ما يُهاجم الطبائع القوية بشراسة، يتوق إلى أن يُنفِّس عن غضبه بصَبِّه على أحدٍ ما.

كان الجنديَّان يُثبتان مارجريت على الأرض، مع أن المسكينة لم تكن تُبدي أدنى مقاومة. فبِنْيتها المجهَدة كانت قد عبَّرَت عن نفسها أخيرًا بشكل قاطع، وكانت مارجريت ممدَّدةً هناك فاقدة الوعي تمامًا كأنها ميتة، فيما كانت عيناها مُحاطتَين بهالات بنَفسَجية

عميقة تحكي عن ليالٍ طويلةٍ بلا نوم، وكان شعرها مُلبَّدًا ورطبًا حول جبينها، وشفتاها مفترقتين بانحناءةٍ حادة تنمُّ على شدة الألم البدني.

كانت أذكى امرأة في أوروبا، الليدي بليكني الأنيقة العصرية، التي أبهَرَت مجتمعَ لندن بجمالها وذكائها وبذخِها، تُجسد صورةً مثيرةً جدًّا للشفقة للأنوثة المنهَكة المعانية، وكانت ستجتذب عطفَ أيِّ شخصٍ ما عدا القلبَ القاسيَ الانتقامي لعدوها المحبط.

قال للجنديَّين بغِلٍّ شديد: «لا فائدة من فرض حراسة متواصلة على امرأةٍ شبه ميتة، في حين أنكما سمَحتُما لخمسة رجالٍ في غاية النشاط والحيوية بالفرار.»

فوقف الرجلان مُطيعَين على أقدامهما.

«من الأفضل لكما أن تُحاولا أن تجدا لي ذاك الممشى مجددًا وتلك العربة المتهالكة المتروكة على الطريق.»

ثم فجأةً بدا أن فكرةً نيِّرةً خطرَت بباله.

«آه! بالمناسبة! أين اليهودي؟»

قال ديجا: «قريبٌ من هنا أيها المواطن. لقد كمَّمتُه وقيدتُ ساقيه معًا كما أمرتَ.»

ومن المكان الملاصِق لهم مباشرة، وصل أنينٌ حزين إلى أذُنَي شوفلان. تبع كاتمَ أسراره، الذي قاده إلى الجانب الآخر للكوخ، حيث كان سليلُ بني إسرائيل التعِسُ مكوَّمًا في حالةٍ من الاكتئاب التام، فيما كانت ساقاه موثقَتَين معًا بإحكام وكان فمُه مكممًا.

بدا وجهه في ضوء القمر الفضيِّ مروَّعًا تمامًا من شدة الرعب؛ فعيناه كانتا مفتوحتَين على اتساعِهما وشبه زجاجيتَين، فيما كان جسده كلُّه يرتجف كما لو كان مصابًا بالحمَّى، بينما أفلتَ عويلٌ بائسٌ مثير للشفقة من بين شفتَيه الشاحبتين. كان واضحًا أن الحبل الذي أصلًا قد لُفَّ حول كتفَيه وذراعيه قد انفك؛ وذلك لأنه كان مُلقًى على الأرض مكومًا متشابكًا بالقرب من جسده، ولكن بدا أن اليهوديَّ لم يكن واعيًا لذلك إطلاقًا؛ لأنه لم يُحاول التزحزح قِيدَ أَنمُلة من المكان الذي كان ديجا قد تركَه فيه أصلًا؛ كدجاجةٍ مذعورة تنظر إلى خطٍّ مرسوم بالطبشور على طاولة، معتبرةً إياه حبلًا يعيق حركتها.

أمر شوفلان الجنديَّين: «اجلبا البهيم الجبان إلى هنا.»

من المؤكد أنه كان يشعر بغِلٍّ مُفرط، ولما لم يكن لديه أسبابٌ منطقية للتنفيس عن غضبه بصبِّه على الجنود الذين لم يفعلوا شيئًا سوى الامتثال لأوامره بحذافيرها، شعر بأن سليل العِرْق المحتقَر سيكون كبشَ فداءٍ ممتازًا. وبازدراءٍ فرنسيٍّ حقيقيٍّ للعرق اليهودي الذي نجا عبر القرون السالفة حتى يومِنا هذا، لم يقترب منه كثيرًا، لكنه قال بسخرية لاذعة بينما أحضَر الجنديَّان الرجل العجوز البائس إلى ضوء القمر الكامل:

«أظن، بما أنك يهودي، أنك تتذكَّر الاتفاقاتِ والصفقات جيدًا؟»

أمَره مجددًا: «أجِب!»، حين بدا أن شفَتَي اليهودي المرتعدتين أشدُّ خوفًا من أن تتكلما.

قال البائس المسكين متلعثمًا: «أجل، سيادتك.»

«إذَن فأنت تتذكَّر الاتفاق الذي عقَدْناه أنا وأنت في كاليه، عندما تعهدتَ بأن تُدرك روبن جولدشتاين وحصانه الهزيل وصديقي الغريبَ الطويل؟ هه؟»

«لـ... لـ... لكن ... سيادتك ...»

«لا تُجادل، أقول لك هل تتذكَّر؟»

«أ... أ... أ... أجل ... أجل سيادتك!»

«ماذا كان الاتفاق؟»

خيَّم صمتٌ مُطبِق. نظر الرجل التعسُ حوله إلى الجروف الشاسعة، والقمر في الأعلى، ووجوه الجنود المتبلِّدة، وحتى إلى المرأة المسكينة الهامدة بالقرب منه، لكنه لم يقل شيئًا.

زمجر شوفلان متوعدًا بصوتٍ مُدوٍّ: «هل ستتكلم؟»

بالفعل حاول البائس المسكين لكن من الواضح أنه لم يستطع. ولكن من المؤكَّد أنه كان يعرف ردَّ الفعل المتوقَّعَ من الرجل الصارم أمامه.

تجرَّأ متوسلًا: «سيادتك ...»

قال شوفلان ساخرًا: «بما أن ذُعرك قد شلَّ لسانك، فيجب أن أُنعِش ذاكرتك. لقد اتفقنا فيما بيننا على أننا إن أدركنا صديقي الغريبَ الطويل، قبل أن يصل إلى هذا المكان، فستأخذ عشْرَ قطع ذهبية.»

أفلَت أنينٌ خافتٌ من بين شفتَي اليهودي المرتعشتين.

أضاف شوفلان بتشديدٍ بطيء: «لكن، إن خدَعتَني ولم توفِ بوعدك، فستُضرب ضربًا مبرحًا، ضربًا سيُعلمك ألَّا تكذب.»

«لم أفعل سيادتك؛ أُقسم بإبراهيم ...»

«وبكل رُؤَسَاء الآبَاءِ، أعرف. من سوء الحظ أنهم كلهم ما زالوا في عالم الأموات، على ما أعتقد، بحسبِ عقيدتك، ولا يمكنهم مساعدتُك كثيرًا في ورطتك الحاليَّة. الآن، أنت لم تَفِ بحصتك من الاتفاق، لكنني مستعدٌّ للوفاء بحصتي.» أضاف وهو يستدير ناحية الجنديَّين: «اسمعا، اضربا هذا اليهودي اللعين بإبزيمَي حِزامَيكما.»

وبينما كان الجنديَّان يفكَّان حزامَيهما الجلديَّين الثقيلَين بطاعة، أطلق اليهوديُّ نواحًا كأنَّه كان كافيًا لاستدعاء كلِّ رُؤَسَاء الآبَاءِ من العالم الآخر وكلِّ مكان بالتأكيد؛ ليُدافعوا عن سليلهم من وحشيةِ هذا المسئول الفرنسي.

ضحك شوفلان بخُبث، قائلًا: «أظن أنني أستطيع الاعتمادَ عليكما أيها الجنديَّان المواطنان في تلقينِ هذا العجوز الكاذب أشدَّ وأعنف ضربٍ مبرح تعرض له على الإطلاق.» وأضاف بجفاءٍ جامد: «لكن لا تقتُلاه.»

أجاب الجنديَّان بالبرودِ المعتاد: «سمعًا وطاعةً أيها المواطن.»

لم ينتظر ليرى أوامرَه تُنفذ؛ إذ كان يعرف أنه يستطيع الوثوقَ في أن هذَين الجنديَّين — اللذَين ما زالا يشعران بألمِ تقريعه لهما — لن يُحاولا تلطيفَ سلوكِهما عندما تترك لهما حريةُ التصرف مع طرَفٍ ثالث.

قال لديجا: «بعد أن ينال ذاك الجبانُ المتثاقل عقابه، يمكن للرجلَين أن يقودانا إلى مكان العربة، ويمكن لأحدهما أن يقودها بنا عائدَين إلى كاليه.» ثم أضاف بفظاظة: «يمكن لليهوديِّ والمرأة أن يعتنيَ كِلاهُما بالآخَر إلى أن نُرسل أحدًا إليهما في الصباح. لن يتَمكَّنا من الذَّهاب بعيدًا جدًّا بحالتهما الحاليَّة، ولا يمكننا أن نَشغل أنفسنا بهما الآن.»

لم يفقد شوفلان كلَّ الأمل. كان يعرف أن رجاله كانوا مُحفَّزين بأملِ الحصول على المكافأة. وأن سكارليت بيمبرنيل الغامضَ المتهوِّر ذاك، بعدما صار وحيدًا مُلاحَقًا من ثلاثين رجلًا، من غير المتوقَّع وَفْق كلِّ القواعد المنطقية أن يهرب مجددًا.

لكن يقينه في ذلك كان أضعفَ الآن؛ فجُرأة ذاك الإنجليزيِّ قد خدعَته مرة، في حين أنَّ نصره الوشيك انقلب إلى هزيمةٍ بسبب غباء الجنود الحمقى وتدخُّلِ امرأةٍ. لو لم تُضِع مارجريت وقته، ولو كان لدى الجنود مثقال ذرة من الذكاء، لو، لو ... إلى آخرِ قائمةٍ طويلة من التمنِّيات المتحسِّرة؛ وقف شوفلان ساكنًا للحظة، ثم ضمَّ نحوَ ثلاثين شخصًا في لعنةٍ طويلةٍ جارفة. كانت الطبيعة الشاعرية الصامتة ذاتُ الجوِّ العليل، والقمر المنير، والبحر الفضيِّ الهادئ كلُّها أشياءَ توحي بالجمال والسكون، فيما لعَن شوفلان الطبيعة، ولعن الرجال والنساء، وفوق ذلك كلِّه، لعن كلَّ الغامضين الإنجليز المتطفلين ذَوي السيقان الطويلة لعنةً واحدةً هائلة.

كان عويلُ اليهودي من خلفه وهو يُكابد عقابَه بلسمًا على قلبه، مع أنه كان مُثقَلًا بغِلٍّ انتقامي. ابتسَم. صار أهدأَ عندما رأى أن إنسانًا آخرَ على الأقل ليس متصالحًا إطلاقًا مع الجنس البشري، مثله تمامًا.

استدار وألقى نظرةً أخيرة على الجزء المنعزل المجهور من الساحل، حيث يوجد الكوخ الخشبي، الذي صار مغمورًا الآن بنور القمر، مسرح أكبرِ إخفاقٍ مرَّ به قائدٌ في لجنة السلامة العامة على الإطلاق.

كان جسد مارجريت بليكني الفاقدُ الوعيِ ممدَّدًا على فِراشٍ صُلب من الحصى مقابل صخرة، وعلى بُعد بِضع خطواتٍ منها، كان اليهوديُّ التعس يتلقَّى على ظهره العريض جلداتِ حِزامَين جلديَّين متينَين ممسوكين بذراعَي جُنديَّين قويَّين متبلِّدَي الحسِّ من جنود الجمهورية. كانت صرخاتُ بنيامين روزنباوم قادرةً على إيقاظ الأموات من قبورهم. لا بد أنها أيقظَت جميع النوارس من النوم، وجعلتها تنظر إلى الأسفل باهتمامٍ كبير نحو أفعال أسياد الخليقة.

وحين أصبحَت تأوهاتُ اليهودي أوهنَ وبدا أن المسكين البائس قد فقدَ وعيه، قال شوفلان آمرًا: «هذا يكفي، لا نريد أن نقتله.»

أطاعه الجنديَّان وارتدَيا حِزامَيهما بينما ركَل أحدُهما اليهوديَّ بقسوةٍ على أحد جانبيه.

قال شوفلان: «اتركاه هناك، واسبِقاني الآن إلى العربة بسرعة، سأتبَعُكما.»

مشى إلى حيث كانت مارجريت ممدَّدةً، وحدق نحو الأسفل إلى وجهها. كان من الواضح أنها استعادت وعيها، وكانت تُحاول بوَهْنٍ شديدٍ أن ترفع نفسها. كانت عيناها الزرقاوان الواسعتان تنظران إلى المشهد المضاء بالقمر من حولها نظرةً خائفةً مذعورة، واستقرَّتا بمزيجٍ من الرعب والشفقة على اليهودي الذي كان مصيره التعس وصراخه العنيف هما أُولى الإشارات التي بدَأت تُدركها مع استعادةِ وعيها؛ ثم لمحت شوفلان في ثيابه الداكنة الأنيقة، التي بدَت خاليةً من أي تجعيد تقريبًا بعد الأحداث المثيرة التي شهِدَتها الساعاتُ القليلة الأخيرة. كان يبتسم متهكِّمًا وكانت عيناه الباهتتان تُحدقان من الأعلى إليها بغلٍّ شديد.

وبملاطفةٍ زائفةٍ مصطنعة، انحنى ورفع يدَها المتجمدة كالثلج إلى شفتيه، ما أصاب جسدَها المنهك بقُشَعريرةِ اشمئزازٍ لا توصَف.

قال بأرقِّ نبرةٍ عنده: «يؤسفني جدًّا يا سيدتي الجميلة، أنَّ ظروفًا خارجة عن إرادتي تُجبرني على تركِك هنا حاليًّا. لكنني سأذهب مطمئنًّا بمعرفة أنني لا أتركك بلا حماية. فصديقُنا بنيامين هنا، مع أنه في حالةٍ سيئةٍ قليلًا الآن، سيُثبت أنه مدافعٌ شهم عن

شخصك الجميل، لا شك عندي في ذلك. في الفجر سأرسل شخصًا يُرافقكِ، وحتى يحينَ ذلك الوقت، فأنا متيقنٌ بأنك ستجدينه مخلصًا، مع أنه ربما يكون بليدًا قليلًا.»

لم تقْوَ مارجريت إلا على أن تُشيح بوجهها عنه. كان قلبها محطمًا بالألم الشديد. ففِكرةٌ واحدةٌ مروعة قد عادت إلى رأسها مع وعيها المستجمع: «ماذا حلَّ ببيرسي؟ ماذا عن أرماند؟»

لم تعرف شيئًا مما حدث بعد أن سمعَت الأغنية المبتهجة، «ليحفظ الربُّ الملك»، التي اعتقدَت أنها إشارة الموت.

اختتم شوفلان كلامه قائلًا: «أما أنا، فمضطرٌّ على مضضٍ شديد إلى أن أترُكَكِ الآن. إلى اللقاء سيدتي الجميلة. سنلتقي قريبًا في لندن كما أتمنى. هل سأراكِ في حفلِ حديقة أمير ويلز؟ لا؟ آه، حسنًا، إلى اللقاء! أرجو أن تبعثي بتحيَّاتي إلى السير بيرسي بليكني.»

وبابتسامة ساخرةٍ أخيرة وانحناءة، لثَم يدَها مرةً أخرى، واختفى بعيدًا في غياهبِ المشى في أعقابِ الجنود، متبوعًا بديجا المتبلِّد الإحساس.

الفصل الحادي والثلاثون

الهروب

مع أنَّ مارجريت كانت شبهَ فاقدةٍ للوعي، استمعَت لوقع أقدام الرجال الأربعة الثابتة وهم يبتعدون سريعًا.

كانت الطبيعة كلُّها ساكنةً جدًّا لدرجة أن مارجريت استطاعت، وهي ممدَّدةٌ وأذنها قريبةٌ من الأرض، أن تتتبَّع خطواتهم وهم ينعطفون أخيرًا إلى الطريق، وسرعان ما أخبرها الصدى الخافتُ لقعقعة عجَلات العربة القديمة، والمشية العَرجاء للحصان الهزيل بأن عدوَّها صار على بُعد ربع فرسخٍ منها. لم تعرف كم مضى عليها وهي مُمدَّدةٌ هناك. كانت قد فقدَت إحساسها بالوقت، ورفعت نظرها بشكلٍ حالمٍ إلى السماء المضاءة بالقمر، واستمعَت إلى صوت الأمواج الرتيب.

كانت رائحة البحر المنعِشةُ رحيقًا لجسدها المنهَك، وكان الفضاء الفسيح للجروف المنعزلة صامتًا وخياليًّا كالحلم. لم يكن عقلُها واعيًا إلا بعذابه المتواصِل بعدم اليقين الذي لا يُطاق.

لم تكن تدري! ...

لم تكن تدري ما إن كان بيرسي الآن، في هذه اللحظة بالضبط، واقعًا في قبضة جنود الجمهورية يُكابد تهكُّمَ عدوِّه اللدود وسخريتَه، كما كابدَتْهما هي. ومن ناحيةٍ أخرى، لم تكن تدري ما إن كانت جثةُ أرماند الهامدةُ ممدَّدةً هناك، في الكوخ، في حين أن بيرسي قد هرَب، فقط ليسمع أن يدَي زوجته قد وجَّهَتا كلابَ التَّعَقُّب البشرية إلى قتل أرماند وأصدقائه.

كان الألم الجسديُّ الناتجُ عن هذا الإرهاق التامِّ شديدًا جدًّا، لدرجة أنها تمنَّت من أعماق قلبها أن ينام جسدُها المتعَب إلى الأبد، بعد كل تلك الاضطرابات والانفعالات والمَكايد في الأيام القليلة الأخيرة؛ هنا تحت تلك السماء الصافية، بين ثنايا صوت البحر، ونسيمُ

الخريف العليل يهمس لها تهويدةً أخيرة. كان المكان كلُّه خاويًا جدًّا، وصامتًا جدًّا، مثل أرض الأحلام. حتى آخِر صدًى خافتٍ للعربة البعيدة كان قد تلاشى منذ وقتٍ طويل.

وفجأةً ... كُسِر الصمتُ الكئيب المخيِّم على الشاطئ بصوت ... أغرب صوتٍ سمِعَته هذه الجروف المنعزلة في فرنسا على الإطلاق بلا ريب.

صوتٌ غريبٌ جدًّا لدرجة أن النسيم الرقيق توقَّف عن الهمهمة، والحصى الصغير توقفَ عن التدحرج أسفل المنحدر! غريبٌ جدًّا لدرجة أن مارجريت، مع أنها كانت منهَكةً ومجهدة، ظنَّت أن حالةَ فقدان الوعي المفيدة التي تسبق الموتَ كانت تُخادع حواسَّها شبهَ النائمة بحيلةٍ غريبة محيرة.

كان صوتًا قال «اللعنة!» بنطقٍ سليم مُتَمَاسِك وإنجليزيٍّ تمامًا.

استيقظَت النَّوارس في أعشاشها ونظرَت حولها بدهشة؛ وأطلقَت بومةٌ بعيدةٌ وحيدةٌ نَعيقًا في منتصف الليل، وعبَسَت الجروفُ الشاهقة بعظمةٍ مَهيبة تجاه هذا اللفظِ النابي الغريب الذي يُدنِّس حرمتَها لأول مرَّة.

لم تَثِق مارجريت بأذنَيها. رفَعَت جسدها قليلًا بالاتِّكاء على يدَيها، ثم بذلَت كلَّ ما بوُسعها لترى أو تسمع، لتعرف معنى هذا الصوتِ الدُّنيوي جدًّا.

كان كل شيء ساكنًا مجددًا لمدة ثوانٍ قليلة، وعاد الصمتُ نفسُه يُخيِّم مجددًا على البراح الشاسع الخاوي.

كانت مارجريت قد سمعت ذلك الصوتَ كما لو كانت شبه فاقدةٍ للوعي، وشعرت بأنها تحلم تحت تأثير ضوء القمر المغناطيسيِّ البارد في الأعلى، ثم سمعَت الصوتَ مجددًا، وهذه المرة توقَّف قلبها، ونظرت حولها بعينَين كبيرتَين متَّسِعتَين وهي لا تجرؤ على الثقة بحواسِّها الأخرى.

«سحقًا! يا ليت هذَين الرجلَين اللعينَين لم يضربا بكلِّ تلك القوة العنيفة!»

كان الصوتُ هذه المرةَ واضحًا تمامًا بما لا يدعُ مجالًا للخطأ في معرفة هُويَّة صاحبه؛ إذ لا توجد سوى شفتَين بريطانيتَين للغاية تستطيعان أن تنطقا هذه الكلمات، بنبرةٍ ناعسةٍ متباطئةٍ متكلَّفة.

كرَّرَت هاتان الشفَتان البريطانيَّتان أنفسُهما بنبرةٍ مشدَّدة: «اللعنة! سحقًا! لكني ضعيفٌ كجرذ!»

هبَّت مارجريت واقفةً على قدَمَيها فورًا.

هل كانت تحلم؟ هل كانت تلك الجروفُ الصخرية الشاهقة هي أبوابَ الجنة؟ هل نتَجَت رائحةُ النسيم العطرة فجأةً من رفرفة أجنحة الملائكة التي جاءت حاملةً معها بُشرى بأفراحٍ سَماوية بعد كلِّ معاناتها، أم أن فقدان وعيها وتعبها جعَلاها فريسةً للهذَيان؟

أنصتَت مجددًا، ومرةً أخرى سمعت ذاك الصوتَ الدنيوي الذي ينطق بلكنةٍ إنجليزية سليمة أصيلة، ليست شبيهةً إطلاقًا بهمساتٍ من الجنة أو رفرفةِ أجنحة الملائكة.

نظرَت حولها بلهفةٍ إلى الجروف الشاهقة، والكوخ المهجور، والساحل الصخريِّ الواسع الممتد. ففي مكانٍ ما هناك، في الأعلى أو الأسفل، خلف صخرةٍ أو داخلَ حفرة، لا بد أن يوجد صاحبُ ذاك الصوت الذي كان يُزعجها في الماضي، لكنه الآن سيجعلها أسعدَ امرأةٍ في أوروبا لو استطاعَت تحديد مكانه فقط، لكنه ما زال خفيًّا عن عينَيها المشتاقتَين المنفعلتَين.

صرَخَت بهستيريا معذَّبةٍ بين الشك والأمل: «بيرسي! بيرسي! أنا هنا! تعالَ إليَّ! أين أنت؟ بيرسي! بيرسي! ...»

قال الصوت الناعس المتباطئ نفسُه: «من السهل جدًّا أن تُناديني يا عزيزتي! ولكن سحقًا، لا يمكنني المجيءُ إليكِ، فهذان الفرَنسيان اللعينان قد أوثقاني كإوزَّةٍ على سيخ، وأنا ضعيفٌ كفأر ... لا يُمكنني أن أفلت.»

لم تفهم مارجريت بعد. وظلَّت هكذا نحو عَشْر ثوانٍ أخرى إلى أن أدركَت مصدر ذلك الصوت، المتباطئ جدًّا، والعزيزِ عليها جدًّا، لكنه — مع الأسف! — كان ممزوجًا بلهجةٍ غريبة تنمُّ على الضعف والمعاناة. لم يكن يوجد أحدٌ في نِطاق بصرها ... ما عدا ذاك الموجود بجانب تلك الصخرة ... يا رباه! ... اليهودي! ... هل جُنَّت أم أنها كانت تحلم؟

كان ظهره مواجهًا لنورِ القمر الباهت، وكان شِبهَ منبطحٍ على الأرض، يُحاول عبثًا أن يرفع نفسَه على ذِراعَيه الموثقتَين بإحكام. ركضَت مارجريت إليه، وأخذت رأسَه بين يدَيها الاثنتَين ... ونظرَت مباشرةً إلى عينيه الزرقاوين الوُدِّيتَين، بل والمستمِعتَين قليلًا، وهما تلمَعان من خلال قناع اليهودي الغريب المشوَّه.

قالت لاهثةً وهي تكاد تفقدُ وعيها من شدةِ الفرح: «بيرسي! ... بيرسي! ... زوجي! أشكر للرب! أشكر للرب!»

ردَّ مازحًا: «عجبًا يا عزيزتي! كلانا سيفعل هذا حالًا، إذا كنتِ تظنِّين أنكِ تستطيعين فكَّ هذه الحبال اللعينة، وتخليصي من وضعيتي غيرِ اللطيفة.»

لم تكن تملكُ سكينًا، وكانت أصابعُها خدرةً وضعيفة، لكنها استخدمَت أسنانها، بينما سالت دموعُ الترحيب الشديد من عينَيها على تلك اليدَين المسكينتين المربوطتين.

وبعد جهودٍ مَحمومةٍ منها، بدا أنَّ الحبال تنقطع أخيرًا، وعندئذٍ قال: «سحقًا! أتساءل عمَّا إذا كان أيُّ سيدٍ إنجليزيٍّ قد سمَح من قبل لأجنبيٍّ لَعين بأن يضربَه، دون أن يبذل أيَّ محاولةٍ لردِّ الصاع بمثله.»

كان من الواضح جدًّا أنه كان مُنهَكًا من الألم الجسديِّ الشديد، وعندما انقطع الحبل أخيرًا، تكوَّم مستندًا إلى الصخرة.

نظرَت مارجريت حولها بعجز.

صاحَت في عذابٍ وهي ترى أنه على وشك أن يفقد وعيَه مجددًا: «أوه! يا ليتني أجدُ قطرة، قطرةَ ماءٍ على هذا الشاطئ الفظيع!»

تمتمَ وهو يبتسمُ مازحًا: «لا يا عزيزتي، أنا شخصيًّا أُفضِّل قطرةً من البراندي الفرنسي! إن وضعتِ يدَكِ في جيب هذا الثوب القديم القذر، فستجدين قنِّينتي. فأنا لا أستطيع التحرُّك إطلاقًا.»

عندما شرب بعض البراندي، أجبر مارجريت على فِعل المثل.

قال وهو يتنهَّد برِضًا: «رباه! الوضع أفضلُ الآن! أليس كذلك! أيتها السيدة الصغيرة؟ وا أسَفاه! هذه ثيابٌ شاذة على السير البارون بيرسي بليكني ... ولا يليق به أن تجده زوجتُه، بنفسها، وهو مُرتدٍ إياها.» أضاف وهو يُمرر يده على ذقنه: «يا إلهي! لم أحلق منذ نحوِ عشرين ساعة، لا بد أنني أبدو كشيءٍ مقرف. أما هذه الخصلات المتموجة ...»

وخلع، ضاحكًا، الشعر المستعار والخصلات المتموجة التي كانت تُشوِّه شكله الحقيقيَّ، ومدَّد أطرافه الطويلة التي كانت مُتشنِّجةَ العضلات من تأثير تحدُّبِه المتعمَّد طوال ساعات. ثم انحنى إلى الأمام وحدَّق طويلًا إلى عينَي زوجته الزرقاوين.

همسَت بينما تورَّدَت وجنتاها الرقيقتان ورقبتها الجميلة تورُّدًا عميقًا: «بيرسي، ليتك تعرف ...»

قال بلطفٍ بالغ: «أعرف يا عزيزتي ... كل شيء.»

«وهل يمكن أن تغفر؟»

«لا يوجد ما أغفره يا حبيبتي؛ فشَجاعتُكِ وإخلاصكِ — اللذان لا أستحقُّهما مع الأسف! — كفَّرا عن الحادثة المؤسفة في الحفل وزيادة.»

همَسَت قائلةً: «إذن فقد كنتَ تعرف؟ ... طَوال الوقت ...»

أجاب بلُطف: «أجل! كنت أعرف ... طَوال الوقت. لكن، يا إلهي! لو أنني كنتُ أعرف حقيقةَ قلبِكِ النبيل، يا مارجو يا حبيبتي، كنتُ سأثق بكِ بقدرِ ما تستحقِّين، وما كنتِ لتعيشي المآسيَ الفظيعة التي مرَرتِ بها في الساعات القليلة الماضية، لِتُهرَعي خلف زوجٍ ارتكب الكثيرَ مما يستدعي الغفران.»

كانا يجلسان متجاوِرَين مستنِدَين إلى صخرة، وقد أراح هو رأسَه المتألم على كتفها. من المؤكد أنها الآن كانت تستحقُّ لقب «أسعد امرأةٍ في أوروبا».

قال بابتسامته المازحة المعهودة: «إننا بمنزلةِ شخصٍ أعمى يُساعد شخصًا أعرَج، أليس كذلك يا حبيبتي؟ سحقًا! لا أدري أيُّهما الأشدُّ تألُّمًا؛ كتفاي أم قدماكِ الصغيرتان.»

انحنى إلى الأمام ليُقبِّلَهما لأنَّهما ظهَرَتا من خلال جواربها الممزقة، وكانتا شاهِدتَين بشكلٍ مثيرٍ للشفقة على تحمُّلِها وإخلاصها.

قالت برعبٍ وندم مفاجئَين: «لكن أرماند ...» كما لو أنها، في خِضَمِّ سعادتها، قد رأت في مخيلتِها الآن صورة الأخ المحبوب الذي ارتكبَت إثمًا فادحًا من أجله.

قال برقَّة: «أوه! لا تقلقي إطلاقًا على أرماند يا حبيبتي، ألم أتعهَّدْ لكِ بشرفي أنه سيكون بخير؟ إنه مع تورناي والبقية على متن «داي دريم» الآن بالفعل.»

قالت شاهقةً: «لكن كيف؟ لا أفهم.»

قال بضحكته المميزة التي تمزج بين الخجَل والبلاهة: «لكن الأمر بسيطٌ جدًّا يا عزيزتي. اسمعي! عندما عرَفتُ أن ذاك البهيم شوفلان ينوي الالتصاقَ بي كعلَقةٍ، ارتأيتُ أن أفضل تصرفٍ ممكن، بما أنني لا أستطيع التخلص منه، هو أن آخُذَه معي. كان عليَّ أن أصلَ إلى أرماند والبقيةِ بطريقةٍ ما، وكل الطرق كانت تحت الحراسة، والجميع يبحثون عن خادِمِكِ المتواضع. كنتُ متيقنًا عندما انسللتُ من بينِ أصابع شوفلان في نزل «القط الرمادي»، من أنه سيبقى بانتظاري هنا أيًّا ما كان الطريق الذي أسلُكه. أردتُ أن أراقبه وأراقب أفعاله، والرأس الإنجليزي بارعٌ بقدر الفرنسي دائمًا.»

بل ثبتَ أنه أفضل بقدر لا متناهٍ، وكان قلبُ مارجريت مفعمًا بالفرح والإعجاب، بينما واصل بيرسي سرْدَ الطريقة الجريئة التي انتشل بها المطارَدين وأنقذَهم أمام عينَي شوفلان نفسه.

قال مبتهجًا: «تنكَّرتُ في هيئة اليهودي المسن القذر؛ لأنني كنتُ أعرف أنني يجب أن أُخفِيَ هُويَّتي. كنت قد التقيتُ بروبن جولدشتاين في كاليه باكرًا هذا المساء. ومقابلَ بِضع

قطعٍ ذهبيَّة، أعطاني هذا اللباس، وتعهَّدَ بإبعاد نفسه عن أنظار الجميع، بينما أعارني عرَبته وحصانه الهزيل.»

قالت لاهثةً بحماس: «لكن لو أن شوفلان كان قد اكتشفَك ... صحيحٌ أن تنكُّرَك كان متقنًا ... لكنه ذكيٌّ جدًّا.»

ردَّ بهدوء: «سحقًا! كانت اللعبة ستنتهي عندئذٍ بالتأكيد. لم يكن بوسعي سوى المخاطرة. صرتُ أعرف الطبيعة البشرية جيدًا الآن»، وأضاف بنبرةِ حزنٍ تتخلَّلُ صوتَه المبتهج الشاب: «وأعرف هؤلاء الفَرنسيِّين تمام المعرفة. سيشمئزُّون من رجلٍ يهودي اشمئزازًا شديدًا جدًّا، لدرجة أنهم لن يقتربوا منه أبدًا أكثرَ من بِضْع ياردات، ويا إلهي! أتصور أنني تمكَّنتُ من جَعْل مظهري مُنفِّرًا بأقصى قدرٍ يمكن تخيلُه.»

سألَت بلهفة: «أجل! ... وبعد؟»

«تبًّا! ... بعدها بدأتُ تنفيذ خُطتي الصغيرة؛ وهذا يعني أنني في البداية كنتُ عازمًا على ترك كلِّ شيءٍ للصدفة، لكنني عندما سمعت شوفلان يُملي الأوامر على الجنود، ارتأيتُ أنني أنا والقدر سنتعاون معًا في النهاية. اعتمدتُ على الطاعة العمياء لدى الجنود. فشوفلان هدَّدَهم بالقتل إن تحركوا قبل أن يأتيَ الإنجليزي الطويل. كان ديجا قد رمى بي مُكوَّمًا على مقربة شديدة من الكوخ، لم ينتبه الجنودُ إلى اليهوديِّ الذي أوصل المواطن شوفلان إلى هذا المكان. استطعتُ تحريرَ يديَّ من الحبال التي قيَّدني بها ذاك البهيم؛ ودائمًا ما أحمل معي قلمَ رصاصٍ وورقةً أينما أذهب، فكتبتُ بِضعة تعليمات مهمة على قصاصة ورقية في عُجالة، ثم نظرتُ حولي. زحفتُ إلى الكوخ تحت أنظار الجنود، الذين انتظروا مختبئين بلا حركةٍ كما أمرهم شوفلان، ثم رميتُ ورقتي الصغيرة في الكوخ من خلال صدع في الجدار، وانتظرتُ. في تلك القصاصة أخبرتُ المطارَدين بأن يخرجوا من الكوخ بهدوء وينزلوا الجروف، ويلزموا الجانب الأيسرَ حتى يصلوا إلى أول خليجٍ ثم يُطلِقوا إشارةً معينة، حينها سيأتي مركب «داي دريم» الذي كان ينتظرهم على مسافةٍ غير بعيدة في البحر ليأخذهم. أطاعوا التعليماتِ بحذافيرها، من حُسن حظهم وحظي. وكذلك فالجنود الذين رأَوْهم كانوا مُطيعين بالقدر نفسِه لأوامر شوفلان. لم يتزحزحوا قِيدَ أَنمُلة! انتظرتُ نحوَ نصف الساعة، وحين عرَفتُ أن المطارَدين صاروا في مأمن، أعطيتُ الإشارة التي سبَّبَت الكثيرَ من الاضطراب.»

وتلك هي القصة كلها. بدت بسيطةً جدًّا! ولم يسَعْ مارجريت سوى أن تتعجبَ من العبقرية المذهلة، والجسارة والجُرأة اللامحدودتَين اللتَين تطوَّرتا وساعدَتا في تنفيذ هذه الخطة الجريئة.

قالت، وهي تشهق برعبٍ، عندما تذكَّرَت الإذلال المخيف: «لكن هذين المتوحشَين ضرباك!»

قال بلُطف: «حسنًا، لم يكن من الممكن تجنبُ ذلك؛ ففي حين أن مصير زوجتي الصغيرة لم يكن واضحًا، كان عليَّ أن أبقى هنا إلى جوارها.» وأضاف بمرحٍ: «سحقًا! لا تقلقي أبدًا! سينال شوفلان ما يستحقه، أعِدُك بهذا! انتظري حتى ألتقيَه عندما يعود إلى إنجلترا! ... رباه! سيدفع ثمنَ الضربات التي أعطاني إياها بفائدةٍ مضاعفة، أعِدُكِ.»

ضحِكَت مارجريت. كان من الرائع جدًّا أن تكون إلى جواره، أن تسمع صوته المبتهج، أن تُشاهد ذاك الالتماع الجذل في عينَيه الزرقاوين، وهو يمدُّ ذراعَيه القويتين شوقًا لذلك العدو وترقبًا لعقابه المستحَق.

لكنها انتفضَت فجأة؛ وزال الاحمرارُ السعيد عن وجنتيها، وانطفأ نورُ البهجة في عينيها؛ إذ سمعت وقْعَ أقدام تقترب خلسةً من الأعلى، وتدحرجَ حجر صغير من فوق الجرف إلى الشاطئ في الأسفل.

همسَت برعبٍ وارتياع: «ما كان ذلك؟»

تمتم بضحكةٍ جذلة: «أوه، إنه لا شيء يا عزيزتي. مجرد شخصٍ تافه تصادف أنكِ نسيتِه ... صديقي فولكس ...»

قالت بشهقةٍ: «السير أندرو!»

بالفعل، كانت قد نسيَت تمامًا الصديقَ والرفيق المخلص، الذي وثق بها ووقَف إلى جانبها خلال كلِّ تلك الساعات من القلق والعذاب. تذكَّرَته الآن متأخرًا وبغُصةٍ من تأنيب الضمير.

قال السير بيرسي بمرح: «أجل! لقد نسيتِه، أليس كذلك يا عزيزتي؟ من حُسن الحظ أنني التقيتُ به غيرَ بعيدٍ عن «القط الرمادي»، قبل أن أحظى بمأدُبةِ العشاء الشائقة مع صديقي شوفلان. سحقًا! لدي دَينٌ سأسوِّيه مع ذاك الشاب المتهور! لكن إلى أن يحينَ ذلك، أخبرتُه عن طريقٍ طويل جدًّا ومُلتوٍ جدًّا، لن يَشكَّ به رجال شوفلان أبدًا، سيُحضِره إلى هنا بحلول الوقت الذي نكون فيه مستعدِّين له، أليس كذلك، أيتها الصغيرة؟»

سألت مارجريت باندهاشٍ تام: «وأطاع؟»

«بلا كلمةٍ أو سؤال. انظري، ها هو قادم. لم يقف في طريقي عندما لم أكن أحتاجُ إليه، والآن وصَل في الوقت المناسب بالضبط. آه! سيكون زوجًا رائعًا ومنظمًا جدًّا لسوزان الصغيرة الجميلة.»

في هذه الأثناء، كان السير أندرو فولكس قد شقَّ طريقه بحذرٍ إلى أسفل الجروف، توقفَ بضع مرات منصتًا للهمسات التي من شأنها أن تُرشِدَه إلى مخبأ بليكني.

وأخيرًا تجرأ على أن يقول بحذر: «بليكني! بليكني! أنتَ هناك؟»

وفي اللحظة التالية أتى من حول الصخرة التي كان السير بيرسي ومارجريت يستندان إليها، وعندما رأى الهيئةَ الغريبة ما زالت مكسوَّةً بالسترة اليهودية الطويلة، توقفَ فجأةً في حيرةٍ تامة.

لكن بليكني كان قد وقف على قدَمَيه بصعوبة.

قال بضحكته البلهاء المميزة: «ها أنا يا صديقي، ما زلتُ حيًّا! مع أنني أبدو كفزَّاعةٍ بشعة في هذه الأسمال اللعينة.»

أطلق السير أندرو شتيمةً من شدة اندهاشه عندما تعرَّف قائده: «اللعنة! من بين كل الـ...»

رأى الشابُّ مارجريت، فابتهج وكبحَ الألفاظ النابيةَ التي صعدت إلى شفتَيه عند رؤية السير بيرسي المتأنِّقِ المتغندِر مكتسيًا بزيِّه الغريب المتَّسخ.

قال السير بليكني بهدوء: «أجل! من بين كل الـ... إحم! ... يا صديقي! لم يُتَح لي من قبلُ أن أسألك عمَّا تفعله في فرنسا، بينما أمرتُك بالبقاء في لندن؟ تمرَّدتَ؟ أليس كذلك؟ انتظر حتى يخفَّ ألمُ كتفي وأقسم بالرب أنك سترى العقابَ الذي ستناله.»

قال السير أندرو بضحكةٍ مسرورة: «سحقًا! سأتحمَّله؛ لأنك حيٌّ تمنحُني إياه. هل كنتَ ستسمح لي بأن أترك الليدي بليكني تخوض الرحلةَ وحدها؟ لكن بحقِّ السماء يا رجل، من أين جئتَ بهذه الملابس العجيبة؟»

ضحك السير بيرسي بمرح قائلًا: «يا إلهي! إنها قديمةٌ وطريفة قليلًا، أليس كذلك؟» وأضاف بجِدِّية مفاجئةٍ ونبرة سلطوية: «لكن سحقًا! الآن بما أنك قد جئت يا فولكس، يجب ألَّا نُضيع المزيد من الوقت؛ فذاك البهيم المتوحش شوفلان قد يُرسل أحدًا للبحث عنا.»

كانت مارجريت سعيدةً للغاية، كان بإمكانها البقاءُ هنا إلى الأبد؛ تسمع صوته، وتطرح مائة سؤال. ولكن عندما ذُكر اسمُ شوفلان، انتفضَت سريعًا بذُعر، خوفًا على الحياة الغالية التي كانت مستعدَّةً للموت من أجل إنقاذها.

قالت شاهقة: «لكن كيف يمكننا أن نعود؟ الطرق مليئةٌ بالجنود بيننا وكاليه، و...»

قال: «لن نعود إلى كاليه يا حبيبتي. ولكن إلى الجانب الآخر من رأس جريس نيز، يبعد أقلَّ من نصفِ فرسخٍ عن هنا. مركب «داي دريم» سيُلاقينا هناك.»

«مركب «داي دريم»؟»

قال بضحكةٍ مرحة: «أجل! حيلةٌ بسيطةٌ أخرى من حِيَلي. كان ينبغي أن أُخبرَكِ سلفًا بأنني، عندما دسستُ تلك الرسالة في الكوخ، أضفتُ واحدة أخرى لأرماند، وأخبرتُه بأن يتركها خلفه، وهذه هي التي أرسلَت شوفلان ورجاله عائدين إلى نزل «القط الرمادي» خلفي، لكن الرسالة الأولى كانت تحوي توجيهاتي الحقيقية، من بينِها تلك الموجَّهة إلى بريجز العجوز. لديه أوامر مني بأن يبتعدَ في البحر، ثم يتوجَّه نحو الغرب. وعندما يختفي تمامًا عن أنظار كاليه، سيُرسل القادس إلى خليجٍ صغير نعرفه أنا وهو، على الجانب الآخَر من رأس جريس نيز مباشرة. سيترقَّب الرجال وصولي، لدينا إشارةٌ متفَقٌ عليها سلفًا، وسنكون جميعًا على سطحه آمِنين، بينما شوفلان ورجاله عاكفون بكل جديةٍ على مُراقبة الخليج «المقابل مباشرة لـ «القط الرمادي»».»

«الجانب الآخَر من رأس جريس نيز؟ لكن أنا ... لا أستطيع المشي يا بيرسي»، تأوَّهَت بعَجزٍ وهي تُحاول الوقوف على قدمَيها بصعوبة، ووجدَت أنها غيرُ قادرة على الوقوف حتى.

قال ببساطة: «أنا سأحملك يا عزيزتي؛ الأعمى يقود الأعرج، كما تعرفين.»

كان السير أندرو مُستعدًّا، هو الآخر، للمساعدة في حمل هذا الحمل الثمين، لكن السير بيرسي ما كان لِيَعهَد بحبيبته إلى ذراعين غيرِ ذراعَيه.

قال لرفيقه الشاب: «عندما تكون أنت وهي آمِنَين على متن «حلم اليقظة»، وأشعر بأن عينَي الآنسة سوزان لن تستقبلَني في إنجلترا بنظراتٍ مؤنِّبة، فسيَحينُ دَوري للراحة.»

وبذراعيه، اللتين كانتا لا تزالان قويَّتَين رغم الألم والمعاناة، طَوَّقَ جسد مارجريت المسكين المرهق، ورفعَها بلُطفٍ كما لو كانت ريشة.

ثم ابتعد السير أندرو عنهما لئلا يَسمع ما يقولانه في لفتةٍ تنم على حَصافته ومُراعاته للآخَرين، وهنا تبادَلا الكثير من الكلمات — أو بالأحرى الهمسات — التي لم يسمَعْها حتى نسيمُ الخريف؛ لأنه كان قد سكَن.

نسي بيرسي كلَّ تعبه، صحيحٌ أن كتِفَيه كانتا تؤلمانه جدًّا؛ لأن الجنديَّين ضرَباه بشدة، لكن عضلات الرجل بدَت مصنوعةً من حديد، ومقدرته كادت تكون غيرَ طبيعية. كانت

رحلةً شاقَّة ومرهِقة على الأقدام، نصف فرسخٍ على طول الجانب الصخري من الجروف، لكنَّ عزمه لم يَلِنْ ولو لحظة، ولم تُذعِن عضَلاتُه للإرهاق. واصل المشيَ بخطواتٍ ثابتة، محتضِنًا الحِمْل الثمين بذِراعَيه، و... كانت مارجريت مستلقيةً في هدوءٍ وسعادة، وكانت تُهدهِد أحيانًا إلى أن يغلبها نُعاسٌ مؤقَّت، وأحيانًا أخرى كانت تتأمَّلُ الوجه الجذَّاب ذا العينَين الزرقاوَين الناعستَين المتراخيتَين المرحتَين دائمًا، والمشرقتَين دومًا بابتسامةٍ ودودة، خلال ضوءِ الفجر المتجمِّع ببُطء، ومن المؤكد أنها في تلك الأثناء همسَت له بالكثير من الأشياء، التي ساعدَت في تقصير الطريق المرهِق، وهدأَت أوتاره المتألمة كالبلسم.

كان ضوء الفجر بألوانه العديدة يبزغ في الشرق، عندما وصَلوا أخيرًا إلى الخليج الواقع خلفَ رأس جريس نيز. كان القادس في الانتظار، واقترب منهم استجابةً لإشارةٍ من السير بيرسي، وتشرَّف بحَّاران إنجليزيان قويان بأن يحملا السيدة إلى متن القارب.

وبعد ذلك بنصف ساعةٍ، كانوا على متن «داي دريم». لم يُفاجَأ أفرادُ الطاقم، الذين كانوا يعرفون أسرارَ سيدهم حتمًا، والذين كانوا مخلِصين له قلبًا وروحًا، برؤيته يصلُ متنكرًا في هذه الهيئة العجيبة جدًّا.

كان أرماند سان جوست وبقية المطاردين متلهِّفين لقدوم مُنقذِهم الشجاع، الذي لم يبقَ لسماع عبارات امتنانهم، بل ذهب إلى مقصورته الخاصة بأسرعِ ما يمكن، تاركًا مارجريت سعيدةً جدًّا بين ذراعَي أخيها.

كان كلُّ شيء على متن «داي دريم» مجهزًا بتلك الفخامة الممتازة المحبَّبة جدًّا إلى قلب السير بيرسي بليكني، وبحلول الوقت الذي هبَطوا فيه جميعًا في دوفر، كان قد وجد متَّسَعًا من الوقت لارتداء بعضِ الملابس الفخمة التي كان يُحبُّها، ويحتفظ بمؤنةٍ منها على متن مركبه دائمًا.

غيرَ أن الصعوبة كانت تكمن في توفير حذاءٍ لمارجريت، وكانت فرحةُ ضابط الصف البحريِّ الصغير عظيمةً عندما وجَدَت السيدة أنها يمكن أن تطأ بقدمها الشاطئَ الإنجليزي مرتديةً أفضل حذاءٍ لديه.

أما بقية الأحداث، فكانت صمتًا! ... صمتًا وفرحًا لدى أولئك الذين تحمَّلوا الكثيرَ من العذاب، لكنهم وجَدوا أخيرًا سعادةً عظيمةً دائمة.

لكن من المشهود به أن أجمل امرأة في الحفل المتألق الذي شهد زفافَ السير البارون أندرو فولكس والآنسة سوزان تورناي دي باسيريف، والذي حضَره صاحبُ السمو أمير

ويلز وكلُّ نخبة المجتمع الأنيق العصري، كانت بلا شك هي الليدي بليكني، بينما كانت ملابسُ السير بيرسي بليكني حديثَ شبَّان لندن المتأنِّقين الأثرياء عدةَ أيام.

ومن الحقائق الثابتة أيضًا أن السيد شوفلان، موفد حكومة الجمهورية الفرنسية المعتمَد، لم يكن حاضرًا في تلك المناسبة، أو أيِّ مناسبةٍ اجتماعية في لندن بعد تلك الأمسية التي لا تُنسى في حفل اللورد جرينفل.

هنداوي